

القائد المجاهد
نور الدين محمود زنكي
شخصيته وعصره

الدكتور
علي محمد محمد الصلاي



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

م٢٠٠٧ - هـ١٤٢٨

رقم الإيداع: م٢٠٠٧/٣٧٧٢

I.S.B.N: الترقيم الدولي

977- 441 - 013 - 0

مركز السلام للتجهيز المعرفي
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - جوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٠١٠٦٧٥٤٤٧ - ٠١٠٢٣٧٣٠٥ - ٥٣٦١١٠

www.iqraakotob.com

E-mail:info@iqraakotob.com

اللهم آمين

إلى كل مسلم حريص على إعزاز
دين الله ونصرته، أهدي هذا الكتاب
سائلًا المولى، عز وجل، بأسمائه الحسنى
وصفاته العلی أن يكون خالصاً لوجهه
الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ
رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

تنويه

هذا الكتاب جزء من كتاب
«عصر الدولة الزنكية
ونجاح المشروع الإسلامي
بقيادة نور الدين محمود «الشهيد»
في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»
رأينا نشره منفصلا لأهميته ولنعم الفائدة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ **بِإِيمَانِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ قَوْلُوا فَقُولُوا** **فَقُولُوا لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَارِزًا عَظِيمًا** [الأحزاب: ٧١، ٧٠].

يا رب لك الحمد كما ينبغي جلال وجهك وعظم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا، فللها تعالى الحمد كما ينبغي جلاله وله الشاء كما يليق بكماله، وله الجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، أما بعد:

فهذا الكتاب يتحدث عن البطل والمجاهد الشهير نور الدين محمود الشهيد الملك العادل، فذكرت في هذا الكتاب سيرته وترتيبه أوضاع البيت الزنكي مع أخيه، سيف الدين غازي، واتفاقهم على توحيد الكلمة ومناصرة بعضهم البعض ضد الأعداء، وأصبح سيف الدين غازي أمير الموصل ونور الدين محمود أمير حلب، وتوسيع في ذكر مفتاح شخصية نور الدين زنكي وشعوره بالمسؤولية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين وخوفه من محاسبة الله له وشدة إيمانه بالله واليوم الآخر، وقد كان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتبعد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها؛ الجدية، والذكاء المتفرد، والشعور بالمسؤولية، والقدرة على مواجهة المشاكل والأحداث، ونزعته للبناء والإعمار، وقوة الشخصية ومحبته لله ومحبة الناس له واللياقة البدنية العالية، وتجدد وزهده الكبير، حتى قال الشاعر فيه:

ثُنى يَدَهُ عَنِ الدُّنْيَا عَفَافًا
وَمَالَ بِهَا عَنِ الْأَمْوَالِ زَهْدًا
وقال فيه آخر:

لَمْ وَئِظُّلْعُ خَلْفَكَ الْأَبْرَارُ	لَازَلتَ تَقْفُوا الصَّالِحِينَ مُسَابِقًا
فِيهِ تَفَانَتْ يَغْرِبُ وَنَزَارُ	نَفْسُ السِّيَادَةِ زَهْدِ مَلْكِ الَّذِي
	وَتَحْدَثُتْ عَنْ شَجَاعَتِهِ الَّتِي قَالَ الشَّاعِرُ فِيهَا:

كَسَارِيْجَهْ دَلِّ عَلَيْنِي الْقُسْمَاوَةِ لِيْسَهْ
لَهْ بَلْ كَفَرَ بِهِ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ فَمُشَكِّنُ نَهَى

تَبَدُّلُ الشَّجَاعَةِ مِنْ ضَلَالَةِ وَجْهِهِ
وَوَرَاءِ يَقْظَةِ أَنْسَانَةِ مُجَاهِدِهِ

وقال آخر:

مَتَهَلِّلُ وَالْمُسْرِتُ فِي نَهَى اَنْسَانَةِ
بِرْ حَسِينِ تَبَرِّ شَهِيدِ خَوْفِيَّهِ وَرَعْقَائِهِ

وتكلمت عن محبه للجهاد والشهادة، فقد ذكر العمام الأصفهاني فقال: حضرت عند نور الدين بدمشق - في شهر صفر - والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوانها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطريها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسلبني عنها فما أرغبت فيها وعندما دخل الموصل وغادرها بعد عشرين يوماً سأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويعني أيضاً أنني هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد، وكان رحمه الله يتعرض للشهادة وكان يسأل الله أن يخشره من بطون السبع وحواصل الطير، وبينت لوحات رائعة من عبادته، فقد كان يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجوها ويحافظ على الجمعة وكان كثير الابتهاج إلى الله عز وجل في أموره كلها، وقد اشتهر بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت أوقاف في جميع مجالات الحياة الاجتماعية على المساجد والمدارس والمستشفيات، والأرامل والأيتام.. إلخ.. وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال أحدهم:

فِي سَائِرِ الْأَفَاقِ هَلْ مِنْ مَعْسُورٍ
بِاسْمِ ابْنِ أَوْسٍ وَاسْتَخْصُوا الْبَحْرِيِّ
إِنْ تَغْزِ تَغْنِمُ أَوْ تَقَاتِلْ تَظْفَرُ

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنَادِيُّ جُودُهِ
وَلَأَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْاسٍ تَوَهُوا
ذَلِكَ لِدُولَتِكَ الرَّقَابُ وَلَا تَزُلُّ
وَمَدْحُهُ أَسَامِيَّةُ بْنُ مَنْقَدٍ بِقُولِهِ:

فِيهَا شَبَّبُ النَّارُ بِالْإِيقَادِ
نَارَانِ: نَارُ قَرْيٍ وَنَارُ جَهَادِ
فَالْعَامِ أَجْمَعٌ لِيَلَةَ الْمِيلَادِ
أَبْهَى مِنَ الْأَطْوَاقِ فِي الْأَجِيَادِ
وَأَمْدَهُمْ كَفَأَ بِيَذْلِ تَلَادِ
مِنْ غَيْرِ مَسَأَةٍ وَلَا مِعَادِ

فِي كُلِّ عَامٍ لِلْبَرِيَّةِ لِيَلَةَ
لَكُنْ لِنُورِ الدِّينِ مِنْ دُونِ الْوَرَى
أَبْدًا يَصْرُفُهَا نَدَاهُ بِأَسَهِ
مَلِيكُ لَهُ فِي كُلِّ جَيْدٍ مِنْهُ
أَعُلُّ الْمُلُوكِ يَدًا وَأَمْنَعُهُمْ حَمَّى
يَعْطِي الْجَزِيلَ مِنَ النَّوَالِ تَبَرَّعًا

وأشارت إلى أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين محمود، وكيف اتخذ من عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد اقتنع بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي ودورها في إيجاد وصياغة الرؤية الازمة في نهوض الأمة وتسليمها القيادة، فللتجارب التاريخية إسهام كبير في تطوير الدول وتجديد معانى الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السيرة المباركة كي يقتدي بها في إدارته للدولة، ولقد آتت معالم التجديد والإصلاح الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية وكانت أهم معالم التجديد في دولة نور الدين:

١- الحرص على تطبيق الشريعة: فقد جعل من مقاليد الحكم في الدولة أداة مسخرة لخدمة الشريعة وتطبيق أحكامها وقيمها ومبادئها في واقع الحياة، ودعا إلى تحكيم الشريعة بحماس منقطع النظير وقال في هذا الصدد: ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق والأذى الحاصل منها قريب أفلأ نحفظ الدين ونمنع عنه ما ينافسه وهو الأصل. وقال: نحن شحن للشريعة غضى أوامرها. فقد جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملابس وغير ذلك، فإن كثيراً من الحكام قبله كانوا قريبين من أفعال الجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه. فقد أصدر أوامره إلى كل موظفيه بالالتزام بأحكام الشرع ومن ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده وأسقط كل ما يدخل تحت شبهةحرام وإزالة كل ما ينذر عن محجة الشريعة البيضاء وينحرف إلى بئر الظلم، وكان ينزل العقاب السريع العادل بكل من خالف أمره وكل الناس عنده فيه سواء. وقد مدحه الشعراً فقال فيه ابن منير:

كَمْ سَعَى لِمُهَاجَرَةِ الْجَاهِلِيَّةِ تَسْهِيلَتْ مُهَاجَرَةُ الْأَنْفَاقِيْنِ مُهَاجَرَةُ
وَنَوَافِقِيْنِ صَدَرَتْ مُهَاجَرَةُ الْأَنْهَارِ تَسْهِيلَ الْأَحْرَارِ
أَمَا نَهَارُكَ فَهُوَ لِيَلِ مُجَاهِهِ وَالْأَنْتِيلِ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ نَهَارِ
أَيْهَا الْأَخْوَةِ الْكَرَامِ يَا أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ، يَا مِنْ هُمْمَ الْنَّهْوُضُ الْحَضَارِيُّ لَهُذِهِ الْأَمَّةِ الْجَرِيَّةِ،
عَلَيْنَا بِالسعي الدؤوب في مجتمعاتنا ودولنا حتى تأخذ الشريعة الغراء مكانتها وحقها من الاحترام والتقدير والتطبيق، فآثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، ومن تلك الآثار: التمكين في الأرض والأمن والاستقرار

والنصر والفتح المبين والعز والشرف وانزواء الرذائل، وقد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة الله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكوماتها كما سرى ذلك في سيرة نور الدين محمود وعصره بإذن الله تعالى.

إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجربها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرِبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بِيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مَمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوْنَ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال الشاعر أحمد رفيق المهدوي الليبي:

فإذا أحب الله باطن عبده
 ظهرت عليه مواهب الفتاح
 وإذا صفت لله نية مصلح
 مال العباد عليه بالأرواح

٢- ومن معالم التجديد ببناء دولة العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة: فقد جعل من العقيدة الإسلامية الصحيحة العمود الفقري لدولته، وكان رحمة الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بجي على الصلاة حتى على الفلاح ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بجي على خير العمل لأن شعار الرفض كان ظاهراً^(١)، وكان نور الدين يتحرى سنة النبي ﷺ في أمره كلها ومن أعظم إنجازات دولته إسقاط الدولة الفاطمية بمصر، وكان الفضل لله ثم للحملات المتالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعية مصر للخلافة العباسية السنوية، وكان رأى نور الدين في الدولة الفاطمية العبيدية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدع^(٢) ويقول فيها: وطالما بقيت مائتين وثمانين سنة مملوءة بحزب الشياطين.. حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة وتمكن من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض^(٣). وسيرى القارئ الكريم بإذن الله فقه نور الدين

(١) البداية والنهاية نقلأ عن الجهاد والتجديد ص ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠.

(٣) كتاب الروضتين نقلأ عن الجهاد والتجديد ص ٣٣١.

في إزالة الدولة الفاطمية في هذا الكتاب.

واستفاد نور الدين من خريجي المدارس النظامية وبنائهم في مدارس الدولة النورية وفتح لهم الأبواب لدعم المذهب السني ومناهضة الفكر الشيعي الرافضي، وصيغت الدولة بالكتاب والسنة، ووضع مشروعًا فكريًا ثقافيًا عقائديًا تربوياً تعليمياً استهدف به رعاياه دولته ولم يفرق بين علماء الشافعية والأحناف والحنابلة والمالكية وأهل الحديث وشيوخ التصوف السني وغيرهم من أبناء الأمة، وتحرك بهم من خلال جبهة عريضة تنضوي تحت راية أهل السنة والجماعة في مقاومة الأخطار الشيعية الرافضية، وقد تحرك نور الدين في مشروعه الآنف الذكر من خلال مؤسسات المجتمع المدني، كالكتاتيب والمدارس والمساجد، والرباطات وأخذ بكل الأسباب المادية والمعنوية المعينة على تحقيق الهدف المنشود من صيغة الدولة النورية ورعاياها الدولة من المسلمين بالكتاب والسنة. وقد أثمرت جهوده في بلاد الشام وعلى سبيل المثال في حلب، فقد تسابق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكر الشيعة الإمامية والإسماعيلية. وقد أحصى المؤرخ عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ) مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربع منها: إحدى وعشرون للشافعية واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة وثمانين دور للحديث الشريف بالإضافة إلى واحد وثلاثين مقرراً للصوفية. وقد آتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انفرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا ينكرون وبأفعال السنة يتظاهرون. وهذا بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السننية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها والإتفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع في هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة، وهذا يدل على أهمية التربية العقدية والفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

وما ساعد نور الدين محمود على تحقيق برنامجه الإصلاحي أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققه من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والاتصال به.

٣- ومن معالم التجديد في دولة نور الدين حرصه على إقامة العدل: فقد كان قدوة في

عدله، أسر القلوب، وبهر العقول فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً قل نظيره حتى اقترنت اسمه بالعدل، وسمي بالملك العادل ومدحه الشعراء على ذلك فقد قال العماد الأصفهاني في عده:

يا حبيبي العدل الذي في ظله
من عدله رعن الأسى وسع المها
محمد محمود من أيامه
لبهاته خلق الزهان وفنهاته

٤- ومن معالم التحديد في دولة نور الدين اهتمامه بالعلماء فقد فتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم، فقدمهم على الأمراء وبذل لهم العطاء وشجع المتميزين منهم إلى الهجرة لدولته وقد شارك العلماء معه في الجهاد ضد الصليبيين بالكلمة والسيف والتأليف والوعظ، كما سنرى في هذا الكتاب بإذن الله.

هذا وقد طور نور الدين النظام الإداري لدولته وحرص على صبغته بالصبغة الإسلامية، واعتمد في إدارته على الشورى وابتعد عن الانفراد بالقرار بشكل كبير، وقدم المصلحة العامة على الانفعالات، وكان مثالاً رائعاً في الرزء والتغفف وبذل المال فيصالح العام، وحرص على توفير الأمن للرعاية وضمن لهم الحريات العامة، كحرية الرأي والمحافظة على كرامة الفرد، وأفردت مبحثاً عن النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية، فيبيت مصادر دخل دولة نور الدين، كنظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفاء الأسرى والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، وأثر الأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة على خزانة الدولة، وأثر الأمن والاستقرار على انتعاش الحركة التجارية، ومساهمة الأثرياء والمعاهدات والاتفاques التي ألزم بها الخصوم لدفع الأموال للدولة الزنكية، وتحدثت عن دعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وأثر السياسة الزراعية والصناعية والتجارية في تقوية اقتصاد الدولة؛ واهتم نور الدين بالشرائع المنتجة كالفالحين، وأصحاب الأموال كالتجار، فقد حرص على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرض دولته على نحو يدعم اقتصاديات الدولة ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكسوس الشرعية لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية القوى الصليبية المجاورة، وقد وجد كبار التجار في نور الدين قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل. وعندما دخل نور الدين مدينة دمشق حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدمشقة، من أجل بث الطمأنينة في نفوسهم ولتوسيع معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة وقد استفاد التجار من

هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية وكان من سياسة نور الدين الاقتصادية والمؤيدة بالشرع الإسلامي إلغاء الضرائب، وأخذ نور الدين في تنفيذ هذه السياسة منذ فترة مبكرة، وكان حيناً بعد حين يصدر الأوامر ويعمم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب «اللاشرعية» التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدتها الحكام والأمراء الذين عاصروه وكانت شعبيته تزداد باطراد عجيب في خط متوازن مع مقادير الضرائب التي كانت يأمر بإلاغائها وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين: ومن أزالها زلت قدمه، ومن أحلفها حلّ دمه، ومن قرأه أو قرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه مضياً لما أمر به. وكانت التسليمة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجيء من وجوه الحرام.

وسعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات، ابتداء من قضايا المسكن والملابس والمأكل وانتهاء بقضايا الروح ومروراً بال حاجات الفكرية والصحية والعمانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة والفكاك من الأسر وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات واللالجيء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقنطرات والقنوات والأسوق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة.

وفي الفصل الأخير من الكتاب تحدثت عن سياسة نور الدين الخارجية وعلاقته مع الخليفة المقتفي لأمر الله والوزير يحيى بن هبيرة والخليفة المستجد بالله ثم المستضيء بالله، وتكلمت عن جهود نور الدين وأخيه سيف الدين في التصدي للحملة الصليبية الثانية وحمايته لدمشق من الغزوة وأهم نتائج تلك الحملة، وعن سياساته في ضم دمشق، وكيف تعامل مع القوى الإسلامية والأسر الحاكمة في بلاد الشام والجزيرة والأناضول، وعن سياساته تجاه القوى المسيحية، وعلاقته مع مملكة بيت المقدس، وإمارة الرها، وأنطاكية وطرابلس، وعن المعارك التي خاضها والمحصون التي فتحها وعن علاقته بالامبراطورية

البيزنطية واستخدامه لفقه السياسة الشرعية في زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده حتى لا يجعل دولته بيت عدوين الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال. واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين والفاطميين وملكة بيت المقدس الصليبية أي بجميع القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية. واللاحظة المهمة في فقه نور الدين جهده الكبير في المفاوضات مع الاستعداد العظيم لحشد الجيوش واستئثار الأمة للتصدي، ولقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق أسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبيين، وهذا لم يأت بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادلة، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فعلم نور الدين محمود بأن مهمته الحالية والمرحلة ضد الصليبيين وليس ضد البيزنطيين، فإنه وازنْ بين الإطاحة بمشروعه الكبير على يد الحملة الصليبية البيزنطية وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الأخير، علمًا بأن سلاجقة الروم في تلك المرحلة كانوا كالدولة المستقلة ولم تندمج في مشروع نور الدين، بل كانت تعتمد على حلفاء الدولة الزنكية وأملاكهم، واستطاع نور الدين إيقاف الحملة بعد عقد معاهدة بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية، وكان من أعظم النتائج التي ترتب على هذه الخطوة، حفظ المشروع الإسلامي النوري من التصدع أو الضعف أو الزوال، وما كان للدبلوماسية النورية أن تنجح لو لا الله ثم مساندتها بقوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي، الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤.

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي على أصول الإسلام الصحيح، من عقيدة سليمة، ومرجعية واضحة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي الخلفاء الراشدين، له القدرة على استيعاب طاقات الأمة، وعلى رأس ذلك المشروع قيادة ربانية واعية تستطيع أن تستفيد من إمكانيات الأمة وتستوعب فقه المبادرة كي تفجر طاقاتها وتوجهها نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المشودة، فيأتي دور القيادة لترتبط بين الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها وفق رؤية نهوض شاملة تتحدى كل العوائق وتسد كل الثغرات التي تحتاجها الأمة في النهوض وتبث روح الأمل والتفاؤل بين الناس وتحضهم على التمسك بعقيدتهم وقيمهم ومبادئهم، والترفع عن حطام الدنيا وإحياء معاني التضحية وشحن الهمم، وتنمية العزائم في نفوس النخب والجمهور

العریض فی الأمة، وتأخذ بها رویداً رویداً نحو الأهداف المرسومة لمشروع النهوض وعلينا أن نتذکر قول الله تعالى: «إِن تَكُونُوا تَائِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيًّا حَكِيمًا» [النساء: ١٠٤].

هذا وقد تحدثت عن التفكير الاستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أولى الأمر في نجاح المشروع المقاوم للتغلغل الbatisني والغزو الصليبي وعن الاستراتيجية العسكرية لنور الدين، كالتركيز على النوعية والفاعلية، والتعبئة العامة للأمة وانهاك العدو واستنزاف قواته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف، والعمل التعرضي، والقدرة على الحشد والمناورة، ووحدة القيادة ونصر المفاجأة، ودور الاستخبارات، ومبدأ التقرب غير المباشر، واستخدامه للحرب النفسية في رفع معنويات الأمة، وإضعاف همم العدو.

وأفردت البحث الأخير عن فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية، فوضحت جذور الشيعة الإمامية ونشأة الدولة الفاطمية وتكلمت عن جرائمها في الشمال الأفريقي، ك Glover بعض دعاتهم كعبد الله المهدي، وسلطتهم وظلمهم وتحريفهم الإققاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة، ومنع التجمعات، وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس، وتعطيل الشرائع وإسقاط الفرائض، وإزالة آثار خلفاء السنة، ودخول خيولهم المساجد، وتتحدث عن أساليب أهالي الشمال الأفريقي في مقاومة الفكر البدعي الشيعي الرافضي المنحرف عن الكتاب والسنة، كالمقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، والمقاومة عبر التأليف، ومقاومة شعرائهم، وأشارت إلى انتقال المعز لدين الله الفاطمي من الشمال الأفريقي ودخوله مصر لكي يتخلص من المقاومة والثورات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في الشمال الأفريقي لمدة خمسة عقود متالية رافضين المذهب الشيعي الرافضي الإماميلي البatischي، معلنين عقائد الإسلام الصحيح، فاستفاد المعز لدين الله الفاطمي من ضعف الحكم الأخشيدية التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة ودفع إليها جيوشه المحمومة بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيدين، وجوهر الصقلي هذا الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة ٣٦١هـ ليكون محضنا لإعداد دعاة المذهب الشيعي الرافضي الإماميلي وبعد الانتقال إلى مصر، بدأت المقاومة السنية في الشمال الأفريقي تقوى مع مرور الزمن حتى استطاع المعز بن باديس الغنائي في ٤٣٥هـ عندما تولى الحكم أن يظهر الشمال الأفريقي من الشيعة الرافضة، وبدأ في حملات تطهير للمعتقدات البatischية ولم يطعن ويسحب أصحاب رسول الله وأوعز للعامة وجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فسارع أهل السنة في الشمال الأفريقي للتخلص من الشيعة الرافضية الإمامية وتصفيتها من المعتقدات الفاسدة في ملحمة من

ملامح الصراع بين الحق والباطل والمهدى الفضلال، وأشارت إلى جهود السلاجقة في حماية العراق وببلاد الشام من التشيع الرافضي، ودور المدارس النظامية في الإحياء السنى وتقليل المذهب الشيعي الرافضي وإعداد الكوادر الالزامية لقيادة حركة المقاومة ضد الغزاة الصليبيين، وبينت جهود نور الدين السياسية والعسكرية الفكرية للقضاء على الدولة الفاطمية وقد تم ذلك على يدي صلاح الدين الذى تدرج فى إلغاء الخلافة الفاطمية وفق رؤية استراتيجية وضعها القاضى الفاضل بالتعاون مع القيادة التورية وقد تم بيانها فى هذا الكتاب.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة في عهد الزنكيين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهى المشروع الصليبي والذى تترفعه الكنيسة من عهد أوربان الثاني والمشروع الشيعي الرافضي بقيادة الدولة الفاطمية بمصر والمشروع الإسلامي الصحيح وحامل لواء نور الدين زنكي، فكانت المحاور التي سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعزيز الهوية العقائدية السنى والإحياء الإسلامي الصحيح في نفوس الأمة، والتصدى لشبهات المذهب الشيعي، وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخلة من حيث السير إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين في معركة حطين لم يتم إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً وعسكرياً وقد سبقها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السنى.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس وانتزاع المدن والقلاع والمحصون من الصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح وعرفوا خطراً خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزם.

وعلى كل من يتصدى لقيادة الأمة في المواقف السياسية والتصريحات الإعلامية عليه أن يدرس كتاب ربه وسنة نبيه وهدى الخلافة الراشدة وحركة التاريخ الإسلامي وحقيقة الصراع بين هذه المشاريع المتباينة، كي يسهم في توعية الأمة، وإزالة الجهل عنها ومعرفة أعدائها.

إن ما يحدث في العراق ولبنان من صراع بين المشروع الصليبي والصهيوني والإيراني الشيعي وعدم التركيز والدعم المطلوب للمقاومة الإسلامية في العراق وفلسطين يبرهن على أن الكثير من القيادات السياسية والفكرية والشرعية والإعلامية غير مستوعبة لما حدث من صراع بين المشاريع في حركة التاريخ، ويدل على ذلك ما حدث في لبنان من صراع بين المشروع الإيرانى الشيعي والمشروع الأمريكي الصهيوني حيث أهملت المقاومة الإسلامية العراقية السنى والمقاومة الإسلامية الفلسطينية إعلامياً وسياسياً ومادياً لصالح المشروع الإيرانى الشيعي.

إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لابد أن تحرك ذاكرتها التاريخية ل تستلخص منها الدروس وال عبر والسنن في حاضرها و تستشرف مستقبلها، وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال والدعوة مع اليهود والنصارى والملحدة والعلمانيين والمتبدعة .. إلخ، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد، والثقافات والمناهج وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأى برنامج سياسى توسيعى طموح يحتاج لعقائد، وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف، واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي تلد الكتائب.

إن تجربة نور الدين محمود ثانية وهي تحيب عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية، والإقليمية والعالمية وهذه التجربة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً، تماماً كما كانت تجربة عمر بن عبد العزيز من قبله على إن الإسلام قادر في آية لحظة توافر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول والذكاء الوعي، على إعادة دوره الحضاري والقيادي وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. هذا وقد كانت علاقة الروحية مع نور الدين محمود منذ كنت طالباً بالمدينة المنورة، حيث إنني كنت من تلمذ على أشرطة الشيخ الدكتور سفر الحوالي شفاء الله من كل سوء ومن ضمنها كان الحديث عن نور الدين محمود الشهيد في شريطن، فتعلقت بسيرة هذا القائد الفذ، وقد حث الشيخ في محاضرته طلاب العلم والعلماء على كتابة سيرته والبحث فيها ومن هنا كانت نقطة البداية وفي إحدى زياراتي للمدينة النبوية بعد تخرجي زرت أستاذنا وشيخنا الدكتور يحيى إبراهيم اليحيى وحدثني عن نور الدين محمود وطلب مني أن أجث في سيرته فإنها تستحق الدراسة على حد قوله، واخذت قناعة بالموضوع إلا أن اشغالى بالسيرة وتاريخ صدر الإسلام ومرحلة الدراسات العليا منعني من تحقيق هذا الهدف النبيل، الذي لم يغب عن ذاكرتى، وووجدانى وأصبح من ضمن أهدافى الرئيسية في الحياة ودخل في أورادى ودعواتى بأن يوفقني الله لتحقيقه وعندما أقمت باليمن السعيد الحبيب، كان من ضمن شيوخى الذين طلبو مني الكتابة في مرحلة الحرب الصليبية الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان، الذى استفدت منه كثيراً في عهد الخلافة الراشدة ولا أنسى أبداً شيخي وأستاذى ياسين عبد العزيز اليماني الذى فتح لي بيته للحوار والنقاش وأعطاني من وقته الثمين الساعات الطوال، وفي زيارتي للشيخ الدكتور القرضاوى حثى على الكتابة في سيرة نور الدين محمود واعتبرها من الشخصيات التي لم تعط حقها في التاريخ وأما شيخي وأستاذى الدكتور سلمان العودة فقد قال لي: نادراً ما تتاح الفرصة للبحث في القضايا التاريخية مثل

ما أتيحت لك فعليك بالإخلاص لله وأن تتفقه فيما تكتب، وعندما قرأ خطبي في إعادة كتابة التاريخ، شجعني على المضي فيها وقد استفدت من حواراتي ومناقشتي معه في الأمور التاريخية والفكرية، وكان يستقبلها بسعة صدر وبكل أريحية كعادة الشيخ مع طلابه وتلاميذه. كما أن لأحداث العراق تأثيراً مباشراً على هذه الكتابات، وهذا جهد مقل أسامح به مع إخواني في معركة المصير، مع الاعتراف بالقصیر في حقهم و لهم مني الدعاء في ظهر الغیب بالسداد والتوفيق، وتحرير بلاد الرافدين من الغزاة المحتلين ومن الأخطار الداخلية والخارجية، وعلينا أن نستلهم من سيرة نور الدين محمود الشهيد الدروس والعبر في حياتنا المعاصرة، وكيفخطط لتحرير بيت المقدس من أيدي اليهود الغاصبين.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأربعاء الساعة الثانية عشرة، وثمانيني دقائق من يوم ٢٠ شعبان ١٤٢٧ هـ الموافق ٢٠٠٦ / ١٣ والفضل لله من قبل ومن بعد، وأساله سبحانه وتعالى باسمه الحسن وصفاته العلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع به وبيانك فيه بمنه وكرمه وجوده، وأن يثبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسني، وأن يثبت إخواني الذين أعنوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه «رب أوزعني أنأشكر نعمتك التي ألمت علي وعلقني وألدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين» [النمل: ٩].

وقال تعالى: «مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ أَعْزِيزُ الْحَكَمِ» [فاطر: ٢]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصلاوي

الإخوة الكرام يسرني أن تصلك ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبى من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغیب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamed2@maktoob.com

الفصل الأول

عبد نور الدين زنكي وسياسته الداخلية

المبحث الأول

اسمه ونسبه وأسرته وتوليه الحكم

هو نور الدين محمود زنكي، صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين، تقىي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد - عماد الدين - زنكي بن الأمير الكبير آق سنقر التركي السلطانى الملكشاھي، مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمس مئة^(١)، وهم يتسبون إلى قبيلة ساب يو التركية، ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة نور الدين وشبابه، ولكنها جميعاً تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده، وأن والده كان يقدمه على إخوانه ويرى فيه مخايل النجابة^(٢)، ولما جاوز الصبا لزم والده حتى مقتله هـ ٥٤١ / م ١٠٤٧^(٣). وكانت حياة عماد الدين في فترة حكمه الموصى من هـ ٥٢١ - ٥٤١ هـ مدرسة عليا شاملة لجميع أنواع المعارف الإنسانية في مجالات العلوم السياسية والإدارية والعسكرية بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية وقد جمعت مدرسة الحياة الكبرى التي عاش فيها نور الدين بين الأسلوب النظري والتطبيقي^(٤). وقد تزوج نور الدين عام هـ ٥٤١ - الزواج الذي لم تكن من ورائه جارية ولا سرية - من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق، بعد أن ترددت المراسلات بين الرجلين واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما وكتب كتاب العقد في دمشق، بحضور ابنة معين الدين في الثالث والعشرين من شوال، وما أن تم إعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائداً ويصحبه ابنة معين الدين^(٥)، وخلف نور الدين من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، من جراء مرض ألم به عام هـ ٥٧٧، وأحمد الذي ولد بمحمض عام هـ ٥٤٧ تم توفي في دمشق طفلاً^(٦). وقد ذكر ابن منير في أشعاره تهنته

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٥٣١).

(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص ٧٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣.

(٤)

المصدر نفسه ص ٨٨ ، ٨٩.

نور الدين بمولده الجديد فقال:

موارد كان معه منها عذابا
قوابله لـك الملائكة البابا
ستأويهاً ويسلاً واستلاها
من اسمك زاد للمعنى منايا
وركب نص بالبشرى الركبا^(١)

وحيت بـأحمد فـملات حـدا
تهلـل وجهـ مـلك يومـ أـهـدتـ
شـيـهـكـ لا يـغـادرـ مـنـكـ شـيـءـ
قـيـيمـ الـحـمـسـ إلاـ آـنـ حـرـفـاـ
إـلـاـ اللـهـ يـبـرـعـ مـلـمـ

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الأكبر، فكانت زوجته تكرر القيام في الليل، ونامت ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبي، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقيت النائمين حينذاك للقيام، ومنع الضاربين أجراً جزيلاً^(٢)، وصفها المؤرخون بأنها كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم^(٣)، وقد ذكر ابن كثير في أحداث عام ٥٦٣ هـ: وفي شوال وصلت امرأة الملك نور الدين محمود زنكى إلى بغداد ت يريد أن تحجّ من هناك، وهي السيدة عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أثر، فتقلاها الجيش ومعهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات وأكرمت غاية الإكرام^(٤). وعرف عن الصالح إسماعيل تقواه العميقه والتزامه الأخلاقي المسؤول حتى رفض الأخذ برأي الأطباء في شرب شيء من الخمر عندما أحـتـ عليه عـلـةـ القـولـنجـ التيـ أـودـتـ بـحـيـاتـهـ.ـ وـقـالـ لاـ.ـ حـتـىـ أـسـأـلـ الـفـقـهـاءـ،ـ فـلـمـ أـفـتـوهـ بـالـجـواـزـ لـمـ يـقـبـلـ وـسـأـلـ كـبـيرـهـ:ـ إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ قـرـبـ أـجـليـ،ـ أـئـخـرـهـ شـرـبـ الـخـمـرـ؟ـ قـالـ لاـ.ـ فـأـجـابـهـ:ـ فـوـالـلـهـ لـاـ لـقـيـتـ اللـهـ وـقـدـ فعلـتـ مـاـ حـرـمـ عـلـيـ^(٥).

أولاً: انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل عماد الدين زنكى:

عندما قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ كان ابنه الأكبر سيف الدين غازي مقيناً بشهر زور وهي إقطاعه من قبيل أبيه، بينما كان نور الدين محمود وهو ابن الثاني لعماد الدين مع أبيه عند قلعة جعبر، وبعد أن شهد مصرع أبيه أخذ خاتمه من يده وسار ببعض العساكر إلى

(١) كتاب الروضتين (٢٢١/١).

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٤٩.

(٣) نور الدين محمود الرجل التجربة ص ٤٩.

(٤) البداية والنهاية (٤٢٥/١٦).

(٥) الباهر ص ١٨٢، نور الدين محمود ص ٤٩.

حلب، فملكتها هي وتوابعها في ربيع الآخر سنة ١١٤٦هـ / ٥٤١م^(١)، وكان عمره ثلاثين سنة، كما كان مع زنكي أيضاً على قلعة جعبر الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقي، وكان زنكي يظهر أنه يحكم البلاد باسمه منذ سنة ١١٢٧هـ / ٥٢١م حيث اصطحبه معه إلى الموصل بأمر من السلطان محمود^(٢). وقد ذكر المؤرخون أن الملك ألب أرسلان حاول أن يجعل محل زنكي في ملك البلاد وأن يبعد أولاده عنها، فجمع العساكر وأعد العدة للتوجه إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني^(٣)، قام بدور كبير في الحفاظ على الدولة الزنكية وإيقاعها في أيدي أولاد صاحبه وولي نعمته عماد الدين زنكي، فما أن شعر بقصد الملك ألب أرسلان حتى بادر بالاتصال بالأمير صلاح الدين محمد الياقوبي، حاجب عماد الدين متناسياً ما كان بينهما من خلاف، فاتفقا على حفظ الدولة لأولاد زنكي وإبعاد الملك ألب أرسلان السلجوقي^(٤) عنها، حيث أرسل الوزير جمال الدين إلى صلاح الدين الياقوبي يقول له: إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقاً يبقى فيه الملك في أولاد صاحبنا، ونهر بيته جزاء لإنحسانه إلينا، فإن الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد واجتمع عليه العساكر، ولئن لم تتفاف هذا الأمر في أوله، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرق ولا يمكن رفعه، فأجباه صلاح الدين إلى ذلك وحلف كل واحد منهم لصاحبه^(٥). وكان أول عمل قام به جمال الدين، وصلاح الدين أن أرسلوا رسولًا على وجه السرعة إلى زين الدين علي كجك نائب زنكي في الموصل يخبرانه بما حصل لزنكي فسارع سيف الدين غازي للحضور من شهرزور إلى الموصل لتسلم الحكم فيها وتسلمهما قبل أن يتمكن ألب أرسلان السلجوقي من الوصول إليها^(٦)، أما الملك ألب أرسلان السلجوقي فقد تكفل الوزير جمال الدين الأصفهاني بإلهائه ومجادعته ريثما تستتب الأمور لسيف الدين غازي في الموصل، وظلّ يتقلّ من مكان إلى آخر بالجزيرة حتى تفرق معظم أصحابه عنه، ثم اتجه إلى الموصل فقبض عليه وأودع السجن ولم يأت له ذكر بعد هذا التاريخ^(٧).

وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب وما جاورها

(١) زبدة حلب (٢/٢٨٥)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.

(٢) الباهر ص ٧١ ، ٧٢ ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢.

(٤) نهاية الأربع نقلًا عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٣.

(٥) الباهر ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٦) تاريخ دولة آل سلجوقي ص ١٩١ ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤.

(٧) مفرج الكروب (١٠٩/١).

من مدن الشام، أما أخوهما نصرة الدين أمير أمiran^(١)، فقد حكم حران تابعاً لأخيه نور الدين محمود، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين مسعود لا يزال في رعاية أخيه سيف الدين غازي بالموصل. وكان نهر الخبر هو الحد الفاصل بين أملاك الأشخاص وأدى الوضع الجغرافي الشرقي إلى أن:

- يرث غازي الأول المشاكل الداخلية، مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في العراق.
- يحمي حدود الإمارة من غارات سلاجقة فارس.
- يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تهديدات سلاجقة الروم والداشمنيين والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

أما في القسم الغربي، فقد ورث نور الدين محمود المشكليين الكبيرتين المتمثلتين بأتاكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

ثانياً: ترتيب أوضاع البيت الزنكي:

كان من الطبيعي أن تنشأ بين البيتين الزنكينيين في كل من الموصل وحلب علاقات وثيقة، بفعل الروابط الأسرية من جهة، واشتراك آل زنكي بعامة بهدف واحد، وهو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وكانت حلب تشكل، بالنسبة للموصل، خط الدفاع الأول وصمام الأمان ضد أي خطر تتعرض له، فنشأت نتيجة لذلك علاقات جيدة بين سيف الدين غازي الأول، صاحب الموصل، وأخيه نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم بين الأمراء الذين توالوا على حكم الموصل بعد غازي الأول، إلا أن هذه العلاقات الودية القائمة على التعاون والدفاع المشترك، شهدت في بعض الأوقات فتوراً عاماً، كان لا يلبث أن يتلاشى لتعود الحبة والألفة^(٢)، وبعد استقراره في الموصل والجزيرة وبعض مناطق بلاد الشام كحمص والرقة، كان على سيف الدين غازي الأول أن ينسق مع أخيه نور الدين محمود في حلب، ويتعاون معه لاستكمال سياسة والدهما القاضية بالتصدي للصليبيين، مدركاً في الوقت نفسه أهمية هذا التعاون، خشية أن يستغل أعداء الأسرة فرصة انقسام الإمارة الزنكية لتهاجمها، بالإضافة إلى الظهور بمظهر القرفة أمامهم، لذلك رأى ضرورة الاجتماع بأخيه بين وقت وآخر لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية بسبب توزيع الإرث الزنكي، ويدو أن العلاقات بين الأخرين تعرضت لأزمة عابرة عقب وفاة

(٢) تاريخ الزنكينيين في الموصل ص ١٦٨ ، ١٦٩.

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤.

والدهما بدليل أن سيف الدين غازي الأول أرسل إلى أخيه، نور الدين محمود يدعوه للحضور إليه إلا أن صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معللاً تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين^(١)، وقد كانت هناك مجموعة من الأسباب ساهمت في الفتور في العلاقة بين الأخوين وهي:

أ- رأى سيف الدين غازي الأول أنه كان يجب على أخيه الوقوف إلى جانبه عندما تعرض الحكم الزنكي في الموصل لهزة سياسية أثارها الملك ألب أرسلان السلاجقى بهدف الاستيلاء على السلطة، وذلك حتى تستقر الأوضاع لهما في البلاد، ثم يستأنذه في العودة إلى بلاد الشام.

ب- عد سيف الدين غازي الأول تصرف أخيه نور الدين محمود بعد مقتل والدهما أمام قلعة جعبر خروجاً على التقاليد الأسرية عند القبائل التركية التي تقضي بأن تكون السيادة للأبن الأكبر^(٢).

ج - رأى سيف الدين غازي الأول في تصرف أخيه انفصالاً واضحاً عن الدولة الزنكية، لأن استئثار نور الدين محمود بأملاك الأسرة في حلب يعني تكوين حكم انفصالي عن دولة الأتابكة في الموصل^(٣)، دفعت هذه العوامل سيف الدين غازي الأول إلى الإلحاح على أخيه نور الدين محمود للالجتماع به وتسوية الأمور بينهما، وقد تصرف صاحب الموصل بحكمة لإزالة أسباب التوتر، كما أنه لم يعارضه عندما استولى على الرها التي كانت تدخل في منطقة نفوذه بعد محاولة جوسلين الثاني استردادها من أيدي المسلمين في أواخر عام ٥٤١هـ / ربيع الثاني ١١٤٧م، والواقع أنه أرسل قوة عسكرية لمساندة أخيه لإنقاذ الرها المهددة، لكنها وصلت بعد أن نجح نور الدين محمود في استعادتها^(٤)، وأخيراً حصل اللقاء بين الأخوين في الخابور. وفي هذا الاجتماع، اعتذر نور الدين محمود لأخيه عن تأخره في الحضور، وأظهر له الطاعة والاحترام من جهة^(٥)، ولشدة حذر نور الدين اشترط أن يكون الاجتماع ومع كل منهما خمسمائة فارس، فقبل سيف الدين، وخرج نور الدين ومعه خمسمائة فارس، فرأى أخاه سيف الدين وليس معه إلا خمسة فوارس فتأكد من حسن نيته واقرباً وتعانقاً وبكياً وقال له سيف الدين: من لي غيرك يا نور الدين ولمن أدخل الخير إن أسأت إلى أخي، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للخدمة وصفت

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٠ .

(٣) الباهر ص ٨٧ ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٧٠ .

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧٠ .

الأمور بينه وبين أخيه^(١)، وسكن روعه وعاد إلى حلب^(٢)، حيث جمع عساكره وتجهّز، ثم عاد للاستقرار في كتف أخيه ووضع نفسه تحت تصرفه، إلا أن سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده وقال له: لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يرد السوء بنا يكف عننا، فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه، وعاد كل واحد منهمما إلى بلده^(٣).

١- يقانة سيف الدين غازي الثاني. استطاع سيف الدين نور الدين أن يحلا المشاكل التي بينهما وتعاونا على البر والتقوى وكان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل جنباً إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين، وذلك في الدفاع عن دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٨ هـ / ٥٤٣ م ونجا لهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق، ومن مظاهر التعاون أيضاً، اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العريمة وطرد الصليبيين منه، كما كان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إاتب، وفي فتح أقاميه سنة ١١٤٩ هـ / ٥٤٤ م^(٤)، إلا أن العهد لم يطل بسيف الدين غازي حيث توفي بالموصل في جمادي الآخرة من سنة ١١٤٩ هـ / ٥٤٤ م بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل^(٥)، وكان رحمه الله جليل الصورة، وكان عمره نحواً من أربع وأربعين سنة وخلف ذكرأً رباءً عمه نور الدين محمود وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود بن زنكي، فتوفي ولد سيف الدين شاباً، وانقرض عقبه^(٦)، وكان سيف الدين غازي جواداً كريماً شجاعاً وهو الذي بني المدرسة الأتابكية بالموصل، وقفها على الحنفية والشافعية، وبنى رباطاً للصوفية وكان مقصدأ للشعراء، فقصده شهاب الدين الحيص وامتدحه بقصيدة قال فيها:

الله يحيى العرش بذاته لا يحيى بغيره لا يحيى بغير ذاته لا يحيى بغير ذات ذاته
لهم يا رب العالمين إله العرش لا يحيى بغيره لا يحيى بغير ذاته لا يحيى بغير ذات ذاته
لهم يا رب العالمين إله العرش لا يحيى بغيره لا يحيى بغير ذاته لا يحيى بغير ذات ذاته
لهم يا رب العالمين إله العرش لا يحيى بغيره لا يحيى بغير ذاته لا يحيى بغير ذات ذاته

وقد أجازه سيف الدين بألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه، و سوى الخلع والثياب^(٧).

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٧٢/١).

(٢) الباهر ص ٨٧ - ٨٨، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٧١.

(٣) الباهر ص ٩٢ ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٧.

(٤) (٥) (٦) (٧) مفرج الكروب (١٦١). (٧) كتاب الروضتين (١/٢٢٨، ٢٢٩).

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه سيف الدين بقصيدة منها:

من أن يرى لك فيه نظيراً
من الأمان سوراً وقد كُنْ بسراً
تُرْقِيَ الرُّدَى وتنوْفِيَ الأَجْرَا
إذا شفَّتْ قطْرَاً وأبْقَى بمحسداً
لَخْطَ لَهْمَ في السَّماءِ الْقَبُورَا
وأنْطَتْ مِنَ الْجَوْدِ ظهراً ظهيراً^(١)

وكأن نظيرك غاراً الزمان
فَدَلَّتِكْ نَفْسُكِيْنْ بِسَلَكْ أَمْسِكَلَنْ
بقيمة تُعْزِّيْزَا مِنَ الْهَالَكَنْ
وَمَا نَقْصَسَ السَّدَهُ أَعْسَدَادَكْ
ولَمْ يَأْنِصِفْ الْحَمَدُ مُوْسَيْمَ
حِيَّاتِكَ أَحْيَيْتَ رَمَيْمَ الْجَيَّمَ^(٢)

وأما القيسراني فقد قال قصيدة في تعزية نور الدين:

إنْ أَعْمَدَ السَّيْفَ فَالصِّمْصَامَ يَأْتِيَ
شَلَكْ يَنْجَلِي عنْ وَجْهِهِ العَسْوَ
أَرَاقَ مَاءَ الْكَرَى مِنْ جَفْنِكَ الْأَرَقَ
حَصِينَةً تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ تَحْتَرِقَ
فَإِنْ أَيَّمْنَا مِنْ دُونِهَا طَرْقَ
نَحْيَلَ إِلَى غَايَةِ الْأَعْمَالِ تَسْتَبِقَ

ما أَضْرَقَ الْجَسُو حَتَّى أَشْرَقَ الْأَفْنَ
دونَ الْأَسْيِ مِنْكَ نورُ الدِّينِ فِي حَلَبِ
كَنْتَ الشَّقِيقَ الشَّفِيقَ الْغَيْبَ حِينَ نَوَى
تَلَقَّى الْأَسْيَ فِي لِبَاسِ الصَّبَرِ فِي جَنَّةِ
وَمَدَةَ الْأَجْلِ الْمُخْتُومِ إِنْ خَفِيَتْ
وَإِنَّا نَحْنُ فِي مَضْمَارِ حَلِيَّتِهَا
إِلَى أَنْ قَالَ:

فالدِّينُ مُنْتَظَمٌ وَالْمَلَكُ مُتَسْقٌ^(٣)

مَا دَامَ شَمْسَكَ فِينَا غَيْرَ آفَلَةَ

٢- تولى قطب الدين مودود زنكي إمارة الموصل: اتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كجك أمير الجيش على أن يختلف قطب الدين أخيه على الموصل، فاحضراه، وحلفا له الأمراء والعساكر في الموصل، وتسلّم جميع ما لأخيه سيف الدين غازي من البلاد التابعة للموصل^(٤)، وقد تعرضت العلاقات بين الموصل والشام في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة كادت تؤدي إلى اندلاع الحرب بين الأخرين لو لا أن قطب الدين تدارك الأمر ووضع حداً لنزاعه مع أخيه نور الدين، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى أن بعض الأمراء في الموصل وأعمالها وعلى رأسهم المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد صاحب سنمار، راسلوا نور الدين ليسلم البلد بعد وفاة سيف الدين باعتباره أكبر سناً من

(١) كتاب الروضتين (٢٣٠ / ١).

(٢) مفردتها جنة: وهي الدرع.

(٤) الباهـر ص ٩٤، زـيـدة حـلـب (٢٩٦ / ٢).

أخيه قطب الدين ^(١)، ويضيف ابن الأثير سبباً آخر دفع هؤلاء الأمراء إلى استدعاء نور الدين هو: كراهيتهم وحسدهم للوزير جمال الدين وأمير الجيش زين الدين على كجك للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الموصل ^(٢).

وقد لقيت هذه البداية قبولاً طيباً عند نور الدين، وطبع في ضم بلاد الجزيرة والموصل تحت ملكه ليتحقق له توحيد الجبهة الإسلامية في ظل قيادة موحدة وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين فجد نور الدين في السير وقطع الفرات متوجهًا إلى سنمار فاستولى عليها ^(٣)، وكان رد الفعل عنيفاً في الموصل بعد دخول نور الدين سنمار، إذ انزعج قطب الدين وأمراؤه المخلصون وعدوا ذلك اعتداء مباشرًا عليهم على اعتبار أن سنمار تابعة لهم، فتجهز قطب الدين وخرج بعساكره نحو سنمار، فنزل بتل يعفر ^(٤)، وأرسل جمال الدين الوزير، وزين الدين كجك أمير الجيش إلى نور الدين كتاباً ينكران عليه إقدامه على أخذ سنمار واعتدائـه على أملاك أخيه قطب الدين مودود، وهدأه بقصدـه إنـ هو لم يرـ حلـ عنـ البلـدـ، ولكنـ نورـ الـديـنـ لمـ يـلـتـفـ لـتـهـدـيـدـهـماـ وـرـدـ عـلـيـهـمـ بـقـوـلـهـ: إـنـيـ أـنـاـ أـكـبـرـ وـإـنـيـ أـحـقـ أـنـ أـدـبـرـ أـمـرـ أـخـيـ لـهـ مـنـكـمـ، وـمـاـ جـئـتـ إـلـاـ تـابـعـتـ إـلـيـ كـتـبـ الـأـمـرـاءـ يـذـكـرـونـ كـرـاهـيـتـهـمـ لـوـلـيـتـكـمـ عـلـيـهـمـ، فـخـفـتـ أـنـ يـحـمـلـهـمـ الغـيـظـ وـالـأـنـفـةـ عـلـىـ إـخـرـاجـ الـأـمـرـ مـنـ أـيـدـيـنـاـ، وـأـمـاـ تـهـدـيـدـكـمـ إـيـايـ بـالـحـرـبـ وـالـقـتـالـ، فـأـنـاـ لـاـ أـقـاتـلـكـمـ إـلـاـ بـجـنـدـكـمـ ^(٥). أـدـرـكـ الـوـزـيـرـ جـمالـ الـدـيـنـ مـوـدـودـ بـصـالـحةـ أـخـيـهـ وـالـتـنـازـلـ عـنـ بـعـضـ الـمـوـاـقـعـ فـيـ الشـامـ وـالـقـيـمـةـ كـانـتـ تـبـعـ الـمـوـصـلـ مـثـلـ حـمـصـ، وـالـرـجـبـةـ وـالـرـقـةـ ^(٦)، مـقـابـلـ اـنـسـحـابـ نـورـ الـدـيـنـ مـنـ سـنـمـارـ وـالـعـوـدـةـ إـلـىـ حـلـبـ، فـوـافـقـهـمـ قـطـبـ الـدـيـنـ، وـتـمـ الـاـنـفـاقـ بـيـنـ الـأـخـوـيـنـ وـانـسـحـبـ نـورـ الـدـيـنـ مـنـ سـنـمـارـ حـمـلاـ بـالـكـنـوزـ الـيـةـ كـانـتـ بـخـزـائـنـ سـنـمـارـ فـيـ أـيـامـ أـبـيـهـ ^(٧)، وـقـدـ بـلـغـتـ الـعـلـاقـاتـ بـيـنـ الـأـخـوـيـنـ درـجـةـ مـنـ التـحـسـنـ جـعـلـتـ نـورـ الـدـيـنـ يـقـدـمـ فـيـ عـامـ ١١٥٩ـ هـ ٥٥٤ـ مـ عـلـىـ اـخـتـيـارـ قـطـبـ الـدـيـنـ لـيـخـلـفـهـ فـيـ حـكـمـ بـلـادـهـ عـنـدـمـ أـحـسـ بـضـعـفـهـ وـمـرـضـهـ، وـقـدـ أـنـفـذـ نـورـ الـدـيـنـ إـلـىـ أـخـيـهـ قـطـبـ الـدـيـنـ وـفـدـاـ يـخـبـرـهـ

(١) الـبـاهـرـ صـ ٩٥ـ، زـيـدةـ حـلـبـ (٢٩٦/٢)، الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ صـ ٤٨ـ.

(٢) الـبـاهـرـ صـ ٩٥ـ، الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ صـ ٤٨ـ.

(٣) الـبـاهـرـ صـ ٩٦ـ، الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ فـيـ الـعـهـدـ الزـنـكـيـ صـ ٤٨ـ.

(٤) تـلـ يـعـفرـ: وـيـقالـ أـعـفرـ: وـهـوـ اـسـمـ قـلـعـةـ وـرـبـضـ بـيـنـ سـنـمـارـ وـالـمـوـصـلـ.

(٥) الـبـاهـرـ صـ ٩٦ـ، الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ فـيـ الـعـهـدـ الزـنـكـيـ صـ ٤٩ـ.

(٦) الرـقـةـ: مـدـيـنـةـ مشـهـورـةـ عـلـىـ الـفـرـاتـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ حـرـانـ مـسـيـرـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ.

(٧) الـبـاهـرـ صـ ٩٦ـ - ٩٧ـ، كـتـابـ الـرـوـضـتـيـنـ نـقـلـاـ عـنـ الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ صـ ٤٩ـ.

بالموقف وباتفاق الأمراء على توليه العهد بعده، وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام، فلما خرج قطب الدين مودود على رأس جيشه من الموصل، وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين وقيامه من مرضه، فأقام قطب الدين حيث هو، وأرسل وزيره جمال الدين محمد لمقابلة نور الدين محمود والوقوف على تطورات الموقف هناك، فوصل الوزير دمشق في صفر سنة (١١٥٩هـ / ١٧٥٤م) واجتمع بنور الدين وأبلغه استعداد قطب الدين، ووضع إمكانياته في خدمته، فشكره نور الدين على ذلك، وعبر له عن شكره لشاعر أخيه قطب الدين مودود^(١). وعلى العموم كانت صلة نور الدين بإخوانه وثيقة؛ يقول ابن الأثير في حقهم: إن الله سبحانه جمع فيهم من مكارم الأفعال، ومحاسنها، وحسن السيرة وعمارة البلاد، والرفق بالرعاية إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها، يقول: أظن أن القائل أرادهم بقوله:

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارَ بَنُو يَسِيرَ
سُوَاسُ مَكْرَمَةُ أَبْنَاءُ أَيْسَارَ
لَا يَمْارُونَ إِنْ مَارُوا بِاَكْبَارَ
وَلَا يَنْطَقُونَ عَلَى الْعُورَاءِ إِنْ نَطَقُوا^(٢)

* * *

(١) كتاب الروضتين نقلًا عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص .٥٠

(٢) الباهر ص ١٥، نور الدين زنكي في الأدب العربي ص .٥١.

المبحث الثاني

أهم صفات نور الدين زنكي

إن مفتاح شخصية نور الدين محمود زنكي شعوره بالمسؤولية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين، وخوفه من محاسبة الله له، وشدة إيمانه بالله وبال يوم الآخر، وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلاب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتقيزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها:

أولاً: الجدية والذكاء المتفوق: منذ البداية والتكون الجاد لنور الدين يدفعه إلى الإسراع لسد أي فق أو اعتداء من قبل الأعداء، فلما قتل زنكي ٥٤١ هـ - يقول ابن الأثير - كان جوسلين الفرنجي، في ولايته غربي الفرات: تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الراها وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك فسار في عساكره إليها وملكتها، وامتنعت عليه القلعة بن فيها من المسلمين، وقاتلهم وجد في قتالهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين فسار مجدًا إليها في العسكر الذي عنده، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الراها إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها، فلم يبق منهم إلا القليل وأجلى من كان بها من الفرنج^(١). وكان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام ٥٣٩ هـ وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النهب والسلب والتخريب، ومنح النصارى المحليين حريات واسعة وحمى كنائسهم ومتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز والتفرقة الدينية، أما وقد تآمروا - ثانية - في آخريات عهد زنكي ، وثالثة بعد مقتله لإعادة الراها إلى السيطرة الصليبية، فهنا يحيى الرد بمستوى الجد الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع أن يبقى مجرداً، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزا^(٢). وفي عام ٥٦٧ هـ هاجم صليبيو اللاذقية مرکين للمسلمين كانوا مملوءين بالأمتعة مكتظين بالتجار، وغدروا بال المسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته - كما يقول ابن الأثير - إذ ما لبث أن جمع عساكره وبث سرایاه في بلاد الصليبيين بين أنطاكيه وطرابلس، وقام بحصار حصن عرقه وتخريب ربيسه،

(١) الباهر ص ٨٦ - ٨٧، نور الدين محمود زنكي ص ١٢ . (٢) نور الدين محمود ص ١٢ .

والاستيلاء على حصني صافيتا والعزمية، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد المدنة بين الطرفين، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسة – كما يبدو – إلى هذه كهذه^(١). ويوماً بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح – الذي كان قد استولى عليه في إحدى معاركه مع نور الدين – إلى حفيه السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم، فقام نور الدين، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً أو أسرًا، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع فأخلد إلى إعمال الحيلة^(٢). وكان نور الدين – كما يقول ابن الأثير – إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يلأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون حصونهم مستعدة وغير محتاجة لشيء^(٣). وهكذا تربط جدية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات والذي لم يتع لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل، كان – كما يقول ابن الأثير – يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ويضرب على ذلك مثلاً سياسته مع مليح ابن ليون ملك الأرمن في بلاد الأناضول: فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضوراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعزة الممالك، وقلاله منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها – إذا أراد – فيnal من بلاد الإسلام، فإذا طلب الخجر فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رفعه^(٤)، وفي محاولته فتح دمشق أدرك أن اعتماد العنف سيستفز حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى إعمال الحيلة والسياسة، فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه، وأخذ نور الدين يكتبه مشككاً إياه بنوياً عدد من أمرائه وإنهم بقصد الاتصال به ضد ملوكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى

(١) الباهر ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، نور الدين محمود ص ١٣ .

(٢) زيدة حلب (٣٠١ / ٢ - ٣٠٢)، نور الدين محمود ص ١٣ .

(٣) الباهر ص ١٠٣ ، نور الدين محمود ص ١٣ . (٤) الباهر ص ١٦٩ ، نور الدين محمود ص ١٣ .

بعد واعتقال عدد من أبرز أصحابه فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى؛ فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجاهيرها واستملاهم فأجابوه إلى تسليم البلد، وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء^(١)، فحقق بذلك الهدف الكبير الذي طالما سعى له أبوه، وقبل ذلك، وحينما بعث إليه الفاطميون – كما سيأتي بيانه بإذن الله – يطلبون منه القيام بهجوم على الواقع الصليبية جنوبي الشام لإساغتهم عن مهاجمة مصر، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه المهمة قائلاً: إن أهل دمشق، أعداء والإفرنج أعداء ما آمن بهم إذا دخلت بينهما^(٢). ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين حيث أغارت على طبرية وجمع بعض أعلام الصليبيين وشيئاً من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلاً: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس، فإن ذلك مما يفت في عضد الكفار ويدخل الوهن عليهم؛ ففعل أسد الدين ما أمر به، فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وسألوا حليفهم شاور - الوزير المصري - الإذن بالانفصال^(٣)، كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمدته نور الدين في فتح حصني المتبرة بالشام ٥٦١هـ، فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره وإنما سار إليه في سرية من الفرسان على حين غرة من الصليبيين، إذ أدرك أنه بجمعه العسكري سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهابهم، وما لبثت حامية الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت وبعد قتال عنيف سقط الحصن ولم يجتمع لدفعه إلا وقد ملكه، ولو علموا أنه في قلعة من العساكر لأسرعوا إليه، إنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملأوه تفرقوا وأيسوا من رده^(٤)، وهذه الأحداث تظهر صفة الجدية والذكاء المتوفدة في شخصية نور الدين.

ثانياً: الشعور بالمسؤولية: تولد عن ورع نور الدين وقواه إحساس شديد بالمسؤولية، ظهر في جميع أعماله وحالاته، فالخشية من الله تعالى تجعله دائماً في موقع المحاسب لنفسه المراقب لها حتى لا تتجاوز إلى ما يغضبه الله، فهو يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل ما يتعلق بريعيته، وكل ما يتعلق ببلاد المسلمين ودمائهم وحقوقهم حتى لو كانوا من غير رعيته،

(١) الباهر ص ١٠٧ - ١٠٨، زيدة حلب (٢/٣٠٣ - ٣٠٥).

(٢) الاعتبار ص ١٤، نور الدين محمود ص ١٤.

(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٥.

(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٥.

فإذا كان باستطاعته مساعدتهم فهو مسؤول إذا قصر في تقديم هذه المساعدة، يظهر هذا الفهم الشامل للمسؤولية^(١) في رسالة نور الدين محمود إل إيلدكز أمير أذربيجان وأرمينية وهمنان والري، جواباً على رسالته التي يطلب فيها من نور الدين عدم احتلال الموصل ويتهدهه بأن لا سبيل له إليها فقال نور الدين للرسول: قل لصاحبك: أنا أرحم ببني أخي (يعني سيف الدين غازي) منك، فلم تدخل نفسك بيتنا؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همنان فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت التغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس: الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكيهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين^(٢).

كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت أن يضيع هباء، والدم المسلم من أن يُهدى، والكرامة الإسلامية من أن تهان، والأرض الإسلامية من أن تُغزو وتنقطع^(٣). فحينما علم في عام ١١٤٩ هـ / ٥٤٤ م بتحالف الصليبيين قال: لا أختر عن جهادهم، إلا أنه مع ذلك كان يكتفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع ويسجن الرأي في الفلاحين ويعمل على التخفيف عنهم، الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جمahir دمشق وسائر البلاد التابعة لها، فراح تدعوه بالنصر. وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتّت نسائهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم، فلا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستقرار بالفرنج على محاربي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلّمًا لهم وتعذيباً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين^(٤). وفي العام التالي خرج إليه أهل دمشق وكثير من أجنادها، بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية سفك دماء المسلمين، والتقوى بعدد من الطلاب والفقراء والضعفاء فلم ينفي أحداً من قاصديه^(٥). وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص ١٣٢.

(٢) زيدة حلب (٢/٣٣٢ - ٣٣٣)، نور الدين محمود ص ١٧.

(٣) تاريخ الزنكين في الموصل وبلاد الشام ص ٤٠٧.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ - ٣٠٩، نور الدين محمود ص ١٦.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ نقلاً عن نور الدين محمود الرجل التجربة ص ١٧.

على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجاً من قتل المسلمين وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذلك نفوسهم في مجاهدة المشركين^(١). فهو يعلم جيداً أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو، وإذا قدرت على حماية دمها بذلك رخيصة في مجاهدة هذا العدو.. معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء^(٢)... ومن ثم كانت عادة نور الدين -كما يقول أبو شامة- إنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما لاستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منها كما فعل بدمشق ومصر وغيرها^(٣). لقد كان الدم عنده عظيماً، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل^(٤).

ثالثاً: قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث:

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل والأحداث واضعاً عينيه على التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، ففي عام ٥٥٢ هـ شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلزال عنيفة تتبعه ضربات القاسية فخرست الكثير من القرى والمدن وأهلكت حشدًا لا يحصى من الناس وتهدمت الأسوار والدور والقلاء، مما كان من نور الدين إلا أن شمر عن ساعد الجد، وبذلك جهوداً عظيمة في إعادة إعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته، فعادت البلاد كأحسن مما كانت ولو لا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين، فجمع العساكر وحفظ البلاد، لكن دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار^(٥). وفي عام ٥٦٥ هـ ضربت بلدان المنطقة بغاية أخرى من الزلازل لم تقل هولاً عن سابقتها، خربت الكثير من المدن وهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة إعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها، ولم يجأ إلى الله بالشكوى فقط أو يعلن أن الظلم قد فتش وأن هذا عقاب الله أو أن إشارات الساعة قد لاحت في الأفق القريب، فعندما وصل بعلبك وأثناء خبر دمار باقي البلاد وهلاك كثير من أهلها، فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها، وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك ومنها إلى حماه فبعرين وكان شديد الخذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بعرين، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيءٌ البة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يبحث عليها ليلًا

(١) (٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٧.

(٣) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ١٧. (٤) الباهر ص ١٠٧ ، نور الدين محمود ص ١٧ .

(٥) الباهر ص ١١٢ ، نور الدين محمود ص ١٨ .

ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب، فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها، وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنيان، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال مالا يقدر قدره^(١).

إن الكوارث - التي يتلي الله بها عباده - تحيي بثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والإنجاز، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود الأمم، والتجارب السياسية والحضاريات خطوات إلى الأمام، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود، أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد إعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة وواصل الطريق^(٢). ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره. فأشار الشيخ عمر الملا أحد صالحى المدينة وشيوخها الورعين بابتياعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرس العلوم، ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالاً كثيرة^(٣). وعلق الدكتور عماد الدين خليل صاحب كتاب نور الدين محمود الرجل والتجربة على هذه الحادثة فقال: لم يضر بـ نور الدين الخرافية والشائعة بالكلمة ولكنه ضربها بالفعل، وبالإنجاز وزالت الخرافية. وظل المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين^(٤).

رابعاً: نزعته للبناء والإعمار:

إن الحاكم الناجح في نظره هو ذلك الذي يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران والتحضر بأقل قدر من الزمن^(٥)، فقد بني نور الدين المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح، كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل، وشجع أعمال الفروسية وسائر النشاطات الرياضية لكسب المزيد من المهارات القتالية، وتنمية الجسم، وبنى أيضاً دوراً للأيتام لإيواء أطفال المسلمين، والمدارستان لمعالجة المرضى، وأقام الجسور والقنطر والحدائق والقنوات والأسواق والحمامات والمخافر وشقَّ الطرق العامة فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية والعمانية^(٦)، ولم يغفل نور الدين - وهو بصدِّ البناء والإعمار - عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإبداع.. ورجل كنور الدين خرجته مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لا يمكن إلا أن يرى في العمل والتزيين في المضمون

(١) الباهر ص ٤٥.

(٢) الباهر ص ٤٥ ، نور الدين محمود ص ١٩.

(٣) نور الدين محمود ص ١٩.

(٤) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ١٩.

(٥) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ١٩. (٦) نور الدين محمود ص ١٩.

والشكل في الواقع والجماليات وجهين لعملة واحدة^(١)، فقد أوقف بستان الميدان والغيةضة التي تليه في دمشق لتطيب جوامع دمشق ومدارسها لكي يظل هواؤها معيقاً بالروائح الطيبة والشذى العبق، وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حدد مصارف وقفه المذكور: نصفه على تطيب جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء، جزءان على تطيب المدرسة التي أنشأها للحنفية والثمانية أجزاء الأخرى على تطيب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها^(٢). وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب، من مدينة أقاميه، مذجاً من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفاف من وراء الرخام^(٣)، ولما دخل قلعة دمشق عام ٥٤٩هـ أنشأ بها داراً عامة في غاية الحسن سماها دار المسرة^(٤)، وفي قلعة حلباً نشا نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميداناً «حضره بالخشيش»، وسمى الميدان الأخضر^(٥)، ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات عام ٥٥٢هـ حيث أمر نور الدين بزيينة قلعته ودار ملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق والإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفة، وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام^(٦). لقد كان إكسسوار الحفل وديكوراته – إذا صح التعبير – مناسبة تماماً لمدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتتفق في قلب التحدى. وتبدو نزعة نور الدين للإعمار والتحضر، أكثر ما تبدو، في سياساته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار، فقد أقطع لأمراء العرب في جنوب الشام والججاز القطاعات لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج^(٧)، ونقل أعراب بني عباد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق، ورغم أن هذه الخطوة انصبت على تمجيد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبيي المنطقة وإرشادهم على الطريق، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين كما أشارت الرواية المذكورة^(٨)، فإنها حققت من ناحية أخرى هدفاً عمرانياً واضحاً^(٩)، وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار تعدل رواية ابن جبير الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها بعد سنوات

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢١.

(٢) البداية والنهاية نقلًا عن نور الدين محمود ص ٢١.

(٤) المصدر نفسه ص ٢١.

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢١.

(٦) نور الدين محمود ص ٢٢.

(٥) مرآة الزمان (٨/٣٠٦)، نور الدين محمود ص ٢٢.

(٧) مرآة الزمان (٨/٣٠٦)، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٢.

(٩) البرق ص ١٢٥ - ١٢٦، نور الدين محمود ص ٢٢.

فحسب من وفاة نور الدين ولا شك أن وصفه هذا ينسحب على العصر الذي تتحدث عنه لأن تغييرًا جغرافيًا المدن لا تقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير، يقول الرجل، مشيرًا إلى الاتساع العمودي للدمشق: وبناء البلد ثلاث طبقات فيحتوى من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً وحسنـه كله خارج المدينة لا داخلها، وبدمشق (ما يقرب من) مائة حام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً لل موضوع يجري الماء فيها كلها وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة.. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً^(١)، وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موظفيه - كما سترى في الفصول التالية - فراحوا يتسابقون في بناء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية وما أكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد، ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك^(٢).

خامساً: قوة الشخصية:

كان نور الدين محمود قوي الشخصية، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة^(٣)، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، وأنه كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة، شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف^(٤). ويصف مجلسه فيقول: وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياة، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا.. وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي: كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كان على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار، وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا^(٥). وقال ابن كثير: لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضا، كان صموئاً وقورياً^(٦). وكان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم بوظائف الخدمة، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب.. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويتشهي بين يديه ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً

(١) (٢) (٣) (٤) نور الدين محمود ص ٢٤.

(٥) الباهر ص ١٧٣، نور الدين محمود ص ٢٤.

(٦) البداية والنهاية نقلًا عن نور الدين محمود ص ٢٤.

كثيراً يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، وهم في بيت الله حق
أضعاف ما أعطتهم، فإذا رضوا منا بعض حقهم فلهم الملة علينا^(١).

سادساً: محبة المسلمين له :

عندما تحدث ابن كثير في أحداث سنة ٥٥٢هـ قال: وفيها مرض نور الدين، فمرض الشام بمرضه، ثم عوفي ففرح المسلمين بذلك فرحاً شديداً^(٢). وقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسماة: وفيها كبست الفرنج نور الدين وجيشه فانهزم المسلمون لا يلوى أحد على أحد ونهض الملك نور الدين فركب فرسه والشبحة^(٣) في رجله فنزل رجل كردي قطعها حتى سار السلطان نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج الكردي فقتلوه^(٤). وفيما ذكره ابن كثير يظهر الحب العميق الذي تكنه الأمة لنور الدين وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق وما أبلغ تعبير ابن كثير: مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه، فهل هناك تلاحم بين القيادة والقاعدة مثل هذا في ذلك الزمن، ومن أسباب ذلك الحب صفات نور الدين القيادية، فهو يسهر ليناموا ويتعجب ل يستريحوا، وكان يفرح لفرح المسلمين ويحزن لحزنهم، وكان عمله لوجه الله - نحشه كذلك ولا نزكي على الله أحداً - وصدق الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي عندما قال:

فإذا أحباب الله بساطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صافت لله نية مصالح مال العباد عليه بالأرواح^(٥)

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود والأمة لها.

إن نور الدين وضع الله له قبولاً عظيماً بين أبناء أمته وأحبته الجماهير لجهاده وإخلاصه وتفانيه في خدمة الإسلام، وامتد هذا الحب لكي يتجاوز مدن دولته وحصونها وقرها إلى ما وراء الحدود وكسب جماهير خصومه من الداخل، وهز عروشهم، وقطع جذور مواقعهم من الأعمق وأزاحتهم من طريق الوحدة التي اعتمز بناءها دونما قطرة من دم، فالدم المسلم كان عنده عظيماً، وليس تجربته مع أهالي دمشق بالمثل الوحيد، فمنذ عام ٥٤٣هـ حينما تقدم

(١) الباهر ص ١٧٢ - ١٧٣، تاريخ الزنكيين ص ٤٠٩.

(٢) البداية والنهاية (١٦/٣٨٢).

(٣) الشبحة التي تربط بها يد الفرس من لباد ونحوه.

(٤) البداية والنهاية (١٦/٤٠٦).

(٥) الحركة السنوسية للصلabi (٢/٧).

على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق: شاهد الدمشقة حرمه حتى تمنوه^(١)، وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً^(٢)، وأخذ يخرج إليه - خلال المراحل التالية من الحصار - عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع أصدقاء الحقيقين كما سيتبين لنا فيما خاتم قصده كما يقول ابن القلansي^(٣)، أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمي كدهم من تخريب الصليبيين^(٤)، وفي عام ٥٤٧ هـ عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجاد المخلص ضد الصليبيين، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والأحداث^(٥) للخروج إلى قتاله. لم يخرج إلا القليل، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج. وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفاً على المسلمين^(٦). وقد عزّ بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا يدعون ليلاً ونهاراً أن يذهم الله سبحانه بالملك نور الدين^(٧)، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ويستميلهم، وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والإحسان فوعدوه بالتسليم^(٨). وقد دخل نور الدين دمشق عام ٥٤٩ هـ في فتح أبيض لم ترق فيه دماء وما ذلك إلا - ب توفيق الله - ثم بمساعدة الجماهير التي كانت تتضرر دخوله منذ سنوات وسنوات. يقال إن امرأة كانت على السور فدلت حبلًا فصعدوا إليه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلام وصعدت جماعة أخرى ونصبوا علمًا، وصاحوا بشعار نور الدين^(٩) وبعد أقل من ثلاثة سنين، حينما أعلن في دمشق عن القطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من أهل دمشق، وتبع نور الدين في حملته تلك في بيان البلد من الأحداث والغراء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكبير^(١٠). وهناك رواية لابن الأثير، تناقلها كثير من المؤرخين، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع طلب نور

(١) البداية والنهاية نقلًا عن نور الدين محمود ص ٢٥.

(٢) ذيل تاريخ دمشق لابن القلansي ص ٣٠٨ - ٣٠٩، نور الدين محمود ص ٢٥.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٣، نور الدين محمود ص ٢٦.

(٤) زيدة حلب (٢/٣٠٤ - ٣٠٥)، نور الدين محمود ص ٢٦.

(٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٦.

(٦) مرآة الزمان (٨/٢٠٩ - ٢١٠)، نور الدين محمود ص ٢٦.

(٧) البداية والنهاية نقلًا عن نور الدين محمود ص ٢٦.

(٨) زيدة حلب (٢/٣٠٤ - ٣٠٥).

(٩) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٢٦.

(١٠) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٧.

الدين عام ٥٥٩ هـ. نجذات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بمحاصاتها الشديدة، فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي، حاكم حصن كيما في ديار بكر، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تخفّف من كثرة الصوم والصلة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك، فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزوة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أتجده خرج أهل بلادي على طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم مالقي المسلمين من الفرج وما ناهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يمحوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون، ويلعونني ويدعون عليّ فلا بد من إجابة دعوته، ثم تجهز هو «أيضاً» وسار إلى نور الدين بنفسه. إن نور الدين يتعامل مع الجماهير وأعيانها ورموزها، وقد حقق نجاحات باهرة في كسب قلوبها وتأييدها ومحبتها، فكان يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة، فإن تردد الحكم والأمراء، أو جبنوا، أو بخلوا فإن بقدور القواعد الأكثر ثقلًا وتأثيرًا يومذاك أن ترغّبهم على الطاعة وإلا عصفت بهم وأخرجت البلاد من أيديهم، وذلك هو الضمان الكبير في تحنيط القدرات الإسلامية كافة ودفعها إلى ساحات الجهاد^(١)، وما من شك في أن هنا انسجاماً عميقاً يتحقق بين القيادة والقواعد وحبة واحدة تسود العلاقة بين الرجل والجمهور، وتعاطفاً ملائماً من أجل الأهداف الكبيرة.. وما من شك أن هذا وذاك من أسباب النجاح والتوفيق في إدارة دولته^(٢).

سابعاً: اللياقية البدنية العالية:

طلبت حياة نور الدين محمود الحافلة بالعمل المتواصل والجهاد المضني جسداً قوياً قادرًا على تحمل الأعباء والمشقات، ولا يتم بناء الجسم القوي إلا بمارسة الرياضة، ولذلك كان نور الدين مواظباً على ممارسة الألعاب الرياضية المعروفة في زمانه المتعلقة بالفروسية وأعمال القتال، وكان بشكل خاص مولعاً بـلعبة الكرة أو الصوبلحة التي تدعى في هذه الأيام بـلعبة البولو^(٣)، ويصفه ابن الأثير بقوله: من أحسن لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، ولم يُر

(١) المصدر نفسه ص ٢٨.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٢٨.

(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٣٤.

جوكانه^(١) يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعبة، وعندما احتجَ عليه أحد الزاهدين من أصحابه لأنَّه يلهو ويُعذب الخيل لغير فائدة دينية قال: والله ما حملني على اللعب بالكرة للهو والبطر، وإنما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فتركيب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً إذ لابد من الراحة للجند، ومتنى تركنا الخيل على مرابطها صارت جاماً لا قدرة لها على إدامن السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونرُوضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة^(٢).

وقد فسر نور الدين بكلامه هذا الممارسة الرياضية تفسير إسلامياً رائعاً في جوابه على اعتراض أحد إخوانه الزهاد عندما كتب له^(٣)، ففي هذا التفسير المنطقي والتحليل التفصيلي للعبة البولو كشف وتوضيح لنفسية نور الدين، فهو لا يلعب الكرة للعبث وإهدار الوقت، وإنما لتحقيق العديد من الفوائد التي هي في الحقيقة استعداد وتحضير للجهاد، تحضير لأجسام اللاعبين وأجسام خيولهم، وإشغال أوقات الفراغ بما هو مفيد إضافة إلى ما تقتضيه الرياضة من راحة نفسية واستجمام وصفاء التفكير وذهاب الهم للجنود والقادة. وفي هذا الجواب لصاحبِ الزهاد تظهر روح نور الدين الرياضية في أعلى درجاتها، فهو يخاطب الزهاد حسب مستوى من العلم والمعرفة ويأتيه من الباب الذي يقنعه، دون أن يخرج شعوره باتهامه بقلة المعرفة أو التزمت أو التعصب^(٤)، وبهذا الموقف يبين لنا نور الدين فهمه للإسلام بالمنظور الشامل الذي كان عليه رسول الله وأصحابه، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: كيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأفراً ما كتب الله لي، فأحتسب نومي كما أحتسب قومي^(٥). وفي كلام معاذ^(٦) دليل على أن المباحث يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل على شؤون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله^(٧).

(١) الجوكان: هو العصا التي تضرب بها الكرة.

(٢) الباهر ص ١٦٨-١٦٩.

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٣.

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة ص ١٣٤.

(٥) البخاري، ث المعازي، باب بعثة أبي موسى الأشعري رقم ٤٢.

(٦) فقه النصر والتمكين ص ١٩٧.

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين اخرافهم عن تصور مفهوم العبادة، وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل للعبادة الواسع العميق الذي كان يمارسه نور الدين وانعكاسه على جنوده وشعبه ودولته والمفهوم المهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من علائتها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تداعى عليه الأمم تندهش من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب.

إن من شروط النهوض التي نتعلمها من دراستنا لسيرة نور الدين الشهيد أن يكون مفهوم العبادة في حس جيلنا أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله تعالى: ﴿وَمَا حَلَّتُ الْجِنَّةُ إِلَّا لِيَعْذِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦] وبهذا الفهم لمفهوم العبادة عند نور الدين وجيله حق إنجازات رائعة في كل اتجاه خاضته الدولة التورية، قال ابن الأثير في حديثه عن نور الدين محمود: وكان – رحمه الله – لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة ثم ذكر قصة اعتراض الزاهد على لعبه بالخيل والكرة التي ذكرناها آنفاً ثم علق ابن الأثير: بعد نهاية القصة فقال: فانظر إلى هذا الملك المدعوم النظير، الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القراءات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة. وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين^(١). والملاحظ في حياة نور الدين صياغة حياته ودولته كلها صياغة إيمانية ربانية ملتزمة بمنهج رب العالمين وامتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَأْتِيَ وَتَسْكُنِي وَمَحْيَايِي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقد她 لشرط مهم من شروط النهوض والتمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح^(٢).

وهكذا كان نور الدين محمود لا يغيب عنه مفهوم العبادة الشامل في لهوه ولعبه وجده؛ وكان يمارس العاباً أخرى تشبه في مغزاها وفائتها لعبة البولو كلعبة طعن الحلق ورمي القبق^(٣) وكانت رحلات الصيد الممتعة من رياضاته المحببة الأخرى، تحمل من الجد جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين مهارات الفروسية التي يتقنها ويتعرّف بها يومذاك الفارس والمجاهد. ولقد قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعْدَدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ

(١) عيون الروضتين (١٣٦٠ / ١١). (٢) فقه النصر والتمكين ص ١٩٠.

(٣) القبق: عبارة عن خشبة عالية في أعلىها خشبة مستديرة، توضع الخشبة في أرض مستوية ويتم رمي السهام عليها.

فُوَّةٌ) [الأنفال: ٦٠] ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي^(١). وقال: من تعلم الرمي ثم تركه فليس منه^(٢). وليس مهارات الصيد - في نظر نور الدين محمود زنكي - سوى محاولة من بين عديد من المحاولات لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدل والنسيان. وحکى أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار عن ممارسة نور الدين لرياضة الصيد: وظل نور الدين يمارس رياضة الصيد، ويتعشق لعب الكرة والرمي حتى مرضه الأخير الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قرر فيه ختان ولده الملك الصالح إسماعيل حيث أقيمت الاحتفالات ورددت الأناشيد وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لممارسة العديد من ألعاب الفروسية، كطعن الحلق ورمي القبق، كما يقول العماد الأصفهاني.. فما غادر الساحة إلا وهو يعاني المأهاداً وسرعان ما أودى بجيشه بعد قليل^(٣).

ثامناً: تجرده وزهده الكبير:

جاء فهم نور الدين محمود زنكي عليه السلام من خلال معايشته للقرآن الكريم وهدي النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وعليه فإنها مزرعة للأخرة، ولذلك تحرر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد، وأسلم نفسه ظاهراً وباطناً، ومن هذه الحقائق:

* اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»^(٤).

* وأن هذه الدنيا لا وزن لها، ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة الله - تبارك وتعالى - إذ يقول النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي كافراً منها شريرة ماء»^(٥)، «ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، أو عالماً أو متعلماً»^(٦).

* وأن عمرها قد قارب على الانتهاء، إذ يقول صلوات الله عليه وآله وسلامه: «بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى»^(٧).

* وأن الآخرة هي الباقية، وهي دار القرار، كما قال مؤمن ال فرعون يا قوم إنما هذه

(١) مسلم رقم ١٩١٧.

(٢) مسلم رقم ١٩١٩.

(٣) البرق ص ١٥٠ - ١٥٤.

(٤) سنن الترمذى، ك الزهد رقم ٢٣٣٣ وهو حديث صحيح. (٥) المصدر السابق رقم ٢٣٢٠.

(٦) المصدر السابق نفسه ٢٣٢٢ حسن غريب قاله الترمذى.

(٧) مسلم ، ك الجمعة، باب تحريف الصلاة رقم ٨٦٧.

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَرَارِ ﴿٤٠﴾ مَنْ عَمَلَ سَيِّئَةً فَلَا يُعَذِّبَ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكْرٍ أَوْ أُثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ [غاز: ٣٩]

(١) كانت هذه الحقائق قد استقرت في قلب الملك العادل نور الدين محمود الشهيد فترفع -رحمه الله- عن الدنيا وحطامها، وزهد فيها، وإليك شيئاً من مواقفه:

١- قال ابن الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي ابن الشكري وكان خصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا، وأنس به وله انبساط، قال: كنت معه في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسني وألتفت ورأي؟ قلت: لا، قال: قد شبّهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب من يطلبها وتطلب من يهرب منها. قلت: رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيّن في هذا المعنى وهما:

مَثَلُ الرَّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُه
أَنْتَ لَا تَدْرِكُه مَتَّعًا
وَإِذَا وَلَيْتَ عَنْهُ تَبَعُكَ^(٢)

٢- تشبه نور الدين محمود بعم بن عبد العزيز في زهده وقد كان الأخير حاكماً لأقوى دولة على الأرض في زمانه، فكان نور الدين لا ينفق على نفسه وعلى أهله إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين فإذا خذل ما يفتون بحمله ولم يتعد إلى غيره البتة^(٣). قال العماد الأصفهاني: كان رسم نفقةه الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس^(٤)، يصرفه في كسوته ونفقةه وما كله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى أجراة خياته وطباخه، ومن ذلك المقرر المعين النذر ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضله على المساكين وأهل الفقر^(٥).

٣- وأما ما يهدي إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملك من المناذيل والمساكين والمهاميز والدبابيس، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه، وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصل ثمنها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة^(٦).

(١) من أخلاق النصر في جيل الصحابة، د. السيد محمد نوح ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٦١).

(٣) الباهر ص ١٦٤ ، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ١٢٨ .

(٤) الكواكب ص ٥٣ - ٥٤ ، نور الدين محمود ص ٣٩ .

(٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٩ .

(٦) البرق ص ١٤٣ - ١٤٤ ، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٠ .

٤ - ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ^(١)، وحكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلس يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها، فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها لكان أفعى له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعراض عنها في الآخرة. فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة، وأنا أشك أنها كانت تساوي أكثر ^(٢).

٥ - قال رضيع الخاتون «زوجة نور الدين»: إنها قلت عليها النفقه ولم يكفيها ما كان قد قرره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية)? فلما قلت له ذلك تنكر وأحر وجهه ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كان تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فيبئس الظن؛ إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم، ومعدّة لفتق - إن كان - من عدو الإسلام وأنا حازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حصن ثلاثة دكاكين ملكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها، وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين ديناراً ^(٣).

٦ - قال ابن كثير: كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتضاً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملابس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقته منه، من غير اكتناف ولا استثمار بالدنيا ^(٤). وكان عمر الملاء رجالاً من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل له بفتیت ورقاق فيفترط عليه ^(٥). وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمد يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط ^(٦).

* وأما مقر سكن حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن فكانت دار متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق بها صفة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بإزاره تلك الصفة بيتاً من الأخشاب، فهو يبيت فيه ويصبح وينخلو بعبادته

(١) الباهر ص ١٦٤، نور الدين محمود ص ٤٠.

(٢) الباهر ص ١٦٥، نور الدين محمود ص ٤٠.

(٣) الباهر ص ١٦٤، نور الدين محمود ص ٤٠.

(٤) البداية والنهاية نقلًّا عن نور الدين محمود ص ٤١.

(٥) مرآة الزمان (٣١٥/٨)، نور الدين محمود ص ٤١.

ولا يربح^(١). ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب^(٢).

٧- زهذه في الألقاب: عندما تفقد قيادة ما القدرة على الإسهام الجاد في حركة التاريخ، يتحول همها إلى منح النياшин والألقاب لمن يقدرون من أجل أن تغطي عجزها وانكماسها، لكن رجلاً فاعلاً كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوفاً أن يكون في طياتها الكذب والباطل والزيف، وخوفاً أن تقويه إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيراً ما انتهى إليهما القادة العاملون. وأما نور الدين الذي علمه التجرد كيف يكون الرفض فإنه يتمتع حتى النهاية عن الذهاب مع الإغراء إلى ما يريد الشيطان لا ما يريد الله، تلقى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها «قائمة» بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد:... اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخليفة ومعزها، رضي الإمامة وأئيرها، فخر الله ومجدها، وشمس المعاني وملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محبي العدل في العالمين المظلومين من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين. لكن نور الدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحد يقول: اللهم أصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي^(٣)، وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيداً من الأصوات عن الموضوع وتتضمن كلمات وجلاً من إنشاء نور الدين نفسه.. روی أنه كتب رقعة بخطه إلى وزير خالد بن القيسراني - بعد أن استفزته كثرة الألقاب - يأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولنلا يقول ما ليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود زنكي، فكان جواب نور الدين: هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد. وكتب بخطه في أعلى الصفحة: مقصودي أن لا يكذب على المبر أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل؟ والتفت إلى وزيره قائلاً: الذي كتبت به جيد: اكتب به نسخاً إلى البلاد^(٤). ثم أضاف ثم يبدأون بالدعاء: اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفقه.. من هذا الجنس^(٥).

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤١.

(٢) البرق ص ١٥٣ - ١٥٤، كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين ص ٤١٠.

(٣) الكواكب ص ٦٨ - ٦٩، نور الدين محمود ص ٤٢.

(٤) مرآة الزمان (٣٢٣ / ٣٢٢ / ٨)، نور الدين محمود ص ٤٣.

(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٤.

إن القيادة التي ت يريد أن تنهض بالأمة وتمارس فقه النهوض في حياتها عليها أن تمنع كل ما من شأنه أن ينمّي روح التفاق والتزلف للمسؤولين لأن ذلك يوفر النقد البناء وحرية الرأي للشعوب حتى يعرف القادة أخطاءهم فيصلحوها في حركته النهضوية، وعلى القيادة أن تتصف بالتجرد لله في أعمالها وتزهد في حطام الدنيا الزائل. لقد كان زهد نور الدين زهد المؤمن الذي لا يرحب في الدنيا، وما فيها من ملذات وشهوات، ويسعى ويعمل للأخرة دار النعيم والخيرات، ولقد مدح ابن القيسرياني نور الدين في زهده فقال:

يُغشى الْوَغْيَ أَفْرَسْ فَرْسَانَهَا
وَفِي التَّقَى أَزْهَدْ زَهَادَهَا^(١)
ويقول أيضاً:

ثَنَى يَدَهُ عَنِ الدُّنْيَا عَفَافًا
وَمَالَ بَهَا عَنِ الْأَمْوَالِ زَهَادًا^(٢)
ويصوّره ابن منير من الصالحين الأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا، يقول:

لَازَلتْ تَقْفُوا الصَّالِحِينَ مُسَابِقًا
نَفْسَ السُّيَادَةِ زَهَدَ مُثْلِكَ فِي الَّذِي
تَاسَعَا شَجَاعَتَهُ^(٣)

ورث نور الدين محمود الشجاعة عن والده عماد الدين زنكي الذي يضرب بشجاعته المثل، فقد شارك نور الدين في جميع المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه ٥٤١-٥٢١هـ) ومن بعد توليه الحكم أمضى معظم أيام حياته على صهوة جواده يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة، وقد ورد أفضل وصف لشجاعته على لسان ابن الأثير بقوله: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنتهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جماعة كثيرة من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل، وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، صليب الضرب، يقدم أصحابه عند الكراهة ويحمي منهزمهم عند الفرقة^(٤).

(١) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين في الأدب العربي ص ٦٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٤.

(٣) ديوان ابن منير ص ١٩٢، نور الدين في الأدب العربي ص ٦٥.

(٤) الباهر ص ١٦٨، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٥.

وعندما فاجأ الفرنجة معسكره بالقرب من حصن الأكراد عام ١١٦٣هـ / ٥٥٨م ولم يتمكن هو ومن كان معه من الثبات، انسحب باتجاه حصن مسافة اثني عشر كيلو متراً وتوقف حتى تجتمع عنده من نجا من المعركة، وأرسل في طلب الخيم والسلاح والمؤن من حصن وحلب، وأقام معسكره في نفس المكان، فتصحه بعض قادته باختيار موقع أبعد خوفاً من متابعة الفرنجة لهم، فأجابه: إذا كان معه ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلوا أم كثروا، والله لا يستظل بجدار حتى آخذ بثار الإسلام وثاري^(١). ولم يغادر مكانه إلا عندما تجمعت له القوات الكافية، فتوجه بها نحو حارم حيث وقعت معركة حارم المشهورة وبر نور الدين بقسمه^(٢). وقد تحدث الشعراء عن صفة الشجاعة، وشبهوا نور الدين بالأسد، بل هو يأسر الأسود ويغلب عليها، يقول ابن القيسرياني:

من باتت الأسد أسرى في سلاسله
هل يأسر الغلب إلا من له الغلب^(٣)
ويقول أيضاً:

أنت حيناً تقاس بالأسد
الورد وحينما تُعدُّ في الأولياء^(٤)
وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك، ويصيد الأسود، وهو فارس الفرسان ويسلب
التيجان من الملوك الآخرين، ويحوز الفخار لشجاعته وبطولته، يقول العماد في مدحه:

يا غالب الغلب الملوك وصادف
الصيد الليوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها
حزت الفخار على ذوي التيجان^(٥)

وقال ابن قسيم الحموي:
تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه
ووراء يقطنه إنشاء مُجَرِّب
قال ابن منير:
ملاً البلاد مواهباً ومهابة

حتى استرققت آية أحراها^(٧)

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٥.

(٢) الباهر ص ١١٧ - ١١٨، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٦.

(٣) كتاب الروضتين (١٥٤/١). (٤) المصدر نفسه (٢٤٥/١).

(٥) ديوان العماد ص ٤١٠، نور الدين في الأدب العربي ص ٦٩.

(٦) كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين في الأدب العربي ص ٧٠.

(٧) ديوان ابن منير ص ٢١٧، نور الدين في الأدب العربي ص ٧٠.

وقال أيضاً:

يُرجى ويرهب خوفه وعقابه^(١)

متهللٌ والموت في نبراته

عاشرأً: مفهومه للتوحيد وتصرعه ودعاؤه:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد من عمق فهمه للتوحيد ومعرفته بالله تعالى لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة^(٢)، وحقق في حياته مفهوم التوحيد الصحيح، وحقق الإيمان بكل معانيه والتزم بشروطه وابتعد عن نوافذه. وهذا الموقف العظيم يدل على ما قلنا قال له قطب الدين النسابوري - الفقيه الشافعي - مرة: بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام وال المسلمين فإنك عmadهم^(٣) - فقد نصحه بعدم الاشتراك بالقتال والمخاطرة بنفسه حتى لا يقتل فلا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وتؤخذ البلاد^(٤)، فقال نور الدين: يا قطب الدين اسكت فإن قولك هذا إساءة أدب على الله، ومنْ محمود حتى يقال له هذا قبلى من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو، فبكى من كان حاضراً^(٥). وهذا الذي قاله نور الدين رحمه الله يدخل في صميم مفهوم التوحيد، فالله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وما الناس ابتداء من أصغر جندي فيهم حتى أكبر قائد إلا أدوات «فاعلة» في يده يحركها وفق مشيئته وإرادته لتحقيق كلمته في الكون الله عز وجل وكفى^(٦). هذا التطبيق العملي لمفهوم الإيمان بالله وتحقيق توحيده الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ لعرفت كيف تضع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء^(٧).

وفي ساحة الحرب، حيث الموت على بعد خطوات وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة.. كان نور الدين يذوب تواضعاً وإشفاقاً، وتصفه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله حيث تمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من أجل تمزيقها لكي يقف نقيناً.. فعندما التقت قواته في حaram بالصلبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً انفرد نور الدين تحت تل حaram وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتصرع وقال: يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيشى فضول محمود في الوسط؟ يقول أبو شامة: يشير نور الدين هنا إلى أنه يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تخونهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر. وبلغني أنه قال:

(١) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (٣٥٩/١).

(٢) نور الدين في الأدب العربي ص ٧٠.

(٣) كتاب الروضتين نقلأً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣٩.

(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٢٨.

(٥) الباهر ص ١٦٩، الكواكب الدرية ص ٣٠.

(٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٤.

(٧) المصدر نفسه ص ٤٤.

اللهم انصر دينك ولا تنصر مُحَمَّداً.. من الكلب محمود حتى ينصر^(١). وفي إحدى المعارك سنة ست وخمسين وخمسمائة، قضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفاً على تلٍ يقال له تل حبيش وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث احتلَّت رجالة المسلمين مع رجاله الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولِّياً وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه بسره يقول: يا ربَّ العباد، أنا العبد الضعيف ملكتي هذه الولاية وأعطيتني هذه النيابة، عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به ونهيَّتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك. فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوبهم الرُّعب وأرسل عليهم الخذلان فوققوا في مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمرين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين في الكمرين، فلا ينفلت منهم أحد فوققوا وما أقدموا عليه^(٢).

ومن خلال المواقف السابقة يبدو نور الدين لا فدائياً فحسب ولكن فقيهاً بقدر الله متبصرًا بدور الإنسان في حركة التاريخ، عالماً أن إرادة الله إذا شاءت تهيأت لها الأسباب ولن يعجزها شيء ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين، فإن آخر رجل منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق، ومن ثم يستوي - عبر هذه الرؤية - هذا القائد أو ذاك^(٣). وكان نور الدين محمود في أكثر الليالي يصلِّي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها^(٤). وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم من دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار، أنهم يقولون: ابن القسيم، له مع الله سر، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعساكره، وإنما يظفر علينا بالدعاة وصلة الليل، فإنه يصلِّي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعوه، فالله سبحانه يستجيب دعاءه، ويعطيه سُؤله وما يرُدُّ يده خائبة، فيظفر علينا. فهذا كلام الكفار في حقه^(٥).

إن نور الدين محمود اعتبر الدعاء من أمضى الأسلحة التي تسهم في تحقيق النصر،

(١) كتاب الروضتين نقلأً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٨٠.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٣٧٧، ٣٧٨).

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٤. (٤) عيون الروضتين (١/٢٥٥).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٥٥).

ومهما أعد المسلمين من أسلحة وعدة وعتاد، فإنهم يظللون عرضة للفشل والهزيمة والإحباط، إذا امتعوا عن استخدام هذا السلاح، أو أساءوا استخدامه^(١)، ولذلك استخدمه بنفسه وطلب من الزهاد والعباد والعلماء والقراء والفقهاء كذلك وكان مستوياً بقول رسول الله ﷺ: هل تنصرون إلا بضعفائكم^(٢).

فالدعاء لله والتعلق به عند قادة النهوض الربانيين والصادقين من المسلمين مخ العبادة^(٣)، لا بل هو سيد العبادات وأقربها وأحبابها إلى الله تعالى لقوله ﷺ: الدعاء هو العبادة^(٤)، ومفتاح الرحمة، ستمطر العباد به مفاتيح رحمة الله تعالى بعد أن تقطع بهم الأسباب^(٥).

أيها الأخوة الكرام المهتمون بنهاية أمتهم والتمكين لدين الله تعالى في الأرض، عليكم بالدعاء فإنه كنز حقيقي من جملة الكنوز التي تتطوّي عليها الشريعة الإسلامية، فالله تعالى يخص عباده على اقتناص هذا الكنز في مثل قوله تعالى: ﴿اَدْعُوْرَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَحَفْيَةً لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِّينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُوْنِي اسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عَبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] غالباً ما تحدث الإجابة عاجلاً أم آجلاً ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عَبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دُعَوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيَسْتَجِيْعُوا لِي وَلَيُؤْمِنُوا بِي لَعْلَهُمْ يَرْشَدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إن من أسباب نجاح نور الدين محمود في مشروعه النهضوي، استيعابه العميق لفمه الدعاء ومقدراته على استخدامه كسلاح فتاك ضد الأعداء، وحسن تضريمه وانكساره بين يدي المولى عز وجل.

الحادي عشر: محبيه للجهاد والشهادة:

كان نور الدين محمود الشهيد من محبي عبادة الجهاد في سبيل الله ويجدد متعته في جهاد الأعداء والمرابطة في الشغور، قال العماد الأصفهاني: حضرت عند نور الدين بدمشق - في شهر صفر - والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوانها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسلبني عنها فما أرحب فيها^(٦)، ومرة أخرى

(١) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنّة (١/٢٤١).

(٢) البخاري في كتاب الجهاد، الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ٦.

(٣) سنن الترمذى رقم ٣٣٦٨.

(٤) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك (١/٤٩١).

(٥) سنن الترمذى رقم ٤٣٦٨.

(٦) البرق ص ١٢٦، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٥.

نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوماً من دخوله إليها عام ١٥٦ هـ فيسأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت؛ ويعني أيضاً أنني هنا لا أكون مرابطًا للعدو وملازماً للجهاد^(١). وأما حبه للشهادة، فقد قال عنه أبو شامة: كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي، صليب الضرب، يقدم أصحابه ويعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحوافل الطير^(٢)، كانت عقيدة الشهادة تحركه وهذا الإيمان العميق بعقيدة الشهادة في سبيل الله هو الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلباً للموت، فأسقطوا الدول، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الأنوف، ولم يموتوا، فكان نور الدين إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها^(٣).

إن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد تربى على كتاب الله وهدي النبي ﷺ، فقد خص الله الشهيد بالذكر في القرآن الكريم في مواضع منها قال تعالى: «وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَحَدَّ مِنْكُمْ شَهِداء» [آل عمران: ١٤٠]. وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكرير من الله عز وجل لبعض عباده الأخيار، وأن الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس، فالله سبحانه وتعالى يكرم بها من يشاء من خلقه^(٤)، والثانية قوله تعالى: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَلْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [النساء: ٦٩]. هذه الآية بين الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه أنهم مع النبيين والصديقين ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة، ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيمة يوم يؤتى بهم مع النبيين ليشهدوا يوم القيمة لمن ذب عن دين الله، وذلك شرف عظيم وموقف عظيم نالوه بالشهادة، يقول الله عز وجل في هذه الآية: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشَّهِداءِ» [الزمر: ٦٩].

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة والنعيم الأبدي ما يجعل كل نفس زكية تتوجه إلى

(١) الباهر ص ١٥٣ - ١٥٤، نور الدين محمود ص ٤٥.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٣٥).

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجرية ص ٣١.

(٤) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والستة ص ٩٥.

الشهادة وترغب لتفوز بالأجر العظيم^(١) قال تعالى: «وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿٤﴾ فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبَشِّرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحِقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرُقُونَ» [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠]. وقال تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٍ بَلْ أَحْيَاهُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» [البقرة: ١٥٤].

وورد في السنة الثابتة عن النبي ﷺ: إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً فقال: هل تستهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نستهني ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؛ فعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ثرداً أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا^(٢). فالشهيد فضله عظيم ومكانته رفيعة، فإذا كان الله - سبحانه وتعالى - فضل المجاهدين على القاعددين فالشهداء أكثر فضلاً وأعظم تشريفاً^(٣). ولقد قاتل نور الدين الأعداء وجاهد في الله حق جهاده حتى استحق لقب الشهيد^(٤)، تشريفاً وتكريماً من الأمة لهذا البطل المجاهد الفذ.

الثاني عشر: عبادته:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد يصلی أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلًا بوجهه عليه، ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها^(٥)، ويحافظ على الجمعة وكان كثير الابتهاج إلى الله عز وجل في أموره كلها^(٦). وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إلى المسجد بغلس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلی الصبح^(٧)، وقال ابن الأثير: حدثني صديق لنا بدمشق - كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين - فقال: كان نور الدين يصلی فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلی العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى

(١) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة ص ٩٦. (٢) مسلم ، كتاب الإمارة (١٥٠٢/٣).

(٣) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة ص ٩٧.

(٤) نور الدين في الأدب العربي ص ٤٨.

(٥) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين الرجل والتجربة ص ٤٦.

(٦) البداية والنهاية (٤٩٠ / ١٦).

(٧) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٤٦.

الوضوء والصلاوة والذعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة^(١). وقال ابن كثير: كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متابعاً للآثار النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، صموتاً وقوراً^(٢). وكان نور الدين كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده^(٣). وعبارة «كان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده» هذا هو المنطق الذي علمنا إياه الإسلام والذي يجعل التبعد، الذي هو غاية الخلائق، ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتتغير نفوسهم، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته، كانت طبيعة تبعد نور الدين تدفعه إلى المسؤولية وتجعله في قلبها وهو أعمق وعيَا وأشد خشية وأمضى عزيزة وأقدح ذكاء^(٤)، لقد مارس نور الدين مفهوم العبادة بمفهومها الشامل، وأعطت تلك الممارسة ثمارها على مستوى الشخصي والشعبي، وعلى دولته، وتحقيق العبادة من شروط التمكين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي أَرَتَنَاهُ لَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشَرِّكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥، ٥٦]. فقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبجميع أركانه، ومارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكافة أشكاله وأنواعه وخفاءيه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ^(٥).

الثالث عشر: إنفاقه وكرمه :

اشتهر نور الدين بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت له أوقاف عظيمة، قال العماد: وكلف نور الدين.. بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتکثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النساء والأيام.. وإنماء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل بيذهله، وعون الضعفاء وتقوية المقويين بعده، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفيف

(١) الكواكب ص ١٦٤ ، نور الدين محمود ص ٤٦ .

(٢) الكواكب ص ٥٤ ، نور الدين محمود ص ٤٦ .

(٣) الكواكب ص ٥٤ ، نور الدين محمود ص ٥٤ .

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٥) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ١٦١ .

آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى الجزية والخرج وما تحصل من
 قسم الغلات يصرف على قويم المنهاج قال: وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد
 فكتب أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على
 ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصدقة أنه يحضر جماعة من أمثل البلد في كل محلة،
 ويأسأهم عنمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم، وكان
 يرسم نفقته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته
 ونفقة وحوائجه المهمة حتى أجرا خياته وجاماكيه طباخه، ويتفضل منه ما كان يتصدق
 به في آخر الشهر، وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرف
 في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع بخوجه إلى مجلس القاضي ويحصل ثمنه،
 ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم بإحصاء ما في مجال دمشق من ذلك، فأنا
 على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعين له وقوفاً^(١). قال: ولو استغلت بذلك
 وقوفة وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم يبلغ إلى أمره، ومشاهدته أبنيته الدالة على
 خلوص نيته تغنى عن خيرها بالبيان، ويكتفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط والمدارس
 على اختلاف المذاهب واختلاف الموهاب، وفي شرح طوله طول وعمله الله مبرور
 مقبول^(٢). وأدرّ على الضعفاء والأيتام والصدقات حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين
 وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة من العلماء ومعلمي الخط والقرآن
 وعلى ساكني الحرمين، ومجاوري المسجددين، وجهز عسكراً يحفظ المدينة، وأقطع أمير مكة،
 ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا
 للحجاج، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول ﷺ واستخراج العين التي بأحد، وكانت قد
 دفتها كثرة السيول، وعمر الربط والخانقاهات، والبيمارستانات، وبنى الجسور في الطرق
 والخانات، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على
 معلميهم وعليهم، بقدر كفايتهم، وكذلك صنع لما ملك سنجار، وحران والرقة، ومنبج
 وشيزر وحمة ومحصن وبعلبك وصرخد وتدمير، مما من بلد منها إلا وله فيه حسن أثر،
 وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها^(٣).

وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال ابن منير:

يأيها الملك المنادي جوده في سائر الآفاق: هل من معسر

(١) عيون الروضتين (٣٤٦/١).

(٢) المصدر نفسه (٣٤٦/١).

(٣) المصدر نفسه (٣٥١/١).

باسم ابن أوس واستخضوا البحري
إن تغز تغنم أو تقاتل تظفر^(١)

ولأنك أكرم من أناس نوهوا
ذلت لدولتك الرقاب ولا تزل

كان نور الدين - كما يصفه كثير من المؤرخين - قليل الابتهاج بالشعر^(٢) لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجданية التي تهز العقول والقلوب، وإنما على نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل^(٣).

إن نور الدين هنا يذكرنا بعمر بن عبد العزيز لا في كراهيته للتجربة الشعرية ولكن بتوجسه من ملء الشعراء وضعفهم ومزايداتهم، ومن ثم فإن نور الدين - كسلفه - لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم بل لم يكن يعطيهم، وقد سئل يحيى بن محمد الوهارني في بغداد عن نور الدين فأجاب في إحدى مقاماته: وهو سهم للدولة سديد وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد مجاهد، غير أنه عرف بالمرعى الوبييل لابن السبيل، وبالحمل الجديب للشاعر الأديب، فليس لشاعر عنده من نعمة تخزى^(٤). وهذه العبارة توحى بأن موقفه هذا لم يكن مرضياً عنه من الجميع فهناك دائماً من يريد أن (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة «أعطيوه ألف دينار» أو عبارة سل ما شئت. ومن بين هؤلاء الشعراء أسامة بن منقذ الذي يمدحه بيتهن من الشعر يتضمنان غمزاً مستوراً ل موقف نور الدين من عطاء الشعراء:

سلطاناً زاهد والناس قد زهدت
له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من العاصي وفيها الجوع والعطش

لكن أبو شامة، المؤرخ الدمشقي، يتصدى بنفسه للرد على الرجلين: صاحب المقامة وصاحب القصيدة، ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول: ما كان - نور الدين - يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد وما يعود نفعه على العباد. وكان كما قيل في حق عبد الله بن حميريز - وهو من سادات التابعين في الشام - أنه كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبّون. وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار

(١) شعر المجاهد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٠.

(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ١٣٥.

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٦.

(٤) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ١٣٧.

به فهو القائل في مدح نور الدين:

فيها شُبَّ النَّارُ بالإيقاد
ناران: نار قرى ونار جهاد
فالعام أجمع ليلة الميلاد
أبهى من الأطواق في الأجياد
وأهدهم كفأ ينزل تلاد
من غير مسألة ولا ميعاد
ما دامت الدنيا بغير نفاد^(١)

في كل عام للبرية ليلة
لكن لنور الدين من دون الورى
أبداً يصرّفها نداء وبأسه
ملك له في كل جيد منه
أعلى الملوك يداً وأمنعهم حسي
يعطى الجزيلاً من النوال تبرعاً
لا زال في سعد وملك دائم

وعندما أسر الفرنج أخاً أسامة بن منقذ نجم الدولة محمد طلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شizer الإعنة في فكاكه فلم يفعل، قال أسامة: وادخر الله سبحانه
أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدمي
الدواية يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من
الأسر^(٢). واللاحظ أن نور الدين قد مدح من قبل شعراء عصره الكبار كابن القيسراني
وابن منير والعماد الأصفهاني وغيرهم. ويبدو أن مدح الشعراء لنور الدين لم يكن بدافع
التكسب أو توخي الترلف^(٣). يقول الدكتور محمود إبراهيم في حديثه عن علاقة ابن
القيسراني بنور الدين ومدحه له: وما يلفت النظر في تمجيد ابن القيسراني لنور الدين، أن
الشعر الذي نظم في هذا التمجيد قد خلا من الاستباحة التي لم تخلي منها قصائد أخرى لابن
القيسراني قيلت في آشخاص آخرين في مناسبات قديمة. ولعل هذا مما يعتمد الاعتقاد بأن
شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثل إعجاباً صادقاً بالبطل الإسلامي، وأن هذا الشعر لا
يتترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك^(٤).

وكان نور الدين يحب الشعر ويعجب به، لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور
وتحريكه ولا سيما شعر الجهاد ووصف المعارك. أما كونه لا ينتهي بالمدح فهذا تواضع منه،
لأنه لا يحب مبالغات الشعراء، ومزايداتهم بالمدح، وأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح
كالخلفاء الراشدين، فلا يأخذ بهرج القول^(٥). فنور الدين لم يكن في حالة خصم مع

(١) كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ١٩٧.

(٢) كتاب أخبار الدولتين (١/٣٥٨).

(٣) نور الدين في الأدب العربي ص ١٩٥.

(٤) نور الدين في الأدب العربي ص ١٥٩ - ١٦٠.

الشعر، بل كان يحب الشعر الملزِم فقد طلب من العماد الأصفهاني أن يعمل مثنويات شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقال:

مالٍ في العيش غيره من أرب
والراحة مستودعة في التعب
سيفي طريراً إلى العلى يهتز
والقدرة في غير جهاد عجز^(١)

للغزو نشاطي، وإليه طربى
بالجند وبالجهاد نجح الطلب
لا راحة في العيش سوى أن أغزو
في ذل ذوي الكفر يكون العز^(٢)

ويقول الأصفهاني في موضع آخر: كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته
الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية فسألني: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها:
عقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان^(٣)

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار
الشعراء، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني والعماد الأصفهاني وابن منير، وابن الدهان
الموصلي، أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذي
طرق أبواباً واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم
المبدعة لو لا أن لقوا من نور الدين إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً^(٤)، وأما ما تضمنه قول
الوهري، وقول ابن منقد من إثارة إلى بخل نور الدين أو حرصه على المال، فهذا أمر
مستبعد وفيه كثير من المبالغة، ولو كان نور الدين كما يقولان لما ازدحم الشعراء على باه
يمدحونه ويسجلون انتصاراته، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود،
حتى أسامة بن منقد نفسه، ولما اختص بمدحه بعض الشعراء ولازموه فترات طويلة^(٥).

وما له علاقة بالكرم والإإنفاق في سيرة نور الدين: حضر صبي وبكي عند نور الدين،
وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف – يعني وقف الجامع – فسأل
عن حاله؟ فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في
حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرا وقد حبسه وكيل الوقف، لأنه اجتمع عليه
أجرة سنة، فسأل: كم أجراه السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاساً، وذكروا سيرته
وطريقته وفقره، فرق له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى

(١) (٢) نور الدين الرجل والتجربة ص ١٣٨.

(٣) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ١٣٩.

(٤) نور الدين محمود في الأدب العربي ص ١٩٨.

الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كان الإنعام كان في حقه^(١).

هذه هي أهم صفات نور الدين محمود الشهيد رحمه الله، قال فيه ابن عساكر:.. ومع ما ذكرت من هذه المناقب كلها وشرحت من دفتها وجلّها فهو حسن الخط بالبيان، متأتٍ لمعرفة العلوم بالفهم والبيان، حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن مقتنٍ لها بأوفر الأعراض والثمن، كثير المطالعة للعلوم الدينية، متبع للأثار النبوية، مواطنٌ على الصلوات في الجماعات، مراعٌ لأدابها في الأوقات، مؤدياً فروضها ومستوناتها، معظم لقدرها في جميع حالاتها، عاكف على تلاوة القرآن على مر الأيام، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام، كثير الدعاء والتسبيح، راغب في صلاة التراويح، عفيف البطن والفرج، مقتصد في الإنفاق والخرج، متذر في المطاعم والمشارب والملابس، متبرئ من التمادي، والتباكي والتنفس، عريٌ عن التجبر والتكبر، برىء من التجيم والتطيير، مع ما جمع الله له من العقل المستين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء بسيرة سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجزى له من سمعه وجشه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحدث، ورجاء أن يكون من حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث، فمن رأه شاهد من جلال السلطة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من الطافه وتواضعه ما حيره، ولقد حكى لي عنه من صحبه في حضره وسفره أنه لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا ضجره، وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها، يحب الصالحين ويؤاخذهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم، فإذا احتمل ماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله بإسقاط المرتبة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الحصول، تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكّن له في البلدان والبقاء حتى ملك حصن شيزر، وقلعة دoser، وهو من أحسن المعامل والخصوص واحتوى على ما فيهما من الذخر المصور من غير سفك حجمه من دم في طليهما ولا قتل أحد من المسلمين بسيبهما، وأكثر ما أخذه من البلدان، بتسلیمه من أهله بالأمان، ووفي لهم بالعهود والإيمان فأوصلهم إلى مأئنتهم من المكان. وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده، وأجرى عليهم

(١) عيون الروضتين (٣٥٧/١).

الجريات، وولي من كان أهلاً منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحاً وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطاً وزادهم رعاية، حتى ارتفعت عنهم الظلamas والمكوس، واتضعت في جميع ولايته الغرامات والتحوس، ودرّت على رعاياه الأرزاق ونفت عندهم الأسواق، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته العnad والشقاقد.. إلى أن قال: فالله يحقن به الدماء ويسكن به الدهماء ويديم له النعماء ويبلغ مجده السماء ويحرى الصالحات على يديه، ويجعل منه واقية إليه، فقد ألقى أزمننا إليه وأحصى علم حاجتنا إليه، ومناقبه خطيرة، ومادحه كثيرة، ذكرت منها غيضاً من فيض، وقليلاً من كثير، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلاته بل قصرروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادة في تواضعه لعلو القدرة، فالله يديم على الرعية ظله وينشر فيهم رأفته وعدله، ويبلغه في دينه ودنياه مأموله، ويختتم بالسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير وعلى ما يشاء قدير^(١).

إن ما ذكرته من صفات للملك العادل نور الدين ثمرات زكية لإيمانه العميق على تحقيق ما عجز عنه غيره من كانت بلادهم وثرواتهم تزيد أضعافاً على ما كان عليه، فقد امتلأت نفسه بمبادئ الإسلام على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام، وهذا الإيمان هو الذي حوله من أمير إلى مجاهد، ومن حاكم سياسي إلى زاهد، وهو الذي أعاشه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتغلب عليها رغم قلة الموارد، ولم يعرف عنه تعصباً وكانت نفسه سمححة اكتسبها من طبيعة الإسلام السمححة، إنه حارب الصليبيين على أنهم أجانب معتصبون، لا على أنهم نصارى، ومن هنا فإنه لم يمس النصارى الوطنيين بسوء وكان لهم عنده حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم في حياته كنيسة، ولا آذى قساً أو راهباً على عكس الصليبيين الذين إذا دخلوا قرية قتلوا أهلها المسلمين جيئاً. وقد أكسبه إيمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين فكانوا على عداوتهم له يحترمونه ويعرفون له بالامتياز عليهم، حتى إن المؤرخ وليم الصوري، الذي أفضى في كتاباته بالحقد على الإسلام والمسلمين، لم يستطع إلا أن يعترف بفضلاته وعدله وصدق إيمانه^(٢).

* * *

(١) تاريخ دمشق الكبير (٦٠ / ١٢٣ ، ١٢٢).

(٢) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (٢ / ٧٤٢).

المبحث الثالث

أهم معلم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين

اخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته، ولقد آتت معلم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي وتمكينه في إيجاد وصياغة الرؤية الالزمة في نهوض الأمة وتسليمها القيادة، فلتتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معانى الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة لكي يقتدي برجالها، قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديره ذلك الكتاب لنور الدين .. إنه علم للاقتداء بالسلف الفضلاء العقلاة، يكمل الأجر ويبقى الذكر واتباع سنن المهددين الراشدين يصلح السيرة ويسعد السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء فقال عز من قائل: ﴿أولئكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْدَدُهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَرَكُلًا تَقْصُّ عَنِّيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا تَبَثَّ بِهِ فُؤَادُكَ﴾ [هود: ١٢٠] فلذلك اشتد حرصه - أadam الله سعادته - على جمع السير الصالحة والأثار الواضحة فحينـذ رأيت حقاً على بذل الوسع في مساعدته واستنفاد القوة في معارضته بمحكم صدق الولاء وأكيد الإباء، فصرفت وجه همي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ﷺ والتوجهات إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويسـر ما صرفت إليه عزيفي، فحينـ شرح الله صدرـي لذلك، ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانـته العمـورة، معاونـة على البر والتقوـي^(١). لقد قدم هذا الشـيخ الجليل منهاجاً علمـياً عمـليـاً لنـور الدين زـنكـي من خـلال سـيرة عمر بن عبد العـزيـز، فـبني دـولة العـقـيدة، وـحـكم الشـريـعة، وـقـمع البـدعـ، وأـقام العـدـلـ، وـرـفع الضـرـائبـ والمـكـوسـ عنـ الأـمـةـ، وـعـملـ عـلـى إـحـيـاءـ السـنـةـ، وـعـمـقـ هـوـيـةـ الـأـمـةـ، وـفـجـرـ رـوحـ الجـهـادـ فـيهـاـ وـنـشـرـ الـعـلـمـ، وـسـاـهـمـ فـيـ تـحـقـيقـ الـازـدـهـارـ وـالـرـخـاءـ وـكانـ نـسـيـجـ وـحـدهـ فـيـ زـهـدـ وـوـرـعـهـ وـعـبـادـتـهـ وـصـدـقـهـ وـاهـمـ بـالـإـدـارـةـ وـالـاـقـضـادـ وـالـقـوـاتـ الـمـسـلـحةـ، وـالـمـارـسـ الـعـلـمـيـةـ وـالـمـؤـسـسـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ، وـكـانـ شـدـيدـ التـقـيـدـ بـأـحـكـامـ الشـرـيعـةـ الغـراءـ يـقـولـ

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/٢)، الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٣٥٦.

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي ... فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خلائه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرین كالعُمرین - رضي الله عنهمَا - في العدل والجهاد، واجههَا في إعزاز دين الله أي اجتهد، وهما ملِكَا بلدنا وسُلطاناً خُطُّتنا، خصَّنا الله تعالى بهمَا، فوجب علينا القيام بذكر فضلهمَا، فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقرير لما والتعریف، فعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أحد أنهمَا حجة من الله على الملوك المتأخرین، وذکری منه سبحانه فإن الذکری تنفع المؤمنین، فإنهم قد يستبعدون طریقة الخلفاء الراشدین، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقین، ويقولون نحن في الزمان الأخير وما لأولئک من نظیر، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذین الملکین إلزم الحجة عليهم مبنی هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهمَا أحد، إن وفق الله تعالى الكریم ^(۱) وسدّد.. هذان حجة على المتأخرین من الملوك والسلطانین، فللهم درهما من ملکین تعاقبا على حسن السیرة وجميل السریرة وهما حنفی وشافعی شفی الله بهمَا كل عَبْدی، وظهرت من خالقهما العناية. والفضل للمتقدم، فكان زيادة مدة نور الدين كالتتبیه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظیم محله، فإنه أصل ذلك الخیر کله، مهد الأمور بعده ووجهه وہیتھ في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجھاد فھان على من بعده على الحقيقة سلوك تلك الطریقة ^(۲) .. فما أحقهما بقول الشاعر:

بَلِينَ تَحْتَ الشَّرِى عَفْواً وَغَفَرَانَا
وَالْأَبْسِنَ اللَّهُ هَاتِيكَ الْعِظَامَ إِنَّ
سَقَى ثَرَى أُودِعُوهُ رَحْمَةً مَلَائِتَ
مَشْوِى قَبُورَهُمْ رُوحًا وَرِيحَانَا ^(۳)
وَإِلَيْكَ أَخْى أَهْمَ مَعَالِمِ التَّجَدِيدِ وَالْإِصْلَاحِ الَّتِي قَامَ بِهَا نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الشَّهِيدُ فِي
دُولَتِهِ.

أولاً : الحرص على تطبيق الشريعة :

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين،

(۱) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ۱۹ . (۲) المصدر نفسه (۲۷/۱).

(۳) المصدر نفسه (۲۸/۱).

كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية «براجماتية» لتسخير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادئ أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدمًا صوب آفاقها الرحبة الشاملة. إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمته ومبادئه في واقع الحياة، وبعث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود فهي إذن دولة ملتزمة وليس صاحبة أغراض منفعية وكسب احتراف. وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات، ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى – فعلاً – إلى أن تنتقل هذه الدعوة – رغم المصاعب والعقبات – من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق^(١) قال: ونحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلأ نحفظ الدين ونمنع عنه ما ينافقه، وهو الأصل^(٢). وقال: نحن شحن^(٣) للشريعة نمضي أوامرها^(٤)، وقال مخاطباً أحد ولاته: انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوى، وميز بين المحسن والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة^(٥). وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعوانني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فالله عليكم، وإن فخزني عليكم حرام، ولا تربان قصة مظلوم لا ترفع إليّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعها إلي^(٦). وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب: إني جئت هنا امثلاً لأمر الشرع^(٧). وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جديعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض^(٨)، يقول ابن الأثير: كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند حكماتها^(٩). ويقول في مكان آخر: وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملابس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦ - ١٧٤ . (٢) الباهر ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣) شحن : أي الشرطة، أو القوة المشرفة على تنفيذ الشريعة.

(٤) الباهر ص ١٦٦ ، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦ .

(٥) البرق ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٦) الكواكب ص ٢٥ نقلأً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦ .

(٧) كتاب الروضتين (١/٣٦ - ٣٧) . (٨) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦ .

(٩) الباهر ص ١٦٦ ، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦ .

ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستح gioوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه^(١)، ويقول أبو شامة: سمعت أبي شداد يقول: أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين^(٢)، ويقول في مكان آخر: كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها^(٣). ويقول ابن كثير: كان يقوم في أحکامه بالعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر بيلاده السنة وأمّات البدعة^(٤)، ويقول ابن قاضي شبهة: كان نور الدين - لما صارت له الموصل - قد أمر كمشتكين شحتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء - أحد شيوخ الموصل الصالحين - وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكيها وعدم ارتداعهم: وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ونقصان ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب، واعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه: إن الزعارض وقطع الطريق والفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له^(٥). فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدى، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم^(٦). فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد^(٧).

وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف

(١) الباهر ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٢)، (٣) كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين محمود ص ٨٧.

(٤) البداية والنهاية نقلأً عن نور الدين محمود ص ٨٧.

(٥) عيون الروضتين (١/٢٧٦).

(٦) المصدر نفسه (١/٢٧٦).

(٧) المصدر نفسه (١/٢٧٦).

الحق، ومتى أقدم على ذلك أذهب بما يناسب بدعته^(١)، وكان لا يقدم على إجراء ما عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتى الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ شرعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويحيي ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها^(٢). ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد.. إنه لم يشاً أن يقاتل العدو في الخارج، وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعنف فيدمّر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها كانت تنتهي دائماً إلى موضع الفرار والذلة والمزينة. لقد قالوا يوماً أحد كبار الشيوخ - برهان الدين البلخي - وجهاً لوجه أمام نور الدين: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبل والزمور؟ فلا والله^(٣)، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا ولكنها الذكرى التي تهز المؤياد وتقود إلى مزيد من الإنهاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين.. لقد أصدر أوامره إلى كل موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبهة الحرام وتصفيه آثار الآنام، وإراقة الخمور، وكان يتزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سوء^(٤).

لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً في غاية الروعة والجمال وشدة الحبة لرسول الإسلام، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمر أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجندي إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغدر، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك^(٥). رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما

(١) الكواكب ص ٢٥ ، ٣٢ - ٣٣ ، نور الدين محمود ص ٨٧.

(٢) مرآة الزمان (٢٤٧ / ٨)، نور الدين محمود ص ٨٧.

(٣) زيدة حلب (٢١٥ / ٢)، نور الدين محمود ص ٨٨.

(٤) نور الدين محمود الرجل التجربة ص ٨٨.

(٥) عيون الروضتين (١ / ٣٨٤ ، ٣٨٥).

بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن^(١). وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني:

فهو طول الحياة في هيجاء
سلوك المحبة البيضاء
لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
لقسمت التقى على الأتقياء^(٢)

ذو الجهادين من عندو
أيها الملك الذي ألزم الناس
قد فضحت المسوكر بالعمل
قاسماماً ما ملكت في الناس حتى

وقال فيه ابن منير:

وعفت بصفوة عدلك الأكدار
له في خطراته أسرار
فنزوره مما عراه نوار
 ساع لمظلمة ولا عشار
خسارهم مما أتواه قدار
ولباسهم يوم الحساب النار
رفعت لها في الخافقين منار
بأقلها تستعبد الأحرار^(٤)
والليل من طول القيام نهار^(٥)

عفني جهادك كل رسم مخوفة
ومعاً المظالم منك نظرة راحم
غضبان للإسلام مال عموده
لم يبق ما كسى مسلم سلقاً ولا
همدوا كما همدا ثمود وقادهم
العار في الدنيا شقوا بلباسه
كم سيرة أحيتها عمرية^(٣)
ونوافل صيرتهن لوازم
أما نهارك فهو ليل مجاهد

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى، من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.. إلخ.. وسوف تتضح بإذن الله تعالى هذه الآثار في هذا الكتاب.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر ابن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي

(٢) كتاب الروضتين (١/٢٨٥ ، ٢٨٦).

(١) الكواكب نقلأً عن نور الدين محمود ص ٨٩.

(٤) (٥) عيون الروضتين (١/٣٩٣).

(٣) عمرية : يقصد عمر بن الخطاب.

من سنن الله الجارية والماضية، لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم ملخصة الله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكومتها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعفهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه، ومراعاة التدرج والمرحلة والارتفاع بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار^(١). قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بِيَنْهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَفْسَهِمْ حَرَجًا مَمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِيَنُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيَكُنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَرْقِهِمْ أَمْثَالُ بَعْدِدُونِي لَا يُشَرِّكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة:

كان نور الدين رجل عقيدة وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق، قال عنه ابن كثير:.. كان مجاهداً في الفرج، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكير وأهلها ورفع العلم والشرع وليست الدنيا عنده بشيء رحمة الله^(٢). وكان نور الدين يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين بيلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتاذين بمحى على الصلاة.. حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بمحى على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً^(٣)، وكان يعقوب المبدعة بأشد العقوبات: قيل إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه، فأركب على حماره، وأمر بتصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حران^(٤)، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية، وكان الفضل لله ثم للحملات المتواتلة التي أرسلها نور الدين محمود^(٥) حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنوية. وكان رأي نور الدين

(١) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٣٥٧.

(٢) البداية والنهاية نقلًا عن الجهاد والتجدد ص ٣٣٠.

(٤) كتاب الروضتين (١/٢٤)، الجهاد والتجدد ص ٣٣١.

(٥) الجهاد والتجدد ص ٣٣٠.

في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة^(١)، يقول فيها: وطالما بقيت «٢٨٠» سنة ملوءة بجزب الشياطين... حتى أذن الله لغتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة، وتمكننا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض^(٢)، وسيأتي الحديث عن أساليب ومنهج نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في مصر.

* دور نور الدين في دعم المذهب السنّي:

أهدت مدارس نظام الملك -رحمه الله- السبيل ويسرته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحي الطريق معبداً لتحقيق الهدف الذي أنشئت النظميات من أجله وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السنّي، وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر، وبذل جهوداً كبيرة ليتمكن المذهب أهل السنة إلا أن هذه الجهد كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث، وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة^(٣).

١- **جهود نور الدين في حلب:** أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٩٤٤ هـ / ٣٥٦ - ٩٦٧ م) لأن بنى حمدان كانوا يعتقدون مذهب الشيعة الإمامية فيسروا للدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غير سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦ - ٩٦٧ هـ / ٣٨١ - ٩٩١ م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام ٩٧٧ هـ وزاد فيه حي على خير العمل محمد وعلى خير البشر^(٤)، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداش والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً^(٥). وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإماماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تشن الذي أمل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن، ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة في حلب، ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين فقد كان المذهب الشيعي

(١) الجهاد والتجدد ص ٣٣١.

(٢) كتاب الروضتين نقاًلاً عن الجهاد والتجدد ص ٣٣١.

(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي ص ٢٠٦. (٤) زبدة تاريخ حلب (١٧٢/١).

(٥) البداية والنهاية نقاًلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٠٧.

متغللاً في حلب^(١)، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكتبها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة، ففي رجب من عام ١١٤٨هـ / ٢٠٤٣م أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب رأيَناه يأمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الأذان وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهراً بحسب صحابة رسول الله ﷺ، ويحذرهم من مغبة العود إلى ما ثemsوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإمامية، وأهل التشيع، وضاقت به صدورهم وهاجروا وما جروا ثم سكروا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المذورة^(٢)، كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، من كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طيء^(٣)، وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة: وهي إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين: إحداهما للحنفية وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته ١١٤٣هـ / ٢٠٤٣م وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاء وألقى بها الدروس على الفقهاء، وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياساته الramمية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع^(٤). وكانت المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة التفرعية النورية، وقد أنشأها (سنة ١١٤٩هـ / ٢٠٤٤م) لتدريس المذهب الشافعي وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (ت ١١٨٢هـ / ٥٧٨م) أحد أساتذة نظامية نيسابور، وكان حضر إلى دمشق في عام ١١٤٥هـ / ٢٠٤٠م وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة^(٥). ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادفة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام، ويلك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إزالة هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية، وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسو في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢٠٧.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٢٠٢). (٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٨٥.

(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢٠٩ نقاً عن زبدة حلب.

(٥) كتاب الروضتين نقاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٠٩.

السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته^(١).

أ- الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب: كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنفية إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النفرية والعصرورية والشعيرية، وأسند الأولى إلى استاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أئمة من خرجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، في الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهب إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر، لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السنّي، وقمع شبّهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم، وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخربيتها على مواجهة المذهب الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السنّي الكبير، ولأن البيئة الخلالية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة. والذي يقوى هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهي: التورية الكبرى، كما بني للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى، وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثة على خلاف بين المؤرخين^(٢) ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلمين بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية، لذا رأينا نور الدين يكثّر من بناء مدارس الشافعية حلب ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحصل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السنّي غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهب، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها^(٣).

بـ الاستفادة من جهود علماء السنة: لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة، ولذلك كان يعني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية، وبذلك نجح نور الدين في

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي ص ٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١١.

التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنوية المختلفة^(١) وتوحيدها في جبهة واحدة، ووفقاً لله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي^(٢).

جـ- دعم التصوف السنوي: اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة، وقد أصبح التصوف السنوي في ذلك العصر اتجاهها له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالى ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب وأن يزوج بيته وبين الشريعة مرجأً تماماً، فقد كانت الصوفية في ذلك العصر محلاً تقدير الحكام واحترامهم وخاصة نور الدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات عن الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتوافق مع شيوخهم وبين لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال ثلاث خوانق: اثنان منها للرجال وواحدة^(٣) للنساء. واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السنوي، وأسهم التصوف السنوي في محاربة الدولة الفاطمية ومد نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسيع الدولة النورية خارجياً والتي كانت من وسائلها دعم التصوف السنوي لمقاومة المذهب الإماماعيلي والتيار الفلسفى، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً، ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك^(٤).

دـ- دور تدريس الحديث: اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكان من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السنوي ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت، وكان من الطبيعي أن يتهم بهم هذا الموقف - المجانب للحق والعدل والصواب - إلى الطعن في صحاح السنة ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وتشييد معاهد دراسية خاصة به كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنوية وكان من أثر ذلك العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعين الناس للجهاد وتحمي

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢١١.

(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٨٧.

(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢١٢.

(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٥.

فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعنابة به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية مجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً آخرى للغرض ذاته، هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السنى بها^(١).

هـ - موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنوية: لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السنى بها وظلوا يتنهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئه شيعية يمارسون فيها شعائرهم مجرية تامة، وكانت حماولتهم الأولى في هذا السبيل عام ١١٥٧هـ / ٥٥٢م عندما مرض نور الدين بحلب حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فتجمع حوله أحداث الشيعة وأيدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واستعملت نيران الفتنة بين السنة والشيعة، وقام الآخرون بنهب بعض المراكز التعليمية السنوية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جراده بأن يمضي إلى الجامع ويصلبي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه، فشرع المؤذنون في الأذان السنوي فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحضرهم وبين لهم أن نور الدين قد عوفي وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكتت الفتنة^(٢).

وـ وجاءت حماولتهم الثانية في شوال من عام ١١٦٩هـ / ٥٦٤م عندما أحرق الإماماعيلية مسجد حلب الجامع وكان يتخذ مكاناً للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوافيا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرة^(٣)، ولعل الحركة من جانب الإماماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربىع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإماماعيلية أن نور الدين ماض في تضييق الخناق على الشيعة، وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام^(٤). كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدقورة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنى ص ٢١٢.

(٢) زيادة حلب (٢/٣٠٨ - ٣١٠)، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٣.

(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنى ص ٢١٣.

المؤسسات السنوية الاهادفة، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البَدْعَ من هذه الْبَلْدَةِ وإظهار الدين^(١). كما كان نور الدين - رحمه الله - يدرك قيمة العلم كسلاح يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي نعيشه الآن^(٢)، فالتصدي للغزو الباباطني الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكريّة وإعلامية متوازن وتعاوني وتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السنوي في الأمة والوقوف أمام العقائد الباباطنية الزاحفة.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسابق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنوية بعد أن كانت وكراً من أوكراس الشيعة، وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربع منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثمانين دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاها للصوفية^(٣). وقد آتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انفرض المذهب الإسماعيلي الباباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهوا بهم الأمر إلى أن أخذوا ينكرون وبأفعال السنة يتظاهرون، ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب: أن الشيعة انفروا من المدينة وتلاشوا بالمرة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقدفهم بعض الناس بالرفض والتشييع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة^(٤)، وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنوية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإتفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة^(٥)، وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

- ٢- جهود نور الدين في الإحياء السنوي في دمشق: استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م ومن ثم واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنوية، وكان منهجه

(١) كتاب الروضتين نقاًلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٣.

(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢١٣. (٣) المصدر نفسه ص ٢١٤.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب (١٩١١/١٩٣)، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢١٤.

(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢١٤.

في دعم المذهب السني في دمشق قد أوجب زيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً، ولذا فإن المنهج الذي سلكه نور الدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائدي تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتحييد الطريق لسيطرة المذهب السني – الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه – ولذلك رأينا خطبة نور الدين في دمشق تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية^(١):

الاتجاه الأول: تركز في العناية بإنشاء المدارس السنوية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لمطلب طبيعي إلى هذا المذهب الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة التورية الكبرى، وجعلها وقفاً على الحنفية وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقاد (ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م) ووصف ابن حبير هذه المدرسة عندما زارها في عام ٥٨٠هـ بأنها من أحسن مدارس الدنيا متظراً.. وهي قصر من القصور الأنية^(٢)، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة وهي المدرسة التورية الصغرى^(٣). وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فاراء مؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التي تعنى بتراث الإمامين العظيمين فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين، بل وقف على زاوية المغاربة وهم مالكية بالجامع الأموي ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة^(٤)، واصل نور الدين في دمشق سياساته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيد لهم – خانقاه – خارج المدينة وصفتها ابن حبير بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلى مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها^(٥)، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي ابن حمودية^(٦).

وأما الاتجاه الثاني: فكان منصباً على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدرисاً، ومن ثم بني أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٥ . (٢) رحلة ابن حبير ص ٢٣١.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٦٤٨/١).

(٤) رحلة ابن حبير ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٦.

(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٦.

(٦) مرآة الزمان (٢٧٢/٨)، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٦.

الكبير: تقى الدين أبو القاسم على بن الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (٥٧١ هـ / ١١٧٥ م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلkan بأنه من أعيان الفقهاء والشافعية ولكن غالب عليه الحديث فاشتهر به^(١). وهذه العلوم الثلاثة -أعني الحديث والفقه، وعلم الكلام- كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة ولذلك قربه نور الدين منه وأدناه من مجلسه واستمع إليه وفوض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدرис بدار الحديث التورية. وعنابة نور الدين بالحديث الشريف -على هذا النحو- تعبّر عن إدراكه لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب: من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثّهم عليه في بيته تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويترصد بهم الدوائر، كما أن هذه الخفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية. فقد شارك العلماء في هذا الميدان فحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري^(٢).

الاتجاه الثالث: كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية فإن نور الدين بني في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهن النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن - بالمساجد التي شيدها - أو قافاً معلومة^(٣) يذكر ابن كثير: أن نور الدين وقف وقفاً على من يعلم الأيتام الخط القراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة^(٤). وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية - على اختلاف أنواعها - الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه حتى إن ابن الأثير ذكر أنه بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م تسعه آلاف دينار كل شهر^(٥)، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرًا للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم^(٦). ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م

(١) وفيات الأعيان (٢/٤٧١ - ٤٧٣).

(٢) الباهر ص ١٦٥، كتاب الروضتين نقلًا عن التاريخ السياسي ص ٢١٧.

(٣) الباهر ص ١٧٢، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٧.

(٤) البداية والنهاية نقلًا عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٧.

(٥) الباهر ص ١٧٢، التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.

(٦) كتاب الروضتين نقلًا عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.

النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق:

قصورها فتحت منها المقصائر
وجامع جامع للدين معمور
والعلم يذكر فيه والتفسير
أوصاف مولى بنشر العدل مشهور
(١) وللخليفة من أنواره سور

كأنها جنة الخلود دانية
في كل قطر بها للعلم مدرسة
يتلى القرآن به في كل ناحية
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت
الملك والدين والدنيا بأجمعها

٣- دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السنّي: لم يقدر نور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثم لم تتهيأ له الفرصة لإقليم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم - وتنتشله من مستنقع البدع والضلال - وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية السنّية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أنشأه منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قدر لهم أن يستمروا في قيادة الإحياء السنّي في مصر بعد وفاته، فحسبت معظم الجهود - إن لم يكن كلها - إليهم. ولكننا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقر الحقيقة وهي أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن تلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السنّي، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة؟^(٢) يذكر المقريزي: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة «الظافر» في المحرم سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وتولية ابنه «الفائز» - وكان طفلاً صغيراً - فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يتهرز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل السيوطي في حسن المعاشرة^(٣)، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السنّي^(٤). ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحيى بن هبيرة في دعم

(١) التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٨.

(٣) حسن المعاشرة (٣/٢)، اعتاظ الخفا (٣/٢٢٣).

(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي ص ٢١٩.

مسيرة نور الدين إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار استراتيجي في خطته لتصنيف الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوى وهذه الحقيقة عبر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته عندما أرسل إليه صلاح الدين - من مصر - هدايا وتحفًا فقال: والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه^(١). وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الميمنة البحرية للمعسكر السنى لكي يظهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا، تحتاج لخشود قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخلصها من أيدي الروافض الباطنين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون، كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سنى، وهو على أي حال امتداد للسلالة العثمانية الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السنى، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته ومتمنياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحظقاً لأمانية الدينية من ناحية أخرى. وما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها قوله في الرسالة التيبعث بها إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة له في مصر: ما برأت همنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة المحادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها^(٢)، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر:... وبقيت مائتين وثمانين سنة منوعة بدعوة المبطلين مملوقة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغتمتها بالانفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استثناه أن يستفتح بباب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعية ودعاة الإلحاد بها المهالك^(٣).

ولهذا كله كان من الطبيعي أن يتهرز نور الدين الفرصة التي سنت لها للتتدخل في شؤون مصر عندما اضطررت أحواها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطماع الصليبيين فيها، فثار على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك حتى تم الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة، وذلك في ربيع الآخر سنة ١١٦٩هـ / ٥٦٤م ووزر قائد أسد الدين شيركوه للخليفة العاشر في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة،

(١) مرآة الزمان نقلًا عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٩.

(٢) (٣) كتاب الروضتين نقلًا عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٠.

ثم يتبع المسيرة بعد وفاة استاذه العظيم^(١).

خطة نور الدين في بداية فتح مصر:

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرتين مهمتين:

الأول: تغيير النظم القضائي بها: بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب الشيعي الإماماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه - وكان بحلب - يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها، وما قاله نور الدين للشيخ: أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق.. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي حالية من أمور الشرع.. والآن قد تعين عليك وعلى أيضاً أن تنظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشرم عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله^(٢).

والأمر الثاني: كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر: فما أن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت إليه رسالة من الخليفة المستدرج يت Urgent إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولـي «المستضيء» في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه إلى أن ألمـنه نور الدين بذلك إزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدريج فسيئ أول أمره إلى الفساد، وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، وينظم للخليفة العباسـي في المـرمـ من عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعـاء للعبـاسـين على منابر مصر، وموته سقطت الدولة الفاطمية^(٣)، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسـي يحمل رسالة تتضـمن البشـارة بهذا الحادـث الكبير، وأمرـه نور الدين أن يقرأ البشـارة في كل مـديـنة يـرـ بها، فـلمـ يـرـ مـديـنة في الطـريق إلى بـغـداد إلا دـخلـها،

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنـي ص ٢٢٠.

(٢) كتاب الروضـتين نقـلاً عن التاريخ السياسي والفكـري ص ٢٢٠.

(٣) التاريخ السياسي والفكـري ص ٢٢١.

وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلى عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونشرت عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين^(١) وبذلك قدر مصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب: الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول الشافعي، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية^(٢).

وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيئة للعبادة والدرس، فبني للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص وبعلبك^(٣)، ويقول ابن خلkan عن نور الدين إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل: دمشق وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنيحة والرحبة، وبني بمدينة الموصل الجامع الثوري، ورتب له ما يكفيه، كما بنى جامع حماة وجامع الراها، وجامع منبج^(٤).

٤- عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي: إن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققه من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاته مهمة الدعاة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوه من النظميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى، واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاتاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة ولا يسمح لأحد أن يتناول واحداً منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سمواً وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم، كما كان يحرص على حضور مجالس العلم كلما سمح لها ظروفه بهذا ويواكب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع - مع الناس - للحافظ ابن عساكر ولقطب الدين النيسابوري وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي^(٥). كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة

(١) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.

(٢) كتاب الروضتين نقلأ عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٤٠١/١). (٤) وفيات الأعيان (٤/٢٧٢).

(٥) كتاب الروضتين نقلأ عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٤.

والاستمرار في مقاومة الصليبيين ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعابة التشيع الرافضي بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة. لقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السنفي، لأن أبرز ما كان يتبعه في الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بسلوك حكام السنة المنغسين في ترفهم، الالاهين في ملذتهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدى (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما مثلت جوراً، يستدرجون بهذا الحرومين والمسحوقين حتى يجذبواهم إلى صفوفهم، ويدخلوهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السنفي بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة^(١). إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله، ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لابد فيه من وحدة الصف، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَا حَسَانٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» [التوبه: ١٠٠] فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متابعهم بالجنة والرضوان^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلوهم، ثم الذين يلوهم، ثم يجيء قوم تسقب شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»^(٣). وعن ابن مسعود قال: «اتبعوا ولا تبتعدوا، فقد كفيتكم»^(٤) وعنه قال: «من كان متأسياً فليتأسى ب أصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبراً هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماء، وأقلها تكلاً، وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحابه نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على المهدى

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنفي ص ٢٢٥.

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣) مسلم ، كتاب الصحابة رقم ٢٥٣٣ .

(٤) رواه مالك، الموطأ رقم ١٦١٩ .

المستقيم^(١). ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُرْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ فَوَّاتِينَ بِالْقُسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنَ وَالْأَقْرَبَيْنَ إِنْ يَكُنْ غَيْرًا أَوْ فَقِيرًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَبْغِعُوا الْهُوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال رسول الله ﷺ: «أشد الناس يوم القيمة عذاباً إمام جائز»^(٢) و«العدل أساس الحكم»^(٣)، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعد من أقدس الواجبات وأهمها. وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل^(٤)، ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياساته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترنت اسمه بالعدل وسمى بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصلبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم، وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة وهو يؤذن بزوال الدول، وقد حرم الله الظلم على نفسه فقد قال في الحديث القدسي: «يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرباً فلا تظالموا»^(٥). وقال تعالى: ﴿أَخْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاجُهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] وقال تعالى:

(١) حلية الأولياء (١/٣٧٩).

(٢) الجامع الصغير للسيوطى رقم الحديث ١٠٥٠ حديث حسن

(٣) معوقات الجهاد في العصر الحاضر (١/٤٨١).

(٤) فقه التمكين في القرآن الكريم للصلابي ص ٤٥٥.

(٥) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم ١٨٢٨.

﴿فَتُلْكَ يُوْثِمْ خَاوِيَّةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] وقد سجل التاريخ أن نور الدين محمود ساد العدل في دولته^(١)، وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنশطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم. ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته^(٢). وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وتحول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادي الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر^(٣). وكان شعاره ما أكدته لأصحابه مراراً: حرام على كل من صحبي ولا يرفع إلى قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلى^(٤). ويعكي خادمه شاذجنت الطواشي الهندي – الذي كان أحد نوابه في حلب – هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال: كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو يفكر فكرأ عظيماً وجعل ينكش بياصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر؟ في عائلته أو في وفاة دينه؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فأجبناه بعد تردد فقال: والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعوانني، وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله)؛ فبإله عليكم.. وإن فخزي عليكم حرام – لاتريان قصة مظلوم لا ترفع إلى، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وأرفعها إلى^(٥). وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها^(٦).

١- دار العدل أو المحكمة العليا: كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة، وقد جاء إنشاؤها بسبب من تزايد

(٢) أباعد التاريخ نفسه ص ٩٨.

(١) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص ٢٠٥.

(٣) نور الدين محمود الرجل التجربة ص ٧٥.

(٤) الكواكب، ابن قاضي شهبة ص ٢٥، نور الدين محمود ٧٥.

(٥) الكواكب ص ٢٥، نور الدين محمود الرجل التجربة ص ٧٥.

(٦) الباهر ص ١٦٦.

عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناة الأموال، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنفاق من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حيثذاك بناء دار العدل^(١). يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر بناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإنما فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فاصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي فقالوا له: إن الناس إذ علموا هذا اشتبوا في الطلب. فقال: خروج أملائي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصمامهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينتصرون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا^(٢). ثبت لنور الدين أهمية هذه الدار إذ أصحابنا ينتصرون في غير دمشق^(٣)، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم؛ لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله^(٤). وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لتخاذل القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى، والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالمال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عمما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة^(٥). ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير: ينصف

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٦.

(٢) الباهر ص ١٦٨، نور الدين محمود الشهيد ص ٧٦.

(٣) رائد نصر المسلمين على الصليبيين.. نور الدين محمود ص ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه (٦٢/١).

المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولد أو أكبر أمير عنده^(١)، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثة في المسجد المعلق بدمشق؛ ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم^(٢)، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنiamin التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف^(٣)، وفي الثانية ألفاً وخمسمائة^(٤)، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسوا بأذى - رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي - وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، ولم يعرف عنه^(٥) أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً، وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلدًا قتلوا جلة أهله المسلمين ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساءوا حتى إلى نصارى البلاد، فطلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا في بلد تنفس نصاراه الصعداء وأمنوا إلى عدله وإنصافه^(٦).

- استجابته للقضاء: طُلب مرة من قبل أحد المدعين بما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال: تستهزئ بطليبي إلى مجلس الحكم؟ وأردف: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا ذَكَرُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعي أحد أصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له: إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع^(٧). ويوماً كان يلعب الكرة - هو ابنته المفضلة - في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأموال، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعى ساوي كمال الدين بينه وبين خصمه وإذا لم يثبت ضده شيء قال للقاضي وكل الحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: أشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال

(١) الكامل في التاريخ نقاً عن نور الدين محمود ص ٧٧.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٧. (٣) الكواكب ص ٢٥، نور الدين محمود ص ٧٧.

(٤)، (٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٨.

(٦) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ . (٧) الباهر ص ١٦٦ - ١٦٧.

الذى حاكمنى عليه وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أننى ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وحبته إياه^(١). تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه، كما علق ابن الأثير^(٢). وفي عام ٥٥٨ هـ - ١١٦٢ م ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة^(٣).

-٣- لا عقوبة على الظنة والتهمة: لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعذر^(٤)، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غيره ولايته مع شدة السياسة والبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر^(٥).

-٤- من عدله بعد موته: ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكي: أن إنساناً كان بدمشق استوطنه وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنْصَفَ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدליך؟ وقد صد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعاية وإلا خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطَبَّ قلبه ووهبه شيئاً وأنصقه، فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فيما بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلمناه^(٦).

-٥- رقبي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى: قال ابن الأثير: وحكى لي منْ أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه، فقيل:

(١) الباهر ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) الباهر ص ١٦٧، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٩.

(٣) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٠.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٠. (٥) عيون الروضتين (١/٣٦٤).

(٦) المصدر نفسه (١/٣٦٥).

إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر ببرده وإعادته إلى كمال الدين فرده إلى الخزانة وقال: إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عني: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرأه فأنكر على النواب وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين، فرده إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبي دقيقة لا أطيق حمله والمخاخصة عليه بين يدي الله تعالى^(١).

٦- رجال القضاء في دولة نور الدين: اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقات عرف كيف ينتقىهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميق ما يؤهلهم لتسليم منصب القضاء الذي تربع في عهده - كما رأينا - قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام، وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بن فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه، ويزد من بين حشد كبير من القضاة آل الشهريزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهريزوري، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله ويرعوا فيها^(٢).

أ- القاضي كمال الدين الشهريزوري: حديث في مطلع عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولي قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهريزوري وهو - كما يصفه ابن القلانيسي المعاصر له - المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والتراهمة وتجنب الهوى والظلم، وحكم بين الرعاعياب بأحسن أفعال في حالة غيابه أو شغله ب مهمه ما فإن ولده محبي الدين يتوب عنه في منصبه^(٣)، كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين^(٤)، وقد تخرج من النظمية^(٥)، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي، ثم مالت أن وفدى على نور الدين^(٦) وأصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧ - ١١٦١) قاضياً لقضاة الدولة كلها، وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه، وهناك من يقول إن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال

(١) عيون الروضتين (١/ ٣٦٤).

(٢) المصدر نفسه ص ٨٣.

(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنّي ص ٤٧ - ٤٨.

(٥) قضاة دمشق ص ٢٢٢.

الدين، ومهمما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكّن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العmad: الحاكم المطلق^(١)، وأصبحت دولته نافذة الأوامر متنظمة الأمور^(٢). وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام^(٣). وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء^(٤)، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية خير معين علىمواصلة الطريق حتى النهاية، ولم يكتف كمال الدين بماهه القضائية بل كان يملك نزعة متصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها^(٥). وقد أسدل له نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الغور، فأنجز مهمته على خير وجه^(٦)، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإتفاق عليه بسخاء^(٧). وزاد نور الدين على ذلك كله فأعتمدته مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد^(٨)، كما اعتمد ابنه محبي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها وكان محبي الدين هذا، كما يصفه العmad: من أهل الفضل، وله نظم وثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥ هـ - ١١٤٠ م^(٩)، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهريزوري أنفسهم^(١٠). وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦ هـ - ١١٧٠ م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهريزوري^(١١).

بـ- الشیخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرورون: تولى قضاء سنجار ونصبیین وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه فيسائر المدن نواب أشرف على تعينيهم بنفسه^(١٢)، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢ هـ أو ٤٩٣ هـ - ١٠٩٩ م وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥ هـ - ١١٥٠ م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم

(١) البرق ص ٢٢٢، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

(٣) الخريدة قسم الشام ص ٢٤٦، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

(٤) البرق ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

(٦) البرق ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٧) البداية والنهاية نقلأ عن نور الدين محمود ص ٨٤.

(٨) الكامل في التاريخ نقلأ عن نور الدين محمود ص ٨٤.

(٩) كتاب الروضتين نقلأ عن نور الدين محمود ص ٨٤.

(١٠) قضاة دمشق ص ٤٧ - ٤٨، نور الدين محمود ص ٨٤.

(١١) البرق ص ٩٧، نور الدين محمود ص ٨٤.

(١٢) البرق ص ١٠٠.

رجع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتاباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به، وكان فقيهاً من الطراز الأول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره، وأنه إمام أصحاب الشافعى يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل، وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه - كما سبق وأن ذكرنا - صلاحيات واسعة^(١). كما اعتمدته عام ٥٦٦ هـ - ١١٧٠ م رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد^(٢). وقد توفي عام ٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م^(٣).

٧- رفع الضرائب والمكوس: لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشرًا إلا وأطلقها جميعها، في بلاد الشام والجزيره وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي ٤٥٪، وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره^(٤). وكان رحمة الله نادماً على ما فاته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة أن: الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويكيي ويتصرّع ويقول: اللهم ارحم العشار المكأس.. وكان قد دعا أحد معاونيه - موفق الدين خالد - وقال له: أقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب لل المسلمين أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، وأثبتت ما أثبتته الله عليكم^(٥). وقد أمر بقراءة المناسير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة: أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦ هـ، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشاً بذلك منشوراً يقرأ على الناس فيه: وقد قمنا من الأموال باليسر من الحلال، فسحقنا للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا رب، وقد استخروا الله وتقرّبنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولادة لنا بعيدة أو قرية، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة.. إيهاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل^(٦). وقرئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام ٥٦٧ هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين وبأمره جاء فيه: وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أنواب الأجر الفاخرة، ونظهر منها مكاسبنا ونكتفي الرعية ضرهم..

(١) وفيات الأعيان (٣/٥٣ - ٥٦). (٢) مرآة الزمان (٨/٢٨٣).

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٥. (٤) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (١١/٣٦٢).

(٥) كتاب الروضتين نقلًا عن الجهاد والتجديد ص ٣٢٧.

(٦) المصدر نفسه ص ٣٢٨.

ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد، يد حاسب ولا قلم كاتب^(١). وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين؛ ومن أزاحها زلت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه، ومن قرأه أو قرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به ولি�مضه مرضياً لربه، مضياً لما أمر به^(٢)، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتاج أسد الدين شيركوه بقوله: فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيمهم أرزاقهم؟ - أي رواتبهم - فأجابه نور الدين: إن كنا نغزو من هذه الجهات - أي من هذه الموارد - نتركها وننعد ولا نخرج^(٣). ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلًا من هذه الضرائب، وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبقدر ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستجلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل ما كان قد وصل إليه يعني من أموالهم فتقدّم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك^(٤).

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته فأمره نور الدين رحمه الله بكتابه منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبة، وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخبرته أيدي الكفار، أبادهم الله، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بال المسلمين المثاغرين^(٥)، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خصّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العnad اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِعِظِيرٍ حَسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العُمرية وأقرها من الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملائين، فطمس عنهم بذلك معالم الجحور وهدم أركان التعدي، وأقر الحق مقره لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. ثم لما أعاذه الله بعونه وأيده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفتحة الطاعنة، وأمكنه من ملوکها الباغية،

(١) كتاب الروضتين نقلأً عن الجهاد والتجديد ص ٢٣٨.

(٢)

المصدر نفسه ص ٣٢٨.

(٣) كتاب الروضتين (١/٦٧).

(٤) المصدر نفسه (١/٦٩).

(٥) المثاغرين : سكان الغور.

يجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب من نوع الرُّقاد «وَآخْرِينَ مُفْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَمُؤْنِنٌ أَوْ أَمْسِكٌ بِعَيْرِ حَسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لُؤْلُفَى وَحُسْنَ مَابٍ» [ص: ٣٨ - ٤٠] علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للأخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذخراً للمعاد، فاللتقوى مادة دارة إذا انقطعت المواد، وجادة واضحة حين تلبس الجواب «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» [الانتصار: ١٩] فصفح لجميع المسافرين وجمع المسلمين بالضرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متناول إليها، ومتهافت عليها، تجنبًا لإثتمها واكتسابا لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه - اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ - في كل سنة من العين مئة ألف وستة وخمسين ألف دينار^(١).

وكانت التّيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجيء من وجوه الحرام بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (١٦٥,٠٠٠) مائة وخمسة وستين ألف دينار^(٢)، ويقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بأموالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حيثذا من أن غايتها ومصيرها انتهاءها من أيديهم، وإذا ذهبت آموالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبة، يكون انقباض أيديهم^(٣) عن المكاسب، وكسلت أسواق العمran، وانقضت الأحوال ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرفهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم.. يفضي إلى الخلل والفساد دفعه وتنتقض الدولة سريعاً^(٤).

وكانت هناك أمور عديدة ساعدت نور الدين على إلغاء المكوس وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصّ ذلك عليه ففكّر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجمه يقول: اللهم ارحم العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في حلّه وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم^(٥).

ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المأثم موعظة أبي عثمان المنarris بن أبي محمد البحري الواسطي فقد قال قصيدة في نور

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٧٠).

(٤) المقدمة ص ٢٩٠.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٣٢٩).

(٣) المقدمة ص ٤٢٢، معوقات الجهاد (١/١).

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٥٤).

الدين وقدمها له جاء فيها:

يُوم القيمة والسماء تمور
فاحذر بأن تبقى ومالك نور
كأس المظالم طافح خمorum
وعليك كاسات الخرام تدور
فرداً وجاءك منكرٌ ونكيرٌ
في يوم الحساب مسحّبٌ مجرورٌ
في ضيق اللحوود موسدٌ مقبورٌ
يوماً ولا قال الأنام أميرٌ
في عالم الموتى وأنت حقير^(١)
قلقاً ومالك في الأنام مجرِّرٌ
عافي الهراب وجسمك المعمورٌ
أبداً وأنت مبعَدٌ مهجورٌ
يُوم المعاد لعلك الغادرُ

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده^(٢)، فرحم الله الواقعه والمتعظ ووفق من أراد الاقتداء بهم.

٨- ما قيل من الشعر في عده:

قال ابن منير:

من الدنيا وجدد كلّ بالٍ
فعوض عاطلاً منه بحالٍ
ويُقلّل خوفه قبل القتال
يفوت سنامه يدَ كُلّ قال^(٣)

بنور الدين رُؤُض كلّ محلٍ
وصَوْب عَذْلَه في كُلّ أوبٍ
ويُنَكِّي رأيَهُ رأيَ المُحَامِي
لقد أحصدت للإسلام عزاً

(١) أخبار الروضتين (٥٦/١).

(٢) البداية والنهاية (٤٨٩/١٦).

(٣) كتاب الروضتين نقلًا عن شعر الجهاد الشامي ص ١٦٧.

وقال أيضاً:

من بعد ما علق دماً عرائشة
ثباته من دونه وثباته
صعداً وشيداً سورة سوراته
إصلاحه وصلاحه وصلاحه^(١)

وأناشى دينَ محمدِ مُحَمَّدَةُ
رددت على الإسلام عصرَ شبابه
أرسى قواعده وَمَدَّ عمادةً
وأعاد وجه الحق أليس ناصعاً

وقال أيضاً:

لله مملءُ سريره أسرارُ
إن حاف حُكَّامُ الملوك وجاروا^(٢)

لا تأمنوا في الله بطشةٍ ثائِرٍ
صافٍ إذا كُدرَ المعادِنْ عادِلٌ

وقال أيضاً:

واجتبَ بالمعروف أنفَ المُكَرِّ
الأم الحفيَّة باليتيم الأصغرِ
يَأْمَنُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ عنْهَا يَكُفُّرِ^(٣)

أوْ لَسْتَ مَنْ مَلِأَ البسيطة عَدْلَهُ
حدبُ الأب البر الكبير، ورأفة
يا هضبة الإسلام من يعصم بها

وقال أيضاً:

اخذ الكتاب مظاهراً وزيراً
تأمئنُ فسيحكم التقديراً
 جاءت لمطوي السماح نشوراً^(٤)

لا مُلْكَ إِلَّا مُلْكُ مُحَمَّدِ الْذِي
تشَّى وراء حدوده أحكامه
يقظان ينشر عَدْلَهُ في دولته

وقال أيضاً:

هل غير مفرق هامة الفجر
أن يحيى العمررين بالذكر^(٥)

يا سائلي عن نهج سيرته
عدل حقيق من تأمله

وقال أيضاً:

ومال بها عن الأموال زهد
فأهدر ما أنشأه بعد

ثنى يده عن الدنيا عفاف
رأى حط المكوس عن الرعایا

(١) شعر الجهاد الشامي ص ١٦٨.

(٢) (٣) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٠.

(٤) عيون الروضتين (١/٣٨٦، ٢٨٧).

(٥) المصدر نفسه ص ١٧١.

وقد طوى الرواق ومن يمد^(١)
لدولته دعاء لا يرد^(٢)

ومد لها رواق العدل شرعاً
وبات عند باب العرش منها
وقال العماد الأصفهاني في عدله:

من عدله رعت الأسود مع المها
لبهائها ضحك الزمان وقهقاها^(٣)

يا عيسى العدل الذي في ظله
محمود محمود من أيامه

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف، فهي جانب من جوانب المدينة المتكاملة، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي والأمن الغذائي والأمن الصحي^(٤)، وهذه الأمور عمل نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقُسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَاسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» [الحديد: ٢٥]. فهذه الآية الكريمة توضح الأسس الالزمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، وال الحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتケفل استمراره. ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة اليوم لقلنا إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن توفر له الأيديولوجية الصالحة زائد التكنيك المتقدم، فالآيديولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة بعيدة عن التجزئة والتشذيم، وتحلها الأهداف ووحدة الحركة والتصميم والإرادة وتنبع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة والفكر والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنيك يمنحها فرص التقدم على الآخرين علمياً وصناعياً، ليس من أجل إذلالهم واستعمارهم، فالآيديولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك، بل لإقامة العدل في الأرض بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزلت الكتب السماوية وخاتمتها القرآن الكريم يهدف إلى ثبيت موازين العدالة وبيان الأسباب والوسائل الالزمة لتحقيقها،

(١)، (٢) عيون الروضتين (١/٣٨٨).

(٣) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٤.

(٤) الإسلام والوعي الحضاري، د. أكرم العمري ص ١١٥.

فالناس يقومون بالعدل ويحيون بالأمل ويسعون بالأمن ويتغدون بالعمل والإنتاج^(١). إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح للكتاب والسنّة والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية، وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين^(٢).

رابعاً : مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود:

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوطات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية فهم قلبها وعقلها المفكر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة، وإنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمال جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر للتغير والتبدل كما كان يحدث دائماً وما يقتضيه "الموقف" هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالحة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط تكديساً كمياً يثبت للضربة والضربيتين ولكنـه الثالثة أو الرابعة ينهـار فـتذهب مع انهياره هـدرـاً جـهـودـ السـنـينـ الطـوـالـ وـعـرـقـهاـ وـدمـاؤـهاـ^(٣).

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه تصميمٌ هادفٌ يسعى إلى عملية التأصيل العقائدية من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والازدواج، وتنمحى الثنائيات، ويبرز إلى حيز التاريخ «الإنسان» المتوازن الذي أراده

(١) (٢) الإسلام والوعي الحضاري ص ١١٧.

(٣) نور الدين محمود الرجل التجربة ص ١٣٩.

الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله^(١) وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ريانية على رأسها العلماء الربانيون، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً، وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية^(٢)، فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم^(٣)، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى وال محل العظيم^(٤)، يحضرهم إلى مجلسه، فيدينهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذتقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكليته تعظيمًا وتوقيرًا واحترامًا^(٥)، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر^(٦)، وكان نور الدين عارفًا بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيز، فالمذاهب عنده - كما أجمع المؤرخون - كلها سواء، والإنصاف سجيته في كل شيء^(٧)، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين.. ولقد مارس مهمة التحدث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، في محاولة لتعزيز مكانة (السنة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحدث^(٨)، كما ألف كتاباً في الجهاد^(٩)، وأوقف كتاباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الفقهية، متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين^(١٠)، ولا شك أن هذا التوجّه العلمي عند نور الدين أثر على سياساته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته^(١١).

إن أمّة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفس عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٠ . (٢) المصدر نفسه ص ١٣١ .

(٣) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٣٥ .

(٤) مفرج الكروب (١/٢٨٣)، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٥ .

(٥) الباهر ص ١٧١ - ١٧١ ، نور الدين محمود ص ٣٦ .

(٦) الباهر ص ١٧١ - ١٧٣ ، نور الدين محمود ص ٣٦ . (٧) الباهر ص ١٦٥ .

(٨) الكواكب ص ٥٧ - ٥٦ ، الباهر ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٩) مرآة الزمان (٨/٣١٣)، نور الدين محمود ص ٣٦ .

(١٠) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٣٦ .

(١١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٩ .

العزيز، دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

١- تقديمه للعلماء على الأمراء: كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده، فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكتراً يقول لأصحابه: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولم في بيت المال حق أضعاف ما أعطياهم، فإذا رضوا منا بعض حقهم فلهم الملة علينا^(١). وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، فينهفهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ويقول لهم: من المقصوم؟ ويكيفنا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري^(٢) عنده، وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه فقال نور الدين له: يا هنا إن له حسنة تغفر له كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك فأنت أضعف ما ذكرت وليس لكم حسنة تغفرها، لو عقلت لشغلك عييك عن غيرك وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلأ أحتمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسناته؟ على أني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكره أو غيره بسوء لأذينك، فكف عنه^(٣).

٢- البذر والعطاء للعلماء: لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة، ولكنه تجاوز هذا - على أهميته - إلى البذر والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب وألا تلتجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحنني رأسها وتلوى فكرها أو تملق وتداهن وتغش وتكتب طلباً للأجر وسدأً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظمة الجهد التي يبذلها هؤلاء الرجال^(٤).

إن أمّة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة عليها ألا تبخّل عليهم بما يسدّ حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشذّبهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بعثهم عن الحقيقة، ولا تتذرّب بهم حاجة عن الواقع التي بلغوها بعلمهم. ولذلك ولم يدخل عليهم نور الدين بتخصيص أو قاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

(١) البداية والنهاية نقلأ عن دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص ١٢٢.

(٢) دور الفقهاء، والعلماء في الشرق الأدنى ص ١٢٣.

(٣) الباهر نقلأ عن نور الدين محمود ص ١٣٤.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٠.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنع الضمانات الكافية للمربيين والدارسين على السواء، وتمكن العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لهامهم العلمية^(١)، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي يتبع لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكتفوا مؤونة الاكتساب^(٢)، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهم عالية، ولذلك تضطر الأمة الوعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم بينما تهمل جوانب أخرى، ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله - تعالى - كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو المدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المترغز ذووه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المترغز بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد^(٣)، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرَتِ الْقَوْيُ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

٣- اهتمامه بعلماء المدارس النظامية: من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ، وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير، وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققه المدارس النظامية من نتائج باهرة والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصلبية ويكون مؤهلاً بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السنوي والانتصار له والدفاع عنه. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظميات ومنهم: القاضي كمال الدين الشههزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤١.

(٢) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٢٦٥.

(٣) أولويات الحركة الإسلامية ص ١٩٣، فقه النصر والتمكين ص ٢٧٢.

نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت ٥٦٣ هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس بعض مدارس دمشق^(١)، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً هجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهد الذي قام بها نور الدين وهو يُكَفَّنَ لذهب أهل السنة^(٢).

٤- هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود: شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً علمياً لم تشهده مثيلاً من قبل إلا تماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة^(٣) حتى إن بلاد الشام كانت - كما يصفها أبو شامة - حالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية^(٤)، فالدولة التي تهيء الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتنبع المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتشيء المؤسسات اللازم لإبداع العلماء والباحثين هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم^(٥)، وقد استقدم - على سبيل المثال -

أ- برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي (٨٥٤ هـ / ١١٥٣ م) وهو من علماء الأحناف، فقد استقدمه من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاوية، وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والهزار، ثم قدم دمشق عام ٥١٩ هـ وجلس للوعظ وكان يتميز بصدق كلماته، فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وفدت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنوي ص ٢٢٢ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .

(٣) الباهر ص ١٧٢ - ١٧١ ، نور الدين محمود زنكي ص ١٤٤ .

(٤) كتاب الروضتين نقل عن نور الدين محمود زنكي ص ١٤٤ .

(٥) زينة حلب (٢٩٣ / ٢ - ٢٩٤)، مفرج الكروب (٢٨٣ / ١) .

إليها^(١)، وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب^(٢).

بـ- الفقيه أبو العباس السلفي: فقد قام برهان الدين البلخي إثر توليه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس أحمد السلفي - من دمشق أيضاً - ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم فسير إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً، ولم يزل - الأخير - مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الذاية نائب حلب، وما لبث أن توفي عام ٤٨٥ هـ. وحل محله في التدريس عبد الرحمن بن محمود بن محمد الغزنوی حتى وفاته سنة ٥٦٤ هـ^(٣)، تم تعاقب عليها المدرسوں القادموں من جهات شتى^(٤).

جـ- عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوی: تعاقب على المدرسة الحلاوية مدرسوں من جهات شتى وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانه لكتة غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوی البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة، وعيّن في المدرسة الحلاوية حتى وفاته عام ٥٨١ هـ أو ٥٨٢ هـ، بينما أقر علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧ هـ أي بعد ثمانية عشر عاماً وقد وصفه ابن شداد بأنه: كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الآفاق ذكرها^(٥)، تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندی وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه^(٦). وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة وكانت تنقل المذهب نقلأً جيداً وكان زوجها ربما يهتم بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ

(١) زيدة حلب (٢/٢٩٣ - ٢٩٤)، مفرج الكروب (١/٢٨٣).

(٢) مرآة الزمان (٨/٢١٩ - ٢٢٠)، نور الدين محمود ص ١٤٥.

(٣) نور الدين محمود ص ١٤٥.

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٦.

(٥) تاريخ حلب (٤/٣٠٥ - ٣٠٨)، نور الدين محمود ص ١٤٦.

فيرجع إلى قوتها، وكانت تمارس الإفتاء وكان زوجها يحترمها ويكرّمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها وهي التي سنت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب^(١).

د- الإمام شرف الدين بن أبي عصرون: وعندما تم استكمال المدرسة العصرية في حلب عام ٥٥٠ هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار -غربي الموصل- الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان -بحق- من أعيان فقهاء عصره، وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى فبني له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، وفوضه أن يولي التدريس فيها من يشاء ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ^(٢).

هـ- قطب الدين مسعود النيسابوري: وفي عام ٥٤٤ هـ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادى) في الفقه^(٣)، وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومررو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ وقرأ القرآن والأدب على والده، والتلقى بأبي نصر القشيري ودرس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجوزي، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام ٥٤٠ هـ فدرس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعى إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير^(٤). ووصفه العماد الأصفهاني بأنه: فقيه عصره ونسيج وحده^(٥)، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة ٥٦٨ هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي، واجتمعت طلبة العلم عليه، ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عماراتها^(٦)، وتوفي النيسابوري

(١) نور الدين محمود ص ١٤٦.

(٢) (٣) زيدة حلب (٢٩٣/٢ - ٢٩٤)، نور الدين محمود ص ١٤٧.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧.

(٥) البرق ص ١٣٤ - ١٣٥، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧.

(٦) مرآة الزمان (٢٩٤/٨).

بعده بحوالي عشر سنين ٥٧٨ هـ^(١).

و- سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف بالفلكي النيسابوري: درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً وحدث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته، ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الحانقة والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته سنة ٥٦٠ هـ. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم ابن عساكر^(٢)، ويدرك المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)^(٣).

ز- الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني: وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام ٥٦٢ هـ وقد قدمه كمال الدين الشهروزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمد الأخير في العديد من المهام الإدارية والسياسية والإنسانية، فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولد المدرسة النورية التي سميت - بعدها - بالمدرسة العمادية نسبة إليه، وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتعددة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر والتي تم إنجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه: الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوقي، زبدة النصرة، الفريح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لاتقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير^(٤).

ح- الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغدادي، ملك النحاة كما يسميه سبط ابن الجوزي ولد ببغداد سنة ٤٨٩ هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطنه دمشق، وله ديوان شعر جيد ومداائح في وصف النبي ﷺ، وكان يضم يده على المائة والمائتين ويحيى وهو صفر اليدين، وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات وكان يكتب إليه^(٥).

ط- أبو الفتح بن أبي الحسن الأشترى الفقيه: كان معيناً بالنظامية، سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، استفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبو شامة في كتابه «الروضتين»^(٦).

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧ . (٢) الدارس في تاريخ المدارس (٢/١٥٣).

(٣) المنظم (١٠/٢٤٩)، نور الدين محمود ص ١٤٨ . (٤) الدارس في تاريخ المدارس (١/٤٠٨ - ٤١١).

(٥) مرآة الزمان (٨/٢٩٥ - ٢٩٧).

(٦) كتاب الروضتين نقالاً عن نور الدين محمود ص ١٤٩.

ي- أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الوااعظ: ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه^(١).

ك- شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حمودية: وفد إلى الشام عام ٥٦٣هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساوا، فأقبل عليه نور الدين ورغبه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعين الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام^(٢).

وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقو على حواضرها وملأوا بنشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك حتى صارت بلاد الشام في عصره مهاجراً للكبار عقول الأمة.

٥- ابتعاد نور الدين عن التعصب: لم يكن نور الدين محمود زنكي متخيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنوية لكي يسعى - من خلال نشاطه المدرسي هذا - إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز موقع (فقهه) ما بمواجهه سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتبييس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير: العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحبة الواسعة وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبدع واجتهاد خلاق. إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة، ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنایا الأرض ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه، وصراع من جهة أخرى بمواجهة المحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم، ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب موقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبيّة والعقد التاريخية صوب ما هو أعم وأشمل وأبعد مدى، وثمة حادثة - من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون - تحمل

(١) كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين محمود ص ١٥٠.

(٢) البرق ص ١٣٥، نور الدين محمود ص ١٥٠.

دلالتها الواضحة في هذا المجال^(١): في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين، كل ي يريد مذهبًا من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يختلفه في التدريس.. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين، فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه - مجد الدين بن الداية - وقال لهم على لسانه: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجالين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب^(٢). لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة واستطاع أن يرص الصنوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية، والخارجية وحقق الأجراء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه. إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أواساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والمهدى، وتركوا بسببيها طريق الكتاب الكريم والسنة المطهرة. إن التقليد والتعصب يؤديان إلى مهاوي الردى ويقودان صاحبهم إلى مسالك الغواية والضلالة ويصدان عن اتباع النور والمهدى فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخساراناً في الآخرة^(٣). لقد انتشر مرض التعصب والتقليل في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفسيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدتها عدم قبول الحق، ورده إذا جاء من المخالف^(٤). وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرق وبالنالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعلقة من التعصب وغيرها التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيئاً وأحراضاً.

٦- أثر العلماء في دولة نور الدين: كان لبعض العلماء المستغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ- الجهاد ضد الصليبيين: فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان

(١) تاريخ حلب (٦٨/٢)، نور الدين محمود ص ١٦٥. (٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٦٥.

(٣) في ظلال القرآن (٩٩١/٢)، فقه النصر والتمكين ص ٢٥٩.

(٤) فقه النصر والتمكين ص ٢٦٠.

بمشورة العلماء ومساندتهم حيث كانت لهم الكلمة النافذة والمكانة المرموقة والحظ الوافر في كل من الموصل وببلاد الشام في ذلك العهد^(١)، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ١١٧٦هـ/٥٧١م، ومن أعماله التي قام بها لينضم إلى العلماء المجاهدين توجيهه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخاً لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام وهي دار الحديث扭ورية بدمشق فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والبحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والأداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد، دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله^(٢). كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفي سنة ١٢٠١هـ/٥٩٧م أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق ١١٦٦هـ/٥٦٢م في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سندًا لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهاامة في الدولة مكتته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد^(٣).

بـ السفارات بين الدول: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفاراة بين الدولة الزنکية والخلافة العباسية أو الدولة العاصرة إما بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين، ومن سفراء الاستنجاد وطلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهري ذوري المتوفي ١١٧٦هـ/٥٧٢م إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستجده بال الخليفة العباسى المقتفي لأمر الله^(٤) - ٥٣٠هـ - ١١٣٥م - ١١٦٠م) والسلطان السلاجوقى مسعود (٥٢٧م - ٥٤٧هـ/١١٣٣م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام^(٥)، وقد مر تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفاراة بين الدولة الزنکية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود إذ اعتمدته نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسى المستضيء^(٦) ٥٦٦هـ - ١١٧٢م - ١١٨٠هـ/٥٧٥م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيره والموصى) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخليل وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكراماً لم يكرمه رسولًا قبله وأجيب إلى ما

(١) الحياة العلمية في العهد الزنکي ص ١٨٣ . (٢) معجم البلدان (١٣/٧٨).

(٣) معجم البلدان (١٩/١٤)، الحياة العلمية في العهد الزنکي ص ١٨٤ .

(٤) الكامل في التاريخ نقلًا عن الحياة العلمية في العهد الزنکي ص ١٨٥ .

التمسه^(١). كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البواريين (٥٣٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٣٩ - ١١٥٤ م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة (٥٤٦ - ١١٥١ هـ) وقد تولى المهمة الفقيه برهان الدين البلخي المتوفى سنة (٥٤٨ - ١١٥٣ هـ) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخيه نجم الدين أيوب وقعت بينهما^(٢).

ج- تولى بعض المناصب المهمة في الدولة كالقضاء: وقد تم الحديث عن ذلك وكتابة الإنماء^(٣) وغير ذلك من المناصب التي يأتي بيانها بإذن الله في هذا الكتاب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها:

* أن نور الدين رحمه الله، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سلطتها آذاك.

* أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها^(٤)، ويعود ذلك إلى ذكاء ملائحة ونية حسنة، وعلم غزير، مما مكنه من حل مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.

* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغرزة في أماكن كثيرة^(٥) وسيأتي الحديث بإذن الله تعالى في مبحث قادم عن دور التعليم ووظائفها في العهد الزنكي، والمدرسين والطلاب ونظم التعليم ووسائل تحصيله في العهد الزنكي، وميادين العلوم وأبرز أعلامها وأهم المراكز العلمية.

خامساً: الشوري في دولة نور الدين محمود:

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشوري، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت

(١) الكامل في التاريخ نقاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٥.

(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧ ، ١٨٩.

(٤) الجهاد والتتجدد في القرن السادس الهجري ص ٣١٣.

(٥) المصدر نفسه ص ٣١٣.

اسمها وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم، وهو يمثل أرقى أشكال التعاون، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَفْرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَشَارِهِمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَرَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاسمع
برأي تبيب أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
فإن الحوافى قوة للقواعدم^(١)

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء فلا يحل للحاكم أن يتربكاً، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه^(٢)، فالآمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع، ولقد اعتمدها نور الدين محمود ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتالف من مثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية.

١- الشورى في القضايا العامة: وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدق عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق، وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد عثنت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين لإرساء الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق^(٣)، ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء^(٤) وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم: ليس العمل إلا ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاركون في مصالح المسلمين، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلاً ويدركه، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلاً وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوب له. فشکروه

(١) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (٤٢٢/١). (٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٥٤.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجرية ص ٨٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٤.

على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور الحبيط بدمشق والفضيل والخندق لصيانة المسلمين وحرفهم وأموالهم، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين^(١). فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن أبي عصرور الشافعى: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقتربه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأله ابن أبي عصرور نور الدين: هل أتفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارت المتعلقة بالجامع العمومي بغیر إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم يتفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذنني وأنا أمرت به^(٢).

٢- مجالس متخصصة: كان مجلسه كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر^(٣)، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزوجية للوقت وتخرجاً نظرياً للفروع على الأصول وترفاً فكريأ.. إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مواجهة المشاكل والتجارب المتتجدة المتغيرة؛ بالحلول المستمددة من شريعة الإسلام وفقها الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤيته لوقع الإنسان في العالم... ومن ثم فإن ندوات بهذه أشبه بمحالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحل مشكلة ما أو استعداد تشريع أو إقرار قانون، ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسع الذي مر ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة^(٤)، وقد شبه ابن الأثير مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياة، لا تؤبن فيه الحرث ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا^(٥)... وإلى روایته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم فيأخذ ما

(١) كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين محمود ص .٨٢.

(٢) المصدر نفسه ص .٨٢.

(٣) الباهر ص ١٧١ - ١٧٣ ، نور الدين محمود ص ١٣٣ .

(٤) نور الدين محمود ص ١٣٣ .

(٥) كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين محمود ص .٨١.

(٦) الباهر ص ١٧٣ ، نور الدين محمود ص ١٣٣ .

(٧) الباهر ص ١٧٣ ، نور الدين محمود الرجل التجربة ص ١٣٣ .

يحلّ له من: الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بمحله ولم يتعدّ إلى غيره البة^(١). فما يصدر عن مثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين – وقد عرفنا مدى صدقه مع ربه ومع نفسه ومع رعيته – ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلا بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ومشروع قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتمده مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضموناً ومارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء^(٢). وكان يكتب العلماء للاستشارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً^(٣)، وكان نور الدين يسأل العلماء والفقهاء عمما يشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه، وأشاركونا في الثواب. فقال له شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه^(٤).

-٣- فراسته في معرفة العلماء: لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحسب الجملة كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء، وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطون المكانة التي بلغوها ويخبئون خلف الرداء الذي ليسوا به لكي يزيّفوا حقيقة، أو يلبسوا باطلأً بحق، أو يشتروا بأيات الله ثمناً قليلاً. إن الرجل يرفض الكذب، الكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع، وهو - من الجهة الأخرى - يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب^{رض} متحدثاً عن نفسه: لست بالخبيث^(٥)، ولا الخبّيث يخدعني، ومن ثم يبدو أنه ليس بقدور أي رجل أن يخدع بداعية نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تذرّ بألف رداء علمي واحتياجاً خلف ستار، وهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العمام الأصفهاني تحمل دلالتها على علمية

(١) الباهر ص ١٦٤.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٤ . (٣) المنظم (٢٤٩/١٠).

(٤) عيون الروضتين (٣٧٤/١).

الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال؛ في رجب – يقول العمامد – فوض إلى نور الدين إحدى مدارسه وعول على في التدريس والنظر في أوقافها وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة ٥٦٢ هـ خلفه ولدين واستمر فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء^(١)، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبیخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع فقال لي: تسلم الموضوع ورتبي فيه مدرساً وناظراً^(٢).

والمقصود من كلامي أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أساس صحيحة في دولته وكانت له مجالس شورية يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإمام بحقيقة الأوضاع بياده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولبي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى؟ وكيف؟ لأن الشكل الذي تم به الشورى ليس مصبوغاً في قالب حديدي^(٣)، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد وليس من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بصورة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل الحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة وغريبة^(٤).

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسية وتدير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها جانب الفنون الإدارية، وفيها جانب

(١) يوم كانت الكيمياء دجلاً وشمعونة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين.

(٢) البرق ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣)

فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٦٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٦٥.

التعليم وال التربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب ولكل جانب أناس عرّفوا فيه بنضج الآراء وعظمي الآثار، وطول الخبرة هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتقنحها ثقتها، وتنبههم عنها في الرأي، وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوء به الأمة أمورها مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهداد^(١). ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة، ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين، وفي شؤون العمران والهندسة يستشار المهندسون، وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة، وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة، وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة^(٢). لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان وسنرى ذلك في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

* * *

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص ٥٧.

(٢) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص ٥٨ ، ٥٩ .

المبحث الرابع

النظام الإداري بعد نور الدين

إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طوال حياته دون غيره من المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية، تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود، في إدارة دولته المت坦مية، على عدد كبير من الرجال الأكفاء، فكان يختارهم بعناية فائقة، وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم حتى يتتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم، فإذا تحقق من ذلك وثق بهم وخلوّهم الصالحيات التي يحتاجونها لتنفيذ أعمالهم، فيباشرون وظائفهم وهم يرون فيه قدوتهم في الالتزام بالشرع والإخلاص في العمل والإحساس بالمسؤولية والعدل والبساطة في العيش، والحرص على الأموال العامة، فتحتّم الإدارة الناجحة، وينعكس ذلك على الشعب بالرخاء والأمن والازدهار، ويصدق فيه قول المؤرخ ستيفن رنسيمان في هذا المجال عندما وصفه بقوله: التزم البساطة في حياته وحمل أسرته على أن تسير على نهجه، وأشار أن ينفق موارده على أعمال البر والإحسان، كان إدارياً حازماً يقطّأ دعمت حكومته الرشيدة ما أقامه له سيفه من مملكة^(١).

أولاً : حسبي اختي (د. طه جمال) :

اعتمد نور الدين نفس النظم الإدارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وجاء الأيوبيون والماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من التضيّع والتخصص والشمول، لكن نور الدين أكد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة هو أن كفاءة أجهزتها وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بيان الجهاز أو تركيب المنصب نفسه قدر اعتمادها على الرجال أنفسهم الذين يعهد إليهم بتسخيرها، ومن ثم فإننا نجد نور الدين يملاً مؤسساته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال الذين كانوا يتباينون في الاتمام الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم - في الأغلب - يجتمعون على تلك الميزات التي لا تستقيم بدونها إدارة ما^(٢).

(١) *الكتاب المقدس، الحسين بن شهاب، بيتكرين ويشفون أجيدهم*، عندما قتل عماد الدين زنكي عام ٥٤١ هـ -

١١٤٦ م والد نور الدين محمود وجد نور الدين في بعض رجالات والده المتقدمين في ميادين

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٧٠، تاريخ الحروب الصليبية (٤/٦١٤).

(٣) كتاب الروضتين نقل عن نور الدين محمود ص ٥٤.

الإدارة المدنية والعسكرية ساعده الأئمـة الذي اعتمدـه في الوصول إلى الحكم في حلب وتبـيت أركـان إمارته الفتـية هناك، اتصـل به أسد الدين شـيركوه عم النـاصر صـلاح الدين وـقال لهـ: أعلمـ أنـ الوزـير جـال الدين الأـصفهـانيـ أـكبر وزـراء زـنـكيـ قدـ أـخذ عـسـكر المـوـصل وـعـمل عـلـى تـقـديـم أـخـيـك سـيف الدـين غـازـيـ وـتـقـليـكـه المـوـصلـ وـقدـ انـضـوى إـلـيـه جـلـ العـسـكرـ، وـقدـ أـنـفذـ إـلـيـ يـغـرـيـني عـلـى اللـحـاق بـهـ، فـلـمـ أـسـتـجـب لـطـلـبـهـ، وـقـدـ رـأـيـتـ أـنـ أـصـيرـكـ إـلـى حـلـبـ فـتـجـعـلـهـا كـرـسـيـ مـلـكـ وـتـجـمـعـ فـي خـدـمـتـكـ عـسـاـكـرـ الشـامـ، وـأـنـا أـعـلـمـ أـنـ الـأـمـرـ يـصـيرـ جـمـيعـهـ إـلـيـكـ لـأـنـ مـلـكـ الشـامـ مـلـكـ حـلـبـ، وـمـنـ مـلـكـ حـلـبـ اـسـتـظـهـرـ عـلـى بلـادـ الشـرـقـ. فـمـاـ كانـ منـ نـورـ الدـينـ إـلـاـ أـنـ أـصـدـرـ أـمـرـهـ بـأـنـ يـنـادـيـ لـيـلـاـ فـي عـسـاـكـرـ الشـامـ لـلـاجـمـاعـ، وـانـطـلـقـ مـنـ ثـمـ إـلـى حـلـبـ فـدـخـلـهـا فـي السـابـعـ مـنـ رـبـيعـ الـأـوـلـ، وـاعـتـمـدـ أـسـدـ الدـينـ شـيرـكـوهـ الـذـي أـصـبـحـ أـشـبـهـ بـوزـيرـهـ الـأـوـلـ^(١)، وـمـعـ الـوقـتـ اـسـتـمـرـتـ عـلـاقـةـ أـسـدـ الدـينـ مـعـ نـورـ الدـينـ فـي الـقـوـةـ وـالـانـسـجـامـ وـأـخـذـتـ تـزـدـادـ مـعـ الـأـيـامـ حـتـىـ بـلـغـ قـمـتـهاـ فـي تـرـشـيـحـ أـسـدـ الدـينـ لـقـيـادـةـ الـحـمـلـةـ الـنـورـيـةـ عـلـىـ مـصـرـ فـيـ رـحـلـاتـهـ الـثـلـاثـ. كـمـاـ اـعـتـمـدـ نـورـ الدـينـ عـلـىـ أـسـدـ الدـينـ لـلـاتـصالـ بـأـخـيـهـ نـجـمـ الدـينـ فـيـ دـمـشـقـ وـالـتـمـهـيدـ لـدـخـولـهـ سـلـمـاـ بـعـدـ أـنـ تـبـيـنـ اـسـتـحـالـةـ أـخـذـهـاـ عـنـوـةـ. وـقـدـ تـوـجـتـ هـذـهـ الـاتـصالـاتـ النـاجـحةـ بـدـخـولـ نـورـ الدـينـ دـمـشـقـ عـامـ ٥٤٩ـهـ - ١١٥٤ـ مـ بـعـونـةـ الـأـخـوـيـنـ نـجـمـ الدـينـ وـأـسـدـ الدـينـ حـيـثـ اـزـدـادـتـ مـكـانـتـهـماـ اـرـتـفـاعـاـ، وـبـرـزـ إـلـىـ دـائـرـةـ الـضـوءـ اـبـنـاـ نـجـمـ الدـينـ وـهـمـاـ: النـاصـرـ صـلاحـ الدـينـ وـتـورـانـ شـاهـ كـأـمـيرـيـنـ مـتـقـدـمـيـنـ فـيـ الدـوـلـةـ. وـقـدـ قـالـ أـبـوـ شـامـةـ: كـانـ لـأـسـدـ الدـينـ الـيـدـ الطـولـيـ فـيـ فـتـحـ دـمـشـقـ فـوـلاـهـ نـورـ الدـينـ أـمـرـهـاـ وـرـدـ إـلـيـهـ جـمـيعـ أـحـواـلـهـ^(٢)، وـزـادـ عـلـىـ ذـلـكـ فـأـقـطـعـهـ الرـحـبةـ^(٣). وـيـوـاصـلـ أـبـوـ شـامـةـ حـدـيـثـهـ فـقـالـ: وـتـوـسـطـ أـسـدـ الدـينـ فـيـ أـمـرـ أـخـيـهـ نـجـمـ الدـينـ مـعـ نـورـ الدـينـ، فـأـقـطـعـهـ إـقـطـاعـاـ وـسـيـرـهـ إـلـىـ دـمـشـقـ فـأـقـامـ فـيـهـاـ وـرـدـ نـظـرـ دـمـشـقـ إـلـيـهـ، وـوـلـيـ وـلـدـ تـورـانـ شـاهـ شـحـنـكـيـةـ دـمـشـقـ فـسـاسـهـاـ أـحـسـنـ سـيـاسـةـ وـلـمـ يـزـلـ بـهـ إـلـىـ أـنـ اـسـتـبـدـلـ بـأـخـيـهـ صـلاحـ الدـينـ^(٤). وـكـانـ صـلاحـ الدـينـ قـدـ فـارـقـ أـبـاهـ نـجـمـ الدـينـ مـنـذـ عـامـ ٥٤٦ـهـ - ١١٥١ـ مـ وـاـنـتـقـلـ إـلـىـ خـدـمـةـ عـمـهـ أـسـدـ الدـينـ فـيـ حـلـبـ فـقـدـمـهـ بـيـنـ يـدـيـ نـورـ الدـينـ فـقـبـلـهـ وـأـقـطـعـهـ إـقـطـاعـاـ حـسـنـاـ^(٥). وـاـسـتـخـصـ صـلاحـ الدـينـ وـأـلـحـقـهـ بـخـواصـهـ فـكـانـ لـاـ يـفـارـقـهـ فـيـ سـفـرـ وـلـاـ حـضـرـ^(٦). وـيـذـكـرـ اـبـنـ الـأـثـيـرـ أـنـ كـلـاـ مـنـ نـجـمـ الدـينـ وـأـسـدـ الدـينـ صـارـاـ عـنـدـ نـورـ الدـينـ بـعـدـ فـتـحـ دـمـشـقـ فـيـ أـعـلـىـ الـمـنـازـلـ، لـاـ سـيـمـاـ نـجـمـ الدـينـ فـإـنـ سـائـرـ الـأـمـرـاءـ كـانـوـاـ لـاـ يـقـدـعـوـنـ عـنـدـ نـورـ الدـينـ

(١) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٥٤.

(٢) (٣) (٤) المصدر نفسه ص ٥٨.

(٥) (٦) المصدر نفسه ص ٥٩.

إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك، كما يحدثنا كيف أن أسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين منذ أيام والده زنكي.. وبعد أن تولى إمارة حلب راح يقربه ويقدمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكري^(١).

-٢- مجد الدين ابن الداية وإخوته: لم يشأ نور الدين أن يجعل جل اعتماده على العناصر الإدارية المخضرة ورأى أن يطعها بعناصر جديدة أكثر ملاءمة وفهمًا لأهدافه، أسوة بما يفعله مؤسسو الدول في إعادة تنظيم أجهزتهم الإدارية وترشيح العناصر الأكثر تقبلاً للوضع الجديد وتجانسًا معه^(٢)، وقد كان مجد الدين محمد أبو بكر بن الداية، شقيق نور الدين من الرضاة وإخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان ويدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر - الذي لم يبرز في ميدان الإدارة كما برع إخوته لربما لصغر سنّه، ويتحدث العماد الأصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجد الدين وإخوته في إمارة نور الدين فيقول: كان مجد الدين رضيع نور الدين قد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوض إليه نور الدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحمل ولا يعقد إلا برأيه. وكان يسكن قلعة حلب. وقد سلمت قلعة جعبر وتل باشر لأخيه الأصغر سابق الدين عثمان، وحارم لأخيه الثالث بدر الدين حسن. وثمة موقع عديدة مثل عزاز وعين تاب وغيرها مما كان مجد الدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه^(٣)، وعندما هدمت الزلازل شيزر عام ٥٥٢ - ١١٥٧ واستولى عليها نور الدين من بني منقد سلمها إلى مجد الدين^(٤). ويؤكّد سبط ابن الجوزي أن مجد الدين وإخوته: كانوا أعز الناس على نور الدين وكان قد أسكنهم معه في قلعة حلب لا يصدر إلا عن رأيهما^(٥). ويکاد المؤرخون يجمعون على أن مجد الدين أحسن تدبير المهمة التي عهدت إليه وأنه كان عند حسن الظن، وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الأمور في قاعدة ملكه حلب. وقد امتاز الرجل بشجاعته وتدبره وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية. وعندما توفي عام ٥٦٥ هـ - ١١٦٩ م نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير آخر في دولة نور الدين يدعى العمادي محمد حزن نور الدين حزناً عميقاً وقال وهو يبكي: لقد قص جناحاي، وسرعان ما عمد بجميع ما كان له من مناصب وصلاحيات إلى أخيه شمس الدين علي الذي غدا - بمروي الوقت - أكبر أمراء الدولة التورية

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦.

(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٥٦.

(٥) مرآة الزمان (٨/٣٢٤ - ٣٢٥).

في حلب، وأما أخوه الآخر سابق الدين عثمان فقد جعله مقدم عساكره، وفي عام ٥٦٩هـ - ١١٧٣م) - السنة التي توفي فيها نور الدين - كان بنو الداية قد تكن نفوذهم في حلب تماماً وأصبح أمرهم إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده^(١). وكان شمس الدين علي قد عهدت إليه أمور الجيش والديوان، وعهدت الشحنكة إلى أخيه بدر الدين حسن، وكان بيد هؤلاء الإخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب^(٢)، وكان هناك أسماء أخرى بزرت طيلة العهد النوري لم تكن لتقل عنبني الـداية شهرة وإنجازاً^(٣).

٣- العماد الأصفهاني: غادر بغداد ميمماً شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة ٥٦٢هـ - ١٦٦م وأعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهري وأنزله بالمدرسة الشافعية النورية، وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبينبني أيوب: نجم الدين، وأسد الدين وصلاح الدين، ثم ما لبث كمال الدين الشهري أن قدمه في أواخر السنة إلى نور الدين ونوه بشأنه، فرتبه نور الدين في ديوانه منشأً في مطلع عام ٥٦٣هـ / ١١٦٧م وصار رئيس ديوان الإنشاء وكاتب السر ومديح الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين، وكان يتلقى منبني أيوب في مصر تقارير مفصلة عما يستجد فيها من أحداث فيقرأها على نور الدين ويكتب أجوبتها، وقد جاء تعين العماد في هذا المنصب - كما يذكر هو نفسه - بعد استغفاء أبي اليسير بن عبد الله من الخدمة في ديوان الإنشاء واعتكافه في بيته، وهو يذكر أيضاً أنه وجد من نور الدين منذ ذلك الوقت «الإعزاز والتمني على الأيام»، وقد اعتمد نور الدين فضلاً عن ذلك في عدد من السفارات إلى شاه أرمن صاحب خلاط في أرمينيا أواخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وإلى الخليفة العباسي في أوائل سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م، كما فوضه الإشراف على المدرسة النورية في دمشق، والتي سميت بعدها بالمدرسة العمادية نسبة إليه في رجب سنة ٥٦٧هـ / ١٧١م، وفي العام نفسه أصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها إضافة إلى مهمته في ديوان الإنشاء، والإشراف هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين، فكان المشرف هو المفتش العام للحكومة^(٤)، فجمعت يقول العماد - بين النصبين وقسمت زمامي على النصبين، فمرة للكتب والمناشير وتارة للإثبات في الدساتير^(٥)، ولم أثق بنائب وبأشترط العمل بنفسى^(٦)، وبعد توجه الموفق

(١) الباهر ص ١٦٣، نور الدين محمود ص ٥٧.

(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٥٧.

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٥٧. (٤) المصدر نفسه ص ٦٠.

(٥) الدستور : هو الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجنود ومرتباتهم.

(٦) البرق ص ١٢٠ - ١٢٢، نور الدين محمود ص ٦٠.

خالد القيسراني إلى مصر قام العmad مقامه وصار مستوفى المملكة وأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة وأكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته، إذ أصبح العmad بمناصبه الثلاثة تلك المسؤول الأول عن الكتابة والإشراف الإداري والمالي^(١)، ويحدثنا العmad عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين، وحرصن الأخير على تجاوز (الروتين) الإداري فيقول:.. وقد مال إلى نور الدين وعول في مناصبه على طالعته كل يوم بمرافقه عملي ومنافع شغلي، فما أتحف بتحفة ولا أخص من أحد بعطيه إلا أطالعه به وأطلعه على سببه، فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول: تصرف فيه تصرفك في مالك^(٢). ويضي العmad إلى القول: ثم اعتمد علي اعتماداً كلياً وجعلني له نجباً، وإذا أراد أن يكتب إلى أحد منهم يقول: اكتب إليه من عندك ومن جملة ذلك أن سعد الدين كمشتكي - نائبه في الموصل - أخذ من رجل ألف دينار بعلة عللها، ف جاء الرجل وتظلم، فأمرني نور الدين بأن اكتب إليه بردها عليه. فقال كمشتكي: إنك كاتبي وأميسي وصاحب ولا تكتب إلا بأمرى؟ فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه!! فمضى إليه بكتابي فسارع إلى طاعته ورد عليه الألف في ساعته^(٣)، وما لا شك فيه أن العmad الأصفهاني قد حق نجاحاً كبيراً في مهماته الإدارية، الأمر الذي أكسبه ثقة نور الدين المتزايدة وجعله يظفر سريعاً في مدى لا يتجاوز السنوات الست بأهم وظائف الدولة وأعلاها: الكتابة والإشراف (الإداري) والاستيفاء (المالي). وإذا صر ما يقوله الرجل عن نفسه - وهو الأرجح، لما سبق أن ذكرناه - فإن نور الدين كان قد اعتمد إلى حد تفویضه الأمر كاملاً في مناصبه تلك. ورغم ذلك فإن العmad ما كان ليقدم على خطوة إلا بعد أن يطلع سيده عليها.. وقد عمق هذا الموقف الذي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نور الدين^(٤)، وتلي هذه الأسماء في ميدان الإدارة أي بني الداية، وبني أيوب والعmad الأصفهاني، أسماء أخرى أقل منها أهمية، وإن كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها أولئك الرجال، رغم أن المصادر لم تشر إليها إلا عرضاً ولم تقدم لنا الشيء الكثير^(٥).

٤- خالد بن محمد القيسراني: مستوفى المملكة حتى عام ١١٧٢ هـ / ١٥٦٨ م والذى يصفه العmad بأنه كان عند نور الدين في مقام الوزير، وله انبساط زائد^(٦)، ويدرك في الخريدة

(١) البرق المقدمة ص ١٠ - ١١، نور الدين محمود ص ٦٠.

(٢) البرق ص ٦١، نور الدين محمود ص ٦١. (٣) البرق ص ١٣٢ - ١٣٣، نور الدين محمود ص ٦١.

(٤) نور الدين محمود ص ٦١. (٥) المصدر نفسه ص ٦١.

(٦) البرق ص ١١٦، نور الدين محمود ص ٦٢.

أنه لما وصل الشام وجد القيسراني في صدر مناصبها وبدر مراتبها، وكان نور الدين قد رفعه واصطنهه وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه ولقد كان حقيقة بذلك^(١). ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول: كان جدي خالد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها، وكتابة الإنشاء وإمرة مجلسه وهو المشير والوزير والأمور كلها عائدة إليه^(٢)، وواضح أن عمله في كتابة الإنشاء كان في الفترة التي سبقت توليه من قبل العماد الأصفهاني^(٣).

٥- محمد العمادي: صاحب نور الدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمير^(٤). وكان كما يصفه سبط ابن الجوزي: عزيزاً عند نور الدين ومن أعظم أمرائه^(٥).

٦- الشيخ الأمير مخلص الدين أبو البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جراده الحلبي الأمين على خزائن أموال نور الدين، كان كاتباً بليناً حسن البلاغة نظماً ونشرأً، مستحسن الفنون من التذهيب البديع، وحسن الخط المحرر على الأصول القدية المستطرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء^(٦).

٧- أبو سالم بن همام الحلبي: ولـي الإشراف على الديوان بدمشق حتى عام ٥٥١ هـ - ١١٥٦ حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقى القبض عليه واعتقل، ثم أصدر نور الدين أمراً بكشف خيانته للناس وعقابه عقاباً قاسياً والطوف به في الأسواق حيث كان المنادي يصبح: هذا جراء كل خائن. وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أيامأً أمر نور الدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه^(٧).

ثانياً: أهم الإدارات والوظائف في دولة نور الدين:

كانت دولة نور الدين مقسمة إلى عدة أقاليم هي إقليم حلب شمال بلاد الشام وإقليم دمشق وسط بلاد الشام وإقليم الموصل والجزيرة الفراتية، وإقليم مصر، وإقليم

(١) نور الدين محمود ص ٦٢.

(٢) مفرج الكروب (١/٢٧٠)، نور الدين محمود ص ٦٢.

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٦٢.

(٤) مرآة الزمان (٨/٢٨٠)، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٦٢.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٣٦٠). (٦) نور الدين محمود ص ٦٣.

(٧) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٠.

اليمن، وإقليم الحجاز^(١)، وكان لكل إقليم إدارته المحلية التي تتتألف من عدة موظفين يعينهم نور الدين، وكانت جميع هذه الأقاليم تتبع السلطة المركزية للدولة في دمشق، التي يشرف عليها نور الدين وجهازه الإداري المركزي. أما الوظائف التي تتتألف منها الإدارة المركزية فهي:

١- النائب: هو الذي ينوب عن نور الدين في الإقليم، ويكون مسؤولاً عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه، من صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات، وترشيح أسماء نوابه في المدن الأخرى التابعة للإقليم، والإشراف على تنفيذ قوانين ضمن منطقة مسؤوليته، ويرأس اجتماعات ديوان الجيش في الإقليم وقيادة الفرق العسكرية، الموجودة في الإقليم، وكان مجد الدين بن الراية من أشهر نواب نور الدين، فقد ظل خمسة عشر عاماً نائباً لنور الدين في حلب^(٢).

٢- الوزير: هو رئيس الجهاز الإداري المركزي ويكون مسؤولاً أمام نور الدين عن جميع الدواوين والسجلات المتعلقة بالجند والبريد والخزينة^(٣)، ويقدم النصائح والرأي في الأمور السياسية والإدارية والعسكرية. وكانت وظيفة الوزير أهم وظائف الدولة قبل استحداث وظيفة النائب^(٤)، فقد كان الوزير في بداية عصر السلالة هو المدير الوحيد وال حقيقي لجميع شؤون الدولة ولكن صلاحياته تقلصت بعد استحداث وظيفة النائب الذي كان يتمتع بجميع صلاحيات السلطان ضمن منطقة مسؤوليته ويرتبط بالسلطان مباشرة، وقد حصل تداخل في الواجبات والصلاحيات بين وظيفة الوزير ووظيفة الناظر (ناظر الديوان) الذي كان يعتبر مسؤولاً عن الدواوين، وكان عمل الوزير يقتصر في بعض الأحيان على تقديم المشورة في الأمور المهمة بسبب التداخل المذكور^(٥)، لم يكن هناك وصف دقيق للوظائف وصلاحياتها، فكان الأمر في الحقيقة يعتمد على كفاءة من يتولى المنصب وشخصيته، كما حدث مع كمال الدين الشهري، فقد كان قاضي القضاة في كل مملكة نور الدين وكان يكلفه بكثير من المهام الأخرى غير القضاء، ويستشيره في الأمور الهامة^(٦) حتى وصفه العmad الأصفهاني بأنه أصبح في دمشق: الحاكم المطلق وأنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الخل والعقد في أمور الشام^(٧)، ومثال ذلك أيضاً ثقة نور الدين في العmad الأصفهاني كما مر معنا.

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٧١.

(٣) (٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ١٧٢.

(٧) نور الدين محمود وتجربته الإسلامية ص ٨٢ ، ٨٣ .

٣- المستوفي: هو المسؤول عن موازنة الدولة جميعها من حيث تقدير الأموال المستحقة وجمعها من مصادرها وحفظها، وتحصيص الأموال الازمة للجند وغيرهم من أجهزة الدولة ومؤسساتها، ويكون له نواب في الأقاليم يقومون بالواجبات نفسها ويعملون بإمرته، وكذلك يكون له عدد من الكتبة المساعدين في الإدارة المركزية يعملون معاً تحت إمرته في ديوان يسمى ديوان الاستيفاء^(١). ووظيفة المستوفي أهم الوظائف في الإدارة المركزية بعد وظيفة الوزير، ويتابع المستوفي موظف آخر هو المشرف الذي يرأس ديوان الإشراف ويعتبر عمله مكملاً لعمل المستوفي، ومهامته تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات الخزينة الدولة، ويshire عمله إلى حد ما عمل المفتش في هذه الأيام^(٢).

٤- الأمير الحاجب: هو المسؤول عن ديوان الجيش من حيث حفظ السجلات التي تحتوي أسماءهم وظائفهم ورواتبهم وإقطاعاتهم، ويقوم بمحل مشاكلهم وتقديم صورة واضحة عن أحواهم إلى السلطان أو النائب. كما يقوم بالإشراف على سلاح الجندي وخيوطهم ويساعد في ذلك عدد من الكتبة والموظفين يشكلون معه ديوان الجندي يتولى - كما ذكرت - كل ما يتعلق بشؤون الجندي من خيل وسلاح ورواتب وإقطاعات وسجلات^(٣). كان محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمير^(٤). أما الحاجب فهو الذي يتولى تنظيم مقابلات السلطان والدخول عليه في مجلسه، ومع أن بعض المراجع تذكر أن وظيفة الحاجب اختلفت عما كان عليه قبل عصر السلجقة وأصبحت مهمة الحاجب: إبلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظلمتهم أمامه وإطلاعه على الأمور الرئيسية للدولة، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى. فالحاجب - إذن - يشبه وزير الداخلية حالياً^(٥)، إلا أنه ورد في مراجع أخرى كثيرة أن نور الدين كان يأمر بإزالة الحاجب والباب عندهما بمجلس في دار العدل للقضاء ليسهل دخول الصعفاء من الناس عليه^(٦)، مما يدل على أن وظيفة الحاجب ظلت حتى في عصر نور الدين تشمل واجب تنظيم الدخول على السلطان ومقابله^(٧).

٥- الوالي: تغير مفهوم وظيفة الوالي بما كان قبل دولة السلجقة، فقد كان الوالي يمثل

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٧٤ . (٣) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

(٤) عيون الروضتين نقاً عن دور نور الدين محمود ص ١٧٤ .

(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٤ .

(٦) الباهر ص ١٦٨ ، عيون الروضتين نقاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٧٤ .

(٧) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٥ .

ال الخليفة أو السلطان في ولايته ويعتبر مسؤولاً عن جميع الشؤون الإدارية والعسكرية فيها، أما في عهد السلجقة والدولة الزنكية فقد أصبح النائب هو الذي يتولى الصلاحيات المذكورة بينما يكون الوالي مسؤولاً عن مدينة أو بلدة أو قلعة في الولاية أو الإقليم الذي يحكمه النائب باسم السلطان، أي أن النائب في عهد السلجقة وعهد الدولة الزنكية حل محل الوالي في مركزه وصلاحياته^(١). أما واجبات الوالي في المدينة فهي واجبات إدارية تشمل تنفيذ الأحكام، ومراقبة الأسواق ومحاسبة المخالفين للقانون، وتفقد أبواب المدينة وأسوارها وإطلاع النائب أو السلطان على الأوضاع العامة في المدينة^(٢)، بينما تختلف واجبات الوالي القلعة فهو يعتبر قائد الحامية، ويكون مسؤولاً عن أبواب القلعة وصيانتها وإدارة حامتها، فهو قائد عسكري وله واجبات إدارية ضمن القلعة نفسها^(٣).

٦- الشحنة: الشحنة أو الشحنكة كلمة تركية تعني قائد الحامية أو الحاكم الإداري للمدينة المسؤول عن الأمن والنظام فيها؛ يعين من قبل السلطان ويعمل بأمرته رجال الشرطة أو الحامية ويقوم بخلافة اللصوص والخارجين عن القانون. ويلاحظ أن هناك تداخلاً بين واجبات الوالي والشحنة في المدينة ولا تذكر المصادر والمراجع حدوداً فاصلة بين واجبات مختلف الوظائف الإدارية في تلك العصور، ويظهر أن واجبات كل وظيفة كانت تتحدد في ضوء قوة شخصية من يشغلها، فإذا كانت شخصيته قوية زادت صلاحياته واتسعت لتشمل واجبات وظائف أخرى كما حصل مع كمال الدين الشهير زوري الذي كان قاضياً في دمشق ثم صار قاضياً للقضاء في مملكة نور الدين كلها، وكان نور الدين يكلفه بأعمال كثيرة غير القضاء حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان في مقام الوزير، وتشير بعض المراجع إلى تعيين السلطان السلجوقي محمود الأمير آق سنقر البرسي شحنة في بغداد عام ٥١٦هـ/١١٢٢م، وكذلك تشير المراجع نفسها إلى تعيين السلطان نفسه لعماد الدين زنكي شحنة في بغداد عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م والمعروف أن آق سنقر البرسي كان يقود الجيوش وهو في الوظيفة المذكورة، ويدافع عن بغداد ويتصرف كنائب للسلطان، وكذلك كان من بعده عماد الدين زنكي في هذه الوظيفة^(٤)، وتشير المراجع ذاتها إلى تعيين نور الدين محمود توران شاه بن نجم الدين أيوب شحنة في دمشق ومن بعده أخوه صلاح الدين يوسف في الوظيفة نفسها، وكانت واجبات الأخوين في هذه الوظيفة لا تتعدي الأمور

(١) عماد الدين زنكي نقاً عن دور نور الدين محمود ص ١٧٥.

(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٥. (٣) المصدر نفسه ص ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٦.

الإدارية^(١)، مما يعني أن مفهوم وظيفة الشحنة كان يتغير من ظرف إلى آخر، ومن مكان إلى مكان^(٢).

٧- القاضي: حظي القضاء برعاية نور الدين واهتمامه أكثر من أية وظيفة أخرى، ويرجع السبب في ذلك إلى تركيزه على إقرار العدل وإشاعته في دولته، فقد كان يختار هذه الوظيفة أشهر العلماء والفقهاء المعروفين بالتقى والاستقامة ويعطيهم كامل الصلاحيات في تنفيذ أعمالهم وأحكامهم، فكان القضاة يتمتعون باستقلال تام^(٣)، وكان هو أول من أنشأ محكمة عليا سمّاها دار العدل - كما مر معنا - للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة، عندما لاحظ تهيب القاضي طلب بعضهم للمحاكمة، فكان مجلس فيها للقضاء ومعه الفقهاء والعلماء والقاضي ليستشيرهم فيما يعرض عليه من قضايا، ثم جعل من نفسه قدوة لرجال دولته عندما ذهب إلى مجلس القضاة وطلب من القاضي أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة^(٤)، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء والقادة وكبار موظفي الدولة على مخالفه الشريعة أو ظلم أحد من الرعية لأنه علم أن العقاب لا بد أن يقع عليه. وكان كمال الدين الشهري أشهر القضاة في دولة نور الدين الذي كان يجيئه ويقدره فجعله قاضياً للقضاة في الدولة كلها بحيث يكون القضاة في الأقاليم نواباً عنه، وكلفه بأعمال مهمة غير القضاة كالإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وبناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستانها حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان الحاكم المطلق في دمشق وأنه: ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام^(٥)، ومن القضاة الآخرين الذين اشتهروا في دولة نور الدين شرف الدين أبي عصرون، الذي وصف بأنه من أفقه أهل عصره^(٦).

ثالثاً: صبغ الإدارة الزنكية بالصبغة الإسلامية وتكامل القيادات السياسية والفكرية:

حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها ومارستها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية، وإلى شخصية نور الدين، فقد كان نور الدين زنكي تقىً ورعاً وعده بعض المؤرخين بأنه أفضل من جاء بعد عمر بن العزيز من الحكام، وكان يحافظ على صلاة الجمعة ويكثر من الصلاة من الليل إلى وقت السحر إلى أن يركب. وكان محدثاً مع الحديث وأسمعه وجده، وكان حنفي المذهب عارفاً

(١) الكواكب الدرية ص ١٤٧، دور نور الدين ص ١٧٦.

(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٧٦. (٣) المصدر نفسه ص ١٧٦.

(٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ١٧٦.

بعذهب أبي حنيفة ولكن دون تعصّب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعود عن كونها مدارس في الفقه^(١)، وكان نور الدين تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش وأصبح بعضهم على مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين ومن أمثلة ذلك وزير أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهري، الذي قدم من بغداد إلى دمشق فقد كان فقيهاً أصولياً شغل مناصب مختلفة كالسفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين^(٢). ولم تكن هذه الشخصيات إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم زمن نور الدين. فقد ظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج^(٣). ومن أمثلة هذه المهارات والمزايا ما يلي:

١- **تكامل القيادات الفكرية والسياسية:** فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال أو اندفاع فريق من القيادات دون الآخر واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يتلقى فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المنزلة الأولى فيه^(٤). وكان نور الدين يمنع الأمراء من اغتياب العلماء، وقد مر ذلك في قصة أحد الأمراء مع قطب الدين النيسابوري ودفع نور الدين عنه.

٢- **اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات:** فقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتتألف من مثلي سائر المذاهب والصوفية، يبحث في أمور الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يتفق عليه^(٥)، ما دام يحقق المصلحة العامة وقد مر بعض الممارسات الشورية في حديثنا عن الشورى في عهد نور الدين زنكي.

٣- **غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران، فلقد كان من الطبيعي أن تقوم مشكلات وخلافات بين نور الدين - مثلاً - وزرائه وقادته لكنهم كانوا يعالجون هذه المشكلات بأسلوب لم يخرج يوماً عن**

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٣٦٢ . (٢) المصدر نفسه ص ١٦٤ .

(٣) الكواكب الدرية ص ٣٨ ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٤ .

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٤ .

(٥) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٥ .

حدود المصلحة العامة وما تقتضيه وحدة الكلمة وتغلب الأخلاق الإسلامية^(١).

٤- التفاني في أداء الواجب بتعاون وتقاًعٍ: ومن طريف ما لاحظه الدكتور حسين مؤنس عند هذا الزعيم والقادة والإداريين والعلماء قوله: إن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة: ففيما كان البوهبيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصاص الدولة، كان قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، ونور الدين، وصلاح الدين، وأسد الدين، ونجم الدين وزين الدين وهكذا^(٢)، وثمة ملاحظة أخرى وهي تعلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أو صوا بدهنهم في مدافن المدينة الموردة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين^(٣).

٥- التزهد والتغافل والتعطف وبذل المال في النهاية العام: تجلت آثار التربية الإسلامية في مواقف رجال الدولة والإدارة والجيش من الثروات والسياسة الاقتصادية، فقد زهدوا بالمال كسبه وعزفوا عن الاحتياط والتوف. وهذا حذوه الأغنياء في المدن والقرى، فقد كان نور الدين زنكي مقتضاً في الإنفاق على نفسه وعلى أسرته، وكان لا يكتن ولا يستأثر بالدنيا، ولم يكن له بيت يسكنه وإنما كان مقامه في قلعة البلد الذي يحل فيه^(٤)، وكان نفقته في الشهر مئة وخمسين درهماً يأخذها من دكاكين كانت له في مدينة حمص حيث اشتراها من حصته من الغنائم، ولقد شكت له زوجته يوماً قلة نفقاتها وأرسلت له أخاها في الرضاع تطلب زيادة فقال: من أين أعطيها ما يكفيها؟ والله لا أخوض في نار جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن إنما هي أموال المسلمين مرصدة لصالحهم وأنا خازنها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم فقد وهبتها إياها فلتأخذها. وكان نور الدين صاحب مهنة يحيط الكوافي ويعمل سكاكير للأبواب ويعطيها لبعض العجائز فتبיעها ولا يدرى به أحد^(٥). ومع ذلك فقد شهدت دولته تقدماً اقتصادياً يأتي بيانه بإذن الله. وكذلك كان قادة الجيش، منهم أسد الدين شيركوه أكبر قادته

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٦.

(٢) نور الدين محمود ص ٤٠٧، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٦.

(٣) البداية والنهاية نقلًا عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٦.

(٤) نور الدين محمود د. حسين مؤنس ص ٣٦٩.

(٥) الكواكب الدرية نقلًا عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٧.

العسكريين، فقد كان يملك أراضي واسعة أنفق مواردها في بناء المدارس التي تنشر الفكر الإسلامي وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة^(١)، وكذلك فعل وزير نور الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهري الذي أوقف أوقافاً كثيرة: منها مدرسة الموصل ومدرسة نصبيين، ورباطاً في المدينة المنورة، وأوقف أوقافاً في قرية «الهامة» على المقادسة الذين نزحوا من وجه الاحتلال الصليبي، وكان كثير التبرع والهبات ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها^(٢)، وكذلك فعل عبد الله بن عصرون حيث بني مدرستين في دمشق وحلب، وكذلك فعل نجم الدين يوسف والد صلاح الدين حيث بني خانقاه تُعرف بالنجومية^(٣). وعلى هذا النهج سار بقية رجال الحكم والإدارة، وحذرت حذوهم نساؤهم. من ذلك ما فعلته السيدة خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين حيث أوقفت «الخاتونية» بمحلة حجر الذهب وخانقاه خاتون بباب النصر، وأوقفت كثيرة أخرى ومثلها زمرد خاتون بنت جاوي^(٤).

٦- توافر الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة: تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة، كحرية الرأي المنضبطة والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت تواریخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليه ونهاره على عدل ينشره، وجihad يتجهز له، ومظلمة يزيلاها، وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه، وإنعام يسديه. فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف في بيت واحد^(٥). وإلى جانب ذلك، امتازت الأجواء العامة بحرية الرأي، فكان كل إنسان يقول رأيه دون خوف من التعرض للأذى أو الانتقاد حتى لو كان النقد موجهاً لنور الدين بالرغم من استعمال البعض لأساليب قاسية محربة، ولقد أورد المؤرخون الإسلاميون أمثلة عديدة لمواقف نور الدين التي تكشف عن أنه كان يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت حدته وينظر في كلام الناقدين، فإذا رأى فيه ما ينفع سارع إلى الأخذ به، وقد مر معنا كلام الواقع أبي عثمان المتخب بن أبي محمد الواسطي وكيف تناول موضوع الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه فحضره

(١) طبقات الشافعية (٦/١١٩ - ١١٧).

(٢) نور الدين محمود ، حسين مؤنس ص ٣٩١.

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٦٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٦٩.

(٥) التاريخ الباهري نقلًا عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٠.

و خوفه ما هو فيه وأنشد أمامه أبياتاً من الشعر^(١) - مَرْ ذُكْرُهَا -. إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة في الحركات الإسلامية والدول من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى ولقد عرف بعض الباحثين التخطيط بأنه: جسر الحاضر والمستقبل^(٢). إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا فإن الإداري المسلم يكون قد عرف التخطيط لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك في آيات كثيرة. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةِ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة^(٣).

إن نور الدين محمود رجل عاش مع كتاب الله، وعرف من قصة يوسف وغيرها أهمية التخطيط والإدارة، ولذلك نجحت إدارته، فقد أدرك الملك العادل أن الإسلام لا يقوم على التخمين والتواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها، فقد عرف أن من ثمار حسن إدارة يوسف عليه السلام وخططيه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائيد وعاد إلى الرخاء، والتخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما التنبؤ والأهداف، وأما العناصر فهي السياسات، والوسائل والأدوات، والموارد البشرية، والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية التقديرية^(٤). إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق، وهذا عين الذي مارسه الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. لقد جاء إلى الحكم يوم يوم وبرنامجه الإصلاحي السياسي والجهادي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي كل ذلك في ذهنه قد أعد إعداداً كافياً، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله تعالى. إن الاهتمام بالفكر الإسلامي وأصوله وقواعده وفق التصور الإسلامي الصحيح من الأسباب المهمة التي مارسها نور الدين محمود وساعدته على إنجاح مشروعه التهضيوي الكبير.

* * *

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٧٣ .

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٧ .

(٤) سورة يوسف .. دراسة تحليلية ص ٤١٥ ، ٤١٦ .

المبحث الخامس

النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية

أولاً : مصادر دخل دولة نور الدين وسياساته الاقتصادية :

ثمة سؤال يفرض نفسه قبل الحديث عن هذا الموضوع، فنور الدين محمود أنفق مقداراً كبيراً من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المشتبعة الواسعة، وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقديّة أكبر منها حجماً كانت تصب في خزائن الدولة ضرائب ومؤتاً ورسوماً ومكوساً، فمن أين كانت دولة نور الدين تحظى بموردها الدائم الذي يحميها من العجز، وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير بإسقاط المكوس والضرائب، وتتفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية دون أن يصيبها الخلل فتتوقف - على الأقل - عن العطاء إن لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد الفتق واستعادة التوازن والقدرة على العمل؟ إن دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال وبشكل دائم لما واصلت سياستها تلك لآخر لحظة، ولما وصفها العمام بأ أنها كانت: نافذة الأوامر، منتظمة الأمور^(١). وقد كانت خزائن الدولة تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرة على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي وغيرها بسبب سياسة نور الدين الحكيم، وإليك شيئاً من التفصيل:

١- نظام القطاع العسكري: اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع العسكري للصرف على جيوشهم خلال جهادهم ضد الصليبيين، فقد نشأ نظام الإقطاع العسكري في الشرق الإسلامي في الدولة السلجوقية التي كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامي حتى متتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها وإرهاق الإدارة المالية بياهظ المرتبات التي تصرف للجيش، إلى تفكير الوزير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية، بالإقطاعات من الأراضي لمختلف عناصر الجيش^(٢)، وقد انتقل نظام الإقطاع العسكري كاملاً إلى الدولة الزنكية التي نبت وترعرعت في أحضان السلاجقة ثم ورثتهم بعد ذلك^(٣). وقد ارتبط الإقطاع العسكري في عصر الزنكيين

(١) نور الدين محمود ص ١١٩، ١٢٠، البرق ص ١٤٧.

(٢) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين وابنه ص ٢٦ نقاً عن جيش مصر، حسان سعداوي ص ٢٠، ١.

(٣) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين وعماد الدين وابنه ص ٢٦.

بالخدمة الحربية، إذ كان الأمير المقطع يلزم بتقديم العساكر وقت الحرب مجهزة بكامل عتادها وعدتها، وكان إقطاعاً وراثياً، أي أن إقطاع الأمير أو الجندي ينبع بعد وفاته لأولاده^(١)، وفي حالة صغر سن الابن كان السلطان يعين من يدير الإقطاع حتى يبلغ سن الرشد. ومنح الإقطاع بواسطة السلطان لم يكن معناه تملك الأراضي الرزاعية للقطع، وليس معناه أيضاً تمنع المقطع بتحصلات الإقطاع لفترة طويلة، بل كان يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية العسكرية التي كان المقطع ملزماً بها^(٢)، والملحوظ أن توزيع الإقطاعات الحربية على النساء والأجنداد في العهد الزنكي شمل كل البلاد التي تمكّن عماد الدين وابنه نور الدين من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية آنذاك. والأدلة على ذلك كثيرة منها أنه عندما جآ نجم الدين وأنحوه أسد الدين شيركوه إلى الموصل، رحب بهما زنكي وأقطعهما الإقطاعات في شهرزور بشمال العراق ثم خص أسد الدين بالمؤزر^(٣). وأقطع الأمير جاوي الرحمة وأعمالها^(٤). وسار نور الدين محمود على نهج والده في توزيع الإقطاعات الحربية، فعندما استولى على دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، أقطع صاحبها مجير الدين ضياعاً بمحض عوضاً عن دمشق، كما أقطع شهاب الدين على بن مالك العقيلي سروج والملاحظة والباب وبزاعة^(٥). وأقطع في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م مجد الدين أبي بكر بن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر، ثم أقرها بعد وفاته سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م في يد أخيه علي ابن الداية، وأقطع نور الدين مسعود بن الزعفران حمص وحماة وقلعة بعرى وسلمية وتل خالد والرها^(٦)، كما أقطع أمراء العراق الإقطاعات لحفظ طريق الحجاج بين الشام والمحاجز، ولمثل هذا الهدف أقطع أمير مكة إقطاعاً وافرا^(٧)، وشمل الإقطاع الحربي في عهد نور الدين الأراضي المصرية، من ذلك ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن نور الدين عندما سمع بأن بعض أمرائه في مصر تردد في محاربة الفاطميين والصلبيين عند البابين في صعيد مصر، هددهم بأخذ إقطاعاتهم وإعادة الموارد التي أخذوها منها^(٨). واتبع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود أساليب عدة لتوزيع

(١) الكامل في التاريخ نقلأ عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.

(٢) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.

(٣) مفرج الكروب (١/٦ - ٣)، النجوم الزاهرة (٥/٢٧٧).

(٤) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.

(٥) مفرج الكروب (١/٦ - ٣)، النجوم الزاهرة (٥/٢٧٧).

(٦) كتاب الروضتين نقلأ عن مقومات حركة الجهاد ص ٢٨.

(٧) مقومات حركة الجهاد ص ٢٨.

(٨) الكامل في التاريخ نقلأ عن مقومات حركة الجهاد ص ٢٩.

الإقطاعات الحربية على أمرائهم وأجنادهم. منها ما كان الغرض منه استمالة الحكام المسلمين بهدف توحيد الجبهة الإسلامية، ومن ذلك أن عماد الدين عندما عزم في سنة ١١٤٥هـ الاستيلاء على قلعة جعبر وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، لما رأى حصاتها كتب إلى عز الدين علي بن مالك في معنى تسليمها، وفرض عماد الدين حسان المنجبي أن يضمن لعلي بن مالك الإقطاع الوفار والعطاء الكثير مقابل التسليم^(١)، ومن ذلك أيضاً ما ذكر أن نور الدين عندما حاصر دمشق سنة ١١٥٤هـ/٥٤٩م وأدرك صاحبها مجير الدين آبق عدم جدو المقاومة احتمى بقلعة دمشق ساعات ثم استسلم فأطلق نور الدين سراحه وأقطعه عوضاً عن دمشق حمص وأعمالها^(٢). كما منح الإقطاع في العهد الزنكي للأمراء والأجناد كمكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة سواء في مرحلة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة أو إبان مراحل جهادهم ضد الصليبيين، من ذلك ما ذكره ابن الأثير أن عماد الدين عندما ملك بعض ديار بكر سنة ١١٤٣هـ/٥٣٨م رتب أمور الجميع وجعل فيها من الأجناد من يحفظها^(٣).

ومن خصائص الإقطاع الزنكي انتقاله من مقطع إلى آخر عن طريق الوراثة أو غيرها، فتشير المصادر إلى أن عماد الدين زنكي قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق وأسكنهم بحلب وأعمالها وأمرهم بجهاد الصليبيين، وأعطاهم كل ما استقذوه منهم، ولم ينزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى نحو سنة ستمائة^(٤). وقد سار نور الدين على نهج أبيه يدلنا على ذلك قول ابن واصل أن نور الدين كان من آرائه الحسنة ما يعتمد من أمر اجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ذكرأً أقر عليه إقطاعه^(٥). ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة ١١٦٢هـ/٥٥٨م عندما هزم جيش نور الدين في هذه السنة أمام الصليبيين بالقرب من حصن الأكراد في المعركة المعروفة بالحقيقة، أصدر نور الدين أوامر بإحضار الأموال والدواب والأسلحة والخيام من دمشق وفرق ذلك على من سلم من عسكره ومن قتل أعطى إقطاعه لأولاده^(٦). وأما انتقال الإقطاع من مقطع إلى آخر من غير ورثته والذي يحدث غالباً إذا تقاعس المقطوع عن أداء واجبه أو متى بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية، يدلنا على ذلك ما حدث سنة ١١٦٧هـ/٥٦٢م عندما اختبر أسد الدين شيركوه رجاله لمعرفة ما

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، الباهر ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٠. (٣) الباهر ص ٦٦ ، مقومات حركة الجهاد ص ٣٠.

(٤) الباهر ص ٨٠ ، مقومات حركة الجهاد ص ٣١.

(٥) مفرج الكروب نقلأً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣١.

(٦) الكامل في التاريخ نقلأً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣١.

يمكن أن يقدموه إذا اشتبكوا مع الصليبيين والفااطميين في مصر، فأبدى بعضهم تخوفه من ذلك حيث صاح فيهم أحد أمراء نور الدين والذي كان مرافقاً لشيركوه قائلاً: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عندنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتغرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار^(١). ويظهر من خلال هذا العرض أنه كان على المقطع في مقابل الموارد المتحصلة من الإقطاع مجموعة من الالتزامات كان يؤديها للسلطان وهي في المرتبة الأولى للالتزامات حرية أملتها ظروف الجهد الذي اتصف به عصر الأسرة الزنكية؛ شملت تقديم العساكر وقت الحرب، فكان المقطع مسؤولاً مسؤولية كاملة عن نفقات عساكره، إذ كان عليه أن يخرج بهم إلى ساحات القتال مزودين بكل مستلزماته من مؤن وعتاد ودواب وغيرها فضلاً عما يتبع ذلك من تدريبات عسكرية فردية وجماعية لجيشه من أساليب القتال المعروفة آنذاك^(٢)، وإلى جانب ذلك كان على المقطع الاضطلاع بحماية إقطاعه من أي اعتداء خارجي، وفي ذات الوقت القيام بمراقبة تحركات الأعداء وتنفيذ بعض الأعمال الحربية ضد مراكزهم^(٣)، وصفوة القول فإن نظام الإقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع متى قصر في شيء منها كان كفياً بإخلاص الأمراء والجندي واستماتتهم في أداء واجب الجهاد في سبيل الله وتحقيق المزيد من الانتصارات ضد أعداء الإسلام والتوسيع في الفتوحات لجعل كلمة الله هي العليا، خاصة أن الزنكيين كانوا حريصين على تحري الدقة في توزيع الإقطاعات على أمرائهم وأجنادهم يخصون بها المخلصين منهم، يدلنا على هذا ما ذكرته^(٤) بعض المصادر من أن عماد الدين زنكي كان يقطع بلاده: لجند يختبرهم ويعرف نصوحهم وشجاعتهم^(٥). وعلى هذا النهج سار الملك العادل نور الدين محمود الشهيد.

٢- الزكاة والخراج والجزية: تشكل الزكاة والخراج والجزية جزءاً مهماً من موارد الدولة وتؤخذ حسب أحكام الشريعة الإسلامية. فالزكاة ركن من أركان الدين الإسلامي لا يمكن إسلام المسلم وإيمانه إلا بتأديتها، ولذلك يقبل المسلمون على تأديتها من باب الحرص على دينهم دونما إكراه من الدولة، وإن كان من حق الدولة إلزام من يمنعها من المسلمين

(١) كتاب الروضتين نقلأً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣٢ . (٢) مقومات حركة الجهاد ص ٣٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣ .

(٥) الباهر ص ٣٧ .

بتأديتها لأنها ركن من أركان الدين من حقوق المسلمين يجب على الدولة جمعها وتنظيم صرفها في مصالحهم. وقد ثبت بالتجربة من خلال التاريخ الإسلامي في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وال الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز^(١) أن الزكاة تسهم إلى حد كبير في سد نفقات الدولة إذا كانت الدولة تطبق الإسلام على حقيقته. وكان نور الدين يحكم أرضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي وبكثره ذميها ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الموجدين فيه يهرون لتقديم زكاة أموالهم قبل أن ترغمهم الدولة على الدفع، فكانت هذه الموارد الثلاثة تشكل ضماناً ثابتاً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنهما من العجز والإفلاس^(٢).

٣- الغنائم وفداء الأسرى: كانت الغنائم تمثل - بحق - مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في (حالة حرب) مع الأعداء وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في أغلب الأحيان، يقول سبط بن الجوزي على سبيل المثال: عاد نور الدين بعد فتح حارم عام ٥٥٩ هـ إلى حلب بالأسرى، ثم فاداهم وكان قد استفتى الفقهاء فقال قوم: يقتل الجميع، وقال آخرون: يفادى بهم، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار، معجلاً، وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والمدارستانات وغيرها من هذه المقادرة، وجميع ما وفقه منها، وليس فيها من بيت المال درهم واحد^(٣). ستمائة ألف دينار حصيلة معركة واحدة، فكيف سائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين والتي تغطي فترة حكمه من أقصاها إلى أقصاها؟ ثمة رواية أخرى فيها إشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المقادرة: وقع صاحب طرابلس أسيراً بيد نور الدين فأطلق سراحه لقاء ثلاثة مائة ألف دينار ومائة وخمسينأسيراً من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي^(٤). أما أبو شامة فإنه يطرح أرقاماً أخرى: مائة وخمسون ألف دينار، وفكاك ألف أسير من المسلمين^(٥). ومهما كان الأمر فإن المبالغ النقدية والعينية المرتبطة على فداء الأمير الصليبي كانت كبيرة حقاً، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الأقاليم التي فتحها كمصر واليمن وغيرها^(٦)، على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية أدركنا كم

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٠.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٢١.

(٣) مرآة الزمان (٨/٢٤٧ - ٢٤٨)، نور الدين محمود ص ١٢٤.

(٤) المتظم (١٠/٢٤٩)، نور الدين محمود ص ١٢٤.

(٥) كتاب الروضتين نقلأ عن نور الدين محمود ص ١٢٤.

(٦) البرق ص ١٢٣ - ١٢٤، نور الدين محمود ص ١٢٤.

كان واسعاً وكثيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق الشاطئ الحربي^(١).

٤- الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين والتي آلت خزانتها العظيمة إلى نور الدين - لحسن الحظ - بدلاً من أخيه الأكبر سيف الدين غازي، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في قلعة سنمار على الطريق بين الموصل وحلب، فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام ٤٤٥هـ وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب، فكانت كما يصفها كل من ابن الأثير وأبن العديم «كثيرة جداً»^(٢)، وأنها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال وكان من بين الأخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب^(٣).

٥- الأمانة العظيمة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة؛ تميز بأمانة عظيمة تجاه أموال الأمة والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة كيلاً يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص، وإن لنا أن نقدر حجم الخسائر التي كانت ستمني بها مالية الدولة لو ابتليت بمحاكم جشع وموظفين. لا يعرفون غير تنمية جيوبهم، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين وإن لنا أن نقدر - بالمقابل - ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وإيمانه والتزامه واختياره الدقيق لكتاب موظفيه وحسابه الشديد معهم^(٤)، فقد سار على نهج عمر بن عبد العزيز، وعنى بالحيلولة بين الولاية وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم. والأغلب أن ذلك عوض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين^(٥). وما قيل عن عمر بن عبد العزيز ينسحب بالضرورة على نور الدين^(٦)، كما أن وجود الحكومة الرشيدة التي كان يقودها نور الدين أسهم في تحقيق ما أراد، فقد اعتمد في إدارته لدولته الواسعة على حشد من العلماء والفقهاء المشهورين بالأمانة والاستقامة والكفاية، وكان أغلبهم قد مارس العمل مع الحكام والأمراء قبل العمل مع نور الدين، فاكتسب خبرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة فكان نور الدين يستشيرهم ويعقد لهم الاجتماعات لبحث الأمور المهمة^(٧)، وكان نور الدين يعتبر نفسه خازناً لأموال المسلمين يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط^(٨)، وألزم نوابه ورجال دولته بهذا الفهم الذي يرقى إلى أعلى مستويات الأمانة.

(١) نور الدين محمود ص ١٢٤.

(٢) زينة حلب (٢٩٨/٢)، نور الدين محمود ص ١٢٤.

(٣) الباهر ص ٩٨، نور الدين محمود ص ١٢٥.

(٤) نور الدين محمود ص ١٢٥.

(٥) الدولة العربية وسقوطها ترجمة عبد الهادي أبي ريدة ص ٢٩٦.

(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٠.

(٧) نور الدين محمود ص ١٢٥.

(٨) المصدر نفسه ص ١٩٠.

والإحساس بالمسؤولية، وفرض رقابته الصارمة على بيت المال في مركز الدولة وفي الولايات، ولم يتردد في محاسبة نوابه في الأقاليم إذا أحسن منهم ميلاً في هذا المجال^(١)، وأنزل عقوبة شديدة بأحد موظفيه بعد أن ثبت أنه استغل مركزه وأخذ من الأموال العامة فوق ما يستحق من راتبه^(٢)، قد مر ذكرها، ويكفي أن تذكر حادثة المال الذي وجده في الخزينة ولم يكن يعلم عنه من قبل، فأمر برده إلى القاضي كمال الدين الذي كان قد أرسله لبيت المال ليردء إلى أصحابه^(٣). لنعلمكم كان الرجل صارماً، ودقيقاً في مسألة الحلال والحرام فيما يتعلق بالأموال العامة فحفظت وانعدم التسرب منها إلى حد كبير إلى جيوب الولاة والموظفين^(٤).

لقد انتصر نور الدين على نفسه قبل أن يواجه أهله ورعايته بسياسته التقشفية، فاستطاع بإيمانه القوي أن يتجرد من أهواء الدنيا ومغريات الملك ومن مظاهر البذخ والترف التي كان يعيشها غيره من الحكام غير مبالين بما تعانيه خزينة الدولة بسبب ذلك، وألزم نفسه بالعيش المتواضع دون أن يفقد شيئاً من هيبة السلطان وقوة الحكم، بل كان كما قيل: من شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من الطافه وتواضعه ما يحيره^(٥)، فاقتدى به أهله وأمراؤه وقادته والتزموا البساطة في حياتهم، ثم انتقلت خصائصه إلى العامة من الناس، فكان لهذه السياسة أثراً بعيداً في توفير الأموال التي كانت تهدى في مجالات اللهو والبذخ والترف فصارت تصرف في وجوه الخير والمصلحة العامة^(٦).

٦- سيادة الأمن والاستقرار الداخلي: كانت التزاعات والحرروب بين الإمارات الإسلامية المتعددة في بلاد الشام قبل توحيدها تستهلك أغلب موارد هذه الإمارات وتنقضي على الأحوال المناسبة لاستغلال الأرض ورواج التجارة فيما بينها، فكانت الأوضاع الاقتصادية سيئة فلما توحدت بلاد الشام كلها تحت زعامة نور الدين زالت أسباب التوتر والنزاع وساد الأمن والاستقرار على الجبهة الداخلية، وأصبحت الجهود كلها موجهة نحو الخطر الخارجي المتمثل بالفرنجية الذين أصبحوا بفضل جهود نور الدين العسكرية في وضع دفاعي، ولا يشكلون خطراً مباشراً على المدن الإسلامية في بلاد الشام كما كانوا من قبل، فانصرف الناس إلى أعمالهم الزراعية والتجارية وهم مطمئنون، فتحسن الأحوال

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩.

(٣) عيون الروضتين نقلًا عن دور نور الدين محمود ص ١٨٩.

(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٩.

الاقتصادية وكثرة العمل، وكان من نتيجة ذلك كله زيادة مقدار الزكاة التي تشكل المورد الرئيسي لخزينة الدولة.^(١)

٧- **مساهمة الأثرياء:** أثرت جهود نور الدين وقيادته الحكيمية في إيجاد مجتمع التكافل والتضامن في بلاد الشام، وصار التعاون والترابط والمواساة سمات بارزة في المجتمع، وأخذ الأثرياء من أبناء الأمة يسارعون إلى أعمال الخير تأسياً بسلطانهم وطلبًا للأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، فتم بناء الكثير من المدارس والمساجد ودور الأيتام من قبل القادة والأمراء والولاة وغيرهم من الأثرياء حتى صارت هذه الأعمال من ظواهر المجتمع الدائم، وامتدت بعد دولة نور الدين واتسعت في زمن الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وما يهمنا هنا أن هذه المساهمات ساعدت في توفير الأموال لخزينة الدولة.^(٢)

٨- **المعاهدات والاتفاقيات:** فقد شكلت المعاهدات والاتفاقيات مورداً مالياً طيباً للدولة الزنكية ففي سنة ٥٥٧هـ / ١١٥٦ م سار نور الدين بقواته لمحاصرة حارم التابعة لإماراة أنطاكية، وجمع الصليبيون قواتهم لصدّه عنها، وكان في هذا الحصن رجل صليبي من دهاء الإفرنج، يرجعون إلى رأيه فنصحهم بمقاضاة نور الدين فوافق على ذلك مقابل أن يعطوه نصف أعمال حارم^(٣)، كما حدث سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣ م أن وافق نور الدين على إطلاق سراح بوهيمند (١٢٠١ - ١١٦٣ م) أمير أنطاكية بعد أن دفع فدية كبيرة وتعهد أن يرسل مالاً كثيراً وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين عنده، وفي السنة نفسها شاطر الصليبيين في أعمال طبرية، وقرروا له من المناطق التي يشاطرهم عليها مالاً في كل سنة.^(٤)

٩- **دعم الخليفة العباسي:** كان نور الدين يدين بالتبعية السياسية للخلافة العباسية السننية في بغداد فتحصل على إضفاء صفة الشرعية على قيام دولته والحصول على التأييد منها في أعماله الجهادية حرصاً - على ما يبدو - في ذات الوقت على طلب المساعدة المالية منها أحياناً لدفع حركة الجهاد ضد الصليبيين، يدلّنا على ذلك ما ذكر أن نور الدين محمود لم يترجح في أن يطلب من الخليفة العباسي المستجد بالله النعمان والأسلحة لسد الكلمة ودفع الملمة على أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩ م.^(٥)

١٠- **سياسته الزراعية:** عهد نور الدين إلى اعتماد سياسة زراعية سليمة كانت بمثابة

(١) (٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩١.

(٣) مفرج الكروب (١٢٨/١)، مقومات حركة الجهاد ص ٣٥.

(٤) الكامل في التاريخ تقللاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣٥.

(٥) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٥.

المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المخورية في عالم الاقتصاد، فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين وال فلاحين من كل صنوف الأذى والتخريب والعدوان التي كان يمكن أن تلحق كدهم من جراء حالة الحرب المستمرة، وتحرك الجيوش الدائم وتحوّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال لا تعرف طعم السلام إلا قليلاً.. وقد مر بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق كان يشدد على أصحابه وجنده ألا يفسدوا المزارع والضياع والقرى وألا يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق.. كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين، ونتذكر رواية ابن القلانسي: سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين فقال: لا أختر عن جهادهم. وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع وإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم. وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعرابان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم^(١). وقد نجح نور الدين في كسب الفلاحين ومثلوا دعماً حرياً متوجداً للجيش النوري وساعدتهم الدولة على الاستفادة من إمكاناتهم المميزة في مجال الزراعة، فقد امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوصية التربة بصفة عامة وتتوفر مصادر الري سواء من الأنهر أو الأمطار، أو الينابيع، والأبار وحرست الدولة على تشيد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهر إلى المناطق المزروعة، وقد أنتج القطاع الفلاحي العديد من المحاصيل الزراعية التي دخل بعضها في نطاق التصنيع مثل القطن وقصب السكر، والسمسم، والزيتون وغيرها^(٢).

١١- **المجال الصناعي:** امتازت الدولة النورية بتوافر المواد الالازمة للتصنيع وكذلك العمال المهرة ووسائل النقل، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحرير خاصة ثياب الدمسك^(٣) والموслиن، وكذلك صناعات الورق، والزجاج وغيرها. ويلاحظ أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات في عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم حينذاك، وهي أن الآلات التي أمكن استخدامها لهم كانت معقدة، ولم

(١) نور الدين محمود الرجل التجربة ص ١٢٢.

(٢) فن الصراغ الإسلامي الصليبي - السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣.

توجد المعادن التي يمكن أن تدار على طريق المعادن التي وجدت في بلاد الشام والجزيرة وظلت الطاقة الأساسية متمثلة في حركة الماء لإدارة الطواحين، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس في بيروت والموصى ومناطق أخرى في صناعات ثقيلة بل إن استخدام الحديد الخصى في صناعة أدوات الطب^(١) والجراحة، وكذلك الأسلحة، وأيضاً في بعض أدوات الصناعة البسيطة، وهذا الوضع بالطبع حد من نمو حركة التصنيع، ومن جهة أخرى حرست الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها في حركة التجارة الداخلية والخارجية النشطة ولم تشاً استثماره في المجال الصناعي^(٢)، حيث رغبت في توظيفه في المجال الذي توارثه وسبّرت أغواره، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقي في وسائل الإنتاج، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة، وعدم توافر وعي صناعي للطبقة الوسطى التجارية، أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة في عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لا ثورة، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية^(٣).

١٢- القطاع التجاري: اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية وكذلك الخارجية، واستطاعت التحكم في طرق التجارة في إقليم الجزيرة وخاصة بعد استرداد الراها جعلها تحكم في طرق التجارة التي تربط بين العراق وآسيا الصغرى من ناحية وبلاد الشام من ناحية ثانية. كما أن سيطرة نور الدين بعد ذلك على الأراضي المصرية وضمنها مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة بعد القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ م مكنته من الاتصال بتجارة الهند والشرق عبر مرين مائين هما الخليج العربي والبحر الأحمر^(٤). وكانت العشور يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة النورية سواء الداخلة أو الخارجة منها، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: (العاشر) أي: الذي يأخذ العشور^(٥)، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النبي ﷺ، وخلفيته الأول أبي بكر الصديق رض لأن تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل نشره، وبناء الدولة الإسلامية، فلما اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر رض وامتدت حدودها شرقاً وغرباً وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة ضرورة تلبيها المصلحة العامة، رأى الخليفة عمر رض أن يفرض تلك الضريبة على الوارد إلى دار الإسلام، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجار

(١) سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ص ١٥٩.

(٢) (٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي - السياسة الخارجية ص ٤٣.

(٤) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٧.

(٥) المراجج لأبي يوسف ص ٢٧١، اقتصاديات الحرب ص ٢٢٣.

ال المسلمين القادمين إلى بلادهم، معاملة بالمثل.^(١) وقد أجمع المؤرخون^(٢) أن أول من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب^(٣) طه.

اهتمت الدولة الزنكية بالحركة التجارية وإقامة العدد من المؤسسات التجارية مثل الخانات^(٤)، والفنادق^(٥)، وأورد ابن عساكر العديد منها في مدينة دمشق، كذلك شجعت التجار اليهود على المشاركة في النهضة التجارية التي شهدتها البلاد وقد استقروا في مناطق خطوط التجارة العالمية المارة بمدن الشام والجزيرة الكبرى مثل: دمشق وحلب، وشيزر، ومعرة النعمان والموصل وغيرها، ففي دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة وعرفت حارة باسمهم^(٦). وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلاف ووصفوا بأن منهم «ذوى اليسار»^(٧)، أي أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات الحقيقة للثروة وكذلك وجدوا مجالاً متسعًا في أعمال الصيارة^(٨).

وقد تاجرت الدولة التورية مع العديد من الكيانات السياسية في عالم البحر المتوسط، فهناك الامبراطورية البيزنطية، والقوى التجارية الإيطالية مثل جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفي،^(٩) وتمكن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام والجزيرة، وأقام قناصلهم في المدن الشامية والجزيرية مثل حلب، ودمشق، والموصل وغيرها، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية.^(١٠) ولا مراء في أن ذلك العهد قد شهد صحوة للطبقة الوسطى التجارية يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار في العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري المتخصص فهناك الخزانون ثم الركاضون، والمجهزون^(١١)، ويكشف لنا الدمشقي المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم كذلك ظهرت عدة أسرات تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرحيبي ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م الذي عاصر نور الدين محمود، فقد ترك أبناء لهم اشتغال جيد في هذا الفن^(١٢)، ووجدت في حلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة^(١٣) يتوارثونها، وطبيعي

(٢) سياسة المال في الإسلام ص ١٢٨.

(١) عمر بن الخطاب للصلابي ص ٣٢٧.

(٣) عمر بن الخطاب للصلابي ص ٣٢٧.

(٤) المحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان (١/٢٣٤).

(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة التورية ص ٤٤.

(٦) خطط مدينة دمشق ضمن كتاب ابن عساكر عبد القادر ريحاني ص ١٠٩.

(٧) فن الصراع الإسلامي الصليبي - السياسة الخارجية للدولة التورية ص ٤٥.

(٨) (٩) (١٠) المصدر نفسه ص ٤٥.

(١١) الإشارة إلى محسن التجارة للدمشقي، تحقيق الشوربجي ص ٧٤ ، ٧٥.

(١٢) تاريخ ختصر الدول لابن العربي ص ٢١٧. (١٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٤٦.

أنها نجمت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع. يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موجودة من قبل^(١)، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام^(٢)، وانطبق ذلك على بلاد الشام والجزيرة حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية، وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية حيث جبى فيها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق،^(٣) ويدو أن الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ولم تأس أن تجعلها في أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها، وتزايد ثرواتها على حساب احتياجاتها، واحتياج السوق الشامي واستقراره، ويدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد والأخشاب والقار وهكذا، فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد، ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ووقع ذلك في عام ٥٦٧هـ فقال:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عوضت مصر فيها من النشب^(٤)

إن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي غنممت الكثير واستفادت بعد الفتوحات ونصرة الإسلام من نشاطها التجاري إذ أخذت تجارة شمال الشمال ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا في أوروبا، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام وأيضاً القادمة من دمشق، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، وير بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال إفريقيا إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجاري، وأنها مثلت حركة اتصال مؤثرة وحيوية بين تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة، وتجارة الإقليميين المجاورين بصفة عامة^(٥). ويلاحظ أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي أسهمت في إحكام قبضتها على قسم حيوي من البحر المتوسط، ومن المؤكد فقد تمكنت من إخضاع

(١) تاريخ التجارة ص ١٩١.

(٢) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارات ص ٢٠٢.

(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٦.

(٤) الخريدة نقلًا عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٤٧.

(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٣٨.

الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب، ولا نغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقه وجبل نفوسة، قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الإفريقي خاصة تجارة الذهب والرقيق وهما عصب تجارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، المحطات البحرية مثل عيذاب على البحر الأحمر ودمياط والإسكندرية على البحر المتوسط أدركنا كم كان حجم القوافل المارة عبر تلك الطرق والمحطات التجارية المذكورة، ولامراء في أن خزيتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسعية^(١). وقد تكنت الدولة النورية من فتح أسواق جديدة في جميع المناطق التي أخضعتها لسيطرتها السياسية^(٢).

أ- مبدأ التخصص في التجارة الخارجية: شهدت التجارة في عهد تلك الدولة تطوراً مهماً من جراء التوسيع الخارجي، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بمحلي - قلب تجارة شمال الشام - صار هناك مبدأ التخصص في التجارة الخارجية، وفي قطاعات إقليمية منسقة وموزعة بين قسم من غربي قارة آسيا والشمال الأفريقي، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ثلاثة محاور:

* المحور الأول: المتجارة مع الكيان الصليبي، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليست لها موانئ على الساحل الشامي، وحيث إن تلك الموانئ خضعت لسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجاري بين تلك الدول والأسواق التجارية الدولية التي استهلكت متجاجتها التجارية مثل الامبراطورية البيزنطية وجنوب أوروبا وغربها، ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناً تجاريًّا لدمشق، وكذلك كان ميناء طرابلس مجالاً لتصريف متجاجات كل من حماه ومحصن، ولا نغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل مدن جنوة، والبنديقية، وبيزا، وأمالفي، دورها في دعم النشاط التجاري الصليبي^(٣).

* المحور الثاني: تجارة التوابل فقد نهض بأمرها الكارمية، وقد احتلت أهمية كبيرة في ميزانية الدولة، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية تمت لها بعد أن سيطرت على مصر وقضت على النفوذ الفاطمي بها، واحتاج الأوروبيون على نطاق متسع لتلك التوابل التي حددتها لويز بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة في الزينة والعطور، والعقاقير، والصيانة الكيماوية، والطهو^(٤).

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤١.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٠.

* المحور الثالث: تجارة الرقيق والذهب من بلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، فقد مثلت أهمية بالغة للدولة النورية، وقد تهيا لها أن تشارك في تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدت سيطرتها السياسية إلى مصر، وأمنتها بالسيطرة على برقة، وجبل نفوسة^(١) بطرابلس، وكذلك ياحكام قبضتها على النوبة أما تجارة الرقيق فكانت لها أهمية خاصة،^(٢) وازدهرت تجارة الذهب مع إفريقيا وعبر الصحراء الكبرى وغنم من وراء ذلك غنائم عظيمة، ولكن ينبغي أن ندرك أن امتدادها إلى تلك الحدود جاء متأخراً أي بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر عام ١١٧١هـ/١٩٥٦م وبالتحديد قبل ثلاث سنوات من وفاة نور الدين محمود نفسه.^(٣)

بـ- التجارة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس: لم تقاطع الدولة النورية مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما التجارة، بل إن القوافل استمرت تتردد بين الجانبين، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسي، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة، ومن المرجح أن الازدهار التجاري الذي شهدته ميناء عكا بالذات يرجع - في أحد أسبابه - إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذ اعتبر أحد الموانئ الرئيسية المهمة لتصريف تلك الدولة. وقد أثرت سياسة التوسع النورية والتدخل الذي جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبي على المستوى التجاري، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية إذ أنها لكي تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبع الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل^(٤)، كما كان الصليبيون في حاجة إلى استعمال نوع من العملات يقبلها التجار المسلمين، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصوري وتم استخدامه في التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق وقد شابه البيزنطي، وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً في كافة أنحاء بلاد الشام^(٥)، ويلاحظ أن الهدنات التي عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثراًها الفعال على التبادل التجاري بين الجانبين، إذ توافت عند ذلك المعارك ووجد التجار فرصة ساخنة لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب^(٦)، وأما الإمارات الصليبية فقد أفادت - شأنها في ذلك شأن

(١) تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد ص ٦٩.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤١. (٣) المصدر نفسه ص ٢٤٤.

(٤) مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق ص ١٢٤.

(٥) (٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤٧.

المملكة اللاتينية نفسها - من المتاجرة مع الدولة النورية^(١).

جـ- مكانة التجار عند نور الدين زنكي: تجدر الإشارة أن الدولة النورية حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها، وما ساعد على التعاون بين التجار ودولة نور الدين أن مصالحهما التقت مع بعضهما، فعندما سقطت دمشق في قبضة نور الدين محمود عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وبصورة غير دموية ودون جهد عسكري ضخم، مثل هذا دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، ومن الأمور ذات الدلالة: أن نور الدين عندما دخل المدينة، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدمشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم، ولتوسيع معالم سياساته الاقتصادية المرقبة^(٢). وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفتاتهم التجارية^(٣).

١٣- إلغاء الضرائب: أدرك نور الدين محمود أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن والأمثل لن يستكملاً أبداً من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لا يبقى هناك ظالم أو مظلوم، وكان موقفه الفعال ينطلق من الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ، وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير المواطنين وتقديم أوسع الخدمات لهم، وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي، وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغة التوسيع الضرائي السالب، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات، ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماماً، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتأخر، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته، وكان يحيط هذا التحرك - الذي أخذ يتضاعف بمرور الزمن - برقة صارمة على أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تتد إلية بسوء، كما يحيطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة، من أجل تفهم

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤٨.

(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٥٥.

وأعوها المزير ودفعها إلى مستوى الكفاية، يستند في ذلك كله على قدر من السياسات والموارد، كانت قادرة على تغطية متطلبات العطاء الواسعة التي نفذتها دولته الراشدة^(١). كانت الضرائب في عصر نور الدين تتزايد مع الزمن حتى إن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكشأ يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها، وابتكر ظلمة الحكام منهم أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن التجارة، وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجيء على الأرض حتى لم يبق للزراع ما ينفقون به، وأصبح الحكام يكلون جبائية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجيء أضعافه من الناس^(٢). في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب بعد - ولا شك - يثير استغراب الكثير من أبناء ذلك الجيل وهي خطوة إيجابية في طريق العدل الاجتماعي. وأخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منذ فترة مبكرة، وكان - حيناً بعد حين - يصدر الأوامر ويعمم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللا شرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدتها الحكام والأمراء الذين سبقو نور الدين، والتي كان لا يزال العديد من الحكام والأمراء الذين عاصروه يعتمدونها، وكانت شعبية تزداد باطراد عجيبة في خط متوازن مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها^(٣). وهذا يؤكد ما قاله الدكتور عماد الدين خليل: بأن إجراءاته الضرائية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحقيق العدل الاجتماعي وكان يتهزء الفرص المناسبة كفتح من الفتوح، أو انتصار من الانتصارات، أو حدث من الأحداث أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرد والعطاء^(٤).

أ- في دمشق عام ٥٤٩هـ: عندما دخل دمشق عام ٥٤٩هـ أصدر منشوراً بإسقاط المkos والضمادات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسوق: دور البطيخ، سوق الخيل، سوق البقل، ضمان الأنهر^(٥)، سوق الغنم، الكيالة.. وغيرها وقريء المنشور على المنبر: فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس والفلاحون والحرم والمعيشون برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه.

ب- في عام ٥٥٢هـ عندما دخل شيزر: أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمkos شمل أنحاء دولته وجاؤه المائة والخمسين ألف دينار وقد جاء فيه:.. هذا ما

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٤ . (٢) نور الدين محمود ، حسين مؤنس ص ٤٠٢ .

(٣) (٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٥ . (٥) أي احتكار توزيع الماء للري والشرب.

أقرب به إلى الله تعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا - رعاهم الله -
لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار.. أبادهم الله تعالى... إلخ ثم يعرض من المنشور
بعد هذه المقدمة قائمة بالواقع التي شملها الإلغاء والبالغ التي أُغفت من دفعها^(١).

ج- في الموصل عام ٥٦٦هـ: عندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ لم يشاً إلا أن يسقط عن
أهلها ما كانوا يرثون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل ذلك أيضاً عدداً
من المدن الجزيرية كالخابور ونصيبين وغيرهما، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العmad
الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: وقد قطعنا من كنز الأموال باليسير من الحال
فسحقاً للسحت، وسحقاً للحرام الحقيق بالمقت.. وتقىمنا بإسقاط كل مكس وضريبة في كل
ولاية لنا بعيدة أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهه، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، وإحياء كل سنة
حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير مكنته، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال
المحظورة خوفاً من عواقبها الريئية المذودرة فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائز جارياً.. وهذا
حق الله قضيئه وواجب علينا أدیناه^(٢).

د- في مصر عام ٥٦٦هـ: فقد رفع صلاح الدين في مصر في عام ٥٦٦هـ جميع المكوس
صادرها وواردها، جليلها وحقرها^(٣). وبين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ
من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً: فأطلقها نور الدين، وهذا لم تسع له نفس غيره^(٤).
ويؤكد ابن العديم أن عام ٥٦٧هـ شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين لإسقاط
المظالم والمكوس^(٥).

هـ وفي عام ٥٦٩هـ السنة التي توفي فيها نور الدين: قام بحملة تطهير أخرى للضرائب
فأسقط ما أطلق عليه «فريضة الأتبان» في بلاد الشام، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العmad
الأصفهاني. وقد اطلع أبو شامة على نسخة المنشور وعلامته بخط نور الدين «الحمد لله»،
وما جاء فيه: وبعد: فإن من سنتنا العادلة وعوايد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف، وإغاثة
الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنها الظالمون من جائزات الرسوم، وما نزال
نجد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة
ونصفّيها من الشبهة والشوائب، وللحق ما يعثر عليه من بوادي رسومها الجائرة بما أسفطناه

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٦ نقلًا عن كتاب الروضتين.

(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٩٨. (٣) الباهر ص ١٦٦، نور الدين محمود ص ٩٨.

(٤) البرق ص ١٤٣، نور الدين محمود ص ٩٩.

(٥) نور الدين محمود ص ١٠٢.

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله^(١) تعالى. ويلخص العmad الأصفهاني الوضع الضرائي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب سوى الجزية والخرج.. وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج^(٢). وقد مر الحديث عن إلغاء المكوس مفصلاً عند حديثنا عن العدل في دولة نور الدين محمود. إن نور الدين محمود في سياساته الاجتماعية والمالية يظهر حرصه العجيب على الأموال العامة وأموال الأمة التي هي حصيلة كدها ودعمها وعرقها، سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس أم عامة في أيدي الدولة.

وـ حمايته للرعية من جشع التجار: كان رحمه الله حريراً على حماية الرعية من أي مظالم قد تقع عليهم، حضر إليه يوماً جماعة من التجار وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار)؛ كان كل ستين منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة والتقصان مما يلحق بهم الكثير من الخسائر وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس فسكت وقتاً طويلاً ثم قال: إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد منهم عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، إيش يعمل بها، فيكون ذلك سبباً لخراب بيته ورفض من ثم الاستجابة لمطالب التجار^(٣).

زـ الأموال التي خلفها أمير شيزر: وعندما دخل شيزر عام ٥٥٢ هـ بعد أن خربتها الزلازل لم يكن لينسى أن هنالك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق وأن عليه المطالبة به والبحث عنه لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة، ويدرك ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال وهددها وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم وأنها لا تعلم شيئاً، وإن كان ثمة شيء فهو تحت الأنفاس^(٤)، ولا ندرى إن كان المال قد عثر عليه أم لا؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه^(٥).

حـ خراج معرة النعمان: ويحدثنا أبو طاهر الحميدي الفقيه: كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق وقد أخرججريدة (سجل) خراج الأملك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى أهلها فقال: رفع إلي الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة فيشهد أحدهم لصاحب في دعوى ملك ويشهد له هذا في دعوى أخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل

(١) البرق ص ١٤٣، ١، نور الدين محمود ص ١٠٢ . (٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٠٣ .

(٣) الكواكب ص ٢٤، نور الدين محمود ص ١٠٥ .

(٤) زيدة حلب (٣٠٧/٢)، نور الدين محمود ص ١٠٥ . (٥) نور الدين محمود ص ١٠٥ .

لهم بهذا الطريق، وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر ثم استعادها المسلمون مما سبب ضياع المستندات الخاصة بالملكية، فقلت له: أيها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكتشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستمد تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الأموال من أربابها بمجرد هذا القول؟ لا يجوز!! فأطرق نور الدين وقتاً طويلاً ثم قال: إني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك والتفت إلى كاتبه قائلاً: اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك^(١).

طـ- اختيار أصحاب الأمانة في الإشراف على المشاريع: عندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام ٥٦٦هـ ليكون مسجداً جاماً للمصلين ومدرسة كبيرة للدارسين، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولى أمر الإشراف على بنائه، لاسيما أنه عائد إلى حلب، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة وإنما بحث عن المشرف الأمين الذي يطمئن إليه فكان عمر الملاء الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون، ويحدثنا العماد الأصفهاني شاهد العيان عن الرجل فيقول: إنما سمي بذلك لأنك كان يملاً تنانير الجص باجره يتقوى بها وكان يهب كل ما يصل إليه ولا يستبقى لنفسه شيئاً. وكان العلماء والفقهاء والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، وكان نور الدين من أخصّ محبيه، ويستشيره في حضوره ويكتبه في مصالح دولته^(٢). هذا وقد أنفقت على الجامع الكبير أموال كثيرة واشترى عمر الملاء الأموال المحيطة به من أصحابها بأوفر الأثمان، وعندما تم إنشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام ٥٦٨هـ تقدم إليه عمر الملاء بدفعات الحسابات التي تضمنت تفاصيل الصرف بدقة بالغة، رفض نور الدين تدقيقها لثقة العميقه بتراهه الرجل.. عرف كيف يتقيه هذه المهمة أول مرة فاستراح إلى النتيجة^(٣).

المحاسبة الدقيقة لعمل الزكاة:

وحكى معين الدين محمد حميد القيسراني وزير نور الدين الشهيد قائلاً: انكسر عند ضامن دار الزكاة المعروف بابن شمام مال جم، فحبس، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية آلاف دينار وحمله إلى الخزانة، ولكنه بقي في الحبس مطالباً بما بقي في ذاته^(٤).

(١) الكواكب ص ٧١، نور الدين محمود ص ١٠٦.

(٢) كتاب الروضتين نقاً عن نور الدين محمود ص ١٠٦.

(٣) الكامل في التاريخ نقاً عن نور الدين محمود ص ١٠٦.

(٤) مفرج الكروب (١٩/١١): نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٠٦.

هذه الخطوط العريضة في مصادر دخل دولة نور الدين وسياساته الاقتصادية الرشيدة، من نظام القطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، والأمانة التي تميز بها حكومته الرشيدة، وأهمية سيادة الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية، ومساهمة الأثرياء، والمعاهدات والاتفاques التي يترتب عليها امتيازات مالية، ودعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وسياسة نور الدين الزراعية والصناعية والتجارية وغير ذلك من سياساته الاقتصادية الحكيمية هي ساهمت في دعم دولة الجهاد وتحقيق أهدافها.

إن من أسباب النهوض التي أخذ بها نور الدين الاهتمام بالجانب الاقتصادي، لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعف فيها يقهقرا ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على القادة المهتمين بأمر نهوض الأمة أن يعتمدوا على الذات في موارد ثابتة، وهذا عامل مهم من عوامل النهوض.

إن حاجات مشروع نهوض الأمة متعددة تحتاج إلى أموال طائلة لغطيتها، والمطلوب منحركات الإسلامية والحكومات كذلك أن تخرج من رجالتها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاقي الإسلام في التعاملات التجارية، وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتصر مع إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين، لإيجاد شبكات للتعاون الشمالي لمارقة الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية وبذل ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلامي على الأسواق العالمية وتوظيفه لخدمة المشروع الإسلامي من تحرير شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالي الدخيل والشيوعي^(١).

إن التاجر المسلم - في المفهوم الإسلامي الأصيل - من صناع الحياة، بل هم صناع الصناع، يقول الأستاذ محمد أحد الراشد في هذا الصدد: وعلى خطبة الدعوة أن توب توبة نصوحاً من إسرافها القديم في تعليم الدعوة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية^(٢). وطلب في كتابه (صناعة الحياة) من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق، لأن في ذلك مردوداً دعويًا وذكر اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق ونحن لا نحيد إلا سبهم ونضجر من المارون والأقباط والبهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٨٨.

(٢) صناعة الحياة ص ٤٦.

منهم السبق إلى المال، بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزماً، وبمساعدة قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبّهم وشتمهم. إلى أن قال:.. ولابد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصناعة والزراعة والعقارات والاستيراد والتصدير وبخاصة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فيها ظلم، وفي العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار^(١).

إن نور الدين محمود اهتم بالقوة الاقتصادية وجعلها في خدمة الأمة والدعوة وسياسة الدولة وقاده الفكر، ودعم بها مشروعه النهضوي.

ثانياً: سياسة الإنفاق في الخدمات الاجتماعية:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه، وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لغطية شتى الحاجات ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل وانتهاء بقضايا الروح ومروراً بال حاجات الفكرية والصحية وال عمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمارستانات والملاجيء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقنطرات والقنوات والأسوق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار.. وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة^(٢). كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز، لا أداة قسر واستنزاف^(٣)، فزمانه كما يقول أبو شامة: مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم^(٤).

١- المجال الصحي (المستشفيات): اهتم نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات) وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية، وتعتبر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات، وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧١٥ - ٧٤٧ م) هو أول من بني البيمارستانات الثابتة في الإسلام. كما بينا في كتابنا الدولة الأموية عوامل

(١) صناعة الحياة ص ٤٦، ٤٧.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١١. (٣) المصدر نفسه ص ١١٢.

(٤) كتاب الروضتين نقلأً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١٢.

الازدهار وتداعيات الانهيار. فإن الملك العادل نور الدين محمود وخلفاؤه من البيت الأيوبي هم أول من استكثروا منها من الملوك والسلطين واهتموا بدراسة الطب ومارسته اهتماماً بالغاً وقاية لبلادهم من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمود أحد مراكز تدريس الطب في بلاد الشام، وكان ذلك البيمارستان النوري يؤدي رسالة علمية لها أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية علاج المرضى ومتابعتهم^(١).

أ- البيمارستان النوري: قال ابن الشحنة: إن الملك نور الدين محمود هو الذي بني هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء^(٢). وقال الغزي: هو لصيق الهراء من جنوبها الشرقي، بناه نور الدين محمود زنكى^(٣). وقد ذكر ابن الشحنة أن الملك نور الدين حينما أراد بناء هذا البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذجعوا خروفاً وقطعوا أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الربع الذي كان في هذا الموقع، فبنوا البيمارستان^(٤) فيه، وهذه خطة حكيمية في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تendum فيه آلات قياس الأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء^(٥).

ويقع هذا البيمارستان حالياً في منطقة الجلووم الكبرى في الزقاق المعروف حالياً بزقاق الهراء^(٦)، وقد وجد مكتوباً عند باب البيمارستان: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل، صلاح الدنيا والدين، قسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلطانين، ناصر الحق بالبراهين محبي العدل في العالمين، قامع الملحدين قاتل الكفرا المشركين أبو القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته^(٧). وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان: قرية معرasha، ونصف مزرعة وادي العسل، من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا، وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها من المطعم، وئمن طاحون غربية طاهر باب الجنان، وثمانية أفدنة من مزرعة أبو

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكى ص ٤١٢.

(٢) الدر المتنبِّه ص ٢٣٠، الحياة العلمية في العهد الزنكى ص ٤١٢.

(٣) نهر الذهب (٦٤/٢)، الحياة العلمية في العهد الزنكى ص ٤١٢.

(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكى ص ٤١٣. (٥) المصدر نفسه ص ٤١٣.

(٦) أخبار حلب وأسواقها، خير الدين الأسدى ص ١٦٧.

(٧) نهر الذهب (٦٥/٢، ٦٦)، الحياة العلمية في العهد الزنكى ص ٤١٣.

مَدَّا يَا مِنْ عَزَازٍ، وَخَمْسَةُ أَفْدَنَةُ بِمَزْرِعَةِ الْحَمِيرَةِ الْمُطْخَ، اثْنَيْ عَشَرَ فَدَانًا مِنْ مَزْرِعَةِ الْغَرْزَلِ مِنْ الْمَعْرَةِ، وَثُلَّتْ قَرْيَةُ بَيْتِ رَاغِلٍ مِنْ الْغَرَبَيَّاتِ وَعَشْرَةُ دَكَائِنَ بِسَوقِ الْهَوَاءِ مِنْهَا ثَلَاثَةُ تَامَّ وَالْبَاقِي شَرْكَةُ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ، وَأَحْكَارُ ظَاهِرٍ بَابُ أَنْطَاكِيَّةِ، وَبَابُ الْفَرْجِ وَبَابُ الْجَنَانِ^(١)، وَكُثْرَةُ هَذِهِ الْأَوْقَافِ تَدْلِي عَلَى مَقْدَارِ الْمَالِ الْوَفِيرِ الَّذِي تَدَرَّرَ هَذِهِ الْأَوْقَافُ لِتَأْمِينِ نَفَقَاتِ هَذَا الْبَيْمَارِسْتَانِ الْكَبِيرِ^(٢)، وَقَدْ أَشَارَ مُحَمَّدُ كَرْدٌ إِلَى وُجُودِ مَكْتَبَةٍ مُتَخَصِّصَةً دَاخِلَ الْبَيْمَارِسْتَانِ تَشْمِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْكُتُبِ الطَّبِيَّةِ الَّتِي أَوْقَفَهَا الْمَلِكُ نُورُ الدِّينُ مُحَمَّدٌ عَلَى هَذَا الْبَيْمَارِسْتَانِ^(٣)، مَا يُؤْكِدُ أَثْرَ هَذَا الْبَيْمَارِسْتَانِ فِي النَّشَاطِ الْعَلَمِيِّ فِي هَذَا الْعَهْدِ إِلَى جَانِبِ الْوَظِيفَةِ الطَّبِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَقُومُ بِهَا^(٤).

بـ- الْبَيْمَارِسْتَانُ التَّنْوِيُّيُّ فِي دَمْشِقٍ: يَنْسَبُ هَذَا الْبَيْمَارِسْتَانُ لِلْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ مُحَمَّدِ زَنْكِيِّيِّ قَالَ عَنْهُ أَبْنُ الْأَئِمَّةِ: وَبَنَى الْبَيْمَارِسْتَانَاتِ فِي الْبَلَادِ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا الْبَيْمَارِسْتَانُ الَّذِي بَنَاهُ بِدَمْشِقٍ، فَإِنَّهُ عَظِيمٌ كَثِيرُ الْخَرْجِ بِلِغَنِيِّ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهُ وَقْفًا عَلَى الْفَقَرَاءِ فَحَسْبٌ، بَلْ عَلَى كَافَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ^(٥)، وَذَكَرَ أَبُو شَامَةَ أَنَّ لِأَصْلِ بَنَائِهِ قَصْةً عَجِيْبَةً وَهِيَ: أَنَّ نُورَ الدِّينِ رَحْمَةَ اللَّهِ وَقَعَ فِي أَسْرِهِ بَعْضُ أَكَابِرِ الْمُلُوكِ مِنَ الْفَرْنَجِ، خَذَلُوهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَطَّعُوا عَلَى نَفْسِهِ فِي فَدَائِهِ مَا لَا عَظِيمًا، فَشَاوَرُوا نُورَ الدِّينِ أَمْرَاءَهُ فَكُلُّ أَشَارَ بَعْدَمِ إِطْلَاقِهِ لِمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الضرَرِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ الْفَدَاءُ بَعْدَمِ اسْتِخَارَ اللَّهُ تَعَالَى، فَأَطْلَقَهُ لِيَلَّا لَيَلَّا يَعْلَمُ أَصْحَابَهُ وَتَسْلِيمُ الْمَالِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْفَرْنَجِيَّ مَأْمَنَهُ مَاتَ، وَبَلَغَ نُورُ الدِّينِ خَبْرَهُ، فَأَعْلَمَ أَصْحَابَهُ فَتَعَجَّبُوا مِنْ لَطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمُسْلِمِينَ حِيثُ جَمَعَ الْحَسَنَيْنِ وَهُمَا الْفِداءُ، وَمَوْتُ ذَلِكَ الْلَّعْنَيْنِ، فَبَنَى نُورُ الدِّينِ رَحْمَةَ اللَّهِ بِذَلِكِ الْمَالِ هَذَا الْبَيْمَارِسْتَانَ وَمَنَعَ الْمَالَ الْأَمْرَاءَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ إِرَادَتِهِ^(٦)، كَمَا عَلَقَ أَبُو شَامَةُ عَلَى قَوْلِ أَبْنِ الْأَئِمَّةِ: بِلِغَنِيِّ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهُ وَقْفًا عَلَى الْفَقَرَاءِ فَحَسْبٌ، بَلْ عَلَى كَافَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ^(٧)، فَقَالَ: وَقَدْ وَقَتَ عَلَى كِتَابٍ وَقَفَهُ فَلَمْ أَرْهُ مُشَعِّرًا بِذَلِكَ، إِنَّمَا هَذَا كَلَامٌ شَاعٌ عَلَى أَلْسُنَةِ الْعَامَةِ لِيَقُعَ مَا قَدْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَزاْحَةِ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفَقَرَاءِ فِيهِ وَاللهُ الْمُسْتَعِنُ،

(١) الدَّرُّ المُتَخَبُ ص ٢٣١، ٢٣١، الْحَيَاةُ الْعُلُمِيَّةُ فِي الْعَهْدِ الزَّنْكِيِّ ص ٤١٣.

(٢) الْحَيَاةُ الْعُلُمِيَّةُ فِي الْعَهْدِ الزَّنْكِيِّ ص ٤١٤.

(٣) خَطْطَ الشَّامِ (٦/١٨٧)، الْحَيَاةُ الْعُلُمِيَّةُ فِي الْعَهْدِ الزَّنْكِيِّ ص ٤١٤.

(٤) الْحَيَاةُ الْعُلُمِيَّةُ فِي الْعَهْدِ الزَّنْكِيِّ ص ٤١٤.

(٥) التَّارِيخُ الْبَاهِرُ ص ١٧٠، الْحَيَاةُ الْعُلُمِيَّةُ فِي الْعَهْدِ الزَّنْكِيِّ ص ٤٥٦.

(٦) كِتَابُ الرُّوْضَتَيْنِ نَقْلًا عَنِ الْعَهْدِ الزَّنْكِيِّ ص ٤٥٦. (٧) الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ ص ٤٥٧.

ولما صرَحَ بأنَّ ما يعُزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغیرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغذية والقراء، فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرَحَ قبل ذلك بأنه وقف على القراء، والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى، وروى أنَّ نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان – أي دواء للعلاج – وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى. والله أعلم^(١). وهذا الشرط يؤكِّد الهدف الاجتماعي النبيل من إنشاء هذا البيمارستان إذ كان القراء موضع عناية كبيرة لدى الملك نور الدين^(٢) رحمه الله، وذكر كرد علي أنَّ هذا البيمارستان ظلَّ عامراً إلى سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكية السليمانية المطلة على المرج الأخضر وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة ١٣١٧هـ بافتتاح المستشفى الجديد^(٣)، أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة للبنات ثم اتخذت سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م داراً لمدرسة التجارة الرسمية^(٤). وحالة البيمارستان النوري الحاضر جيدة وقد رُمِّمت قبة المدخل حديثاً على الشكل الذي كانت عليه ويقام فيه حالياً: متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية^(٥).

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبيعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ١١٧٤هـ / ٥٥٧م فذكر أنَّ أبي المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحواهم، ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشرفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لا يؤخر عنهم، وكان مع فراغه من ذلك، وظلوعه على القلعة وتقدهه المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماع من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقدعون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويُقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلث ساعات ثم يركب إلى داره^(٦)، وكان نور الدين قد أوقف على هذا

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٧.

(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٧.

(٣) خطط الشام ١٥٩/٦، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٨.

(٤) تاريخ البيمارستانات أحد عيسى ص ٢١٣. (٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٨.

(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٤٦.

البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخُرسانين^(١)، اللذين في صدر الإيوان^(٢). كما كان بعض مشايخ الطب ومتقدميهم يجعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه كما كان يفعل الطبيب مهذب الدين بن النقاش^(٣)، المتوفى سنة ٥٧٤ هـ - ١١٧٨ م، فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شارك في مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدرисه لطلابهم، ولم تُشر المصادر إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م وهي المدرسة قبلية الجامع الأموي بدمشق^(٤).

-٢- المساجد: اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أماكن التعليم على الإطلاق وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم وظل المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم^(٥)، ويروى العمام الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناf على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً^(٦). وأصلاح أحوال المسجد الأموي وأضاف إلى أوقافه المعلومة الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسمّاها مال المصالح^(٧). وأما أشهر المساجد التي بناها فهو المسجد النوري بالموصل الذي يذكره ابن الأثير بقوله: فجامعته في الموصى إليه النهاية في الحسن والإتقان^(٨) وبين جاماً في حماه على نهر العاصي وصفه ابن الأثير بأنه من أحسن الجوامع وأنزهها^(٩)، وأمر بإصلاح الجوامع في جميع المدن التي تأثرت بالزلزال سنتي (٥٥٢ هـ، ٥٦٦ هـ)^(١٠) وأصبحت المساجد في عصره من أهم المراكز العلمية والتي من أهمها:

١- في حلب: كانت المساجد من المؤسسات العلمية التي استخدمها نور الدين في الإحياء

(١) تعني المكان اللازم أو المخزن أو الخزانة.

(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٤٦.

(٣) (٤) (٥) المصدر نفسه ص ١٤٧.

(٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١٦.

(٧)

(٨) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨، الكواكب ص ١٧.

(٩) الباهر ص ١٧٠ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.

(١٠) الدر المختار ص ٦١، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٩.

السني والوقوف أمام المذهب الشيعي، ولقد شهدت المساجد في حلب نشاطاً علمياً واسعاً في مجال الدراسات الشرعية اللغوية والأدبية، واستمرت تلك المساجد في نشاطها العلمي رغم انتشار المدارس في هذه المدينة، حيث أشارت المصادر إلى النشاط العلمي في أول جامع أنشيء في حلب وهو:

* المسجد الكبير: وقد ذكر أن موضع هذا الجامع كان بستانًا للكنيسة العظمى في أيام الرومان، وهي منسوبة إلى هيلانة أو قسطنطين الملك باني القسطنطينية، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع المسجد الجامع^(١)، وقد ذكر ابن شداد أن هذا الجامع من بناء الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٧٠٥ هـ / ٧١٥ م) هو الذي قام ببناء هذا المسجد^(٢)، وفي شعبان سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع، كما احترقت الأسواق المجاورة له، فقام الملك نور الدين وأمر ببنائه واجتهد في عمارته، ونقل إليه عمداً من بعادين، وقنسرين لأن العمدة التي كانت فيه قد تفطرت من النار، وقام بإضافة سوق قبلي الجامع إليه، واتسع به المسجد، وأوقف نور الدين عليه أوقافاً كثيرة ويقع هذا الجامع حالياً في سويقة حاتم أشهر حارات حلب وأقدمها، ويبعد الجامع عن قلعة حلب الكبرى مسافة نصف ميل تقريباً من جهة الغرب، وبناه الحالى يرجع للعهد المملوكي باستثناء منارته التي يرجع تاريخها إلى سنة ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩ م^(٣). أما النشاط العلمي في هذا الجامع فقد أشارت المصادر إلى وجود حلقة عديدة يجتمع حولها المشغلون بالعلم أشهرها: السارية الخضراء التي كانت مخصصة للدراسات الأدبية، كما كانت حلقة الأدب واللغة والنحو تُعقد باستمرار في هذا الجامع إلى جانب قراءة القرآن الكريم والفقه^(٤). وقد أنشأ نور الدين في هذا الجامع زاويتين إحداهما لتدريس الفقه على المذهب المالكي، والأخرى لتدريس الفقه الحنفي. وقد كان هاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال فترة البحث وبخاصة في عصر مؤسسيهما وبالإضافة إلى تدريس الفقه في هذا الجامع، فقد حظي علم الحديث باهتمام الملك نور الدين محمود توجيهها منه لسياسة التعليم في عصره نحو الدراسات الشرعية ليدعم بها المذهب السني في حلب فأنشأ زاوية لتدريس علم الحديث في هذا الجامع، وأوقف عليها الأوقاف الكافية للصرف

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠.

(٢) زيدة حلب (١٠٥ / ٢)، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠. (٤) المصدر نفسه ص ٣٩١ ، ٣٩٠.

عليها وعلى المشغلين بها^(١).

بـ- المساجد في دمشق: قامت العديد من المساجد في دمشق بدور في نشاط الحياة العلمية في هذا زخم التوسيع الكبير في إنشاء المدارس وازدياد نشاطها في تلك الفترة، وكان من أبرز تلك المساجد ما يلي:

* الجامع الأموي: يُعد الجامع الأموي بدمشق من المساجد المتميزة بحسن عمارتها، أراد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥هـ - ٧١٥م) عندما عزم على بنائه أن يجعل منه مفخرة من مفاخر دمشق، فأنفق فيه الأموال، وجلب إليه المهرة من الصناع وأهل الفن البارعين، وبقي العمل فيه تسع سنين، أنفق عليه أربع مئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وبذلك أصبح مفخرة من مفاخر العمارة الإسلامية على مر العصور^(٢). وقد حظي هذا الجامع باهتمام بالغ ورعاية كبيرة من الخلفاء والملوك والحكام على مر العصور الإسلامية وذلك فيما يتعلق بمتابعة تعميره، وتحسينه، أو صيانته وزيادة الوقف عليه، وفيما يتعلق بتشجيع حلقة التعليم التي كانت تُعد في جنباته، والصرف عليها^(٣)، وقد ظل الجامع منذ بنائه منارةً للعلم والثقافة، ومدرسة جامعة لعلماء دمشق وطلابها فيه تلقى الدروس العلمية من كل فن، وإليه يفد طلاب العلم من كل صوب للنهل من معين الثقافة وللاجتماع بالعلماء الذين وقفوا أنفسهم في هذا المسجد على نشر المعارف وتدرис العلوم، واستمر هذا الجامع في العهد الزنكي قبلة للعلماء والدارسين، ومركزًا علمياً بارزاً، فيه تعقد حلقة التعليم الخاصة والعامة، وفي جنباته تنشر زوايا تدريس القرآن وإملاء الحديث، وفيه صُنفت وأُمليت العديد من المؤلفات المهمة مثل تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وغيره، كما توافر في المصادر ذكر الزاوية الغزالية، ومجلس ابن عساكر، وزاوية المقادسة والزاوية الكوثيرية، والسُّبُّ المجاهدي، وغيرها من منابر العلم في هذا المسجد والتي كان لها نشاط علمي مميز خلال هذا العهد، وكان النشاط العلمي في الجامع الأموي قد تركز على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والفقه، كما عُقدت في هذا الجامع العديد من مجالس الإملاء والسماع اجتمع إليها عدد من العلماء وطلاب العلم حتى أصبح هذا الجامع من أبرز مواطن الثقافة في دمشق تناوب فيه جلة من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في ميادين العلوم الشرعية، ولا تزال آثارهم ومؤلفاتهم

(١) الحياة العملية في العهد الزنكي ص ٣٩١، ٣٩٠. (٢) المصدر نفسه ص ٤١٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٤١٧.

باقية حتى اليوم ويصور أحد الشعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود، وهو علي بن منصور السُّروجي المتوفي سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) نشاط التعليم في هذا الجامع في قصيدة وصف بها النشاط العلمي الذي شهدته دمشق في العهد الزنكي فيقول:

كأنها جنة للخلد دائمة
قصورها فتحت منها المقاصير

في كل قطر بها للعلم مدرسة
يتلئ القرآن به في كل ناحية
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت
الملك والدين والدنيا بجمعها
والخليفة من أنواره سور^(١)

وكان من أشهر مرافق التعليم في هذا الجامع:

الزاوية الغزالية: تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي، كانت تُنسب إلى الشيخ المقدسي المتوفي سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) ثم نسبت إلى الشيخ أبي حامد الغزالى المتوفي سنة ٥٠٥ هـ (١١١٢ م)^(٢) لكونه دخل دمشق، وقصد الخانقاہ السميساطية ليخلو إليها فمنعه الصوفية من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن علم مكانه، وعُرِفت منزلته؛ فحضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، وأدخلوه إلى الخانقاہ، فعرفت تلك الزاوية به^(٣). وقد درس مجموعة من العلماء في هذه الزاوية بعد الشيخ نصر المقدسي منهم: تلميذه عالم الشام أبو الفتح نصر الله المصيحي المتوفي سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م والشيخ أبو النصر محمد بن علي الطوسي المتوفي سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م^(٤)، وخطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبلي الحارثي المتوفي سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م والصائين أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن عساكر المتوفي سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٨ م، وأبو الفضائل عبد الرحيم بن رُستم الزنجاني المتوفي سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٨ م^(٥)، ثم درس بها مرتين العلامة قطب الدين النيسابوري المتوفي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م^(٦). أن تدرس جميع هؤلاء العلماء الأعلام في الفقه الشافعي في هذه الزاوية يؤكد الأثر الكبير والنشاط العلمي المتواصل في هذا الجامع رغم انتشار المدارس في دمشق في هذا العهد، وربما كان هذا النشاط يفوق نشاط

(١) مرآة الزمان نقلًا عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٨.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٢٢-٣٤٦). (٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٤١٩.

(٥) طبقات الشافعية (٤/١٥٩)، الدارس في تاريخ المدارس (١/٤١٨).

(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٠.

الكثير من مدارس دمشق في تلك الفترة سيما أن هذه الزاوية تناوب عليها جُلة من أقطاب الفقه الشافعي في بلاد الشام في ذلك العصر^(١).

* **السبع المجاهدي**: يقصد بالسبع، قراءة سبع من القرآن ثم أطلق على المكان الذي كان يقرأ السبع فيه، ويقع هذا السبع على ما ذكر التعيمي داخل الجامع بمقصورة الخضر داخل باب الزيادة، وينسب للأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامي أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود، موصوف بالشجاعة والبسالة مواطن على الصلاة والصدقات، توفي في داره بدمشق في صفر ٥٥٥هـ - ١٦٠م ودفن بالمدرسة المشهورة باسمه^(٢).

* **الحلقة الكوثيرية**: تقع هذه الحلقة تجاه شباك الكلّاسة تحت مئذنة العروس بالجامع الأموي^(٣)، وقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل يوم بعد صلاة العصر «سورة الإخلاص» ثلاث مرات يهدون ثوابها للواقف، وله على ذلك مرتب يتولونه من ديوان السُّبْع الكبير^(٤). وقد ذكر التعيمي أن عدد طلاب هذه الحلقة في عصر وافقها يصل إلى ثلاث مئة وأربعة وخمسين طالباً^(٥).

* **حلقة لإقراء القرآن الكريم تحت قبة النسر**: ورد في ترجمة المقرئ الحنفي أبو العباس أحمد بن الحسين العراقي المتوفي سنة ٥٨٨هـ - ١٩٢م أنه قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ / ١٤٤٥م فنزل بها وكان يقعد لإقراء القرآن في الجامع الأموي تحت قبة النسر^(٦).

* **مجلس الحافظ ابن عساكر**: ذكر ياقوت الحموي أن الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن بن عساكر أكمل أربع مئة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد^(٧)، وكان الجامع الكبير بدمشق ميدان هذه الأمالى وبخاصة قبل إنشاء دار الحديث التورية بدمشق، والتي أملأى كثيراً من مجالسه فيها^(٨)، كما كانت تُعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالس السماع لصنفه الكبير «تاريخ دمشق»، وقد حفظت لنا العديد من هذه السمعاء ونشرت في المجلدة الأولى من الكتاب، وفيها ذكر لتاريخ السمعاء، وعدد سطور السمعاء، وعدد السامعين وهي الأمور التي لا بد من ذكرها عند تمام السمعاء^(٩).

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٠.

(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن الحياة العلمية ص ٤٢٠.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢١.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس (٤٥١/١).

(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢١.

(٦) شذرات الذهب (٤/٢٩٢)، الحياة العلمية ص ٤٢١.

(٧) معجم الأدباء (١٣/٨١).

(٨) المصادر نفسه ص ٤٢٢.

(٩) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٢.

* جامع القلعة: هذا الجامع أنشأه الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف الكافية للصرف على المسجد وإمامه ومؤذنه^(١)، وقد ذكر ابن شداد ضمن مدارس الحنفية مدرسة بجامع القلعة واقفها الشهيد نور الدين محمود، كما ذكرها النعيمي باسم: المدرسة النورية الحنفية الصغرى، بجامع قلعة دمشق^(٢).

ج- في الموصل، جامع نور الدين محمود: كان من ضمن أعمال نور الدين، أمره ببناء جامع يستوعب عدداً أكبر من المصلين وكان قد فوض أمر بناء هذا الجامع للشيخ عمر الملاء، وقد باشر الشيخ عمر بناء الجامع سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م واستمر العمل فيه نحو ثلاثة سنوات^(٣)، وكان نور الدين قد أنفق في بناء هذا الجامع أموالاً كثيرة، وأوقف عليه ضياع الموصل، وكان قد قدم الموصل سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م وصل إلى في جامعة بعد أن فرشه بالبسط والحضران، وعيّن له مؤذنين وخطيباً ورتب ما يلزمته^(٤). وقد بلغ هذا الجامع درجة عالية من روعة البناء وحسن التخطيط قال عنه ابن الأثير: فجامعة في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان^(٥)، وحينما اكتمل بناء هذا الجامع رأى نور الدين أن من الأفضل أن يجمع فيه بين الصلاة وطلب العلم، فأمر ببناء مدرسة بداخله، ووافق أن يصل الموصل في تلك السنة الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالى، ففوض إليه أمر التدريس في هذه المدرسة، وكتب له منشوراً بذلك^(٦).

هذا على سبيل المثال لا الحصر في اهتمام نور الدين بالمساجد وتفعيل دورها العلمي والتربوي، فكان لها آثار ملموسة في الازدهار العلمي وتطوره في العهد الزنكي، رغم وجود المدارس وانتشارها بشكل واسع في ذلك العهد^(٧). وتبقى ملحوظة مهمة هي: أنه لا يكاد يخلو مسجد من هذه المساجد من مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم، والتخصصات، وكانت تلك المكتبات تُوقف خصيصاً على المساجد ليرجع إليها الطلاب والباحثون، مثل مكتبة الشرقية لجامع حلب، وهي مكتبة عامرة، مسبلة للمطالعة، وتشتمل على الكثير من الكتب في مختلف فروع المعرفة^(٨).

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٢ . (٢) الدارس في تاريخ المدارس (١/٦٤٨).

(٣) كتاب الروضتين نقلأ عن الحياة العلمية ص ٣٥٦.

(٤) مرآة الزمان نقلأ عن الحياة العلمية ص ٣٥٦ . (٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٥٧ .

(٦) المصدر نفسه ص ٣٥٧ . (٧) تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٤ .

(٨) المصدر نفسه ص ١١٥ .

وهكذا كانت المساجد من المؤسسات المهمة في المجتمع الإسلامي وهي بمثابة المعاهد العلمية المشعة التي نهضت ب مختلف العلوم في هذا العهد أسوة بالعهود الإسلامية السابقة وخرجت العديد من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في تقديم العلم وازدهاره، وكانت تلك المساجد تتميز بتكافؤ الفرص بين الطلاب دون تمييز لغني منهم على فقير، فزاد إقبال طلبة العلم عليها، ولم يقف الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها، بل على العكس، فقد وجد الكثير من الأوقاف التي قررت لمن يرتاد هذه المساجد معلماً أو متعلماً حتى يتفرغوا لطلب العلم دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.

٣- المدارس: كانت المساجد المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها محل عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكن أخرى عرف بالمدارس وقد ناقش د. أحمد شابي هذا الأمر وعلله بأمور عديدة من أهمها:

- ازدياد الإقبال على الدراسات الشرعية، وبالتالي ازدحام حلقة التعليم في المساجد بالكثير من الرّواد، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقة صوت المدرس يُلقي درسه، وأصوات الطلاب يناقشوته ويسألوه، حتى تلاقت الأصوات المتضاعدة من الحلقة المتعددة، فأحدثت في المسجد شيئاً من الضجيج مما يتنافي مع مكانة المسجد، وهذا ما جعل احتمال المسجد للصلوة والتدريس معاً أمراً صعباً^(١).

- تطور العلوم والمعارف مع مرور الزمن، حيث أصبحت هناك مواد تستدعي دراستها الكثير من الحوار والنقاش، ومثل هذه المواد تتنافي مع ما يجب أن يكون عليه رواد المسجد من هدوء وسکينة^(٢).

- انشغال جماعة من المسلمين بالتعليم في حلقة المساجد معظم وقتهم ومحاولتهم الارتقاق عن طريق ممارسة حرف بسيطة قاموا بها إلى جانب التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى معيشي مناسب، مما أدى بهم إلى البحث عن مكان مستقل تتوفر فيه شروط التدريس من جهة، ويضمن لهم جرایات وافرة تقوم بمحاجاتهم من جهة أخرى^(٣)، وعلى هذا الأساس بدأ بتأسيس هذا المكان الذي حمل اسم «المدرسة» ومن ثم بدأت

(١) (٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١١٣ .

(٣) تاريخ التربية الإسلامية ص ١٤ ، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٢ .

طلائع الحركة المدرسية الفعلية بالظهور، والتطور مع الزمن^(١). وتطورت المدارس وازداد انتشارها في زمن السلاجقة على يدي الوزير نظام الملك السلجوقي. وقد ذكر السبكي في ترجمته لظام الملك ما نصه: وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة بمرو، ومدرسة بأمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة^(٢). وقد تحدثت عن المدارس النظامية بالتفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. ولما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شهدت حركة بناء المدارس انتشاراً واسعاً فقد أخذ في إنشائها واستدعي لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك دعم المذهب السني، ومقاومة مذهب التشيع في المنطقة^(٣).

أ- المدارس في حلب: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام ٥٤١ هـ (١١٤٦م) والذي ركز نشاطه منذ تسلمه الحكم في تنفيذ سياساته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنوية، وتوجيه التعليم وجهة سنوية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية، وقد جلب عدداً من العلماء الأكفاء لتولي المهمة، وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من تأصل الفكر الشيعي بها وتمكن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة^(٤)، وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة من مظاهرها إنشاء العديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المشهورة في العالم الإسلامي، بل ربما تفوقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٢، طبقات الشافعية (٤/٣١٣).

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٨٩.

إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي في نفس الفترة التي بدأ بها نظراً لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرة طيلة عصر نور الدين، والسلطان الأيوبيين والمماليك من بعدهم^(١). وكانت أبرز المدارس التي أنشئت في حلب.

- المدارس الشافعية:

* المدرسة الزجاجية: تعد هذه المدرسة من المدارس السابقة على الحكم الزنكي، فقد أنشأها بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي سنة (٥١٧هـ / ١١٢٣) وهي أول مدرسة سنية فيها، وحينما عزم بدر الدولة على بناء أول مدرسة بحلب لم يمكنه الخلييون من ذلك لغبطة نزعية التشيع فيهم، فكان كلما بني فيها شيئاً في النهار أخربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك فأحضر الشريف زهرة بن علي الحسيني وأوكل إليه أمر الإشراف على بناها ليكف عن الشيعة، فلازم الشريف زهرة بناء تلك المدرسة حتى تم الانتهاء منها^(٢). وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها^(٣)، ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسم الدولة آق سنفر حلب في سنة (٥٢٢هـ / ١١٢٨م) نقل والده وكان مدفوناً في قرنيبا^(٤)، فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد عماد الدين في وقفها للصرف على القراء والمتفقهين المرتدين بها^(٥)، وكان أبرز المدرسين في هذه المدرسة في العهد الزنكي: شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المتوفي سنة (٥٦١هـ / ١١٦٦م)^(٦)، حيث ذكر ابن شداد أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة فوضّع مُنشئها أمّر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين أبي طالب المعروف بابن العجمي، وقد استمر شرف الدين مدرساً بها إلى أن توفي سنة (٥٦٦هـ / ١١٦٦م)^(٧)، وتولى التدريس بها بعده حفيدها مجذ الدين طاهر بن نصر بن جهيل المتوفي (٥٩٧هـ / ١٢٠١م)^(٨) وأخوه زين الدين عبد الملك بن نصر بن جهيل المتوفي سنة (٥٩٠هـ / ١١٩٤م)^(٩)، وكانا من العلماء المتميزين والفضلاء المبرزين^(١٠).

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٨٥.

(٣) الدر المتنبّع ص ٨٤، ٨٥.

(٤) قرنبياً : يقع شرقى حلب.

(٥) الدر المتنبّع ص ١١٠، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٢.

(٦) طبقات الشافعية (١٤٧/٧)، الحياة العلمية ص ٣٩٢.

(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٣.

(٨) الحياة العلمية ص ٣٩٣.

(٩) الدر المتنبّع ص ٣٩٣.

* المدرسة النصرية (النورية): أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري هو أول من تولى التدريس في هذه المدرسة وكان قد إلتها من دمشق، ثم تولى تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهيل المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م^(١)، ولم يزل مدرساً بها إلى أن نقل إلى القدس الشريف فدرس به إلى أن توفي^(٢).

* المدرسة العصرونية: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دار لأبي الحسن علي بن أبي الثريّا وزيربني ميرداد أصحاب حلب، ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشتري هذه الدار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك (سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م) حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية^(٣)، وبعد أن أتى نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سنجر الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفي سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٣ م^(٤) وفُرض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أول من درس بها فعرفت به، ونسبت إليه^(٥)، ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدرّس في هذه المدرسة وينظر أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٤^(٦)، ولما خرج إلى دمشق استخلف (نيابة) فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبد الرحمن وظل هذا حتى ولـي قضاء حماة فغادر حلب^(٧). ومن أقام في هذه المدرسة الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصقلي المتوفي سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م^(٨)، فقد ذكر أنه حلّ بحلب وأقام بالمدرسة العصرونية وصنف كتاباً حسنة، فلما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنّة وأنظمتها فتنة سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م^(٩)، وُهبت كتبه فيما تهـبـ وـخـسـرـ جـزـءـاًـ مـنـ مـؤـلـفـاتـهـ الـقيـمـةـ،ـ رـحـلـ إـلـىـ حـمـاـةـ وـأـقـامـ بـهـ حـتـىـ وـفـاتـهـ^(١٠).

* المدرسة الشرفية: أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المعروف بابن العجمي المتوفي سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م وقد صرف شرف الدين على بنائـها

(١) الحياة العلمية.

(٢) طبقات الشافعية للأستوى (٣٧٢/١).

(٣) الدر المتنبـ ص ١١٠، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٥.

(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٤. (٥) المصدر نفسه ص ٣٩٥.

(٦) وفيات الأعيان (٣/٥٤)، الحياة العلمية ص ٣٩٧. (٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٧.

(٨) المصدر نفسه ص ٣٩٧. (٩) المصدر نفسه ص ٣٩٧.

(١٠) معجم الأدباء (٤٨/١٩)، بغية الوعاة (١٤٣، ١٤٢/١).

ما نيف على أربع مئة ألف درهم وأوقف عليها أوقافاً جليلة^(١).

* المدرسة الأسدية الجوانية: تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى ابن مروان المتوفى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م الذي أنشأها بحلة الرحبة بحلب للمذهب الشافعى^(٢).

* المدرسة الشعيبية: كان موقع هذه المدرسة مسجداً يقال إنه أول ما اخترقه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وُعرف هذا المسجد بأبي الحسن الغصائري المتوفى سنة ٣١٣هـ، فلما ملك نور الدين محمود حلب وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شعيب الأندلسى إلى حلب فصَرَّ له هذا المسجد مدرسة وجعله مدرساً بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرساً بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م^(٣).

- المدارس الحنفية:

* المدرسة الخلاوية (الخلوية): يذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلانى أم قسطنطين فلما حاصر الصليبيون حلب سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م قاموا بقطع الأشجار ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، فعمد القاضى أبو الفضل بن خشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصيَرَها مساجد وكانت هذه المدرسة تُعرف قدِيماً بمسجد السراجين، فلما ملك نور الدين محمود مدينة حلب جعل هذا المسجد مدرسة، وأنشأ فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء وإيواناً للدروس، وكان مبدأ عمارتها في سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م^(٤)، وقد جلب نور الدين إلى هذه المدرسة من أقاميه مجموعة من الرخام الشفاف «الذى إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهه ووصفه فيها»^(٥)، وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامكيّة، وكان من شروط الواقع: أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس يصنع بها للفقهاء طعاماً، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوي معلومة وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم، وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهه، وفي المولد أيضاً حلوى وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها من دراهم معلومة، وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخاً ومشمساً وتوتاً^(٦).

(١) الدر المتنخب ص ١١٢، الحياة العلمية ص ٣٩٨.

(٢) الحياة العلمية ص ٣٩٩.

(٣) ٤، ٥) المصدر نفسه ص ٤٠٠.

(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠١.

* المدرسة المقدمية: ذكر ابن شداد أن الذي أنشأ المدرسة هو عز الدين عبد الملك المعدم وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي ابن الخشاب مساجد في سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها، وأنه ابتدأ في عمارةها سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م)^(١). وكان أول من درس في هذه المدرسة الشيخ برهان الدين أبو العباس أحمد بن علي الأصولي مدرس المدرسة الحلاوية، ثم وليها بعده السيد الشريف الإمام العالم افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي، ولم يزل بها إلى أن توفي في جمادي الآخرة سنة ٦١٩هـ / ١٢١٩م^(٢).

* المدرسة الجديّة الجوانية: ذكر ابن الشحنة أن هذه المدرسة تنسب إلى نائب حلب في عصر نور الدين محمود وهو مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية المتوفى في رمضان سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)^(٣).

* المدرسة البرانية: ذكرها ابن الشحنة أيضاً، ونسبها إلى مجد الدين بن الداية مؤسس الجوانية^(٤).

* المدرسة الحدّادية (الحدّادين): ذكر ابن شداد أن منشئ هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م^(٥).

بـ في دمشق: كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م وهي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في العهد الزنكي لدمشق (٥٤٩هـ - ١١٥٤م - ٥٦٩هـ - ١١٧٤م) وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربع، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنفي، وأخيراً المذهب المالكي^(٦).

المدارس الحنفية:

* المدرسة الصادرية: أنشئت هذه المدرسة على يد الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة ٤٩١هـ، ١٠٩٧م داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي وهي أول

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠٥.

(٣) كتاب الروضتين نقلأً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٦.

(٤) أحياء حلب وأسواقها ص ١٤٢.

(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٦.

(٦) المصدر نفسه ص ٤٢٣.

مدرسة أنشئت في دمشق^(١).

* المدرسة الطرخانية: قال ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان وهي كانت قد يأوي للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن فوقفها سنقر الموصلي وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة^(٢).

* المدرسة المعينية: ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة المعينية في قصر الثقفيين^(٣)، وقال ابن شداد: حصن الثقفيين أنشأ معين الدين أثر أتابك الأمير مجير الدين آبق آخر الحكم البوريين بدمشق^(٤)، وذكر الصفدي: أن معين الدين قد بني هذه المدرسة للشيخ أبي المظفر محمد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف بابن الحكيم العراقي مدرس الصادرية والطرخانية المتوفى ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٥).

* المدرسة التُّورِيَّة الكبُرَى: ذكر كل من أبي شامة وابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخواصين^(٦)، وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي^(٧)، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً وأنها قصر من القصور الأئقية^(٨). وفي هذه المدرسة يقول الشاعر المشهور عرقلة الدمشقي المتوفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٩):

وتدلى في حمى علم وئشك
بنور الدين محمود بن زنكي
بغير كنایة وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي^(١٠)

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة

(١) الدارس في تاريخ المدارس (٥٣٧/١).

(٢) تاريخ دمشق نقلًا عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٥.

(٣) تاريخ دمشق نقلًا عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٦.

(٤) الحياة العلمية ص ٤٢٦.

(٥) الدارسي في تاريخ المدارس (٢٠٣/٢).

(٦) يسميه أهالي دمشق حالياً: سوق المحاطن.

(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٧.

(٨) الرحلة ص ٢٥٦.

(٩) مرآة الزمان نقلًا عن الحياة العلمية ص ٤٢٩.

(١٠) كتاب الروضتين نقلًا عن الحياة العلمية ص ٤٢٩.

دور التعليم، وتوضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومدرسوها ومُعیدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا منها إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد^(١)، وياستراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكُون العتبة العليا لباب المدرسة يتبيّن لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق من ريعه على الطلاب والمدرسين، والعاملين بالمدرسة إنفاقاً سخياً متواصلاً..

ونص هذه الكتابة كالتالي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رض، ووقف عليها، وعلى الفقهاء، والمتفقهة بها جميع الحمام المستجد بسوق القممح، والحمامين المستجدين بالوراقية ظاهر باب السلامة والدار المجاورة والريع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتاً خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريها، على ما نص وشرط فكتب الوقف رغبة في الآخرة، وتقديمه بين يديه يوم الحساب: فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمها على الذين ييدلونه إن الله سمِيع عليهم^(٢).

* المدرسة الخاتونية البرانية: كانت هذه المدرسة مسجداً أوقفته السيدة زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دُفَّاق بن ثُوش المتوفاة سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م^(٣)، وتاريخ وفاتها سنة ٥٤٨هـ / ١١٣٢م على الشيخ أبي الحسن علي البليخي المتوفي سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م^(٤)، وقد ذكر الذهي أن السيدة زمرد خاتون على قدر من الثقافة والعلم واستنسخت الكتب وحفظت القرآن وبنت الخاتونية بصناعة دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي فقيت معه تسعة سنين، فلما قُتلت حجّت وجاءت بالمدينة ودفنت بالبقيع^(٥).

- المدارس الشافعية:

* المدرسة الأمينية: ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة من بناء أمين الدولة ربيع الإسلام، وزاد عليه النعيمي أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق بناها أتابك العساكر بدمشق وكان يقال له أمين الدولة، وكان مبدأ التدريس بها سنة ٥١٤هـ على ما ذكر الذهي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُّلْمي الدمشقي الشافعي مدرس الغزالية

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٠.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس (١/٢٠٥، ٣٠٥).

(٥) العبر (٣/٢٧)، الحياة العلمية ص ٤٣١.

والأمينة ومفتى الشام في عصره المتوفى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨ م^(١).

* المدرسة المجاهدية الجوانية: وواقف هذه المدرسة الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامين بن علي بن محمد الجلالى الكردي أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود وقبله^(٢).

* المدرسة المجاهدية البرانية: تنسب هذه المدرسة للأمير مجاهد الدين بُزان واقتصرت المدرسة المجاهدية الجوانية وقد دفن فيها بعد وفاته^(٣).

* المدرسة العmadية: بناها نور الدين محمود رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درس بها^(٤)، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده. وقد ذكر العmad خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢ م فقال: وفي رجب من هذه السنة فوضى إلى المدرسة التي بحضرمة حمام القصير، وعول على في التدرис بها والنظر في أوقافها^(٥).

* المدرسة العصرورية: تنسب هذه المدرسة للفقيه العلامة قاضي القضاة شرف الدين عبد الله بن محمد بن أبي عصرون المتوفي سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م^(٦)، وقد بني لها مدارس عديدة بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها^(٧)، وقد وردت نصوص تفيد أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون قد بني لنفسه بدمشق^(٨)، يقول عنه ابن خلkan: توفي ليلاً الثلاثاء الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسين بمدينة دمشق، ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد وهي معروفة به^(٩).

المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية:

* المدرسة الأسدية: تنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه، أحد أمراء نور الدين الكبار المتوفى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨ م^(١٠). وقد درس في هذه المدرسة عدد من المدرسين على المذهبين الحنفي والشافعي، ذكر النعيمي منهم خلال العهد الزنكي: الوعاظ

(١) الحياة العلمية ص ٤٣٢.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس (١/٤٥١)، الحياة العلمية ص ٤٣٥.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس (١/٤٥٣، ٤٥٤)، الحياة العلمية ص ٤٣٧.

(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٣٩.

(٥) المصدر نفسه ص ٤٣٨.

(٦) وفيات الأعيان (٣/٥٤).

(٧) وفيات الأعيان (٣/٥٥).

(٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤١.

(٩) الدارس في تاريخ المدارس (١/١٥٢).

الحنفي المعروف بابن الشاعر نزيل القاهرة سنة (١١٨٨هـ / ١٦٨٤م)^(١). وكان قد قدم دمشق وسمع الحافظ ابن عساكر وغيره، فحدث وأفاد ودرّس بالأسدية^(٢).

- المدارس الحنبلية:

* المدرسة الحنبلية الشرفية: ذكر ابن شداد أنها من إنشاء سيف الإسلام أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٣).

* المدرسة العمريّة: سماها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر بالجبل في وسط دير الحنابلة، وذكر أن بانيها ووافتها هو الشيخ أبو عمر الكبير^(٤)، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الأولياء المشهورين، وذكر ابن طولون أنه إلى الشيخ أبي عمر وإلى ولده أحمد بن قدامه المتوفي سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م يرجع سبب كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وببلاد الشام، فوالد الشيخ أبي عمر كان قد فر بدينه وعياله من نابلس بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس، ووصلوا إلى دمشق في سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م ونزلوا في سفح جبل قاسيون بمسجد أبي صالح، وهذا عرفوا بالصالحين، وأقاموا في السفح متولاً كثيراً الحجرات عُرف بدير الحنابلة، ثم تابع البناء وعمرت تلك الأراضي ودُعيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصالحين لما عُرف منهم من علم وتقى وصلاح^(٥)، وكان آل المقدسي عندما هاجروا إلى الشام استقر نزطهم في الجبل وكان الناس يزورن الشيخ أحمد بن محمد بن قدامه وكان السلطان نور الدين الشهيد يأتي إلى زيارته^(٦).

- المدارس المالكية:

* المدرسة النورية الصلاحية: ذكر الإربلي: المدرسة النورية ضمن مدارس الطائفة المالكية بدمشق ولكنه لم يحدد موقعها^(٧). وأثبت ابن عساكر المدرسة النورية في حديثه عن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة النورية التي أوقفها نور الدين على المالكية في حجر الذهب^(٨). هذه هي أهم المدارس التي كانت في دولة نور الدين وهي على سبيل المثال لا الحصر.

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٤.

(٢) الدارس (٤٧٣/١)، الحياة العلمية ص ٤٤٤.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٦.

(٥) القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية (١٢٥/١).

(٦) المدرسة العمريّة بدمشق وفضائل مؤسسيها ص ٣٩.

(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٨.

(٨) المصدر نفسه ص ٤٤٨.

٤- دور الحديث: على الرغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي، وشيوخ لفظ «مدرسة» على المكان المخصص للتعليم والإقامة والرعاية، فقد وجدت بجانبها دور تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس وإن لم تحمل اسمها، فلفظ دار كان مرادفاً في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة، وقد ورد كثيراً في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، ولم يطلق عليها مسمى مدرسة، ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية مخصصة لهذا العلم، وقد عنى المسلمين بدراسة الحديث الشريف عناية كبيرة باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وأحواله من حيث رواية الحديث والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث أحوال رواتها ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السنداً اتصالاً وانقطاعاً، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، والمزاد منها مبيناً على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقاً لأحوال النبي ﷺ^(١).

وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وتشيد دُور خاصة به من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام كما ذكرنا ذلك، وهي دار الحديث التُّزريَّة بدمشق والتي أُسند أول مهمة للتدريس فيها، والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م^(٢)، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي، وُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكاً منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي الذي تحمل عبء تقويضه من المنطقة ونشر المذهب السني^(٣)، أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد العدون، فكثُرت الدراسات والتاليف حول فضائل الجهاد والحدث عليه، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص، وكانت دور الحديث مقرأً لذلك النشاط^(٤). وليس هناك اختلاف في نظم التعليم بين دور الحديث والمدارس الأخرى سوى في كون المناهج الأولى تُركز على الدراسات المتصلة بعلوم الحديث بينما يغلب التخصص الفقهي على مدارس العصر، وهذه

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة ص ١٣٢.

(٢) التاريخ الباهري ص ١٧٢، الحياة العلمية ص ١٣٣.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٣.

خطورة تميزت بها حركة التعليم في العهد الزنكي لعدم وجود مثل هذا النوع من المدارس قبل ذلك، إذ أن دراسات الحديث كانت تتم في حلقة المساجد، كما كانت مادة إضافية في العديد من المدارس الفقهية، ومع ذلك فإن علم الحديث لم تقتصر دراسته في العهد الزنكي على تلك الدور فحسب، بل كان يضاف لمناهج الدراسة في كثير من المدارس، إضافة إلى تحصيص بعض الزوايا الملحقة بالمساجد لتدرسيه^(١).

أ- في حلب: وردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسها وكانت أبرز تلك الدور ما يأتي:

- دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود^(٢)، وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدرис هذا العلم والتي سبق الحديث عنها^(٣).

- دار أخرى أنشأها نائب نور الدين في حلب محمد الدين ابن الداية المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م^(٤).

- دار أنشأها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانقاه التي بنتها^(٥).

ب- في دمشق: سبقت الإشارة إلى أن الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وإنشاء دُور خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث التورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدرис فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦ م) ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي. ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار^(٦).

دار الحديث التورية^(٧): أجمعـت كثـيرـ من المصـادرـ عـلـىـ أنـ هـذـهـ الدـارـ مـنـ إـنـشـاءـ الـمـلـكـ العـادـلـ نـورـ الدـيـنـ مـحـمـودـ زـنـكـيـ وـأـنـهـ أـوـلـ دـارـ مـنـ نـوـعـهـ فـيـ إـسـلـامـ^(٨). قال عنه ابن الأثير: وبنى بدمشق أيضاً داراً للحديث، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه^(٩)، وكان نور الدين قد عهد بأمر التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٣٤.

(٢) الدر المتنبـ ص ١٢٣.

(٣، ٤، ٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٨.

(٦، ٧، ٨) المصدر نفسه ص ٤٥٠.

(٩) التاريخ الباهري ص ١٧٢، كتاب الروضتين نقلـاً عن الحياة العلمية ص ٤٥٠.

الدمشقي المتوفي سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م^(١)، وكان من بين تأليف الحافظ كتاب سماه: تقوية الملة على إنشاء دار السنة في ثلاثة أجزاء^(٢)، حيث كانت هذه الدار تسمى دار السنة في السمعاءات القديمة التي قرئت بها، وقد زاد من مكانتها أن الذين تولوا التدريس فيها في أول أمرها هما الحافظ الكبير وابنه القاسم بهاء الدين المتوفي سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م من بعده، ثم تناوب فيها جلّة من علماء الحديث البارزين، وكانت هذه الدار مركز إشعاع للدراسات الحديثية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)^(٣).

٥- الخوانق والربط: تُعد الخوانق والربط من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، حيث يمارس فيها التصوف سلوكاً بالإضافة إلى قيامها بوظائف دينية واجتماعية أخرى، ولكنها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية بالإضافة إلى مهمتها الأساسية التصوف^(٤). وكان التصوف في تلك الفترة اتجاهًا له نفوذه وسيطرته، وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، فكان الصوفية محل تقدير الحكام واحترامهم، وقد بُرِزَ نور الدين في هذا المجال، وحظي الصوفية لديه بمكانة عالية فأكملوه، وأذن لهم من مجلسه وبنى لهم الخوانق والربط في شتى أنحاء مملكته^(٥)، وكانت مراكز الصوفية تلك مكاناً للعبادة والدرس قدمت مع دور التعليم الأخرى خدمات جليلة لحركة التعليم في ذلك الوقت.^(٦) وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد، والمدارس، ذلك لأنها لم تُبنَ أساساً لأغراض التعليم، والقيام بوظائفه، وإنما بُنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون بأنفسهم لعبادة الله تعالى، فخصصت لهم تلك الدور لإقامة حيز لهم فيها كافة أسباب الراحة والعيش حتى يتفرغوا للعبادة وطلب العلم بعيداً عن مشاغل الحياة، وكان منشئوها يوقفون بعض الأوقاف للصرف عليها وعلى مِن ينزل بها من الصوفية.

١- في حلب: أشارت المصادر إلى العديد من الخوانق التي كانت قائمة بحلب في العهد الزنكي من أشهرها:

- خانقه البلاط: ذكر ابن شداد أن منشئها هو شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٠.

(٢) معجم الأدباء (٧٨/١٣)، الحياة العلمية ص ٤٥٠.

(٤) المصدر نفسه ص ١٣٥.

(٣) الحياة العلمية ص ٤٥١.

(٥) الباهر ص ١٧١، الحياة العلمية ص ١٣٥.

(٦) الباهر ص ١٧١، الحياة العلمية ص ١٣٥.

رضوان ابن تاج الدولة **ئىش السلاجقى**، وهي أول خانقة بنيت بحلب وذلك سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م^(١).

- خانقة ابن العجمي: تُنسب هذه الخانقة لشمس الدين أبي بكر بن العجمي أخي الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن المتوفي سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ و كان موقع هذه الخانقة داراً يسكنها شمس الدين بن العجمي فلما توفي سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ أوقفها أخيه شرف الدين أبو طالب على الصوفية، وجعل لها وقفاً يدر عليها^(٢).

- خانقة القديم: أنشأها نور الدين محمود، وتولى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسي^(٣).

- خانقة ابن المقدم: تُنسب هذه الخانقة لعز الدين عبد الملك المقدم منشأة المدرسة المقدمية الخنفية المتقدم ذكرها.

- خانقة القصر: وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد زنكي، وسميت بهذا الاسم لأنها كان في مكانها قصر من بناء شجاع الدين بن فاتك وكان مبدأ عمارتها لها سنة ثلاثة وخمسين وخمسين^(٤).

- خانقة مجذ الدين بن الداية: تُنسب هذه الخانقة لنائب حلب في عصر نور الدين محمود وأخيه من الرضاعة مجذ الدين أبي بكر محمد بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م^(٥).

خوانق النساء: إلى جانب الخوانق الخاصة بالرجال، أنشئت في العهد الزنكي خوانق خاصة لإقامة النساء، يتبعن فيها ويتلقين دروساً في الوعظ الديني، ومن أشهر هذه الخانقات في حلب «خانقة نور الدين» حيث ذكر ابن شداد أن الملك نور الدين أنشأ خانقة للنساء سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م على الأرجح^(٦)، ولكنه لم يحدد موقع هذه الخانقة، كما أنه لم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر.

هذه أهم الخوانق التي كانت قائمة في حلب في العهد الزنكي، وقد كان لهذه المؤسسات مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد نظراً لما كان يُعقد فيها من دروس وحلق ووعظ، إلى جانب قيامها بالوظيفة الأساسية التي أنشئت من أجلها وهي إيواء المتصوفة

(١) (٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٤١٠.

(٤) (٥) المصدر نفسه ص ٤١٢.

(٦) المصدر نفسه ص ٤١١.

للانقطاع فيها للعبادة، ومجاهدة النفس والبعد عن الدنيا^(١).

بـ- في دمشق: وشهدت دمشق خلال العهد الزنكي العديد من الخوانق والرّبّط، وكانت لها مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في هذا العهد، فقد كانت ميداناً للتعليم إلى جانب ممارسة التصوف بها كنشاطٍ أساسي أنشئت تلك الدور من أجله، وكانت أبرز هذه المنشآت ما يأتي:

- **الخانقاه السُّمِيَّساطيه**: تُنسب هذه الخانقاه للسُّمِيَّساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السُّلْمي الحُبْشِيِّ المتوفي سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م كان من أكبر الرؤساء في دمشق^(٢)، وكان أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه في العهد الزنكي الوزير أبو المظفر الفلكي، فقد قدم دمشق زمن الملك نور الدين محمود فارتبطه عنده وأنزله هذه الخانقاه وجعله شيخها وأسهم أبو المظفر في زيادة عمارتها^(٣).

- **خانقاه القصر**: ذكر كل من ابن شداد والإربلي أن هذه الخانقاه تُسبّب لشمس الملوك وذكر الحُسْنِي^(٤) أنه إسماعيل بن تاج الملوك بوري المتوفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م أما ابن جبير السابق لهما فقد نسب هذه الخانقاه للملك نور الدين محمود حيث شاهدتها في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ووصفها بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (يعني الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في أعلى مساكن لم ير أجل إشرافاً منها، وهو من البلد بنصف الميل له بستان عظيم يتصل به، وكانت متزناً لأحد الملوك الأتراك فيقال: إنه كان في إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استووه به من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم، فطال العجب من السماحة بثله، وبقي أثر الفضل فيه خلداً لنور الدين رحمه الله^(٥).

- **الخانقاه الأسدية**: تُنسب هذه الخانقاه للأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م^(٦)، منشأة المدرسة الأسدية المشتركة بين الحنفية والشافعية بالشرق القبلي ظاهر دمشق^(٧)، وكانت هذه الخانقاه داخل باب الجابية، بتدريب الهاشمين المعروف بباب الوزير^(٨).

- **خانقاه الطاحون**: تُنسب هذه الخانقاه للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وهي

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥١.

(٣) الوافي بالوفيات (١٥ / ٢٢٤)، الحياة العلمية ص ٤٥٣.

(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٤.

(٥)

الرحلة ص ٢٥٧، الحياة العلمية ص ٤٥٤.

(٦) ٦، ٧، ٨، الحياة العلمية ص ٤٥٥.

خارج البلد بالوادي ^(١).

- **الرباط البباني:** جاء ذكر هذا الرباط عند ابن شداد: رباط أبي البيان بحارة درب الحجارة ^(٢). وذكر السبكي أن هذا الرباط ينسب إليه إنما أنشأه بعد موته بأربع سنين، اجتمع أصحابه على بنائه وقد أعادهم الملك نور الدين وأوقف عليه مكاناً بجُرّين ^(٣).

ج- **في الموصل:** كان في الموصل في العهد الرنكي ربط عديدة شاركت في نشاط الحياة العلمية في ذلك العهد، حيث كانت مراكز للتعليم والتثقيف والتأليف إلى جانب قيامها بوظائف التصوف التي أنشئت من أجلها، ومن الملاحظ هنا أنه لم يفرق بين الخانقاه والرباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد ^(٤)، وكان من أشهر الربط التي كانت قائمة بالموصل:

- **رباط الملك سيف الدين غازي:** أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين (٥٤١ - ١١٤٩ / ٥٤٤) وهو الرباط المجاور لباب المشرعة وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفسي باحتياجاته ^(٥).

- **رباط الوزير جمال الدين الأصفهاني:** يُنسب هذا الرباط للوزير الموصلي جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالجواود المتوفي سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م ^(٦)، وقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بني الربط بالموصل، وسنجار ونصبيين وغيرها ^(٧).

- **الرباط الزيني:** لم يقتصر بناء الربط على الملوك الرنكيين بل تبعهم في ذلك أمراؤهم ووزراؤهم فأنشأوا الكثير من الربط في الموصل وغيرها كما أنشأوا دُور التعليم الأخرى، وكان من أنشأ رباطاً بالموصل الأمير زين الدين على بن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) والمدرسة الزينية، فقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بني مدارس وربطاً بالموصل وغيرها ^(٨).

- **رباط بن الشهريزوري:** أشار إليه ابن خلkan في ترجمته للشيخ عز الدين أبو القاسم بن عقيل بن نصر الإيلبي المتوفى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) حيث ذكر أنه ساكن ظاهر الموصل في

(١) الحياة العلمية في العهد الرنكي ص ٤٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٦.

(٣) طبقات الشافعية (٧/٣١٩)، الحياة العلمية ص ٤٥٦.

(٤) الحياة العلمية في العهد الرنكي ص ٣٨٤.

(٥) الباهر ص ٦٣ مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٣٨٤.

(٦) الحياة العلمية ص ٣٨٤.

(٧) التاريخ الباهر ص ١٢٩، الحياة العلمية ص ٣٨٥.

رباط الشهري، وقرر له صاحب الموصل راتباً، ولم يزل هناك حتى توفي^(١).

وقد قامت الخوانق والربط في عهد نور الدين بدور كبير في الجهاد وجمع المعلومات وتحريك العامة والدعاة للجيوش الإسلامية، ومقاومة التشيع الرافضي، وتعليم الجهال أمور دينهم، وكانت الدولة التورية تشرف على ذلك وتوظف هذه الطاقات لخدمة مشروع النهوض. وكان للخانقاه عادة شيخ يتولى نظارتها والإشراف عليها يُسمى شيخ الشيوخ، وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه المناصب شرطًا عده وأداباً تؤهله لذلك، منها ما ذكره السبكي من أنه لابد أن يتمتع بقسط وافر من العلم والحلم، وأن يتحمل الأذى والضيم على نفسه، وأن يكون حسن التلفظ، حريصاً على الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يحرص على تعليم مريديه العلم النافع، متدرجاً بهم بالأهون فالأهون، مبتعداً بهم عن الألفاظ التي يصعب عليهم معرفتها^(٢). وكان الملك نور الدين قد عهد هذا المنصب للفقيه عماد الدين عمر بن علي بن حمويه المتوفي سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م^(٣). وكان قد قدم دمشق في أيامه، ولم يلبث أن آنس منه نور الدين علماً وزهداً، ففوض إليه سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م مشيخة الخوانق والربط في كل من دمشق، وحمص وحماة، وحلب، وبعلبك^(٤). ومنذ أن تولى الشيخ عمر بن حمويه هذا المنصب أطلق عليه لقب شيخ الشيوخ وهو اللقب الذي عرف به شيخ الصوفية أو ناظر الخوانق منذ ذلك الوقت^(٥).

٦- الكتاتيب أو الكتاب: يطلق على المعلم الذي يتعلم به الصبيان وكانت تقوم مقام المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر، وقد اتخذ المعلمون في العهد الزنكي زوايا بالمساجد وغرفاً ملائقة لها لتعليم الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي في شتى المدن الزنكية، من ذلك الحلقة الكوثيرية والمجتمع السُّبُعي وكلاهما في الجامع الأموي^(٦)، ويبدو أن السبب في اتخاذ المساجد أمكناً لتعليم الصبيان يعود إلى أن كثيراً من معلميهما كانوا يعتكفون في هذه المساجد، وكان يحترفون هذه المهنة ليضمنوا منها كسب عيشهم، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد، فلزم حضور الصبية إليهم وبجانب هذه الكتاتيب قامت أخرى مستقلة عنها، وقد أنشئ هذا النوع لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب

(١) معيد النعم ص ٩٧، الحياة العلمية ص ١٣٧.

(٢) العبر في خبر من غير (٧٤/٣) الحياة العلمية ص ١٣٧.

(٣) الدارس (١٥٣، ١٥٤/٢)، الحياة العلمية ص ١٣٧.

(٤) المصادر نفسه ص ١١٩.

(٥) الحياة العلمية ص ١٣٨.

(٦) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ١٢٠.

لتعليمهم بأجر، أو إحضار مؤدين يعلمونهم في بيوتهم، وقد اهتم رواد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب وأكثروا منها في بلادهم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبة في الأجر، وحرصاً على نشر العلم، وقد أطلق على هذا النوع من الكتاتيب (مكاتب الأيتام) أو (مكاتب السبيل). وقد خصّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية فقال: ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم، وعليهم بقدر ما يكفيهم^(١)، كما تحدث ابن جبير عن واحد من هذه الكتاتيب في دمشق، ووصفه بقوله: وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوهم^(٢). كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس ويجانبها مكاتب الأيتام حتى إذا أتم الصبي تعليمه في الكتاب، انتقل إلى المدرسة إن رغب في مواصلة دراسته وله الجرایة المستمرة أو النفقه الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قائمًا على القلعة في الموصل المتوفى سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م إذ أنشأ مكتباً للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة^(٣). وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية حيث وجد العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس، أو قريبة منها^(٤)، وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانباً من العلوم الإسلامية المُتفقة مع قدراتهم لتكميل تنشئة الصبية على أسس إسلامية متينة^(٥). وهكذا نرى أن للأطفال نصيباً في المشروع الإسلامي النهضوي الذي قاده نور الدين للتصدي للأخطار الباطنية والغزو الخارجي، والسير على نهج الإحياء الإسلامي السني الكبير.

٧- المكتبات: تعد المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان المعيار الذي يُحكم به على تقدم هذا المجتمع أو ذلك العصر وقد كانت المكتبات بمثابة دور التعليم في شتى العصور الإسلامية، وهيئات يتفق عليها الملوك، والأمراء، والأثرياء، والعلماء، لنشر العلم بين الناس، خصوصاً في وقت لم يكن للطباعة أي وجود، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في هذا العمل، فكان يتذرع على الكثرين من طلاب العلم اقتناه الكتب لقلة عدد نسخها وارتفاع أسعارها، لأنها تنسخ باليد، ومن هنا نشأت فكرة جمع

(١) الرحلة ص ٢٤٥.

(٢) وفيات الأعيان (٤/٨٢، ٨٣)، الحياة العلمية ص ١٢١.

(٣)، (٤)، (٥) الحياة العلمية ص ١٢١.

الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الإطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عُرف بـ (خزائن الكتب أو المكتبات)^(١)، وقد اهتم الزنكيون - كغيرهم - بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، وغيرها من دور التعليم القائمة في ذلك العهد وقلما نجد داراً تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب والباحثون في مختلف التخصصات تبعاً لحجم تلك الدار، والأوقاف التي أوقفت عليها، ولا أدل على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيمة، وجعل عليها وقفاً كبيراً يصرف منه على المكتبة والمشغلين بها^(٢). وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: إنه حصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة^(٣).

-٨- الإنفاق على الأيتام والأرامل: كانت طبيعة المجتمع جهادية واشتبك المسلمون مع الصليبيين في معارك كثيرة وترتب على ذلك تزايد أعداد من الشهداء وخرجت للوجود ظاهرة الترميل ووجدت النساء المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في ساحات الوعى. وأشارت الدولة النورية على تزويع الأرامل والاهتمام بهن، ووُجد الأطفال اليتامي الذين فقدوا آباءهم في ساحات الهيجاء العنيفة والاهتمام، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرست على علاج أوضاعهن من خلال صرف مخصصات لهم من مال وكساء^(٤)، ففي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م استدعي نور الدين محمود بن زنكي رؤساء دمشق ومشايخها ومقدمي حاراتها ودوروبها، وقال: أريد منكم أن تكشفوا عن أحوال مجاوريكم فعرفوني باليتامي والأرامل ومن انقطع عن التكسب ومن اختلت أحواله لأنظر في حاهم ففعلوا ذلك، فبعث إليهم بالغلات والكسوات ووظف لهم الوظائف^(٥)، وكان نور الدين محمود يعني بعائلات الذين ماتوا في ميادين المعارك أو موتاً طبيعياً، فإن توفي أحد أجناده ولد يقره على إقطاع أبيه، وإن كان الولد صغيراً رتب معه رجلاً يوثق به إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد من الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب^(٦).

(١) الحياة العلمية ص ١٢١.

(٢) مرآة الزمان نقاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٥٤.

(٣) تاريخ دمشق نقاً عن الحياة العلمية ص ١٥٤.

(٤) زينة حلب (٣٩/٢)، فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٦١.

(٥) الكامل في التاريخ نقاً عن الخدمات العامة في بغداد ص ٨٠.

(٦) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٩١.

٩- الإنفاق على الحصون والخانات و«المجال العمراني»: كان نور الدين محبًا للبناء وال عمران ولكن ليس لبناء القصور وأماكن اللهو والترف، فقد كان أبعد الناس عن هذا المعنى، إنما العمران الذي يقضي الحاجة، ويخدم مصالح الأمة، كأسوار المدن والقلاع وال حصون الضرورية لحماية السكان وصد هجمات العدو، وإسكان الجند، وحفظ المؤمن والأسلحة اللازمة للقتال، الأمر الذي كانت تقتضيه ظروف المواجهة مع الغزاة الفرنجية، ثم المساجد والمدارس ودور الأيتام والغرباء الضرورية ل التربية الأجيال على الخير والصلاح، والمستشفيات والأسواق والخانات والحمامات والقوافل والقناطر والجسور لتسهيل العمل بالزراعة، والتجارة، من أجل تحقيق الكفاية وتحسين المعيشة وزيادة موارد الدولة، وهذا هو العمران الذي أحبه نور الدين وأنفق القسم الأكبر من خزينة الدولة في سبيل تحقيقه^(١)، فقد بني أسوار مدن بلاد الشام جميعها وأصلاح القلاع وال حصون بعد الزلازل التي حصلت عام ١١٥٢هـ / ١٧٥٢م وكذلك بعد الزلازل التي وقعت عام ١١٧١هـ / ١٧٦٠م^(٢)، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة يقول ابن الأثير في ذلك: فمن ذلك أنه بني أسوار بلاد الشام جميعها وقلاعها ف منها حلب وحماء وحمص ودمشق وباريين وشير ومنبع وغيرها من القلاع وال حصون وحصنها وأحکم بناءها وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به التفوس^(٣)، وكنا قد تحدثنا بنوع من التفصيل عن المدارس والمستشفيات ودور الأيتام والمساجد.

ومن مظاهر العمران التي استحدثها نور الدين بناء الأبراج على الطرق بين الإمارات الفرنجية وما جاورها من بلاد الشام حتى المدن الرئيسية (دمشق، حلب، حماه، حمص) ووضع فيها حاميات صغيرة ومعهم الزاحل ليذروا من يليهم من بلاد المسلمين عن حركات الفرنجية، فيستعد المسلمون للقائهم، فكانت هذه الأبراج تعمل ك نقاط مراقبة دائمة لتمرير المعلومات عن العدو.^(٤) وأما ما يتعلق بالمرافق العامة كالخانات والحمامات، والأسواق ودور الوضوء فقد تميزت مدن الشام بكثرتها وترتيبها ونظامها، فقد وصف ابن جبير دمشق بقوله: وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة وأسواق هذه البلدة من أفضل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً ولا سيما قيسariاتها، وهي مرتفعة كأنها الفنادق متقدفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور^(٥).

(١) سنا البرق الشامي ص ٢٧.

(٢) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٨٧.

(٣) (٤) الباهر ص ١٧٠، ١٧١، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٣٥، ٢٣٦.

ويصف ابن جبير مدينة حلب بقوله: أما البلد فموضعه ضخم جداً حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبرها، متصلة الانظام مستطيلة، تخرج من كل سماط صنعة أخرى إلى أن تفرع من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل؛ السماط خزانة واحدة، وتخللتها شُرف خشبية بديعة النقوش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم، وهذا الجامع من أحسن الجواجم وأجملها، وحسنها أكثر من أن يوصف. ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإنقان صنعة^(١). واتسعت مدن بلاد الشام وتضاعف عدد سكانها عدة مرات خلال عهد نور الدين^(٢). فقد كانت بنيات مدينة دمشق - أحياناً - من ثلاثة طبقات تحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاثة مدن. وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة وصارت تعاني من كثرة العالم، وامتدت بساتين دمشق من حولها إلى مسافة خمسة عشر ميلاً، ولم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مُغل. ومع أن نور الدين كان يركز في البناء والعمران على البساطة والمتانة إلا أنه كان يميل إلى تجميل البناء وتحسينه ليكون البناء متناسقاً حسن الصورة مع عدم المبالغة في الزخرفة والترزيع، فقد أحضر للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب قطعاً من الرخام الشفاف من مدينة أقاميه، وأمر بتجميل محراب المدرسة العمادية في دمشق بقصوص من الذهب، وبنى في قلعة دمشق داراً عامّة سماها دار المسّرة وأوقف بعض البساتين في دمشق على تطبيب جوامعها ومدارسها^(٣). لقد شكلت الإنجازات الباهرة المتعددة التي حققها نور الدين أركان نهضة الأمة. والجدير باللاحظة والاعتبار أن نور الدين حقق هذه الإنجازات في ظل ظروف بالغة الصعوبة فقد كان في حالة حرب مستمرة مع الغزاة الفرنجة^(٤).

- ١٠- فـك الأسرى: وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين، لقد فرق الرجل أثني عشر ألف دينار في فداء أسرى أهل الشام فكان يقول: هؤلاء يفكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم^(٥).
- ١١- خدمات اجتماعية كبيرة: في عام ٥٦٩هـ، السنة التي توفي فيها نور الدين،

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨.

(٣) الكواكب الدرية ص ٤٧.

(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨.

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ ، نور الدين محمود ص ١١٨.

شهدت دولته جملة خدمات اجتماعية أخرى، شملت الكثير من القطاعات وتطلب الكثير من النفقات: فزيادة الأوقاف ووسع الصدقات، ووفرت النفقات، ويجمع عدد من المؤرخين على أن تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للإعجاب وتوضح لنا إلى أي مدى كان نور الدين يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفنانها الفقيرة المحتاجة، ملباً ونفقة وإشباعاً، إكساء الأيتام والنسوة وتزويع الأرامل وإغاثة الفقراء وختان الأطفال^(١). ويلقى العmad الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله:.. حسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر فقد زاد على ثلاثة ألف دينار ذهباً، وكان إذا من بصدقة غلة أو ذهب تقدم إلى خادمه بإحضار جماعة من أمثل البلد وعدوله من أهل كل محلة فيقول لكل واحد: كم تعرف في جوارك من المحتاجين وغيرهم؟ فيقول: أعرف كذا وكذا فيسلم إليه صدقات أولئك الأعداد، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين. ثم يأتيه كل منهم يثبت ما فرقه^(٢).

لقد تحقق في عهد نور الدين محمود ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية. إن المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب.. ولكن المجتمع الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله، المجتمع الذي يحيى فيه الاستغلال، وتضيق الفوارق ويشترك الجميع بالحق والعدل فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية، لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء الآفاق الواسعة الرحيبة التي جاء الإسلام لكي يقوم الناس إليها. لقد تحقق التعاون الفعال بين القيادة والقواعد^(٣)، فنهض الجميع من كبوته واستوعب مشروعه الحضاري وقام بدوره الريادي. وهذه صورة من بين عشرات الصور، التي وصف بها هذا المجتمع بمحضها عنوانها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين:.. إن الحاج الدمشقي مع من انصاف إليهم من المغاربة، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (٥٨٠هـ)، خرج الناس لتلقفهم، الجم الغفير رجالاً ونساء يصافحونهم.. وأخرجوا الدرارهم لفقارائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الأطعمة.. وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم - إن أحب - ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، ويتنال الخبرز عليه من أهل الضياعة ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى^(٤). وفي مكان آخر يقول ابن جبير شاهد العيان هذا مثمناً أخلاقية المجتمع الإسلامي هناك:.. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقة كلها إلا مبادرة

(١) زينة دمشق (٢٤٠/٢)، نور الدين محمود ص ١١٧.

(٢) البرق ص ١٤٣، نور الدين محمود ص ١١٩.

(٣) نور الدين محمود ص ١١٧.

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٥٩، نور الدين محمود ص ١١٩.

أهلها لِأكْرَامِ الْغَرَبَاءِ، وَإِيَّاَنِ الْفَقَرَاءِ وَلَا سِيمَا أَهْلَ بَادِيَتِهَا لَكُفَىٰ بَهَا فَضْلًا^(١).

إن من أبرز المعلم في تاريخنا كله: الإيمان بكرامة الإنسان وفطرة الإنسان، وحرمة الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماليه، وحقوق الإنسان: حقه في الحياة، وحقه في الحرية، وحقه في المساواة، وحقه في عيش كريم له ولن يعول، وأصل ذلك: أن الإسلام الذي صنع هذا التاريخ يكرم الإنسان من حيث هو إنسان من ذرية آدم، الذي خلقه الله بيده، ونفعه فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله في الأرض خليفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وأكد القرآن مع كتب السماء ﴿إِنَّهُ مَنْ قَاتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَلَّمَاهُ قَاتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائد: ٣٢]. كما أكد الإسلام أن البشر جميعاً سواسية كأسنان المشط، لا يفرق بينهم عرق ولا لون ولا لغة ولا طبقة، وإنما يتفضلون عند الله بالتقوى، قال تعالى: ﴿نَا أَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَّأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَّقَبَائلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَئْتَنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَسِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

هذا كان من أبرز المعاني الإنسانية المرعية والمؤكدة في تاريخنا كله: المساواة بين البشر جميعاً: بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، حكامًا ومحكومين، أغنياء وفقراء، شرفاء ووضاء، مسلمين وغير مسلمين^(٢) في إقامة العدل.

ومن المعاني الإنسانية العميقية البارزة في تاريخنا الإسلامي البر والإحسان بالناس، وبذل المعروف لهم، وإعانتهم في السراء والضراء، وخصوصاً الضعفاء والمحرومين منهم، أيًا كان سبب ضعفه، فمنهم من ضعفه بسبب فقد المال كالمسلمين ومنهم من ضعفه بسبب فقد الوطن كابن السبيل، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الحرية كالأسير والرقيق، وقد أوصى الإسلام بهم جميعاً كما قال تعالى في وصف عباده الأبرار: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مُسْكِنِنَا وَيَتَّهِمَا وَأَسِيرًا ۚ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِرَوْحَهُ اللَّهِ لَا تُرِيدُنَّكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩، ٨] قال تعالى: ﴿وَلَكُنَّ الْبَرُّ مَنْ أَمْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكِتَابَ وَالْتَّيْبَنَ وَأَتَىَ الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١١٧] وهو لاء لهم في الإسلام حقوق بعضها واجبة وبعضها مندوبة وبعضها تطالب به الدولة.. وبعضها من الصدقات المعتادة، وبعضها من الصدقات الجارية، التي تمثلت في نظام الوقف الخيري، الذي رسخت جذوره، وسبقت فروعه، وامتدت ظلاله، وآتى ثماره في الحياة الإسلامية وتميز به تاريخ المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم^(٣).

(٢) تارِيخنا المقترى عليه للقرضاوي ص ١٣٨ - ١٤١.

(١) نور الدين محمود ص ١١٩.

* ومن أبرز الدلائل على رسوخ المعاني الإنسانية في حضارتنا ووضوحيها في تاريخ أمتنا: كثرة المؤسسات التي تعنى بخير الإنسان والبر به^(١)، وإليك هذه الصفحات المشرقة مما كتبها الداعية الكبير والمجاهد الشهير العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه البديع من روائع حضارتنا عن هذه المؤسسات فقال: كانت المؤسسات نوعين: نوعاً تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقادات وأغنياء ونساء، ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسبنا أن نلّم بأهمها:

- فمن أولى المؤسسات الخيرية: المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها وحسبنا أن ذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثره ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال. ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

- ومن المؤسسات الخيرية «بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر».

- ومنها: التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل.

- ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.

- ومنها: السقايات أي تسبييل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً.

- ومنها: المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء (شُربة)، وحلوى، ويقول الدكتور السباعي: ولا يزال عهدهنا قريباً بهذا النوع من كل من تكية السلطان سليم، وتكية الشيخ محبي الدين بدمشق.

- ومنها: بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت وعمت أرض مكة كلها، وأفقي بعض الفقهاء بيطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج.

- ومنها: حفر الآبار في الفلووات لسقي الماشية والزرع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقرابها، حتى قل أن يتعرض المسافرون - في تلك الأيام - لخطر العطش.

(١) تاريخنا المفترى عليه ص ١٤٤.

- ومنها: أمكنة المرابطة على التغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر، ويتبع ذلك وقف الخيول وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله عز وجل، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى بلادنا - أيام المهدنة - ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالة على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشرط تقضي على كرامتنا واستقلالنا، ويتابع ذلك أوقاف يُعطى ريعها لمن يريد الجهاد وللجيش المحارب، حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل يود أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنة عرضها السماوات والأرض.. فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتنمية الجيش وتسلیمه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من من أموالنا كل يوم - لا أسبوعاً واحداً في العام - مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعداداً لصد العدوان وحماية الديار.

- ومن المؤسسات الاجتماعية ما كان وفقاً لإصلاح الطرق والقنطر والجسور.

- ومنها: ما كان للمقابر يتبع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

- ومنها: ما كان أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

- ومنها: المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي لليتامى وختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعددين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

- وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب، لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعددين بن يقودهم إليها.

- ومنها: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تحصصها للخير الخالص لله عز وجل، وقد كان من مبررات صلاح الدين: أنه جعل في أحد أبواب القلعة - الباقية حتى الآن في دمشق - ميزاباً يسيل منه

الحليب، وميزابا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر^(١).

ومن أطرف المؤسسات الخيرية: وقف الزبادي^(٢) للأولاد الذين يكسرن الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ثم يرجعون إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً. آخر ما نذكره من هذه المؤسسات: المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفًا للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى فيه حتى تلacji حتفها. أما بعد، فهذه أنواع من المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا فهل تجد لها مثيلاً في أمّة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟.. اللهم إنّه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وظلم، اللهم إنّه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المعدبة أو صابها وألامها.. فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيدي التي تمسح عبرة اليتيم، وتأسو جراح الكليم، وتجعل من مجتمعنا مجتمعاً متراصاً، ينعم فيه الناس جميعاً بالأمن والخير والكرامة والسلام؟^(٣)

* * *

(١) من رواية حضارتنا مصطفى السباعي ص ١٧٨.

(٢) الزبادي : جمع زبادية وهي إناء من الفخار عادة يوضع فيه اللبن حتى يتخمر.

(٣) من رواية حضارتنا ص ١٧٨ - ١٨٢، تاريخنا المفترى عليه ص ١٤٨.

المبحث السادس

أهمية التربية والتعليم في النهوض الحضاري

أدرك المشرفون على عملية التغيير وفقه النهوض أن عز هذه الأمة وقوتها في تمسكها بدينها وعملها بكتاب ربها وسنة نبيها، وأن الجيل الأول من سلف هذه الأمة ما انتصر على أعدائهم إلا بقوة العقيدة، وأن النصر والتأييد والتمكين لهذه الأمة مقررون بالالتزام بعقيدة التوحيد الخالصة، والعمل بمقتضاها، وأن هذه الأمة تكون هدفاً للسهام وطعمة لسيوف الأعداء بمجرد الرغب عن هذه العقيدة، والانحراف عن هذا المنهج، وأن المزاجات التي حلّت بال المسلمين أمام حملات الصليبيين كانت ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية للانحراف العقائدي والفساد الفكري الذي أصاب الأمة^(١)، وقد ألم الله قادة الأمة من أمثال نور الدين محمود إلى إدراك دور العقيدة الصحيحة في صناعة النصر وأن الأمة بدونها تحول إلى قطيع من الأغنام لا تقوى على شيء، ولذلك فإن أول ما بدأت به عملية التغيير والإصلاح والتجديد هو إعادة بناء العقيدة في النفوس، وإعادة صياغة الإنسان المسلم على التوحيد الخالص، بتجديد العقيدة في نفوس الناس وإزالة كل ما علق بالنفوس من بدع وعقائد فاسدة، ولذلك راحوا يواجهون التحديات الباطنية في إفساد العقائد الإسلامية بنشر العقيدة الصحيحة عن طريق مؤسسات تجسد العقيدة في النفوس وواقع الحياة اليومية عن طريق التعليم الإسلامي التقني في عدد من المدارس والمساجد تم إنشاؤها وإعدادها لهذا الغرض وقام بالتدريس فيها صفوة من علماء الأمة وخيرة مفكريها^(٢).

وقد كانت بداية حركة الإصلاح والتجديد على يد السلاجقة السنة الذين زحفوا على بغداد، واستنقذوا الخليفة العباسي من الأسر والذل الفاطمي الرافضي الشيعي بعد الانقلاب الذي دبرته الدولة الفاطمية على يد القائد العسكري البشاعري الذي تشيع وترفض واعتنت المذهب الإماماعيلي، وقد هدى الله قادة تلك الدولة السلجوقية السنية إلى أن السيف تفل السيف، وأن الحجة لاتقرع إلا بالحججة، وأن الأفكار والعقائد لابد من غرسها عن طريق التعليم والتربية والتهذيب لا بالسيف والسنن، خصوصاً أن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الحق ودين الله تعالى الذي بعث به رسوله، فأنشأوا لهذا الغرض ما عرف باسم المدارس النظامية نسبة إلى الوزير العظيم نظام الملك، وقد تحدثت عن سيرة نظام الملك والمدارس النظامية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي مقاومة التغلغل الباطني

(١) لا طريق غير الجهاد لتحرير القدس ص ٣٢٠ . (٢) المصدر نفسه ص ٣٢١ .

والغزو الصليبي. وإلى جانب نظام الملك كان هناك عشرات من الذين تولوا الإدارة والجيش والقضاء والخمسة وأخرون تولوا القيام على المدارس النظامية كالأمام الجوني وأبي إسحاق الشيرازي، وأبي القاسم القشيري والإمام الغزالى وغيرهم. ولقد واجهت الدولة السلاجوقية ورجالها العظام الخطر الفاطمي الباطنى الذى انتشر فى مختلف البقاع الإسلامية، لقد كانت للمدارس النظامية والحركة المباركة التي قادها السلاطين السلاجقة - من أمثال ألب أرسلان - مع العلماء لمواجهة التحدى الفاطمى الرافضى الباطنى أطيب الأثر فى وضع الأمة على الطريق الصحيح الذى سار عليه من بعدهم رجال من القادة السياسيين والعلماء العاملين المخلصين، فكانت لتلك الشجرة الطيبة الكثير من الغصون والثمار التي طابت وأينعت وامتدت وغنت وتفرعت حتى عم خيرها الجميع^(١)، وقد تحدثت عن حركة الإصلاح التي قام بها الإمام الغزالى في كتابي عن دولة السلاجقة وعن جهوده الفذة في مقارعة التشيع الرافضي الباطنى، وسيأتي الحديث بإذن الله عن المدرسة القادرية وشيخها عبد القادر الجيلاني وجهوده في الإحياء السنى ودوره في نهضة الأمة وترشيد التصوف السنى، فقد لعبت المدرسة القادرية دوراً مهماً جداً في حركة الإصلاح والتجديد والتغيير الاجتماعى وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله. وعندما جاء نور الدين للحكم استفاد من الجهود العلمية والتربوية التي سبقته، وأدركت دولته أن التعليم هو الدعامة الأساسية في بناء الشخصية المتكاملة من جميع النواحي العقائدية، والثقافية والفكرية... إلخ واعتبرت الإنسان الكنز الذي لا يقدر بأى ثمن، فجعلته مدار اهتمامها، وقطب الرحى في تفكيرها؛ فعمدت إلى بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ودور القرآن والحديث، وأحيت رسالة المسجد ليسمهم في عملية البناء والتصحيح الجديدة، وتوجيهه وتوسيعه للأمة وتبعتها تبعية عامة شاملة لمواجهة الأخطار ومحابهة التحديات الداخلية الباطنية والخارجية الصليبية، وكانت مجلساً عاماً يشرف على العملية التعليمية والصياغة التربوية يضم أهل الحل والعقد وهيئة كبار العلماء العاملين المخلصين والقادة العسكريين والفقهاء والشيوخ المستويين. وكان نور الدين أحد أعضاء هذا المجلس الأعلى الذي يشرف على التخطيط العام والشامل، وكان مجلس مع العلماء والشيوخ يتدارسون الأمور لما يتحقق المصلحة الإسلامية^(٢)، ورسم هذا المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق بين السياسات العامة الواجب اتباعها نحو إعداداً للأمة الإسلامية كلها إعداداً جديداً، وبنائها بناء سليماً على طريقة السلف الصالح، فقرروا ضرورة تأسيس مئات المدارس ونشر التعليم الإسلامي في جميع أنحاء البلاد، كما قرروا إقامة مئات المساجد للقيام بواجب التزكية والتحلية بالفضائل، والتخلية من

(١) لا طريق غير الجهاد ص ٣٢٢ . ٣٣٤

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٢ .

الرذائل، واستقدموا آلاف العلماء، والمربيين المشهورين للقيام بواجب التدريس في المدارس والتوجيه في المساجد وكانوا من خريجي المدرستين الغزالية والقادرية^(١). ولم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام وال حاجات القائمة^(٢).

وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إتفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة^(٣) منها، فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم جميع المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين من الكبار والصغراء والرجال والنساء، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما عمدت الخطة الحكيمية إلى تعرية المذاهب الهدامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطورها وضررها على النفس والمجتمع والأمة، وأنه لا خروج من المخنة، ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كان عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية، لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروجيتها.

لقد التزمت الدولة الزنكية بالإسلام عقيدة وعملاً ومنهج والتزمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والمعونة الحسنة للجميع، فأصلحت ما يمكن إصلاحه من أصحاب الاتجاهات والفلسفات كالصوفية المنحرفة التي استطاعت الدولة الزنكية أن تنقيها مما علق فيها من أتباع الفكر الإسماعيلي الباطني، فأقامت لشيوخها الزوايا والربط وأنفقت عليهم الأموال، وأمدتهم بالعطايا والهبات، وأخرجت التصوف من أسر الفكر الباطني وبذلك أصبحت المؤسسات الصوفية تؤدي دورها التربوي ونشر السلوك الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة إلى جانب المدارس والمساجد في التوجيه والإرشاد والتعليم والتهديب حسب الخطة العامة للدولة، وتحت إشراف المجلس التعليمي الأعلى. لقد وجه التعليم الإسلامي عناية خاصة لإعداد الأمة كلها للجهاد بكل أشكاله من الإعداد المادي والمعنوي وتربيته النفوس ومجahدتتها في ذات الله، ومحاربة الشيطان والجهاد بالمال والنفس، والتعبئة الروحية

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٢٥٧.

(١) لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

العالية، وتربيـة الإرادة القتالية عند جميع أفراد الأمة دون أن يقتصر ذلك على طائفة دون أخرى بالإضافة إلى طائفة مختصة عنـت الدولة بإعدادـها إعداداً قاتلـاً خالصـاً، وتدرـيبـها تدرـيبـاً عسكـرياً متـميـزاً يجعلـها تتفـوقـ على ما عندـ الأعدـاء^(١).

أولاً : فنـات المـدرسـين في الـدولـة الزـنكـية :

١- مـعلمـو الكـاتـاتـيبـ: الـاسم الشـائع الـذـي كان يـطلقـ على مـعلمـ الصـبـيـانـ فيـ العـهـدـ الزـنكـيـ هوـ (المـعلمـ) أوـ (المـؤـدبـ). وـمـعلمـ الـكتـابـ فيـ ذـكـ العـهـدـ يـمـاثـلـ مـعلمـ المـرـحـلةـ الـابـتدـائـيـ فيـ عـهـدـنـاـ الـحـاضـرـ، منـ حـيـثـ إـنـهـ يـتـولـ تـعـلـيمـ الـأـطـفالـ الـعـلـومـ الـأـسـاسـيـ، ويـشـرفـ عـلـىـ تـرـبـيـتهمـ وـتـوجـيـهـهـمـ، وـتـأـهـيلـهـمـ إـلـىـ الـمـرـحـلةـ الـأـعـلـىـ وـقـدـ اـهـتمـ حـكـامـ الـعـهـدـ الزـنكـيـ بـهـذـهـ الـمـرـحـلةـ منـ الـتـعـلـيمـ اـهـتمـاماًـ خـاصـاًـ وـحـظـيـ مـعلمـوـ هـذـهـ الـمـرـحـلةـ بـمـكانـةـ عـالـيـةـ لـدـيـهـمـ، فـوـفـرـواـ لـهـمـ كـلـ سـبـلـ الـعـيشـ الـمـرـيـعـ لـلـقـيـامـ بـعـهـتـهـمـ عـلـىـ أـفـضـلـ وـجـهـ وـأـدـاءـ رـسـالـتـهـمـ الـمـهـمـةـ فيـ تـوـجـيـهـ الـلـبـنـةـ الـأـوـلـىـ فيـ الـتـعـلـيمـ عـلـىـ النـهـجـ السـلـيـمـ الـذـيـ رـسـمـتـهـ تـلـكـ الـدـوـلـةـ، وـهـوـ إـعـدـادـهـمـ مـنـذـ صـغـرـهـمـ لـيـتـخـرـجـواـ صـحـيـحـيـ الـعـقـيـدـةـ سـلـيـعـيـ الـذـهـنـ^(٢)ـ مـتـأـثـرـيـنـ بـذـلـكـ التـوـجـهـ الـإـسـلـامـيـ لـيـتـخـذـوـهـمـ مـوـاقـعـهـمـ فيـ الـجـمـعـيـعـ، وـلـيـقـومـواـ بـالـأـعـمـالـ الـمـنـوـطـةـ بـهـمـ مـسـتـقـبـلـاًـ عـلـىـ التـوـجـهـ السـلـيـمـ وـالـسـيـاسـةـ الـمـرـسـومـةـ^(٣)ـ. وـكـانـ مـنـ أـهـمـ مـاـ يـتـطـلـبـهـ تـعـلـيمـ الصـبـيـانـ فيـ الـمـعـلـمـ أـنـ يـكـونـ حـافـظـاًـ لـكـتابـ اللهـ، مـلـمـاـ بـعـضـ عـلـومـ الـلـغـةـ وـأـصـوـلـ الـحـاسـبـ وـالـخـطـ^(٤)ـ، وـكـانـ يـشـرـطـ فـيـمـ يـقـومـ بـتـعـلـيمـ الصـبـيـانـ شـروـطـ خـلـقـيـةـ كـثـيرـةـ ذـلـكـ لـأـنـهـ كـلـمـاـ زـادـتـ الـخـصـالـ الـحـمـودـةـ فيـ الـمـؤـدبـ زـادـ الصـبـيـ بـهـ تـجـمـلاًـ وـرـفـعـةـ، وـفـيـ هـذـاـ الصـدـدـ يـقـولـ الـإـمـامـ الـغـزـالـيـ الـمـتـوفـيـ سـنـةـ ٥٥٠٥ـهـ/١١١٢ـمـ: إـنـ صـلـاحـ الـتـلـمـيـذـ بـصـلـاحـ مـعـلـمـهـ، فـإـنـ أـعـيـنـهـ إـلـيـهـ نـاظـرـةـ، وـأـذـانـهـ إـلـيـهـ مـصـغـيـةـ، فـمـاـ اـسـتـحـسـنـهـ فـهـوـ عـنـهـمـ الـخـيـرـ، وـمـاـ اـسـتـقـبـحـهـ فـهـوـ الـقـبـحـ^(٥)ـ، كـمـاـ اـشـتـرـطـ الـمـرـبـونـ فيـ الـمـعـلـمـ أـنـ يـكـونـ عـادـلـاًـ بـيـنـ الصـبـيـانـ، وـأـنـ يـكـونـواـ عـنـهـ بـالـمـزـلـةـ سـوـاءـ، لـاـ تـفـرـيقـ بـيـنـهـمـ فـاـبـنـ الـفـقـيرـ وـبـاـبـنـ الـغـنـيـ عـلـىـ حـدـ سـوـاءـ فيـ الـتـرـبـيـةـ وـالـتـعـلـيمـ^(٦)ـ. هـذـاـ إـلـىـ جـانـبـ كـونـهـ مـنـ أـهـلـ الـتـقـوـىـ وـالـورـعـ وـالـعـفـةـ، وـاستـحـبـ الـمـرـبـونـ فيـ مـعـلـمـ الـكـتـابـ أـنـ يـكـونـ كـبـيرـ الـسـنـ^(٧)ـ، وـقـدـ اـشـتـهـرـ بـالـتـأـدـيـبـ فيـ الـعـهـدـ الزـنكـيـ الـشـيـخـ عـلـيـ بـنـ مـنـصـورـ السـرـوـجـيـ الـمـتـوفـيـ سـنـةـ ٥٧٢ـهـ/١١٧٦ـمـ^(٨)ـ، وـكـانـ قـدـ نـدـبـهـ الـمـلـكـ عـمـادـ الدـيـنـ زـنـكـيـ لـتـرـبـيـةـ أـوـلـادـهـ وـتـعـلـيمـهـمـ، وـقـدـ اـشـتـهـرـ السـرـوـجـيـ بـرـاعـتـهـ فيـ الـأـدـبـ وـالـشـعـرـ

(١) لا طـرـيقـ غـيرـ الـجـهـادـ صـ ٣٣٥ـ . (٢) (٣) الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ فيـ الـعـهـدـ الزـنكـيـ صـ ١٦٦ـ .

(٤) مـدـخـلـ الـشـرـعـ الشـرـيفـ عـلـىـ الـمـذاـهـبـ الـأـرـبـعـةـ (٢/٣١٧ـ)ـ .

(٥) إـحـيـاءـ عـلـومـ الـدـيـنـ (١/٦٣،٦٤ـ)ـ . (٦) (٧) الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ فيـ الـعـهـدـ الزـنكـيـ صـ ١٦٧ـ .

(٨) مـرـأـةـ الـزـمـانـ نـقـلـاًـ عـنـ الـحـيـاةـ الـعـلـمـيـةـ صـ ١٦٨ـ .

وحسن الخط^(١). ولقد تمعن معلمو الكتاتيب في ذلك العهد بمركز مالي جيد في الكتاتيب الموقوفة إذ وفر لهم الواقفون رواتب شهرية تصرف لهم من إيراد الوقف^(٢)، كما ذكر أبو شامة عن نور الدين أنه بنى في بلاده الكثير من الكتاتيب وأجرى على المعلمين والصبيان رواتب وافرة^(٣)، وقد دفع هذا التشجيع المادي والمعنوي الكثير من المعلمين إلى الإقبال على التعليم، بطمأنينة وراحة بال^(٤).

-٢- المدرسون: إن نظام التعليم المتبع في العهد الزنكي لا يقل شأنًا عن نظام المدارس في العصر الحاضر، فإن النظام المتبع آنذاك هو أن يكون لكل مدرسة عدد من المدرسين يختص كل واحد منهم بتدرис مادة أو أكثر، ويشرف عليهم شيخ يسمى ناظر المدرسة، ويشترط أن يكون الناظر من خيار المدرسين وأشهرهم ومن الذين بلغوا درجة عالية من النضج العلمي، والقدرة العالية في مجال التأليف والتدريس، وقد عني الزنكيون ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ودور التعليم المختلفة باختيار العلماء الأفذاذ للتدرис في مراكزهم وحرصوا على استجلاب من أثر عنه العلم الوافر، والسمعة الحسنة بين العلماء وطلاب العلم، كما حرصوا أن يكون المدرس سليم العقيدة حتى يتواافق مع التوجه الديني الشامل للدولة^(٥). وكان المدرسون في العهد الزنكي يتلقون رواتب، أو معاشيم تصرف لهم من الأوقاف التي كانت توقف على المدرسة، وكانت تلك الأجور أو المعاليم تتأثر بظروف مقدار الوقف على المدرسة وما يدره شهرياً أو سنوياً، وكان هناك من المدرسين من يأنفون منأخذ ما يُخصّص لهم من تلك الأوقاف فقد رفض القاسم ابن الحافظ علي بن الحسن بن عساكر المتوفي سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م)^(٦) وكان مدرساً بدار الحديث扭وريه بدمشق، أن يتناول من معلومه شيئاً، فقد تنازل عنه لمن يتعدد عليه من الطلبة^(٧)، وكان يتحقق للمدرس أن يستنبط من يقوم بالتدرис مكانه في إحدى المدارس، ومن هنا ظهر منصب «نائب المدرس» وهو أعلى من رتبة المعيد، وأقل من رتبة المدرس، ومن ذلك أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون درس بالمدرسة الأمينية بدمشق^(٨)، وأناب عنه في بعض وقته الفقيه أبو الفضائل الدمشقي^(٩)، المتوفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م^(١٠).

(١) مرآة الزمان نقلأً عن الحياة العلمية ص ١٦٨.

(٢) الحياة العلمية ص ١٦٩.

(٣) كتاب الروضتين نقلأً عن الحياة العلمية ص ١٦٩.

(٤) الحياة العلمية ص ١٦٩.

(٥) المصدر نفسه ص ١٧٠.

(٦) (٧) المصدر نفسه ص ١٧٦.

(٨) الدارس (١٧٨/١)، الحياة العلمية ص ١٧٨.

(٩) طبقات الشافعية (١٨٦/٧)، الحياة العلمية ص ١٧٨.

(١٠) الحياة العلمية ص ١٧٨.

٣- المعيدون: من الواضح أن نظام الإعادة الذي نجده منتشرًا في جامعتنا في الوقت الحاضر لم يكن ولد نظم التعليم الحديثة، فقد سبقتها المدارس الإسلامية الأولى إلى استعمال هذا النظام، ولم تظهر وظيفة المعيد في تاريخ التعليم عند المسلمين إلا مع ظهور المدارس وتطور وظائفها في منتصف القرن الخامس الهجري ^(١).

ثانياً: فئات الطلاب:

١- طلاب المرحلة الأولى: اهتم الحكام الزنكيون وبعض الموسرين في الدولة الزنكية بإنشاء الكتاتيب لتعليم صغار المسلمين القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، وطرفاً من العلوم الأولية البسيطة مثل: الكتابة، والحساب، وما يُستحسن من الأشعار، وقد ذكر ابن العربي الذي زار بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن: للقوم في التعليم سيرة بد菊花، وهو أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب ^(٢)، وقد حدد ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠١ م بقوله: ومتى اعتدل المزاج وتكامل العقل، أوجب ذلك يقظة الصبي، فإذا بلغ خمس سنين أخذ يحفظ العلم ^(٣)، وأما المدة التي كان يقضيها الطفل في الكتاب فهي أيضًا تختلف باختلاف استعداد الطفل ومدى قابليته للتعلم، وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية على أن هناك بعض الإشارات التي تحدد مدة الدراسة بالكتاب بسن البلوغ، فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك المكتب وهذه تتراوح ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، ^(٤) وكانت أيام التعليم في الغالب خمسة أيام ونصف اليوم: السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، والأربعاء وصبيحة الخميس حيث كان بقية يوم الخميس، وطوال الجمعة عطلة الراحة، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض المناسبات العامة ^(٥). وأما من حيث منهج الدراسة في المرحلة الأولى فيؤكد أقرب المصادر للعهد الزنكي التي توضح منهج التعليم في هذه المرحلة هو كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزري المتوفي سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م الذي وصف حال تعليم الصبيان في ذلك العهد، وما ينبغي للمعلم اتخاذه تجاه تعليمهم وطريقته ومن ذلك قوله: وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويدرّجه في ذلك حتى يألفه طبعه ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات

(١) الحياة العلمية ص ١٧٩.

(٢) أحكام القرآن (٤/١٨٩٥)، الحياة العلمية ص ١٩٣.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٩٣.

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٥.

(٥) التربية والتعليم في الإسلام، محمد أسعد طلس ص ٧٨.

والأشعار دون سخيفها ومسترذها^(١).

ولم تقتصر الحياة التعليمية في الكتاتيب على تعليم الصبية الكتابة والقراءة وتحفيظهم القرآن فحسب، بل تعداه إلى أن يقوم المعلم بتأديب الصبيان وتعويذهم الآداب الحسنة^(٢)، وقد شبه الإمام الغزالى المعلم الذي يربى الصبية ويهديهم للأخلاق الفاضلة بالرفق واللين، ويبعدهم من السقوط بالمهالك والشرور بالفلاح الذى يقطع الشوك وينخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكملا ريعه^(٣)، وقد تعددت وسائل التحصيل وأساليب التعليم في الكتاتيب على النحو الآتى: في السنوات الأولى من هذه المرحلة يهتم المؤدب بتعليم الأطفال سور القصار من القرآن الكريم وكانت وسليته في ذلك أسلوب التلقين، معنى أن المعلم كان يقرأ وعلى الصبي أن يكرر ما يقرأ معلمه من فقرات إلى أن يتم حفظها وهكذا يستمر معه. وقد أكد بن جبير اشتهر هذه الطريقة في البلاد الزنكية التي زارها بقوله: وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين.^(٤) ويدرك ابن جبير عند الحديث عن تعليم الصبيان في دمشق أن سور القرآن لم تستعمل في تعليم الأطفال الكتابة، وإنما استعملت أبيات من الشعر لهذا الغرض، وأن تعليم القرآن والكتابة لا يقوم بهما مدرس واحد وإنما يخصص معلم لكل منها على حدة، فإذا فرغ الصبي من التلقين التحق بالكتاب الخاص بتعليم الخط. ويست宠وب ابن جبير هذه الطريقة إذ يرى فيها إتقاناً للخط. لأن المعلم له لا يشغل بغيره فهو يستفرغ جهده في تعليم الخط، فيبرع الطفل في ذلك^(٥).

أما طريقة تدريس الشعر فكانت تتلخص في أن يختار المعلم للأطفال الأشعار السهلة في العبارة واللغة، كي يسهل حفظها وفهمها، كما يراعي في اختياره ما قيل من الأشعار الحسنة والنبلة دون السخيف والرذيل منها، وكان الطفل يقوم بتكرار هذه الأشعار حتى يتم حفظها^(٦).

هذه هي أهم وسائل التحصيل وأساليب التعليم في تلك المرحلة المبدئية من التعليم وكانت تميز بالبساطة، والتدرج في المعلومات ما أمكن والحرص على تربية الصبية خلقاً إلى جانب تحصيلهم العلمي^(٧).

٢- طلاب المرحلة العليا: يطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب «الفقهاء»، وقد غالب إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على طلاب المدارس^(٨)، ويمكن

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٣.

(٢) نهاية الرتبة ص ١٠٣.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٩٧.

(٤) الرحلة ص ٢٤٥، الحياة العلمية ص ١٩٩.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٠.

(٦) كتاب أدب المعلمين ص ٧٦.

(٧) المصدر نفسه ص ٢٠١.

(٨) الحياة العلمية ص ٢٠١.

تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صفين: طلبة عارضين، وآخرين منتظمين، فالنصف الأول يشمل أعداداً كبيرة من أصحاب الحرف والعمالة وغيرهم من يحضر الدروس بين حين وآخر، ولا سيما مجالس الوعظ والإملاء وحلق التعليم العامة، غير أنهم لا يواصلون دراستهم ولا يواظبون على الحضور، وهو لاءٌ يمثلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين، أما النصف الآخر فهم الطلبة المنتظمون، وكانوا يقضون شطراً كبيراً من حياتهم في طلب العلم وحده، ولكن ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق^(١). وكانت المساجد تقوم بالتدريس ولا يشترط فيمن يريد التعلم عدد معين ويختلف الوضع بالنسبة للمدارس، إذ كان مجلس أمام المدرس فيها عدد معين من الطلاب لا يصح تجاوزه في الغالب، ثم إن هذا العدد قليل جداً إذا قيس بأعداد طلاب الحلقة في المساجد، وكان مما جرت عليه العادة في المدارس أن يعين منشيء المدرسة أو واقفها مدرساً لها، ويُحدّد في الوقت نفسه عدد الطلاب الذين يسمح لهم الالتحاق بها كما حصل في المدرسة النورية بالموصى حيث حدّد واقفها نور الدين أرسلان شاه عدد الطلاب بستين طالباً من فقهاء الشافعية^(٢)، وكذلك في المدرسة العصرورية بدمشق والتي شرط فيها واقفها ألا يزيد عدد طلبتها على عشرين طالباً من الشافعية وغيرهم^(٣). وكان طلاب العلم يحصلون على مرتبات ونفقات تحصل في الغالب من موارد الوقف المخصص للحلقة أو المدرسة، وقد اشتهرت بعض مدارس العهد الزنكية بوفرة ما يناله منسوبيوها من الأموال، والمأكولات والملابس، والهدايا في المناسبات، كما كانت عليه المدرسة العُزَيْزية بالموصى والحلاوية بحلب والنورية الكبرى في دمشق^(٤)، وغالباً ما يزدحم الطلبة على مثل هذه المدارس لغنى مخصصاتها^(٥). كما حرص واقفو المدارس في العهد الزنكية على توفير كل احتياجات الطلبة الدارسين فيها وبالاخص المسكن الملائم لهم كي يجد الطلبة الغرباء، والفقراء المناخ المناسب لتلقي العلم، فكان من مكملات المدارس إنشاء مرفاق تلحق بها تخصص لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء، وقد حدثنا الرحالة الأندلسية ابن جُبير عما شاهده في دمشق من التسهيلات المغربية لطلاب العلم، ومنها هذه المرافق فقال: ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولا سيما لحفظ كتاب الله عز وجل، والمتمين للطلب.. وهذه البلاد المشرقة كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد: فمن شاء الفلاح من نشأة مغربينا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في

(١) الحياة العلمية ص ٢٠١.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٤.

طلب العلم، فيجد الأمور المعيّنات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمّها^(١).

وقد حرص المربون في العهد الزنكي وبعده أن يُسْدِّدوا الوصايا والتوجيهات التربوية للطلبة أثناء تلقיהם العلم وكان من أهم تلك الوصايا والتوجيهات ما يأتي:

- أن يخلص الطالب نيته في طلب العلم وذلك بأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى والعمل بما يعمل وأن يحذر أن يكون هدفه الأصلي من علمه طلب الرئاسة والمال والجاه^(٢).

- أن يحرص الطالب على وقته بأن يبادر باغتنام فرصة الشباب لاكتساب العلم، وأن يعلم بأن كل ساعة تمضي من عمره لا بد لها، ولا عوض، لذلك يجب على طالب العلم أن يقلل من الانشغال عن الدراسة قدر الإمكان^(٣).

- كما ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويثبت على أستاذ وعلى كتاب، حتى لا يتركه أبداً، وعلى فن حتى لا يستغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلى بلد حتى لا يتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كله يفرق الأمور، ويشغل القلب، ويُضيّع الأوقات ويوذى المعلم^(٤).

- وعلى الطالب أن يتلزم بالورع في جميع شؤونه، وأن يتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكته، وفي جميع ما يحتاج إليه.. وذلك ليستير قلبه ويصلح لقبوّل العلم ونوره والنفع به^(٥).

وفيمما يتصل بالعلاقة بين الطالب وأستاده، فإن هناك جملة آداب كفلت للمدرس حق الاحترام والطاعة من طلابه إذ كان على الطالب أن يُوفِّيه تلك الحقوق كاملة من غير نقص ويفيد اختصارها في الأمور الآتية:

- من آداب الطالب مع أستاده إذا دخل عليه أن يكون كامل الهيئة متظاهر البدن والثياب، يستأذنه في الدخول وكذلك في الانصراف وأن يكون دخوله لقاعة الدرس قبل حضور المدرس^(٦).

- أن يجلس بين يدي أستاده بأدب مصغياً إليه بانتباه، وألا يتشغل أثناء الدرس ولا يكثر حركة يديه، ولا رجلية ولا يبعث بشيء، أو يكثر الكلام بغير حاجة إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة^(٧).

(١) الرحلة ص ٢٢٧ - ٢٢٨، الحياة العلمية ص ٢٠٥.

(٢) تذكرة السامع والمتكلّم، ابن جعفر ص ٦٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٠، الحياة العلمية ص ٢٠٥.

(٤) تعليم المتعلّم ص ٤٩، الحياة العلمية ص ٧٥.

(٥) تعليم المتعلّم ص ٢٠٦، الحياة العلمية ص ٢٠٦.

(٦) تذكرة السامع والمتكلّم ص ٩٥.

- كما يلزم على الطالب أن يحسن مخاطبة شيخه، وألا يقاطعه، أو يخالفه، وأن يتلطف في سؤاله، وأن يحذر من تكرار السؤال، وألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره^(١).

وإذا ناول الشيخ شيئاً ناوله باليمن، وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه لفتحه والقراءة فيه^(٢).

- وينبغي للطالب أن يدعو لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه بعد وفاته.. ويستغفر له ويتصدق عنه^(٣) إلى غير ذلك من الواجبات التي كفلت للأستاذ حق الاحترام والتقدير من طلبه حتى تدوم العلاقة الحسنة بين ركني التعليم - المدرس والطالب - على الحب والودة والتقدير من كلام الجانبيين لتكميل الفائدة^(٤).

٣- تعليم الإناث: بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث الشريف تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام، حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية، ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثلاً رائعاً للأمانة والعدالة، وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفتاة في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات، والمحدثات والفقihات، والأديبات، والنحويات، إلى غير ذلك من العلامات بالعلوم الأساسية الأخرى، كما دأب الكثير منها على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهن طلباً للعلم على أكابر العلماء والمحدثين، وقد حصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن^(٥)، والدليل على نشاط المرأة في هذا الميدان أن الذين ترجموا ابن عساكر المتوفي ٥٧١هـ (١١٧٦م) أجمعوا على أنه أخذ العلم عن بعض وثمانين امرأة^(٦)، وهذه الإشارة تدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم في ذلك العهد، بحيث أن عالماً واحداً من علماء العصر سمع ما يزيد على ثمانين امرأة، هذا فضلاً عن كثير من عدد النساء اللاتي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه^(٧)، ويبدو من خلال بعض الإشارات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير أن المنزل كان المدرسة الأولى التي تتلقى فيها المرأة علومها، ويلاحظ على النساء اللاتي اشتهرن بالعلم في ذلك العهد أنهن نشأن في بيوت

(١) تذكرة السامع والمتكلّم ص ١٠١، ١٠٢.

(٢) تذكرة السامع والمتكلّم ص ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٠.

(٤) الحياة العلمية ص ٢٠٧.

(٥) الحياة العلمية ص ٢١٢.

(٦) معجم الأدباء (١٣/٧٦)، سير أعلام النبلاء (٢/٥٥٦).

(٧) ترجم ابن عساكر في تاريخه لمائة وست وتسعين من النساء.

العلماء، وأنهن درسن على آباءهن أو أحد ذويهن من أولى العلم، أو أنهن كن يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب حيث كن يسمعن إلى ما كان يُلقى في منازلهن من دروس، وهو ما أطلق عليه «التعليم داخل منازل العلماء»^(١)، فابن عساكر عندما يترجم لأم أولاده، وابنه خالته - عائشة بنت علي بن الخضر بن عبد الله السليمية المتوفاة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م يقول عنها: أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي بن الحسين ابن سهل بن بشر بن أحمد الأسفريين المدعوة سِت العجم، المعروفة بالعالمة الصغيرة يقول ابن عساكر: سمعت أباها أبا الفرج^(٢).

كما أن أبواب المساجد كانت مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء، حيث كن يترددن لحضور الحلق التي كانت تعقد فيها في أماكن مخصصة لهنّ ومعزولة عن أماكن الرجال لا يكون هناك سبيل للاختلاط^(٣)، ولم يكن للمرأة الحق في التعليم فقط بل كان لها أيضاً الحق في نشر التعليم وقد شاركت المرأة في ذلك وإن لم تسلم وظيفة التدرис في المدارس التخصصية بالشكل الذي نراه اليوم، فقد أشار ابن عساكر، مثل هذه المشاركة في ترجمته لفاطمة بنت سهل بن بشر المدعوة سِت العجم من أنها: كانت تعظ النساء في المساجد^(٤). ومن اشتهر من النساء بالتدريس في هذا العهد: العالمة فاطمة الفقيهة^(٥)، المعاصرة للملك العادل نور الدين محمود، فقد تصدرت للتدريس في حلب وألفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، كما استشارها الملك نور الدين في بعض أموره، واستفتتها في بعض المسائل الفقهية وكان دائماً يبذل لها ويعينها على مواصلة نشاطها العلمي^(٦)، وما حدث بين الملك نور الدين والعالمة فاطمة الفقيهة يؤكّد حرص المرأة المسلمة في ذلك العهد على الالتزام التام بالحجاب الإسلامي حيث إن المحادثات بينهما كانت تتم بواسطة امرأة تُنذب لهذا الأمر، وفي هذا الصدد يورد القرشي قصة مفادها: أن علاء الدين الكاساني زوج العالمة فاطمة الفقيهة عزم الرحيل من حلب إلى بلاده بإيعاز من زوجته فاطمة، فاستدعي الملك نور الدين الإمام علاء الدين الكاساني، وسأله أن يقيم في حلب، فعرفه علاء الدين دواعي سفره وأنه لا يمكن أن يخالف زوجته ابنة شيخه، فأرسل الملك إلى زوجته فاطمة خادماً يخاطبها عن الملك في ذلك، فلم تأذن للخادم واحتاجبت منه، وأرسلت إلى زوجها من يقول له: بعد عهدهك بالفقه إلى هذا الخد؟ أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إلى هذا الخادم، وأي

(١) الحياة العلمية ص ٢١٤.

(٢) تاريخ دمشق نقلًا عن الحياة العلمية ص ٢١٤.

(٣) الحياة العلمية ص ٢١٥.

(٤) تاريخ ابن عساكر تراجم النساء ص ٢٨٨، الحياة العلمية ص ٢١٥.

(٥) المصدر نفسه ص ٢١٦.

فرق بينه وبين الرجال في عدم النظر، فعاد الخادم، وذكر ذلك لزوجها بحضور الملك، فأرسلوا إليها امرأة بر رسالة الملك فخاطبها وأجابته إلى ذلك وأقامت محلب إلى أن توفيت، وتوفي زوجها الكاساني بعدها سنة ١١٩١ هـ / ٥٨٧ م ودفن عندها محلب^(١) وقد تحدث الدكتور محمد بن عزوز عن جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف بنوع من التفصيل.

٤- أساليب التقويم: لم يُعرف في العهد الزنكي ما يشير إلى أنه يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة - كالامتحانات التي تُعقد في عصرنا هذا - ولكن الأساتذة كانوا يمنحون طلبتهم الأكفاء شهادات أو إجازات ينصون فيها على أن الطالب قد أتم دراسة منهج معين، بإشراف الشيخ الفلاني دون أن يؤدي الطالب امتحاناً، والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده، وانكبابه على العلم، وتفرغه للدراسة والبحث، وكانت الإجازات العلمية شهادات شخصية يمنحها الشيخ لمن يرون فيه الكفاية ولا علاقة لها بمنظمة تعليمية معينة - كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر - وإذا كانت الإجازة إقراراً بأن الطالب قد أتم دراسة كتب معينة، أو إقراراً له بصلاحيته للتدرис، أو الفتوى بناء على مجهد علمي قام به فهي بذلك تعد أحد أساليب التقويم، كذلك إذا كانت ألقاب العلماء تعني المكانة العلمية التي بلغها العالم أو المدرس بالنسبة لعلماء عصره فهي أيضاً تعد من أساليب التقويم وقد احصرت أساليب التقويم في العهد الزنكي في هذين المعيارين، الإجازات العلمية، والألقاب العلمية، كالإمام والحافظ والشيخ والفقير والمحدث، والمقرئ^(٢).

ثالثاً: ميادين العلوم في العهد الزنكي:

شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها وإن كانت الصيغة العامة لمدارس الزنكيين والدراسات التي قامت بها، هي الاهتمام بدراسة مذهب أو أكثر من المذاهب السنية، لكون هذا جزءاً من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس وتلك الدور التي ركزت اهتمامها على نشر المذهب السني ومقاومة المذهب الشيعي الذي كان متشاراً في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبان فترة خضوعها للدولة الفاطمية الشيعية^(٣) في مصر. ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال اقتصار التعليم في ذلك العهد على تدريس الفقه أو غيره من فروع العلوم الشرعية

(١) الجوادر المضيّة (٤/١٢٣ ، ١٢٤)، الحياة العلمية ص ٢١٦.

(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٢٢٠ إلى ٣٣١.

وما يتصل بها من العلوم اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص الموجه من الدولة، الذي يتوافق مع مصالح الأمة وعقيدتها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير من جاء بعدهم حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المشتركة في المدن الزنكية، وظهر من بين المستغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر^(١)، واتساع أفق التفكير الإسلامي في هذا الأمر وتنوع الدراسات والبحوث التي قدمت فيه نتيجة واضحة لنشاط العلمي الذي شهدته المدن الزنكية خلال ذلك العهد وإليك أهم تلك العلوم:

١- العلوم الشرعية: كانت الغلبة في ميادين العلوم في العهد الزنكي للعلوم الشرعية من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصوله ثم علوم اللغة العربية وآدابها، وهذا الأمر يتفق مع ترتيب العلماء للعلوم حسب أهميتها، فقد رتبوها إلى علوم شرعية وعلوم أخرى تخدمها وتوضّحها، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي المتوفى ٤٠٥ هـ / ١٠٥٨ م إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين إذ قال: إنه إن لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيلاً وجبراً صرفاً الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأوّلها، وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يرشدون ويجهله يضللون، إذ لا يصلح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط أجزائها^(٢)، وهذا رأى ابن جماعة أيضاً عندما قال: إذا تعددت الدروس قدّم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذاهب ثم الخلاف، أو النحو أو الجدل^(٣)، وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

٢- علم القرآن: وقد نشط علم القراءات في العهد الزنكي وكان من العلوم التي تُدرس في دور التعليم المختلفة، كما ظهر عديد من علماء القراءات الذين كانت لهم مصنفات مهمة في القراءات في العهد الزنكي:

- عبد العزيز بن علي بن سلمة أبو حيد وأبو الأصيني السمناني الإشبيلي

(١) أدب الدنيا والدين ص ٤٤.

(٢) الحياة العلمية ص ٢٣٧.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم ص ٣٥ ، ٣٦.

المعروف بأبي الصحّان المتوفى بحلب ١٦٤هـ/٥٦٠ م وهو أستاذ كبير وإمام محقق بارع مجود ثقة ولد سنة ٩٨٤هـ/١١٠٤ م تنقل بين البلاد طلباً للعلم، ودخل الشام ومات بحلب بعد الستين وخمسين^(١) مئة وكانت له مصنفات مهمة في القراءات منها كتاب «الوقف والابداء» وكتاب: مرشد القاري إلى تحقيق معالم المقاري الذي قال عنه ابن الجزري: لا يعرف قدره إلا من وقف عليه»^(٢).

- كما برع من مقرئي العهد الزنكي: أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي المتوفي بالموصل سنة ٥٦٧هـ^(٣)، ١١٧٢ م من أهل قرطبة، سكن دمشق والموصل، أحد أئمة اللغة والقرآن وله يد قوية في النحو والقراءة بروايات مصر والعراق تنقل بين البلاد يطلب العلم حتى وصل الموصل، وأقام بها إلى أن مات، وأقرأ الناس القرآن الكريم بالقراءات، وانتفع به خلق عظيم، قال عنه ياقوت: شيخ فاضل عارف بالنحو ووجه القراءات^(٤). وقال الذهبي: وبرع في العربية والقراءات وتتصدر فيهما مدة^(٥).

بـ علم التفسير: كانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دور التعليم في هذا العهد، وبرز فيه علماء أجلاء تركوا أثراً زاخراً في هذا العلم كان من أبرزهم:

- الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلّي المتوفى سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩ م وذكر له ياقوت من التصانيف في التفسير «كتاب التفسير الكبير» «وينبوع الحياة»^(٦).

- ومن المفسرين المبرزين علي بن إبراهيم الغزنوي المتوفى في حلب سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦) وكان قد تلقى تعليمه في بغداد على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزخيري المتوفى سنة ٥٣٨هـ/١٤٤٢ م صاحب الكشاف في التفسير، فلما عاد إلى حلب تولى التدريس فيها وألف فيها مصنفات عديدة في التفسير والفقه واللغة والأصول، وكان أشهر ما ألفه في التفسير كتاب «تقشير التفسير»^(٧) وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦ م^(٨).

(١) غاية النهاية في طبقات القراء (١/٣٩٥).

(٢) الحياة العلمية ص ٢٤٠.

(٣) المصدر نفسه (١/٣٩٥).

(٤) معجم البلدان (٢٠/١٤، ١٥).

(٥) العبر (٣/٥٣).

(٦) المصدر نفسه (٢٠/١٤).

(٧) كشف الظنون (١/٤٦٦)، الحياة العلمية ص ٢٤٥.

(٨) بغية الوعاة (٢/١٤٠)، الحياة العلمية ص ٢٤٥.

جـ- الحديث: ازدهر علم الحديث في العهد الزنكي حتى إنه يمكن أن يعد هذا العهد من العصور الذهبية للدراسات الحديثة والتأليف، ففيه أنشئت أول دار للحديث في الإسلام وهي دار الحديث التورية بدمشق، ولعل من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ودراسته والتأليف فيه في هذا العهد اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم، فقد أثر عنه أنه كان مهتماً بدراسة الحديث الشريف وفهمه^(١)، كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدة شيوخ^(٢)، وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق^(٣)، كما كان الاهتمام بعلم الحديث لوناً من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م في هذا المجال بجمع أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد وأهداه إلى الملك نور الدين محمود^(٤)، كما صنف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠١م مصنفاً جمع فيه أحاديث الجهاد وفضائله في كتاب أسماه «البحر النوري»^(٥) وقد زاد الاهتمام بهذا العلم، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير من رجال الحديث الذين أفنوا أعمارهم في جمعه وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، ومنهم علماء جعوا تراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور، وكان هؤلاء العلماء فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية^(٦) ومن أبرز علماء الحديث في العهد الزنكي:

- الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر الدمشقي، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله مستقبلاً.

- ومن برع في علم الحديث في هذا العهد: الإمام مجذ الدين أبو السعادات المبارك ابن الأثير الجزري المتوفى ٦٠٩هـ / ١٢٠٩م وقد اشتهر مجذ الدين بن الأثير في علوم عديدة كان منها علم الحديث، حيث صنف فيه مصنفات هامة كان من أبرزها جامع الأصول في أحاديث الرسول^(٧). ذكر ياقوت أنه جمع فيه بين البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي والترمذمي، عمله على حروف المعجم، وشرح غريب الأحاديث ومعانيها وأحكامها، ووصف رجالها ونبأ على جميع ما يحتاج إليها منها، ثم قال: أقطع قطعاً أنه لم

(١) التاريخ الباهري ص ١٦٥، الحياة العلمية ص ٢٤٨ . (٢) تاريخ دمشق نقاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٨ .

(٣) مرآة الزمان نقاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٨ .

(٤) معجم البلدان (١٣/٧٨)، الحياة العلمية ص ٢٤٩ .

(٥) مرآة الزمان نقاً عن الحياة العلمية ص ٢٤٩ . (٦) الحياة العلمية ص ٢٤٩ .

(٧) معجم الأدباء (١٧/٧٦)، الحياة العلمية ص ٢٥٢ .

يُصنف مثله قط ولا يصنف^(١). وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م في اثنى عشر جزءاً بعنابة عبد المجيد سليم، وحامد الفقي، وهي طبعة ناقصة، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وطبع في دمشق ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م في أحد عشر جزءاً وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس^(٢)، وقد قام صاحب كتاب السنة النبوية الشريفة في القرن السادس الهجري بدراسة موسعة عن الحديث في هذا العهد.

د- الفقه وأصوله: عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلّ مجتب
مذهبه الذي يتميّز به من المذاهب السنية الأربعية الحنفي، والشافعي، والحنبلبي، والمالكى
ورجحوا بين الروايات وخرجوا على الأحكام، وبينوا فتاويمهم على ثقتي المسائل والقروع
من أصول آئمتهم وقواعدهم وفتاويمهم^(٣)، وكانت الدولة الزنكية تدعم المذاهب السنية
ال الأربعية واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي في
الدولة الزنكية، وأصبح الفكر السنّي هو المذهب السائد في بلاد الشام.

وقد بُرِزَ خلال العهد الزنكي علماء أجيال في الفقه وأصوله كان بعضهم أصحاب رائعة
ودراسات جليلة، ونظارات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، ومن أشهر أولئك
العلماء^(٤):

- **في المذهب الشافعي:** ومن بُرِزَ في هذا المذهب، الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين
محمد بن أبي عبدالله بن أبي المظفر القاسم الشهزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م^(٥) وقد
وصف بأنه كان: فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكراً مجالساً، يتكلّم في الخلاف والأصول^(٦). هذا
بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم والكرم، كما كان كثير الصدقات والمعروف،
وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق على أعمال الخير وطلب العلم، وقد
اشتهرت مدرسته بالموصل بـ «الكمالية القضوية» وكان رئيس المدرسين فيها، حيث خصصها
لتدريس الفقه الشافعي^(٧).

- ومن علماء الشافعية البارزين في هذا العهد الإمام قطب الدين مسعود بن محمد

(١) معجم الأدباء (٧٦/١٧) الحياة العلمية ص ٢٥٢. (٤) الحياة العلمية ص ٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٤.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٥، ٢٥٤.

(٦) وفيات الأعيان (٤/٢٤٢).

(٧) طبقات الشافعية (٦ - ١١٧/٦) الحياة العلمية ص ٢٥٦.

النيسابوري المتوفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م^(١)، قال عنه السبكي: كان إماماً في المذهب الشافعى والخلاف والأصول والتفسير والوعظ، أديباً مناظراً^(٢). أما أبرز جهوده في علم الفقه، فتمثل في مصنفه الكبير «كتاب الهاディ» في الفقه، والذي قال عنه ابن خلكان: وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذى عليه الفتوى^(٣).

- ومن برع في علم الفقه الشافعى أيضاً: الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م) وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعى في العديد من المدارس الزنکية، وصنف كتاباً كثيرة منها: «صفوة المذهب من نهاية المطلب» وهو في سبعة مجلدات وكتاب «الانتصار لمذهب الشافعى» في أربعة مجلدات وكتاب «المرشد» في مجلدين، وكتاب «الذریعة في معرفة الشريعة» في مجلد واحد وكتاب «ماخذ النظر» وكتاب «الإرشاد المغرّب في نصرة المذهب» ولم يكمله وذهب فيما ذهب له بحلب^(٤).

- المذهب الحنفي: ومن برع في هذا المذهب: الشيخ عبد الغفار بن لقمان من محمد أبو المفاخر الكردي الملقب تاج الدين المتوفى سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م^(٥)، إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الرهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنکي، وخلف آثاراً جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شرح الجامع الصغير في الفروع للإمام الجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ١٨٧هـ / ٨٠٣م وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخرج عليه المسائل^(٦)، وجمع المسائل التي يتغير في حلها العلماء في كتاب سمّاه (حيرة الفقهاء)^(٧)، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمن ابن محمد الكرمانى الحنفي المتوفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م الموسوم بالتجريد في كتاب سمّاه (المفيد والمزيد)^(٨).

- ومن فقهاء الحنفية البارزين في العهد الزنکي الإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي الملقب برهان الإسلام المتوفى بحلب عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م^(٩)، قدم حلب في عصر نور الدين محمود ودرّس بالمدرسة النورية والحلاوية بعد الإمام علاء الدين الغزنوی المتوفى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م، وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير «المحيط» وهو في

(١) الحياة العلمية ص ٢٥٦.

(٢) المصادر نفسه ص ٢٥٦.

(٣) وفيات الأعيان (١٩٦/٥).

(٤) الحياة العلمية ص ٢٥٧.

(٥) الجواهر المضيئة (٢/٤٤٣، ٤٤٤)، الحياة العلمية ص ٢٥٨.

(٦) كشف الظنون (١/٥٦١)، الحياة العلمية ص ٢٥٨.

(٧) الحياة العلمية ص ٢٥٨.

(٨) طبقات الفقهاء، طاش كبرى زادة ص ١٠١، الحياة العلمية ص ٢٥٨.

(٩) الحياة العلمية ص ٢٥٩.

أربعة مصنفات «المحيط الكبير» وهو نحو من أربعين مجلداً، والمحيط الثاني، عشرة مجلدات، والمحيط الثالث، أربعة مجلدات، والرابع مجلدان^(١).

ومن اشتهر بالفقه الحنفي الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء المتوفى بحلب سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م، قديم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاوية بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السرخسي المتوفي سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته^(٢) ، تفقه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندى صاحب «تحفة الفقهاء» وزوجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماء البدائع، فقال الفقهاء في عصره «شرح تحفته وزوجه ابنته»^(٣). واشتهر علاء الدين الكاساني وزوجته فاطمة الفقيهة في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام وكانت تحفظ مصنف والدها «التحفة»^(٤) ، وكان كتاب «البدائع» أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسمى «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»^(٥).

- **المذهب الحنبلي:** ومن برع في المذهب في العهد الزنكي الشيخ الزاهد أبو الحسن علي ابن عمر أحمد بن عمّار بن أحمد بن علي بن عبدوس الحرّاني الفقيه الحنبلي ولد سنة إحدى عشرة وخمسين هجرية (١١٦ - ١١٦) وسمع ببغداد، وتفقه وبرع في الفقه، والتفسير والوعظ، ثم قدم حران وأمّ الناس بجامعها، له مصنفات حسنة في التفسير والفقه الحنبلي أبرزها «المذهب في المذهب» وكانت وفاته في آخر نهار يوم عرفه سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م بحران^(٦).

- ومنهم: أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الخانبلة بالشام في وقته، والمتوفى عام ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ولد سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م، سمع وأفتي ودرس وهو ابن عشرين سنة إلى أن مات^(٧) ، وغيرهم.

(١) الجوادر المصيّة (٤/٢٥ - ٢٨).

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٠.

(٣) الحياة العلمية ص ٢٦٠.

(٤) كشف الظنون (١/٣٧١).

(٥) شذرات الذهب (٤/١٨٣ - ١٨٤).

(٦) المصدر نفسه ص ٢٦٣.

(٦) الحياة العلمية ص ٢٦١.

لقد ظهر في هذا العهد كثير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي والختبلي^(١). ولا عجب في ذلك – الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء – فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكام فيما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء، بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس و... ومصارف الأوقاف وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نور الدين حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به، وكتب في ذلك محضر بصورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقع عليه جميع الحاضرين^(٢).

وقد اهتم العلماء بفروع أخرى من العلوم، وركزوا فيه دراساتهم وكان أشهر هذه الفروع «الفرائض» الذي يُعد باباً من أبواب الفقه نال اهتماماً خاصاً من العلماء في هذا العهد لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علماً قائماً بذاته، و موضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقاتها على فروض مقدرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ، وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه^(٣)، ومن برع في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الله أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصقلي المتوفى سنة ٥٦٩هـ / ١١٦٩م وكان قد صنف تصانيف كثيرة في علوم عديدة كان منها أرجوزة في الفرائض^(٤).

كما خصّ كثير من العلماء جهودهم في العهد الزنكي بعلمي الخلاف والجدل وصنفوا فيها المؤلفات الحسنة^(٥).

وقد جد العلماء في العهد الزنكي في دراسة وتحصيل علوم العربية وأدابها فلا يكاد يوجد عالم من المستغلين بالعلوم الشرعية إلا وقد عني بدراسة هذا العلوم باعتبارها أساساً من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية، وقد حظيت العلوم العربية وأدابها بعناية فائقة من الزنكيين، حيث حرص الحكام وأمراء هذه الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتوليه مناصب الكتابة والإنشاء، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف من ذاع صيته و شأنه في هذه العلوم. واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين

(٢) كتاب الروضتين نقلأً عن الحياة العلمية ص ٢٦٣.

(١) الحياة العلمية ص ٢٦٣.

(٤) معجم الأدباء (٤٩/١٩)، الحياة العلمية ص ٢٦٤.

(٣) الحياة العلمية ص ٢٦٤.

(٥) الحياة العلمية ص ٢٦٥.

والنحو والأدباء، ويز منهن علماء أجياله خلفوا تراثاً مهماً في علوم العربية وأدابها على اختلاف فروعها والتي من أهمها: اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبي، والأدب والعروض والقافية، ومن أراد التوسيع فليرجع إلى كتاب الحياة العلمية في العهد الزنكي للدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزني^(١).

والرسالة التي نريد أن تصل للقاريء أن النهوض عندما يحدث للأمة يكون في الغالب شاملًا وليس عسكرياً أو سياسياً كما يظن البعض من يطلقون الأحكام بدون دراسة واعية، أو بحث عميق، ثم يعمّمون هذه الأحكام الناقصة في جلساتهم ومحاضراتهم ومقاتلتهم، وبالتالي يسهمون في تسويق ثقافة مغلوبة عن تاريخ أمتنا ظالمة لأجدادنا البواسل الذين استوعبوا فقه النهوض ومارسوه في دنياهم.

٢- العلوم التاريخية والجغرافية: ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي، وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث بُرَزَ في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوّعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرحالة الذين أثروا هذا الجانب بتألّيف جديدة مهمة وإذا كان التأليف في فضائل الجهاد والاهتمام بالدراسات الشرعية والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة؛ فإن الاهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية يرجع للسبب نفسه، وقد تمثل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي في المنطقة حيث وجد المتخصصون - بهذا الفرع من العلوم - في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصلبيين أو في الكتابة في فضائل المدن، وترجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، كما ظهر ذلك الأثر في كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ووصفووا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين فيها، كما اهتموا بتحديد البلدان وخطوطها، وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركز الاهتمام السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، حيث كانت تلك الدولة تمثل مركز اليقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة، إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية مما كان له أثر في تطور العلوم ونشاطها^(٢)، وكانت أبرز الجهود التي بذلت في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تمثل فيما يأتي:

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٧.

(١) الحياة العلمية ص ٢٦٨ - ٣١٦.

- الترجم والطبقات: يُعد هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد، فقد عنى به المؤرخون عناية فائقة فما أن يظهر أحد من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب الترجم بالكتابه عن تفصيلات حياته ودراسته وتنقلاته وشيوخه وتلامذته وإسهاماته العلمية في مجال التأليف والتدريس، وتعد هذه المؤلفات من المصادر المهمة للتاريخ الإسلامي، إذ أنها تزود الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة^(١). وبعد الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر من أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابه على هذا النهج في هذا العهد، إذ كان اهتمامه منصبًا على الحديث، وترجم العلّماء وبخاصة رجال الحديث طوال حياته، ومع أن كتابه «تاريخ دمشق» قد شمل التاريخ العلمي والثقافي لمدينة دمشق، فإنه يُعد واحداً من أشهر كتب الترجم بعد كتاب «تاريخ بغداد» للحافظ أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفي ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م و كان ابن عساكر قد سار على نهجه^(٢).

- ومن برع في الكتابة التاريخية على هذا النهج في العهد الزنكي أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج المعروف بالعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م الذي صنف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر أي كتاب «جريدة القصر وجريدة العصر» والذي أرّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية^(٣).

- ومن كتب في الترجم: المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م^(٤)، فقد كان ابن الأثير مؤلفاً نشيطاً بارعاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين عن طريق مصنفاته التي من أشهرها: كتاب «الكامل في التاريخ»، وكتاب «اللباب في تهذيب الأنساب»، وكتاب «التاريخ الباهر في الدولة الزنكية» وكتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»^(٥)، الذي أورد فيه ما يربو على سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة، واستدرك على مافاته من تقدمه من مؤلفي الترجم وبين أوهامهم^(٦).

- التاريخ المحلي (الخاص): تخصص فريق آخر من المؤرخين بالتأليف المحلي والذي يُعد تعبيراً صادقاً عن ارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه. وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيراً

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٠.

(١) الحياة العلمية ص ٣١٩.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٥٣ - ٣٥٦).

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢٢.

(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٢٤.

(٥) وفيات الأعيان (٣ / ٣٤٩).

من المؤرخين في العهد الزنكي^(١)، وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار ومن أبرز من كتب بهذا النهج خلال العهد الزنكي:

- ابن القلانسى: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م^(٢) العميد الأديب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق، ومن أفضالها المبرز، وكانت له عناية بالحديث، وكان أدبياً له خط حسن ونظم وثر، ولبي رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين، عمر بضعاً وثمانين سنة، وتوفي سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وقد استفاد ابن القلانسى من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق، فاطلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره، ولا ابن القلانسى: كتاب «تاريخ دمشق» بدأ به سنة ٩٧١ هـ / ٣٦٠ م وانتهى إلى سنة وفاته ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وهو أول تاريخ لدمشق صُنف حسب الحوادث والحواليات، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين والسلاجقة فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من التواحي العمرانية والاجتماعية والعقدية والسياسية وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر هذا الكتاب على تاريخ دمشق بل عالج فيه مؤلفه كثيراً من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام، والعراق والجزيرة، ومصر، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاع مستمر^(٣).

- ومن المؤرخين في التاريخ المحلي، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م وقد صنف كتاب «تاريخ الموصل» وهو الموسوم «بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية» وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل متعددة اقتصادية واجتماعية وثقافية عن الموصل من مطلع عماد الدين زنكي سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م^(٤).

- التاریخ العالی (العام): وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث منذ بدء الخليقة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد، وأهم كتاب في ذلك العصر «الکامل في التاریخ» لعز الدين علي بن محمد الجزري المتوفى ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م، فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس الهجري بسبب تأليفه لهذا الكتاب، وكان قد ألفه على

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٥.

(٢) سیر اعلام النبلاء (٢٠ - ٣٨٨)، الحیاة العلمیة ص ٣٢٥.

(٣) الحیاة العلمیة ص ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٨.

طريقة الحوليات، ابتدأ فيه بأول الزمان حتى وصل به إلى سنة ١٢٣١ هـ / ٦٢٨ م وقد تحرى ابن الأثير الحقيقة والدقة فيما كتب، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرير الروايات، ثم إنه راعى التوازن في كتابة تاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي، فلم تصرفة الأحداث التي ألمت بالشرق بما كان يجري بالغرب من تطورات^(١)، وقد تابع ابن الأثير في كتابه الكامل المعلومات التاريخية التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبرى في تاريخه متابعة دقيقة إلى حد بعيد فلخصها، ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبرى عن الكتابة. وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين، واتخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام غيره^(٢).

- التاريخ المعاصر والمذكريات: ومن عاصر الأحداث في عهد الدولة الزنكية وكتب عنها بأسلوب المذكرات أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الشيزري المتوفي سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٠ م^(٣)، وله كتاب «الاعتبار» وهذا الكتاب قد أن يوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة، وما صادفه أسامة في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في العصر من حروب وفروسية، وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي^(٤).

- ومن كتب بأسلوب المذكرات العمد الأصفهانى الكاتب المؤرخ المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م، ومن أهم ما كتب في هذا المجال، البرق الشامي؛ وهوأشبه بالمذكريات الشخصية لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام^(٥).

- الجغرافيا والرحلات: تعد الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل ابن حوقل، والمسعودي، والمقدسي، والإدرسي وابن حبير وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، حيث فاق المسلمون في ميدان الرحلة والكشف الجغرافي غيرهم من الشعوب، وساعد على الرحلات الإسلامية أمور عديدة منها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة فيسائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في الشرق

(٢) المصادر نفسه ص ٣٢٩.

(١) الحياة العلمية ص ٣٢٨.

(٣) (٤) المصادر نفسه ص ٣٣٠.

والغرب أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بهمة كأن يكون الرحالة سفيراً لل الخليفة أو السلطان^(١). وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعواها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمرون بها ويدركون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمر بها^(٢)، فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنية على المشاهدة والإطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور المعارف الجغرافية عند المسلمين^(٣). ولقد كان لعدد من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية، وبخاصة ما له صلة بالرحلات الجغرافية من أشهرهم: أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٥م^(٤) الذي قضى معظم حياته بالتجوال والرحلات حتى لقب بالسائح، وأبو الحسن الهروي أصله من هراة ولكن ولد بالموصل، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن والنجاش، ومصر، وببلاد الروم وبعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية، وقد تنقل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة وتكلم عن مشاهدتها ومساجدها وخالط أهلها، والتلقى بالعلماء وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتضاً على طلب العلم فقط، بل إنه وثق علاقته مع عدد من الجغرافيين المعروفين في عصره^(٥)، قال عنه ابن خلkan: طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رأه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها^(٦)، وقد ألف الهروي عن رحلاته هذه كتابه: «الإشارات إلى معرفة الزيارات»^(٧).

٣- علوم الرياضيات والفلك: اهتم المسلمون في ذلك العهد بشتى فنون العلوم المختلفة، ومن ذلك علوم الرياضيات والفلك حيث نالت تلك التخصصات قدرًا كبيراً من اهتماماتهم، فبرعوا في علم الحساب وصنفوا فيه المصنفات، بحثوا فيها الأعداد وأنواعها

(١) التاريخ المؤرخون العرب ص ٢١١، الحياة العلمية ص ٣٣١.

(٢) التاريخ المؤرخون العرب ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٣٢.

(٤) وفيات الأعيان (٣٤٦/٣)، الحياة العلمية ص ٣٢٢.

(٥) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صالح الدين هاشم ص ٣٣٣.

(٦) وفيات الأعيان (٣٤٦/٣)، الحياة العلمية ص ٣٣٣.

(٧) الحياة العلمية ص ٣٣٣.

وخصوصها وتوصلوا إلى إضافات ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم فاعترفوا بفضلهم وأسبقيتهم في هذا المجال، وترجموا كثيراً من كتب المسلمين مما كان له أثر كبير في تقدم هذا العلم، كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر وأنوا فيه بالعجب العجاب، حتى أن (كاجوري) قال: إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر^(١). وقد نبغ في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات والفلك مما كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكلية وقد تمثلت أبرز الجهود في الآتي:

- **الرياضيات:** كانت العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة من العلوم التي كانت تدرس في بعض المدارس الزنكية، كما كانت هناك تنقلات ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، وما ساعد على تشجيع هذا الفرع من العلوم حاجة الفقهاء الماسة إلى علمي الحساب والجبر في تقسيم المواريث أو ما يسمى بعلم الفرائض، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقف واتجاه البلدان لإقامة الصلاة، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى. ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات، كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى ٦٣٩هـ / ١٢٤٢م، ولما ذاع صيته في علم الرياضيات أخذت الرسائل تهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له. يقول ابن خلkan: كنت بدمشق سنة ثلات وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكلت عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمقابلة والمساحة وإقلidis، فكتب جميعها في درج وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه^(٢)، ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات ذكر منها بروكلمان: شرح الأعمال الهندسية، وهو محفوظ في مكتبة آيا صوفيا بأسطنبول رقم ٢٧٥٣، وله رسالة في البرهان على المقدمة التي أحملها أرخيدس في كتابه تسبیع الدائرة وكيفية اتخاذ ذلك وهو محفوظ في مكتبة بودليانا برقم (٩٨٧/٨)^(٣).

- **الفلك:** يعرف قدیماً بعلم الهيئة، وموضوع الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وأحوالها وحركاتها وحساب الأيام والشهور والسنين والفصول على أساس تلك الحركات، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية وبالعكس وأطوال البلاد وعرضها،

(١) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص ٦١.

(٢) وفيات الأعيان (٥/٣١٥)، الحياة العلمية ص ٣٣٦.

(٣) تاريخ الأدب العربي (٤/٢٢٢ - ٢٢٣)، الحياة العلمية ص ٣٣٧.

والرياح والأمطار، وكسوف الشمس، وخشوف القمر وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية وأخرى عملية، وبعض هذه المباحث تدخل الآن في علم الفضاء^(١). وكانت أبرز الجهود التي بذلت في العهد الزنكي قد تركزت في الموصل، وكان الشيخ كمال الدين موسى ابن يونس بن منعة في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درس بها، وصنف في هذا العلم ووردت إليه - أيضاً - مسائل في مشكلات هذا العلم قام بتفسيرها، وحلّ رموزها، ونبّه على براهينها؛ بعضها من بغداد وأخرى وردت إليه من بعض ملوك أوروبا^(٢)، وما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، أنه قد عرف أشياء كثيرة في قوانين تذبذب الرقصاص^(٣)، ويدرك طرقاً أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطالي غاليليو المتوفى سنة ١٥٤٢ هـ / ١٦٢٤ م في هذا المجال^(٤). وقد كانت الموصل مركزاً له أهمية خاصة في علوم الرياضيات والفلك في العهد الزنكي^(٥).

٤- علوم الطب والصيدلة:

- الطب: علم الطب يبحث فيه عن بدن الإنسان، من جهة ما يصح ويمرض لحفظ الصحة، وإزالة المرض، وفائده: يَبَيِّنُ لَا تَخْفَى وَكُفَى بِهَا الْعِلْمُ شَرْفًا وَفَخْرًا قول الإمام الشافعي - رحمة الله -: العلم علماً: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان^(٦). وقد تقدم وارتفع شأن الطب في العهد الزنكي وتقدمت وسائل دراسته، ولعل من أهمها انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية واهتمام الحكام والأمراء بإنشائهما ووقف الكتب الطبية في ذلك العهد والتي كانت من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية التي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية في العصور التي تلتها، استمراً حتى العصر الحاضر، ومن برع في هذا الميدان: الطبيب أفضلي الدولة أبو الجند محمد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م^(٧)، الذي اشتهر بالتدرис بالبيمارستان النوري بدمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه، وقد وصف لنا ابن أبي أصيوعة كيف كان ابن أبي الحكم يتقدّم المرضى بنفسه، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان، ومناقشاته مع طلابه، ولكنه لم ينسّب إليه أي كتاب أله في الطب^(٨)،

(١) الحياة العلمية ص ٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٩.

(٣) الرقصاص : أو رقصاص الساعة، يسمى البندول.

(٤) تراث العرب العلمي ص ٣٩٨.

(٥) الحياة العلمية ص ٣٤١.

(٦) مفتاح السعادة (١/٣٠٣)، الحياة العلمية ص ٣٤٢.

(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٤٣.

(٨) المصدر نفسه ص ٣٤٣.

ومن اشتهر بالطب في هذا العهد أبو جعفر عمر بن علي بن البدوخ القلعي المغربي المتوفي سنة خمس أو ست وسبعين وخمس مئة (١١٧٩ - ١١٨٠م)^(١)، وكان فاضلاً خيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الإطلاع على الأمراض ومداواتها، أقام بدمشق سينين كثيرة، وكانت له دكان عطر بدمشق يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان له عنابة بالكتب الطبية والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، وكانت له مع ذلك عنابة بعلم الحديث وله شعر كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول، وعمر ابن البدوخ عمراً طويلاً، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً، وعمي في آخر عمره حتى توفي^(٢)، ولابن البدوخ من الكتب الطبية «شرح كتاب الفصول لأبقراط» وشرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط أيضاً، وله كتاب «ذخيرة الألباء» «ومفرد في التأليف عن الأشياء»، وله حواشى وضعها على كتاب «القانون لابن سينا»^(٣).

ويقصد بها علم الأدوية وتركيباتها وهي متصلة بعلم الأعشاب «النبات» ويعلمي الحيوان والمعادن وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة وإلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء^(٤)، ونظراً لعدم توافر المعرفة التامة بطرق التحاليل الكيميائية في تلك العصور، فقد نظم المسلمون مهنة الصيدلة، فجعلوا على الصيادلة نقيناً يسمى رئيس العشائين، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة حتى يحولوا دون غش الدواء^(٥)، وقد برع الأطباء المسلمين في تركيب الأدوية بنسب معينة، ويز خلال العهد الزنكي عدد من المختصين في تركيب الأدوية «الصيدلة» كانوا في الأصل أطباء فقد ذكر ابن أبي أصيحة أن الطبيب ابن البدوخ المغربي المتوفى سنة ٥٧٥هـ أو ١١٧٦هـ ١١٨٠م^(٦)، كان خيراً بمعرفة المفردة والمركبة، وكانت له دكان عطر بدمشق يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وأنه كان يهوى عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها ويتنفع الناس بها^(٧)، كما ذكر أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي المتوفى سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م في كتابه المختارات في الطب كثيراً من أنواع المأكولات

(١) الحياة العلمية ص ٣٤٣.

(٢) (٣) المصدر نفسه ص ٣٤٣.

(٤) تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٩٤، الحياة العلمية ص ٣٤٥.

(٥) نهاية الرتبة للشيرزي ص ٤٢، الحياة العلمية ص ٣٤٦.

(٦) الحياة العلمية ص ٣٤٥.

(٧) عيون الأنباء ص ٦٢٨، الحياة العلمية ص ٣٤٦.

وأثرها على الصحة وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها^(١).

لقد ركزت السلطة القائمة في العهد الزنكي على إحياء العلوم الشرعية والعنابة بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة من أبرزها الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكرية والسرية -المهمة- والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في العقيدة الإسلامية توطئة للسيطرة عليهم، وعلى رأس هؤلاء فرقه الباطنية، لذا تقلصت الدراسات الفلسفية ودراسة المنطق التي تخدم الفكر الشيعي الباطني، وتحقق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد كما صاحب هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط آخر في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية، والتاريخية والجغرافية، كما قدمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة، وفي علم الفلك والميكانيك، إضافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبية والصيدلة والتي كان مجاهدما داخل البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وبرز من بين العلماء المشغلين بتلك العلوم علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة والتي ظلت مرجعاً للبحوث العلمية حتى الوقت الحاضر^(٢).

رابعاً: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين:

قال عنه الذبيهي هو: الإمام العلامة الحافظ الكبير المجود، محدث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقي الشافعي صاحب تاريخ دمشق^(٣)، وهو علي بن الشيخ أبي محمد الحسن ابن هبة الله بن عبد الله بن الحسين^(٤)، صنف الكثير - من الكتب - وكان فهماً حافظاً متقدناً ذكياً بصيراً بهذا الشأن، لا يُحلّق شاؤه ولا يشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه^(٥)، كان مواطباً على صلاة الجمعة وتلاوة القرآن، يختتم كل جمعة، ويختتم في رمضان كل يوم، ويتعکف في المنارة الشرقية، وكان كثير التواfwل والأذكار، ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة^(٦)، وقد لزم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الجمعة في الخمس في الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في رمضان وعشرين ذي الحجة وعدم التطلع إلى تحصيل الأموال وبناء الدور، وقد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب في الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عرضت عليه وقلة الفاتحه إلى النساء، وأخذ نفسه بالأمر

(١) المختارات (٢/٢١٠ - ٣٣٦).

(٢) الحياة العلمية ص ٣٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٥٤).

(٤) المصدر نفسه (٢٠/٥٥٥).

(٥) المصدر نفسه (٢٠/٥٦٢).

بالمعرفة والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم^(١).

وكان له نظم من الشعر منه قوله:

وأشعرَفَ الأحاديث العَوَالِي
وأحسَنَهُ الفوائد والأمالي
تحقَّقَ كَأَفواهِ الرِّجَال
وَخَذَهُ عَنِ الشِّيُوخِ بِلَا مَلَال
مِن التصحيف بالداء العضال^(٢)

إلا إنَّ الْحَدِيثَ أَجَلُ عِلْمٍ
وأَنْفَعَ كُلَّ نَوْعٍ مِّنْهُ عَنِّي
فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى لِلْعِلْمِ شَيْئًا
فَكَنْ يَا صَاحِبَ ذَا حِرْصٍ عَلَيْهِ
وَلَا يَأْخُذَهُ مَنْ صُحْفٌ فَتَرْمِي
وَمِنْ شِعْرِهِ أَيْضًا:

فَمَاذَا التصابي وَمَاذَا الغَرَزْل
وَجَاءَ مَشَبِّي كَأَنْ لَمْ يَزُلْ
وَخَطَبَ الْمُنْوَنَ بِهَا قَدْرَ زَلْ
وَمَا قَدْرَ اللَّهِ لَسِي فِي الْأَزَلِ^(٣)

أَيَا نَفْسٌ وَيَحْكُمُ جَاءَ الْمُشَبِّبِ
تَوْلِي شَبَابِي كَأَنْ لَمْ يَكُنْ
كَأَيِّ بِنَفْسِي عَلَى غِرَةٍ
فِي الْيَتِ شَعْرِي مِنْ أَكُونَ

قال عنه رفيقه أبو سعد السمعاني: كثير العلم، حافظ متقن دين خير، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت محتاط، رحل في طلب الحديث، وتعب في جمعه، وبالغ في الطلب^(٤). وقال ابن النجاشي: إمام المحدثين في وقته ومن انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان وبه ختم هذا الشأن^(٥). وقال السيوطي: الإمام الكبير، حافظ الشام، بل حافظ الدنيا، الثقة ثبت الحجة، ثقة الدين.. وكان من كبار الحفاظ المتقدنين، ومن أهل الدين والخير، غزير العلم، كثير الفضل، جمع بين معرفة المتن والإسناد^(٦). وقال عنه السبكي: سمع الحديث وعمره ست سنين، ثم طلبه بنفسه ورحل في هذا الشأن عشرين سنة.. وأبعد الرحلة وجمع، وكتب الكثير في العراق وخراسان وأصفهان، وغيرها، ومن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونify وثمانون امرأة «حتى أصبح: إمام أهل الحديث في زمانه وحامل لواهه»^(٧).

(٢) المصدر نفسه (٥٦٩/٢٠).

(١) سير أعلام النبلاء (٥٦٥/٢٠).

(٤) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٩/١).

(٣) المصدر نفسه (٥٧٠/٢٠).

(٦) المصدر نفسه (٦٠/١).

(٥) المصدر نفسه (٥٩/١).

(٧) طبقات السبكي (٤/٢٧٣).

١- مسانته الفكرية والعقائدية لنور الدين محمود:

برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في معارضته على الوحدة والجهاد، حيث اندفع يطلب منه التطبيق العملي في تأليف الأربعين حديثاً في الحث على الجهاد قال ابن عساكر: وأحب أن أجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريراً للمجاهدين الأجلاء^(١).

وكان هدف ابن عساكر هو تنقيف المجتمع الإسلامي آذاك والقيام بواجب الوقت وهو الوقوف إلى جانب نور الدين محمود ضد الخطر الصليبي، ويسبب قناعة آل زنكي بأن الأعمال العسكرية والسياسية لا تكون ناجحة مؤثرة إلا بدعم فكري وعقائدي وعاطفي وديني، واستجاب ابن عساكر لطلب نور الدين وقال في مقدمته: ... فسارعت إلى امتحال ما التمس من المراد، وجمعت له ما يرضيه أهل المعرفة والانتقاد، واجتهدت في جمعها غاية الاجتهد، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد، والله الموفق للصواب في الإصدار والإيراد، والمسلح في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد^(٢). وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها من توضيح منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله مباشرة لتحرير المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي^(٣)، ومن هذه الأحاديث:

- سُئل رسول الله ﷺ، أي الإيمان أفضل؟ قال: إيمان بالله عز وجل، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم أباياد في سبيل الله عز وجل، قيل: ثم ماذا؟ قال: حجج مبرور^(٤).

- قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله، قلت: يا رسول الله فأي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهليها واعلاها ثستنا، قال: فإن لم أجده؟ قال: تعين ضائعاً أو تضع لأخرق، قال: فإن لم استطع، قال: تحف آذاك عن الناس فإنها تصيبن بها عن نفسك^(٥).

- قلت: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: أن تصلني الصسلوات مُواقيتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: جهاد في سبيل الله ولو استزدته لزادي^(٦). وفي الأحاديث الأخرى حاول ابن عساكر أن يذكر الناس بمنزلة المجاهد في سبيل

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٢.

(٢) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ١٠٨.

(٣) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٠٣.

(٤) مسلم رقم ٨٣. (٥) البخاري رقم ٢٥١٨.

(٦) صحيح ابن حبان رقم ١٤٧٦، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ١١١.

الله فمثلاً في الحديث الحادي عشر قال الرسول ﷺ: يا أبا سعيد الخدري، من رضي بالله ربّا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبأً وحيت له الجنة. قال: فعجب لها أبو سعيد، قال: أعدها عليٌّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله عز وجل^(١).

- وفي الحديث الثاني عشر: قال الرسول ﷺ: في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله^(٢).

وهناك الكثير من الأحاديث التي ذكرها ابن عساكر فهي لا تدعوا ولا تذكر الجهاد مباشرة، ولكنها تدعو إلى القتال في سبيل الله. كما هو الحال في الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير الناس وشرّ الناس؟ إن من خير الناس رجالاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حق يأتيه الموت وهو على ذلك^(٣). كما أورد أحاديث في الرباط في سيل الله مثلاً كالحديث الواحد والعشرين.

- قال رسول الله ﷺ: كل ميت يحتم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيمة^(٤).

- وفي الحديث الثالث والعشرين قال رسول الله ﷺ: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها^(٥). كما ذكر الخيل وضرورته في القتال مثلاً في الحديث السابع والعشرين.

- قال الرسول ﷺ: من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بموعد الله كان شبعه وروشه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيمة^(٦).

- وفي الحديث الخامس والثلاثين: قال الرسول ﷺ: طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله^(٧).

وأحاديث أخرى في صناعة الأسلحة في الحديث التاسع العشرين.

- مثلاً يقول الرسول ﷺ: إن الله يدخل بهالهمم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صناعه السامي

(١) مسلم في الإمارة رقم ١٨٨٤ . (٢) البخاري رقم ٢٧٩٠ .

(٣) سنن النسائي ، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله (٦/١٢، ١١).

(٤) سنن سعيد بن منصور رقم ٢٤١٤ ، قال الترمذى: حسن صحيح.

(٥) البخاري رقم ٢٨٥٣ . (٦) البخاري رقم ٢٨٩٢ .

(٧) البخاري رقم ٢٨٨٧ .

يختسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله والذى يرمى به في سبيل الله، وقال: ارموا واركعوا وأن ترموا خيراً من أن ترکعوا^(١). وليس ذلك فقط، بل وذكر فضل أولئك الذين يوجهون أسلحتهم لأعداء الإسلام.

- قال رسول الله ﷺ: من تقلد سيفاً في سبيل الله قلده الله عز وجل يوم القيمة وشاحن من الجنة لا تقوم لها الدنيا وما فيها^(٢).

وفي أحاديث أخرى ساوي بين الإنفاق في الحج والإنفاق في سبيل الله في الحرب مثلاً في الحديث الثلاثين: قال رسول الله ﷺ: النفقة في الحج مثل النفقة في سبيل الله الدرهم بسبعمائة^(٣).

إن نظرة سريعة للأحاديث التي ذكرها ابن عساكر نلاحظ أنه اختارها بدقة كبيرة من بين الأحاديث الكثيرة التي تطرقت إلى الجهاد، وبصورة عامة فهو اختيار أحاديث تتحدث عن منزلة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهد على غيره من المسلمين، وعن أولئك المسلمين الذين يجهزون للقتال أدوات الحرب آنذاك كالخيول والسلاح والرابطة في سبيل الله.. إلخ وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئته الفكرية والدينية التي كرس حياته لها، وقد آتت ثمارها في مواجهة الغزو الصليبي، فقد ساندتها السلطة السياسية العسكرية المتمثلة في شخص نور الدين محمود، والتي اعتمدت عليها كقاعدة استند إليها في صراعه الطويل مع الصليبيين.

إن تحالف العلماء مع القادة السياسيين العسكريين، كتحالف ابن عساكر ونور الدين خير مثال على أهمية وحدة الصف في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية ضد الإسلام والمسلمين^(٤).

٢- تأليف ابن عساكر *فضائل المدن*: ووجد ابن عساكر أن استمرارية العزو الصليبي للشرق الإسلامي لابد أن تواجهه استمرارية في الجهاد ضده، ولذلك أكد على فكرة الجهاد كما برزت الأحاديث التي ذكرها والتي كانت جزءاً من منهجه الجهادي المحرض للمسلمين، وليس ذلك فحسب وإنما أيضاً من خلال تأكيده على فضائل المدن الإسلامية داعياً المسلمين إلى استعادتها والدفاع عنها، حيث ألف العديد من الكتب التي تشيد بذلك منها «فضائل

(١) صحيح الحاكم (٨٦/٢) ووافقه الذهبي.

(٢) حديث موضوع فيه عبد العزيز بن عبد الرحمن البالسي، المجموع (١٣٩/٢).

(٣) إسناده ضعيف، عطاء بن السائب اختلط، التاريخ الكبير (٦٣/٣).

(٤) موقف فقهاء الشام قضاتها من ١٠٨.

القدس» و«فضائل عسقلان» و«فضائل المدن الإسلامية» و«الزهادة في بذل الشهادة»، وغيرها من الكتب التراثية العديدة التي تشير إلى مدى تركيزه واهتمامه بذكر فضائل المدن الإسلامية، وتذكير المسلمين لدور تلك المدن في التاريخ الإسلامي التي لابد من التشبيث بها والدفاع عنها^(١). ولم يكن ابن عساكر الوحيد من ألف في فضائل المدن الشامية آنذاك بل اتجه العديد من الفقهاء للتذكير بهذا الجانب مثل «فضائل الشام» للفقيه الحافظ عبد الكريم السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) و«فضائل الشام» للفقيه محمد عبد الواحد منصور السعدي الحنبلي (ت ٦٤٣ هـ)، وكتاب «ترغيب أهل الإسلام في سكني الشام» للفقيه عز الدين السلمي (ت ٦٦٠ هـ) وغيرهم الكثير^(٢)، وذلك لأن الغزو الصليبي كما أشار السلمي وابن عساكر لم يستهدف الإسلام كفرد أو عقيدة، وإنما أيضاً كان يستهدف القضاء على حضارته وتراثه المتكامل، ووجد أولئك الفقهاء أنه خير وسيلة لحفظ تراث تلك المدن الإسلامية، ومكانتها التاريخية من خطر زوالها، ولربما تغير ملامحها الحضارية من قبل الصليبيين هو التاريخ لها، وتدوين أخبارها^(٣).

ويشجع من الملك العادل نور الدين محمود تم تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر، وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: ورقى خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمّقام الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط المهام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنق ناصر الإمام... وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز والاستتمام ليَلِم بطالعة ما تيسر منه بعض الإمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بال تمام، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام^(٤). مما يوضح للباحث حرص نور الدين محمود على الاطلاع على تاريخ عاصمته «دمشق» وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤرخ لنا زمان تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية المجيدة التي تبناها نور الدين محمود^(٥)، وبذلك كان ابن عساكر أحد أولئك الذين استخدمو التراث كوسيلة لتحريض البلاد الإسلامية للوقوف في وجه الخطر الذي يحيق بها، فقد استخدم التاريخ والأدب مع فكرة الجهاد، كمنهج متكامل من أجل بعث الحياة الثقافية في بلاد الشام التي أثقلها الضعف والصراع السياسي والديني^(٦).

(١) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٨.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٩٩ / ٢).

(٣) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٠٨.

(٤) تاريخ مدينة دمشق في المقدمة ص ٤. (٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٧٩.

(٦) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص ١٠٩.

٣- ابن عساكر يحيث نور الدين على مواصلة الجهاد: عرف عن ابن عساكر تدينه وتعففه واعتكافه وبعده عن إغراءات الدنيا وعزوفه عن المناصب، بالإضافة إلى اعتداده بمكانة العلماء ودورهم الثقافي والسياسي، فلم يتردد ابن عساكر في مخاطبة نور الدين بعد أن أُغفى الأخير أهل دمشق من المطالبة بالخشب وبعد فتح مصر في أن يكتب للسلطان قصيدة يوجهه فيها إلى ما يجب أن يفعله في المستقبل فيقول:

عرضت مصر بما فيها من التشب
لأجر جوزيت أجراً غير محاسب
فيما يثبت عليه خير مرتب
خير من الفضة اليضوء والذهب
وقد أصبحت قملك من مصر إلى حلب
لما ترید فبادر فجأة الشوب
حتى ينال بها العالى من الرتب
عليه فاقصد العالى من القرب
والحرزم في العزم والإدراك في الطلب
من النجاسات والإشراك والصلب
وفي القيامة تلقى حسن منقلب^(١)

لما سمحت لأهل الشام بالخشب
 وإن بذلك لفتح القدس محسباً
والأجر في ذاك عند الله مرتفع
والذكر بالخير بين الناس تكسبه
ولست تعذر في ترك الجهاد
وصاحب الموصل الفيحاء ممثل
فأجهز الناس من قوى عزيمته
وقد بلغت بحمد الله منزلة
فالحمد والحمد مقرونان في قرون
وطهر المسجد الأقصى وحوزته
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا

كان نور الدين محمود قائداً متميزاً يملك نظرة قيادية استراتيجية في بناء الدولة، فقد جعلها قادرة على تحمل أعباء الجهاد والتحرير، فبمجرد مجئه للحكم، بدأ ببناء الدولة من جميع جوانبها الإدارية والعمانية والثقافية والسياسية، فقد كانت مداركه الحضارية واسعة فأقام صروحًا كبيرة؛ فبني المستشفيات وأقام دار العدل واهتم بالحياة الثقافية وتنشيطها، ومن هنا كان اللقاء بين الحافظ ابن عساكر والقائد نور الدين^(٢). واهتم نور الدين بالبناء الداخلي وكان العلماء عوناً له على ذلك، واستطاع أن ينقل نور الدين الموقف بالنسبة للحرب في مواجهة الصليبيين من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم حتى إنه بدأ يعد العدة لخوض المعركة الفاصلة معهم فعمل أولاً على أن يحول دون سيطرتهم على مصر، فعندما أيقن

(١) الخريدة للعماد الأصفهاني (١/٢٧٧)، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٥٣.

(٢) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٦.

الصلبيون أن وجودهم أصبح مهدداً، فتوجهوا بأنظارهم صوب مصر وهياوا لذلك، فأدرك القائد نور الدين ذلك، فتدخل على هذه الجبهة بنظرية إستراتيجية وأرسل ثلاث حملات متاليات تمكن من إحباط خططهم وإنهاء الوضع المتردي في مصر، ومن ثم إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيدها مع الشام – كما سيأتي بيانه بيان الله تعالى.

وكان ابن عساكر في هذه الفترة مواكباً لنور الدين ومحفزاً له وداعياً للجهاد والتحرير، وكان يقول داعياً للوحدة: لم يكن الله أهل فرقة على جماعة أبداً^(١)، وخطط نور الدين بجولة فاصلة مع الصليبيين تستخدم فيها طاقات الشام والجزيرة ومصر والمغرب، وببلاد إسلامية أخرى، وبات متيناً بالنصر، وتسامع الناس أخبار ثقته بالنصر، فقد كان لنور الدين نجار بحلب يعرف بالأختيني من ضيعة قرية من حلب تعرف «بأخرين» اشتهر ببراعته ودقة صنعه التي لا تجاري فأمره «أن يصنع منبراً لبيت المقدس، ولبسى الرجل ما ندب له، وبذل النجارون الصناع في صناعته سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين^(٢)، واستطاع نور الدين من خلال وسائله وخططه وتواصله مع العلماء أن يقلب موازين الصراع لصالحه، فالمعارك قبل نور الدين كانت تخوضها قوات محترفة تابعة للحكام المسلمين، ومنذ أيام نور الدين بدأ عنصر المتطوعة يكثر ويندفع في المعارك، وباتت مع الأيام أعداد المتطوعة أكبر من أعداد الجندي المحترف، وكان ذلك كلّه نتيجة تعبئة مشاعر الناس وتحريضهم على الجهاد، وندبهم إلى حمل السلاح وهو ما كان يتولاه الولاة والوعاظ، ويأتي ابن عساكر كغير علماء الشام ومحدثها الأول في مقدمة هؤلاء.

وفي هذا المجال لابد من ملاحظة هامة وهي أن المتطوعة لم يقتصرها على سكان العراق وببلاد الشام، أو مصر بل تعداه إلى سكان المغرب والأندلس، فلقد كان المغاربة يأتون للجهاد والحج في المجاهدون ويجرون أو يحجون ومجاهدون، أو مجاهدون وتكتب لهم الشهادة، وكلنا يعلم أن أحد أهم أحياء دمشق هو حي (المغاربة) الذي يعود إنشاؤه إلى تلك المرحلة^(٣)، ولقد تحدث عن المغاربة والأندلسين ومشاركتهم في الجهاد ضد الصليبيين والعلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب والأندلس وبين بلاد الشام والتأثيرات الفكرية بين العلماء، عدد من مؤرخي تلك الفترة وما بعدهم منهم: ياقوت الحموي في

(١) ابن عساكر ودوره في الجهاد ص ٤٨.

(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٨.

(٣) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص ٤٨.

معجم البلدان، وابن العماد في شذرات الذهب، وابن جبير في رحلته، والمقرى في نفح الطيب، ومحمد بن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكميل، والسبكي في الطبقات، وكذلك ابن سعيد المغربي في حلي المغرب وينقل عنه المقرى، كما ترجم ابن عساكر العديد من العلماء والقراء والشعراء المغاربة والأندلسين الذين قدموا إلى دمشق^(١).

٤- وفاة ابن عساكر: توفي ابن عساكر - رحمه الله - في رجب سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ليلة الاثنين، حادي عشر من الشهر، وصلى عليه القطب النسابوري، وحضره السلطان صلاح الدين ودفن عند أبيه في مقبرة باب الصغير^(٢).

رحم الله ابن عساكر فقد كان له دور مهم في إيجاد صحوة إسلامية ساعدت بدورها في تدعيم المواجهة الأيديولوجية مع الصليبيين، وقد تكون نور الدين بفضل الله ثم جهود العلماء والملحدين من أبناء الأمة بإعداد جبهة واحدة متماسكة عقائدياً، على نحو أدى في النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، ولا نزاع في أن الدولة النورية قد نجحت في تحقيق أهدافها بصورة كبيرة ودل ذلك على إدراكتها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية في إيجاد كيان داخلي متماسك في مواجهة الغزو الصليبي^(٣).

والجدير بالذكر أن المريي الشهير عبد القادر الجيلاني كان له دور كبير في الإصلاح الديني وبعث الصحوة الإسلامية في زمن نور الدين محمود، ولما كان الحديث عنه يطول جداً، فقد رأينا أن نفرد له كتاباً خاصاً يتحدث عن تجربته الفريدة والمهمة.

* * *

(١) المصدر نفسه ص ٤٨.

(٢) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق ص ٧٠.

(٣) فن الصراع الإسلامي - الصليبي ص ٢٧٦ ، ٢٧٧.

الفصل الثاني

سياسة نور الدين الخارجية

المبحث الأول

علاقته مع الخلافة العباسية

عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر الله ٥٣٠هـ - ١١٣٦م، والمستجده بالله ٥٥٥هـ - ١١٦٠م، والمستضيء بالله ٥٦٦هـ - ١١٧٠م، والمستضيء بالله ٥٧٥هـ - ١١٨٠م إذا اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك، جميع البقاع الإسلامية الأخرى^(١)، وقد ساعد على تمنع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين يحيى بن هبيرة، وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض فقد أسهمت مؤسسة الخلافة في المقاومة للغزو الصليبي متمثلًا ذلك في دعم نور الدين في أرض الشغور ببلاد الشام دينياً واقتصادياً وسياسياً.. إلخ متوازيًا ذلك الدعم، مع التأكيد على معانى الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات وجاهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها. وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض عديدة منها: روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوعى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله أسهمت في تقوية المقاومة للصليبيين، وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة وتحقيق التوازن العسكري ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون والعسكريون والعلماء الربانيون.

أولاً: الخليفة المقتفي لأمر الله :

هو: أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمد بن المستظر بالله أحمد بن المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، الهاشمي العباسي البغدادي الحشبي الأم، وقد بُويع بالخلافة في السادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمس مئة^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٩٨).

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٥٨.

كان المقتفي عاقلاً لبيباً، عالماً مهيباً، صارماً، جواداً محباً للحديث والعلم، مكرماً لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تدين وحسن سياسة، جدد معالم الخلافة، وبادر المهمات بنفسه، وغزا في جيشه^(١)، وأقام حشمة الخلافة وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقية وغيرهم، وكان من السلاطين في خلافته صاحب خراسان سنجر بن ملكشاه، والملك نور الدين صاحب الشام، وأبوه قسيم الدولة^(٢). ولقب بالمقتفي لأنَّه يقال: إنه رأى النبي ﷺ وهو في المنام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقتفي بي، فصار إليه بعد ستة أيام فلَقِبَ بذلك لذلك^(٣).

لم يكن الخليفة المقتفي لأمر الله أكثر حظاً من سلفه من حيث معاملة السلاجقة له إلا أنه كان دون شك أكثر قابلية ودهاء من الخليفة الراشد بالله، لقد حاول الخليفة المقتفي لأمر الله سياسة اقتناص الفرص من أجل تأكيد سلطة الخلافة والقضاء على النفوذ السلجوقي، كما أنه لم يذعن لطلبات السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه بن أرسلان، وقال له عندما أرسل وزيره يطلب منه مائة ألف دينار: ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى، وإن الراشدولي ففعل ما فعل ورحل، وأخذ ما تبقى ولم يبق إلا الإثاث فأخذته كله! وتصرفت في دار الضرب، وأخذت الترکات والجوالي، فمن أي وجه تقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار وتسلمها فإني عاهدت الله لا أأخذ من المسلمين حبة ظلماً، فترك السلطان الأخذ من الخليفة. وعندما نشب الخلاف بين أمراء السلاجقة استغله الخليفة لصالحه، واستطاع أن يحصل على موافقة السلطان مسعود السلجوقي بإنشاء جيش في بغداد تابع للخلافة مباشرة، وكان ذلك إنجازاً كبيراً للخليفة المقتفي، ثم جاءت وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة ٥٤٧هـ فارتفعت معنويات أهل العراق وأطلقت يد الخليفة لكي يثبت مركزه ويتوسَّع دائرة نفوذه الذي امتد ليشمل الحلة والكوفة وواسط والبصرة ثم تكريت، وتفرغ الخليفة لأحوال العراق الداخلية، فأصلاح سور بغداد، ورمم مواضعها الدفاعية، واسترد الإقطاعات السلجوقيَّة، وخرج بنفسه يقاتل من عاداته، يساعده في ذلك وزيره المعروف عون الدين بن هبيرة^(٤)، فنجح الخليفة الذي دام حكمه ٢٤ سنة في إزالة الكثير من النفوذ السلجوقي في العراق، وعمل على تقوية الجيش، وحفظ الأمن والاستقرار، وأصبح هو الذي يختار من

(١) سير أعلام النبلاء (٤٠٠ / ٢٠).

(٢) المصدر نفسه (٤٠١ / ٢٠).

(٣) البداية والنهاية (٣١٠ / ١٦).

(٤) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص ١٤ نقلًا عن الكامل في التاريخ.

يشاء من الأمراء للسلطة^(١). ويقول ابن الأثير: إن الخليفة المقتفي أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الدليل إلى الآن (زمن القائل)، وأول خليفة تكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه^(٢). ومن هنا يتضح أن الخليفة أصبحت بيده السلطة الحقيقة وأن الخلافة على مكانتها وهبته، وزاد احترام الأمراء وولاة الأقاليم لها^(٣). ومن أراد التوسيع في جهود المقتفي لإنهاء التسلط السلاجقي واقتلاعه من العراق وإرجاع الهيبة والقوة والسيطرة لمؤسسة الخلافة فليراجع كتاب الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية للأستاذ محمد حسون الجبوري^(٤).

- وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله: قال ابن كثير في أحداث سنة ٥٥٥هـ: فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظر بالله، وأمه نسيم المدعوة: سيدة، سمرة من خيار الجواري؛ مرض بالترافى، وقيل: بذمّل خرج من حلقه. فمات ليلة الأحد ثاني ربيع الأول من هذه السنة عن ست وستين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ودفن بدار الخلافة ثم نقل إلى التراب، وقد كان شجاعاً مقداماً، ياشر الحروب بنفسه وشاهد الحروب وبيذل الأموال الكثيرة لأصحابه الآخيار، وهو أول من استبدل بالعراق منفرداً عن السلاطين، من أول أيام الدليل إلى أيامه، وتكن من الخلافة وحكم على العسكر والأمراء^(٥).

ثانياً: الوزير يحيى بن هيرة:

الوزير الكامل، الإمام العادل عون الدين، يمين الخلافة، أبو المظفر يحيى بن محمد ابن هيرة بن سعيد بن الحسن بن جهم، الشيباني الدوري العراقي الحنبلي صاحب التصانيف. ولد عام ٤٩٩هـ ودخل بغداد في صباه، وطلب العلم، وجالس الفقهاء، وتفقه بأبي الحسين بن القاضي أبي يعلي والأدباء، وسمع الحديث، وتلا بالسبع، وشارك في علوم الإسلام، ومهر في اللغة، وكان يعرف المذهب والعربية والعروض، سلفي أثري، ثم أمضَه الفقر، ف تعرض للكتابة، وتقى وترقى، وصار مشارف الخزانة، ثم ولِي ديوان الزمام للمقتفي لأمر الله ثم وزر له في سنة ٥٤٤هـ، واستمر وزر من بعده لابنه المستجد^(٦)، وكان ديناً خيراً متبعداً عاقلاً وقوراً متواضعاً، جزل الرأي باراً بالعلماء، مكبلاً مع أعباء الوزارة على

(١) الكامل في التاريخ نقاً عن سياسة الخليفة الناصر لدين الله ص ١٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤.

(٤) الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية، محمد الجبوري ص ١٧ إلى ٣١.

(٥) البداية والنهاية (٣٩٣/١٦).

(٦) سير أعلام النبلاء (٤٢٦/٢٠).

العلم وتدوينه، كبير الشأن، حسن الزمان^(١).

١- سعيه لتفویة مؤسسة الخلافة: كان مبالغاً في تحصيل التعظيم للدولة، قاماً للمخالفين بأنواع الحيل، وحسم أمور السلاطين السلجوقية^(٢). وقد أورد المؤرخون عدة أسباب لتولي ابن هبيرة الوزارة منها أن الخليفة المقتفي لأمر الله كان معجبًا بكتاباته وشهادته وإخلاصه في أداء عمله^(٣)، ومنها أن الخليفة أمر ابن هبيرة - وكان يتولى ديوان الزمام - أن يكتب للسلطان السلجوقي مسعود شكوى في شحنة بغداد التي لم يكن على وفاق مع الخليفة، فكتب ابن هبيرة رسالة طويلة للسلطان السلجوقي ذكر فيها ما عرف عن سلاطين السلجوقية من حسن الطاعة، والتآدب مع الخلفاء، والحرص على الذب عنهم من يحاول النيل منهم، وأشار إلى شكوى الخليفة المقتفي لأمر الله بـألا يؤدي أي مبلغ من المال محمد شاه بن السلطان محمود، مقابل رفع حصاره عن بغداد، لأن هذا سيكون حافزاً للسلجوقية للمطالبة بال المزيد، وأشار بصرف المبلغ المطلوب، وقدره ثلاثة ألف دينار، في إعداد جيش للخلافة من الترك والأكراد وأهل بغداد وأعمال العراق لصد قوات محمد شاه، فقبل الخليفة رأي ابن هبيرة وفوفده في إعداد هذا الجيش، فلم تمض أيام قليلة حتى اجتمع عسكر كثير، فخرج به ابن هبيرة لقتال محمد شاه وأصحابه، فهزمهم، فلما أيقن الخليفة بحسن رأي ابن هبيرة استدعاه وولاه الوزارة سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م^(٤)، قال ابن الجوزي: كان يجهد في اتباع الصواب، ويحذر من الظلم ولا يلبس الحرير، قال لي: لما رجعت من الجنة، دخلت على المقتفي، فقال لي: ادخل هذا البيت، وغُرِّ ثيابك، فدخلت فإذا خادم وفراس معهم خلع الحرير، فقلت: والله ما ألبسها. فخرج الخادم، فأخبر الخليفة، فسمعت صوته يقول: قد والله قلت إنه ما يلبسه. وكان المقتفي معجبًا به^(٥)، وقام هذا الوزير بدور كبير في تخلص الخلافة العباسية من التفوذ السلجوقي واستعادة سلطة الخلفاء العباسيين في الدولة، وقد استطاع بمساعدة الجيش الذي أعده تخلص العراق وجميع أعماله من سيطرة السلجوقية^(٦).

٢- خوفه من ظلم العباد: وسأل الوزير ابن هبيرة يوماً الشريف مجد الدين أحمد بن علي الحسيني نقيب نقابة الطالبيين عرض رقعة له على الخليفة، وأن لا يهملها، وأن يراجعه فيها فقال: والله ما أهملت لأحد قط رقعة ولا حاجة حضرني ذكرها منذ وقفت على ما رواه أبو علي مسكونيه أنه رفعت رقعة عن بعض المتظلمين إلى أبي الفضل بن العميد، فوعده

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٢٧).

(٢) المصدر نفسه (٢٠/٤٢٨).

(٣) ذيل طبقة الحنابلة (٢/٢٥٣)، نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦٠.

(٤) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦١.

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٢٧).

(٦) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦١.

رافعها بالنظر في ظلامته فمطله، ثم عاوده، فمطله ثم عاوده فـَسْوَفَهُ، فقال له المتظلم: هذا كلام من لا يعرف دبيب الساعات في انحراف الدول فارتاع أبو الفضل بن العميد لذلك واعظ به ولان قلبه، وقال: الله درك كيف قلت؟ فأعاد عليه القول، فوقع له بما أراد وألى أن يرفع ظلامات المتظلمين، وقال: الله درك يا فلان فما نصح لي غيرك، وإنما مثلنا فيما نحن فيه من الأمور السلطانية وما عمر فيها من أهواها الملهية التي رانت على قلوبنا وأشغلتنا عن حظوظنا مثل مريض ملكته العلة وقسمت قلبه ومنعته عن النظر لنفسه، فيحتاج إلى طبيب حاذق يعنف في موضع العنف، ويرفق في موضع الرفق، فقد قالت الحكمة والأطباء: إذا رأيت صاحب الخواطر والهموم وقد استفرغه الهواجس، فصح به صيحة تزعجه وتلهيه عما اجتمع له من المواد السوداوية^(١). وقال: العجب من ينظر قبل أن يفعل في النجوم، ويحك انظر وما ترومك وإن كان طلب دنيا فهو فان، وإن كان طلب أخرى فهو باق، وإن كان حسنة فشرتها السلامة، وإن كان سيئة فشرتها الندامة^(٢). وقال: شدة الغضب إنما تكون لقوة ذكاء الحواس لأن الذي يدرك الأسباب الموجبة للغضب بسرعة، فيحتاج إلى زيادة قهر نفسه في الغضب، وعدم الغضب على الاطلاق عيب لأن الإنسان يجب أن يغضب الله عز وجل^(٣). قال عنه ابن كثير: كان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة وأبعدهم عن الظلم وكان على مذهب السلف في الاعتقاد^(٤). وقال عنه ابن العماد: وكان شامة بين الوزراء لعدله ودينه، وتواضعه ومعرفته^(٥)، وقال عنه ابن الأثير: كان حنبي المذهب، ديناً خيراً، عالماً، يسمع حديث النبي ﷺ، وله في التصانيف الحسنة، وكان ذا رأي سديد^(٦).

٣- جهوده في خدمة العلم والعلماء: قام الوزير ابن هبيرة بعمارة مدرسة بناها بباب البصرة تكاملت في سنة ٥٥٧هـ وأقام فيها الفقهاء ورتب لهم الحرایة، وكان مدرسيهم أبو الحسن البرانديسي^(٧)، وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء، وبيذل لهم الأموال، فكانت السنة تدور وعليه ديون، وقال: وما وجبت عليّ زكاة قط وكان إذا استفاد شيئاً من العلم قال: أفادنيه فلان، فكان ينسب العلم لأهله وهذا من بركة العلم ومن الأمانة العلمية. قال ابن الجوزي: وقد أفردت معنى حديث، فكان يقول: أفادنيه ابن الجوزي، فكنت استحي، وجعل لي مجلساً في داره كل جمعة، ويأذن للعامة في الحضور، وكان بعض الفقراء يقرأ عنده كثيراً،

(١) أخبار الدول المنقطعة ص ٣٥٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٩.

(٣) شذرات الذهب (٤/١٩١).

(٤) الكامل في التاريخ نقلأً عن جهود علماء السلف ص ٦٣٨.

(٥) جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري ص ١١٧.

فأعجبه، وقال لزوجته: أريد أن أزوجه بابني، فغضبت الأمُّ. وكان يقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر، فحضر فقيه مالكي، فذكرت مسألة فخالف فيها الجميع، وأصر، فقال الوزير: أهار أنت أما ترى الكلَّ يخالفونك؟ فلما كان من الغد، قال للجماعة: إنه جرى مني بالأمس في حق هذا الرجل مala يليق، فليقل لي كما قلت له، فما أنا إلا كأحدكم فضج المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتذار، وجعل يقول: القصاص الصاصَّ المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: إذا أبي القصاص فالداء، فقال الوزير له حكمه. فقال فلم يزل حتى قال يوسف الدمشقي: إذا أبي القصاص فالداء، فقال الوزير: له حكمه. فأعطاه الفقيه: نعمك على كثيرة، فأي حكم بقي لي؟ قال: لا بد. قال: على دين مئة دينار. فأعطاه مئتي دينار، وقال لإبراء ذمته: ومئه لإبراء ذمتي^(١). قال ابن الجوزي: كان الوزير يتأسف على ما مضى، ويندم على ما دخل فيه، ولقد قال لي: كان عندنا بالقرية مسجد فيه نخلة تحمل ألف رطل، فحدثت نفسى أن أقيم في ذلك المسجد، وقلت لأخى مجدى الدين: أقعد أنا وأنت وحاصلها يكفينا، ثم انظر إلى ما صررت^(٢)، وكانت لابن هبيرة جهود علمية ومن أشهرها تأليفه كتاب «الإفصاح عن معانى الصحاح» شرح فيه صحيح البخاري ومسلم، ومن شروحه الجميلة في هذا التصنيف شرحه للحديث القدسي، عن أبي هريرة رض قال: قال رسول الله صل: إن الله قال: من عادى لي ولیاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقارب لي بالنواافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به^(٣). فقد قال في قوله: ولا يزال عبدى يتقارب إلى بالنواافل حتى أحبه: لأن التقرب بالنواافل يكون تلو أداء الفرائض، بدليل أنها ذكرت بعد ذكر الفرائض، يعني إذا أداه العبد التقرب بالنواافل أفضى ذلك إلى أن يحبه الله. ثم قال سبحانه: «إذا أحببته كنت سمعه» وهذا لا أراه إلا أنه علام، وأنه لم يكُن الله قد أحبه أن يكون هو سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يطش بها، ورجله التي يمشي بها. وتصوّر ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشرع في سماعه، ولا يبصر ما لم يأذن الشرع في إبصاره، ولا يد يداً إلى ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه، ولا يسعى برجل إلا فيما أذن الشرع له في السعي بها إليه، فهذا هو الأصل، إلا أنه قد يغلب على عبد ذكر الله حتى يعرف بذلك، فإذا خطب بغيره لم يكُن يسمع لمن خاطبه حتى يتقارب إليه بذكر الله، غير أهل ذكر الله؛ توصلًا إلى أن يسمع لهم، وكذلك المברرات والمتناولات والsusي إليها وتلك طبقة عالية نسأل الله أن يجعلنا من أهلها^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٤٢٩/٢٠).

(٢) المصدر نفسه (٤٢٩/٢٠).

(٣) البخاري ، كتاب الرقائق، باب التواضع (١٩٠/٧).

(٤) الإفصاح عن معانى الصحاح (٧/٣٠٣ - ٣٠٤).

* - تواصيله مع نور الدين رفقي، كان ابن هبيرة مهتماً بدعم نور الدين في جهوده ضد الصليبيين، وكان يتبع عن كثب المشروع النوري لفتح مصر وقد حكى ابن المارستانية في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة - كأن قمررين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منها مُسamt للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، وبه أدنى نسيم فيحركها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بالحان وأصوات لم يسمع قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل الناس بإمامهم. قال الرجل قد استقبل القبلة وهو يدعوه إماماً برأ تقياً، واستيقظ الرجل، وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون لبني العباس مكان اللحية السوداء، وقوى هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده ^(١).

٥- وفاته وهو ساجد: كان ابن هبيرة يسأل الله الشهادة وي تعرض لأسبابها، وفي الليلة الثالثة عشرة جمادي الأولى سنة ستين وخمس مائة استيقظ وقت السحر، فقاء، فحضر طبيبه ابن رشادة، فسقاه شيئاً، فقال: إنه سمه فمات، وسقي الطبيب بعده بنصف ستة سمناً، فكان يقول: سقيتُ سقعيت ^(٢) قال ابن الجوزي:.. ورأيتُ أنا وقت الفجر كأني في دار الوزير وهو جالس، فدخل رجل بيده حرية، فضربه بها، فخرج الدم كالفوارة، فالتفت فإذا خاتم ذهب، فأخذته، وقلت: من أعطيه؟ أنتظرا خادماً يخرج فأسلمته إليه، فانتبهت فأخبرت من كان معه، فما استتممت الحديث حتى جاء رجل، فقال الرجل: هذا محال، أنا فارقه في عافية أمس العصر، فنفذوا إلى، وقال لي ولده: لابد أن تغسله فغسلته، ورفعت يده ليدخل الماء في مغابنه، فسقط الخاتم من يده حيث رأيت ذلك الخاتم، ورأيت آثاراً بجسده ووجهه تدل على أنه مسموم، وحملت جنازته إلى جامع القصر، وخرج معه جمّع لم نره لمخلوق قط وكثير البكاء عليه لما كان يفعله من الير والعدل، ورثته الشعراة ^(٣). وذكر أبو شامة بأنه توفي وهو ساجد في صلاة الصبح ^(٤). وقال عنه: وهو الذي مه رسم سلاطين العجم من العراق وأجلهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب ^(٥). وقال

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٢٩/٢٠). (٢) سير أعلام النبلاء (٢٠١/٢٠).

(٣) المصدر نفسه (٤٣٠/٢٠) المتنظم (٢١٧/١).

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٤٠/١).

(٥) المصدر نفسه (٤٤١/١).

ابن كثير في أحداث سنة إحدى وستين وخمسين: وفيها أظهر الروافض سبًّ الصحابة وتظاهروا بأشياء منكرة ولم يكُنوا يتكلّمون منها في هذه الأعصار المتقدمة؛ خوفاً من ابن هبيرة^(١). رحم الله ابن هبيرة وأكثر الله من أمثاله في عصرنا.

ثالثاً: الخليفة المستنجد بالله :

الخليفة أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظر بن المقتدي العباسى عقد له أبوه بولالية العهد في سنة سبع وأربعين وخمسة، وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة^(٢)، ولما توفي أبوه بويع له في صبيحة يوم الأحد ثاني ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسة، بايعه أشراف بني العباس، ثم الوزير والقضاة والعلماء والأمراء وعمره يومئذ سبعة وثلاثون سنة، وكان رجلاً صالحًا، وكان ولـي عهد أبيه مدة متزاولة ثم عمل عزاء أبيه، ولما خطب له يوم الجمعة ثُرث الدّرَاهِمُ والدَّنَارِ عَلَى النَّاسِ، وفـرـحـ الـمـسـلـمـونـ بـهـ بـعـدـ أـبـيهـ، وأقرَّ الوزير ابن هبيرة على منصبه ووـعـدـهـ بـذـلـكـ إـلـىـ الـمـاتـ، وـعـزـلـ قـاضـيـ الـقـضـاءـ ابنـ الدـامـغـانـيـ وـوـلـىـ مـكـانـهـ أـبـاـ جـعـفـرـ عـبـدـ الـواـحـدـ الثـقـفـيـ^(٣)، قال ابن النـجـارـ: حـكـىـ ابنـ صـفـيـةـ أـنـ الـمـقـتـفـيـ رـأـىـ اـبـنـ يـوـسـفـ فـيـ الـحـرـ، فـقـالـ: أـيـشـ فـيـ فـمـكـ؟ قـالـ: خـاتـمـ يـزـدـنـ، عـلـيـ أـسـمـاءـ الـاثـنـيـ عـشـرـ، وـذـلـكـ يـسـكـنـ الـعـطـشـ. قـالـ: وـيـلـكـ، يـرـيدـ يـزـدـنـ أـنـ يـصـيـرـكـ رـافـضـيـ، سـيدـ الـاثـنـيـ عـشـرـ الحـسـينـ^(٤)، مـاتـ عـطـشـانـ.

ومن شعر المستنجد قوله:

عَيْرَتِنِي بِالشَّيْبِ وَهُوَ وَقَارِ
لِيْتَهَا عَيْرَتِنِي بِمَا هُوَ عَارِ
إِنْ تَكُنْ شَابِتَ الْذَوَابِ مِنِي
فَاللِّيْلَى يَتَزَيَّنُهَا الْأَقْمَارِ^(٥)

وقال ابن الجوزي: حدثني الوزير ابن هبيرة، حدثني المستنجد قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم منذ خمس عشرة سنة، فقال لي: يبقى أخوك في الخلافة خمساً وعشرين سنة، فكان كما قال، فرأيته قبل أبي بأربعة أشهر، فدخل بي من باب كبير، ثم ارتفعنا إلى رأس جبل، وصلى بي ركعتين، وألبسني قميصاً، ثم قال لي: قل اللهم أهدني فيمن هديت^(٦)، وقال ابن الجوزي: أقر المستنجد أرباب الولايات، وأزال المكوس والضرائب^(٧)، وكان موصوفاً بالعدل والرفق وأطلق المكوس بحيث إنه لم يترك بالعراق مُكساً، وكان شديداً على

(١) البداية والنهاية (٤١٨/١٦).

(٢) البداية والنهاية (٣٩٤/١٦).

(٣) المتنظم (١٩٣/١٠).

(٤) المصدر نفسه (١٩٣/١٠)، سير أعلام النبلاء (٤١٤/٢٠).

المفسدين^(١)، وقد شفع بعض أصحابه في رجل شرير، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار واتئني بمثله لأريح المسلمين من شره^(٢).

- وفاته: توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة^(٣) وكان سبب موته أن خافه أستاذ الدار عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء وقاييل المُتفوقي كبراء الأمراء فواضعا الطيب على ذيئته فوصف له الحمام، فامتنع لضعفه، ثم أدخل الحمام، وأغلق عليه، فتلف^(٤) وصلى عليه يوم الأحد ودفن بدار الخلافة ونقل إلى الثراب من الرصافة^(٥).

رابعاً: الخليفة المستضيء بالله :

الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي الهاشمي العباسى بويوع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة، وقام بأمر البيعة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء فاستوزره يومئذ^(٦)، وكان ذا حل وأناة ورافة وبر وصدقات^(٧). قال ابن الجوزي: بويوع، فنوبي برفع المكوس، ورد المظالم وأظهر العدل والكرم مالم نره من أعمارنا وفرق مالاً عظيماً على الهاشمين^(٨)، وفي خلافته زالت دولة العبيدية بمصر وخطب لها بها، وجاء الخبر فغلقت الأسواق للمسرة^(٩)، وخطب له باليمن، وبرقة، وتوّرّ والى بلاد الترك ودانت له الملوك، وكان يطلب ابن الجوزي ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويعيل إلى مذهب الحنابلة، وضعف بدولته الرفض ببغداد، وبمصر، وظهرت السنة وحصل الأمن والله المئة^(١٠).

- وفاته: كان ابتداء مرضه في أواخر شوال من هذه السنة فأرادت زوجته أن تكتم ذلك فلم يمكنها، ووقدت فتنة كبيرة ببغداد ونهبت العوام دوراً كثيرة وأموالاً جزيلة، فلما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال خطب لولي العهد أبي العباس أحمد بن المستضيء وهو الخليفة الناصر لدين الله، وكان يوماً مشهوداً ثُنِّي الذهب فيه على الخطباء والمؤذنين ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه^(١١)، فلما كان يوم السبت سلخ شوال مات الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان مرضه بالحُمى ابتدأ بها في يوم عيد الفطر، ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكملا في مرضه شهراً، فمات، رحمة الله سلخ شوال، وله من العمر تسعة

(١) سير أعلام النبلاء (٤١٤/٢٠). (٢) البداية والنهاية (٤٤٤/١٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤١٨/٢٠).

(٤) المصدر نفسه (٤١٤/٢٠).

(٥) البداية والنهاية (٤٤٥/١٦).

(٦) سير أعلام النبلاء (٦٨/٢١).

(٧) المصدر نفسه (٦٨/٢١).

(٨) المصدر نفسه (٦٨/٢١).

(٩) المصدر نفسه (٧٠/٢١).

(١٠) المصدر نفسه (٧٠/٢١).

(١١) البداية والنهاية (٥٤٠/١٦).

وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وغُسلَّ وصُلِّى عليه من الغد^(١)، وكان من خيار الخلفاء، أمّاراً بالمعروف نهاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكوسات والضرائب، ودرأً عنهم البدع والمصائب، وكان حليماً وقوراً كريماً، فرحمه الله تعالى، وبِلَّ ثراه وجعل الجنة مأواه، وبُويع بالخلافة من بعده لولده الناصر^(٢). وقد كتب ابن الجوزي كتابه *المصباح المضيء* في خلافة المستضيء ووجهه إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بهدف التذكرة والوعظ والنصيحة باعتباره الشخص الأول في الدولة العباسية^(٣).

خامساً : تعاون نور الدين محمود مع الخلفاء العباسية:

خالف نور الدين محمود سياسة والده عماد الدين زنكي بخصوص العلاقة مع الخلافة العباسية، فقد كانت علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية متواترة في أغلب سنوات حكمه، ونشبت الحرب بين الطرفين أكثر من مرة، ولكن نور الدين محمود وَطَدَ علاقته بالخلافة العباسية منذ بداية حكمه، وتوثقت هذه العلاقة على مرّ السنين حتى نهاية حكمه، ويرجع الاختلاف في هذه السياسة بين نور الدين محمود ووالده إلى عدة أمور أهمها:

- طبيعة تقاسم السلطة بين نور الدين وأخيه سيف الدين بعد موت والدهما، فقد تولى سيف الدين غازي (الأكبر) حكم الموصل، فورث ما كان لوالده من علاقات مع الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة بسلبياتها وإيجابياتها، بينما تولى نور الدين محمود حكم حلب فورث عن والده الجانب المتعلق بالجهاد ضد الفرنجة، الأمر الذي يعتبر مصلحة مشتركة بينه وبين الخلافة العباسية على حد سواء، وكان أمر سلاطين السلاجقة قد ضعف خاصة بعد موت السلطان مسعود بن محمد عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وبدأت الخلافة العباسية تستعيد نشاطها في عهد الخليفة بأمر الله (٥٣١هـ - ٥٥٥هـ / ١١٣٩ - ١١٦٠م)^(٤).

- والأمر الثاني: هو أن نور الدين كان يعتبر الخلافة العباسية رمزاً لوحدة المسلمين التي وضعها على رأس قائمة أهدافه الاستراتيجية وهو يدرك ما للخلافة من أثر في نفوس المسلمين، ولذلك سعى لنيل تأييد الخلافة ليضفي على أعماله العسكرية شرعية دينية تساعد في تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر وشمال العراق، وفي تحرير سواحل بلاد الشام من الفرنجة المحتلين. من جهة أخرى كانت الخلافة العباسية ترى في نور الدين محمود الذي اشتهر بمحرصه الشديد على تطبيق الشريعة الإسلامية على أصول منهج أهل السنة والجماعة

(١) البداية والنهاية (١٦ / ٥٤٠).

١٦

(٢) المصدر نفسه (١٦ / ٥٤١).

٥٤١

(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٩.

٩

(٤) المصباح المضيء في خلافة المستضيء ص ١٦٣.

ناصرها وأملها في القضاء على الدولة الفاطمية^(١)، وقد مرت العلاقات بين الجانبيين بعدة أطوار على المستويات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية والثقافية^(٢).

١- الصعيد السياسي: يلاحظ أن كلا من الطرفين، وجدت لديه دافع لتوطيد علاقته السياسية بالآخر، إذ احتاجت الدولة التورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها في بلاد الشام والجزيرة، إذ أن تأييد الخلافة لذلك يدعم حكم نور الدين، ويكتسبه صفة المشروعية أمام رعاياه في تلك المناطق، ولذلك فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقليد سيادته السياسية، ومن جهة الخلافة العباسية رأت في الدولة التورية قوة سياسية فعالة في المنطقة، من الممكن أن تخفي من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وحيث إنها صارت الصليبيين، فإن تأييد الخليفة العباسي لنور الدين كان يجعله محظوظاً بقدر بالغ لرعاياه في العراق وخارجها.

و عملت الدولة التورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة، وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء، ومنهم من كان من أصل عراقي، لكي يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبيين، وقد حمل أولئك السفراء، الرسائل والمدحياً لمخاطبة ود الخليفة بغداد، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء أو التهئة بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام، وهم ولاء جميراً مثلوا عدداً من قيادات الدولة التورية لاسيما في جهازها الإداري^(٣). ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية، قام ديوان الإنشاء التوري بدور كبير في إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف، ولا نزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاظماً من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة، ووجود شخصية مثل العمام الكاتب الأصفهاني على رأسه يدل على مدى نشاطه^(٤)، ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبيين أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام ١١٥٤هـ / ١٧٤٩ م محققاً بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة إليه عهداً بالسلطة وإقراراً بسيادته عليها^(٥)، ولا شك أن العباسين اعتقدو أن الأسرة البورية السابقة لم تكن تفعل شيئاً معتبراً عنهم بفضل مهادنتها لمملكة بيت المقدس الصليبية، كذلك حتى الخليفة العباسي نور الدين

(١) المجاهد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٢٩٠.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٢.

(٣) من أمثلتهم: العمام الأصفهاني، وكمال الدين الشهري.

(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٣.

(٥) حسن المحاضرة (٣/٢)، فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.

على السير إلى مصر، لانتزاعها من الفاطميين^(١) أعداء أهل السنة - التقليديين - وذلك في وقت كانت فيه مصر في وهن بالغ من جراء سياسة الوزراء العظام الخرقاء، ويقرر البعض أن الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة أرسل إليه عهداً بتولية مصر وأعمالها في وقت كانت فيه الدولة الفاطمية لا تزال قائمة^(٢)، ومنطقى أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق، تمكّنها من تحقيق أهدافها في القضاء على الفاطميين، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميداناً رحباً لاختيار قدرة الدولة التورية على التغيير السياسي في المنطقة، خاصة في مصر، ولا مراء في أن النجاحات التورية هناك أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد في تقويض حكم زعماء القاهرة^(٣)، ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبيين، واهتب نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين في عام ١١٥٢هـ/٥٥٢م، فأرسل إلى بغداد تحفأً وهدايا ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم^(٤)، إشارة إلى تأديته لدوره القتالي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسين، وفي أعقاب الظفر على أعدائه في حارم عام ١١٦٤هـ/٥٥٩م، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره^(٥)، وتكرر ذات الأمر عندما سقطت الخلافة الفاطمية عام ١١٧١هـ/٥٦٧م^(٦)، وقد عكس الإنجار الأخير مدى نجاح التحالف التوري - العباسي في تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسين.

وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود، عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد، من أجل الحصول على مبايعته لهم، فعندما تولى المستضيء أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته^(٧)، وحرص نور الدين على الحصول على تقليد توليه على أملاك مصر والشام وببلاد الجزيرة وتم له ما أراد، فالوضع السابق دل على علاقة الدولة التورية الوثيقة بالعباسيين، وتدعيم ذلك من خلال النقوش، إذ وردت على جدران الآثار التي شيدت في عهد الدولة التورية، بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الخليفين، إذ وصف نور الدين في نقش يرجع إلى شوال ٥٤٣هـ فبراير - مارس ١١٤٩م في المدرسة الحلاوية بحلب بأنه «رضي الخليفة» وكذلك وصف بأنه «خليل أمير المؤمنين» من نقش يرجع إلى عام ٥٥٩هـ - ١١٦٤ - ١١٦٣هـ على باب شرق من أبواب مدينة

(١) العلاقات بين الشرق والغرب ص ٦٦.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.

(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٤.

(٤) المنظم (٩/١٧٦).

(٥) سنابرق ص ٧٥.

(٦) كتاب الروضتين نقلًا عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.

(٧) مرآة الزمان نقلًا عن فن الصراع الإسلامي ص ٦٥.

دمشق^(١). ووُجد تعبير «نصير أمير المؤمنين» في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام ٥٦١هـ/١١٦٥م^(٢)، وكذلك تعبير «ناصر أمير المؤمنين» في نقش على قلعة حلب^(٣)، وأيضاً في المدرسة النورية بدمشق، يرجع إلى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م وفي قلعة جعبر^(٤).

واستمرت العلاقة السياسية بين الدولة النورية والخلافة العباسية نحو ثلاثين عاماً دون خصومة، بل توطدت باستمرار فأفاد كل طرف من الآخر، ولم تكن نور الدين تطلعات إلى أملاك الخلافة^(٥). وتبلورت العلاقات النورية - العباسية في تحالف سياسي قوي أكدته بصورة جلية توجيه الخلافة العباسية للسياسة الخارجية النورية، وهذا ما نجده مثلاً في إسقاط الخلافة الفاطمية، إذ أرسل المستجدة بالله إلى نور الدين في عام ٥٦٥هـ/١١٦٩م يستحثه على الإسراع في القضاء عليها^(٦)، وقد تكرر ذات الموقف من جانب المستضيء^(٧)، ثم دعم العباسيون التوسّعات النورية^(٨)، ويلاحظ أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمراً ضروريّاً، ولم يحدث عشوائياً بل إن بغداد وجدت في سلطان حلب أكبر قوة سياسية مسلمة مجاورة لها يمكن أن تتحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقة له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون، واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عاماً مع تعدد الخلفاء العباسيين وذلك لا يخلو من دلالة هامة، وهي أنه كان حيوياً لهم خاصة أن نور الدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه ما دامت الخلافة ساعدته على توسيعاته الخارجية، وأنه صار رجل الدولة العباسية في المنطقة^(٩).

كان السعي لوحدة بلاد الشام ومصر أمراً مقرراً في خطط نور الدين وواضحاً في ذهنه منذ بداية حكمه، بل أن توجهات نور الدين وأفكاره كانت تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد كان هدفه الاستراتيجي الأكبر إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في هداية البشر وتحقيق الحياة الكريمة لجميع الناس^(١٠)، وحتى يتحقق هذا الهدف فلا بد من تحقيق الهدف الاستراتيجي الأقرب وهو تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وحتى يتحقق هذا الهدف الثاني لابد من تحقيق هدف ثالث استراتيجي أيضاً وهو توحيد الدول

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٧.

(٥) كتاب الروضتين نقلأً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.

(٦) المصدر نفسه ص ٦٨.

(٧) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.

(٨) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.

(٩) المصدر نفسه ص ٦٨.

(١٠) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٤.

والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة في دولة واحدة. هكذا رتب نور الدين محمود أهدافه وأخذ ينفذها حسب أولوياتها، وكانت الأولوية بطبيعة الحال هدف تحقيق الوحدة، ولكن سعيه لتحقيق الوحدة في المقام الأول لم يمنعه من شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنجة في الوقت نفسه^(١).

- الصعيد العسكري: على المستوى العسكري أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسين للضغط على أمراء المشرق الإسلامي لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين، فمعلوم أن الجيش النوري اعتمد أساساً على الدعم الحربي المقدم من أمراء المشرق^(٢)، لاسيما في العراق، ويلاحظ أن التقل السياسي للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربي، كما أن نور الدين نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة في تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية وتوضيح حاجته إلى العون الحربي من أولئك الأمراء على نحو مثل «ضغطًا شعبيًا» عليهم^(٣)، ونجد في جميع المعارك الحربية الكبرى التي خاض غمارها الجيش النوري، وأشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق وعلى رأسها الأمراء حكام أربيل، وسنجار، ومنبع وغيرهم^(٤). فالدور العباسى في استقدام جيوش المشرق وتحث أمرائه على دعم نور الدين لا يستهان به^(٥).

- الصعيد الاقتصادي: ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة، فمعلوم أن العالم الإسلامي يتوقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية ومنافذها، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامي، ومن الثابت أن معاير التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت في مناطق خاضعة لسيادة العباسين، إذ قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربي إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الامبراطورية البيزنطية^(٦)، وأوروبا، كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية عديدة لاسيما بين حلب والموصل، وعملت الدولة النورية على إنشاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على التجارة^(٧)، فقد اهتمت الدولة النورية بإنشاش التجارة مع مناطق العباسين والإفادة من ثراء التجار العراقيين، وتشجيعهم على التجارة مع الأسواق الشامية، ولاشك أنها جنت من وراء ذلك مكوساً وفيراً^(٨)، ومن جهة أخرى، اتجهت الدولة النورية في بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للإنفاق على مرفاق البلاد، ونجد مثالاً دالاً

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٨.

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٣٨.

(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٦٩.

(٣) زيدة حلب (٣١٩/٢).

(٦) المصدر نفسه ص ٦٩.

(٥) المصدر نفسه ص ٦٩.

(٨) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٠.

(٧) الرحلة لابن جبير ص ٢١٠.

(٩) المصدر نفسه ص ٧٠.

على ذلك، عندما وقعت أحداث زلزال عام ١١٧٠هـ / ٥٦٥م، الذي اجتاح بلاد الشام، خاصة مدن حلب، وبعلبك، وحمص، وحماه، وشيزر، وبعرین، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بظاهر الخراب والدمار^(١)، وعلى الرغم من أن نور الدين أخرج من الأموال ما لا يقدر بقدر^(٢)، من أجل ترميم ما تهدم، إلا أن ذلك لم يكف فاتجه إلى طلب عون الخليفة، ففي نص أورده ابن الفرات شرح نور الدين للخليفة المستنجد بالله ما حل بمناطق دولته من دمار بالغ على نحو أثر على دفاعاتها في مواجهة الصليبيين، واستصرخه أن يقدم له العون المالي اللازم^(٣)، ولا ريب في أن الخليفة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة التورية مالياً، لمواجهة أعداءها من الصليبيين، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدرك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة التورية، خوفاً من هجوم صليبي مفاجئ عليها اغتناماً للموقف^(٤). ومن جهة أخرى قدمت الدولة التورية للخلافة العباسية الأموال الازمة التي كانت بدورها تطلبها، كدليل على الولاء، ونجد أنها عندما أقدمت في بعض الأحيان على إنقاذه المكوس المفروضة على النشاط التجاري، راسل نور الدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل^(٥).

إن تلك العلاقات المالية تدل بوضوح على خصوصية علاقة الخليفة العباسية بالدولة التورية في بلاد الشام والجزيرة، وحرص الخليفة على دعمها وحمايتها من الخطر الخارجي بتوفير الدعم المالي لها عندما احتاجت إليه^(٦).

٤- **الصعيد الثقافي والمذهبي:** كان المدف المشتركة الكبير بين نور الدين والدولة العباسية إعادة نشر المذهب السنوي في بلاد الشام ومصر والوقوف أمام المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الذي كانت تتبناه الدولة الفاطمية في مصر، وكذلك الوقوف أمام المذهب الشيعي الإمامي، وكانت نظرة نور الدين محمود الاستراتيجية تعتبر وحدة العقيدة ركناً أساسياً في وحدة المسلمين السياسية، ولتحقيق وحدة العقيدة في بلاده سلك طريق العلم والإلقاء بالمنطق وإقامة الحجة والبرهان، فأنشأ المدارس التي تدرس الشريعة على حسب مذاهب السنة مركزاً على المذهبين الشافعي والحنفي، واستقدم أشهر العلماء والفقهاء للتدريس فيها، ولتولى الحوار مع علماء الشيعة على أساس الكتاب (القرآن الكريم) والسنة الشريفة، ولكنه لم يتزدد في اتباع طريق الحزم لوقف التجاوزات والمخالفات التي دأب الشيعة الرافضة على ارتكابها بحق بعض الصحابة، فأمر بمنع شتم أبي بكر وعمر وعثمان

(١) الباهر ص ١٥٥، دول الإسلام (٧٨/١).

(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧١.

(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٢. (٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٢.

(٥) المصدر نفسه ص ٧٢.

(٦) المصدر نفسه ص ٧٢.

رضي الله عنهم وكان ذلك شائعاً في مجتمع الشيعة الرافضة في حلب، كما أمر بوقف الأذان حسب الصيغة التي استحدثها الشيعة (أضافوا فقرة حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر^(١))، وإعادته حسب الصيغة الصحيحة التي عرفت في زمن الرسول ﷺ، وعندما حاول زعماء الشيعة في حلب عدم الامتثال لأوامر نور الدين عاقبهم ونفوا بعضهم خارج حلب^(٢). فرضخوا وامثلوا وتحول مجتمع حلب مع مرور السنين إلى مجتمع سني بالكامل، وكذلك باقي مدن بلاد الشام وإنما كان التركيز على مدينة حلب لأنها كانت مركزاً للشيعة الرافضة في بلاد الشام، أما في مصر فقد بدأت عملية التغيير من خلال الدولة النورية مباشرة بعد الاستيلاء عليها، وكانت توجيهات نور الدين في هذا المجال واضحة لصلاح الدين لتغيير نظام القضاء من المذهب الإسماعيلي الشيعي الرافضي إلى المذهب السني وإنشاء المدارس السنية، وكان التغيير تدريجياً حتى بداية عام ٥٦٧هـ / ١١٧٢م عندما أعلنت نهاية الدولة الفاطمية وأقيمت الدعوة للخلافة العباسية، فصار التغيير سريعاً وشاملاً، فكانت الصالح المشتركة بين نور الدين والخلافة العباسية قريباً بينهما وأثمرت علاقتها الطيبة بما عاد عليهما وعلى المسلمين بالخير والفائدة العظيمة، فحركة الإحياء السني التي تبناها نور الدين محمود، لقيت الدعم العباسى الكامل، ومن الممكن تصور أن الإنجاز الذى حققته حركة الإحياء السنى فى عهد الدولة النورية لم يكن من الممكن أن يتحقق بتلك الصورة من النجاح، بدون المساعدة الرسمية الكاملة من العباسين. ومن الصلات التي وجدت بين الجانبين؛ استمرار اتصال المتصوفة العراقيين بالشاميين وقد ارتحل العديد من زعماء التصوف بين الإقليمين لينضم إليهم الاتباع والمربيون^(٣)، وقد بينا ذلك فيما سبق والله الحمد.

ويتصل بالصلات المذهبية المشتركة من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره، وقد كان هناك موكب الحجاج الشاميين وأخر للعراقيين؛ اتخذ كل طريقه الخاص إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، وحرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظاهر الراعي لتلك الأماكن، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية التي سكنت نواحي الأردن وشمال الجزيزة حتى لا تتعرض للحجاج وأسهم في تعمير المسجد النبوى وعمل خندقاً حول الحجرة النبوية ملوءاً بالرصاص عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م، وكان هذا الاتجاه هدفاً مشتركاً بين الخلافة العباسية والدولة النورية وقال عنه ابن الجوزي: وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة، والطرق في أيامه آمنة، والحمد له كثيرة، وكان يتدين بطاعة الخلافة^(٤).

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٦.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٧٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٥.

(٤) المتنظم (١٨ / ٢١٠).

المبحث الثاني

تصدي نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية

وسياسته في ضم دمشق

كان نور الدين محمود منذ توليه الحكم وهو في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والمهدف منذ أن سلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرب كل منها يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرر إمارة الراها التي تشكل تدالياً مع الأراضي الإسلامية فتمكن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخنطوا الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاختباres وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً. وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والمهد في آن واحد، فأما توحيد المهد فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، وهو مذهب أهل السنة، وكان كلما توغل في الجهاد وتقدم به الزمان يزداد اقتناعاً بصوابية هذه السياسة، وكان سبيلاً إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية والنشاط الثقافي العلمي التربوي التي تخدم توحيد الصف والمهد^(١).

أولاً: القضاء على تمرد ثورة الراهاويين:

أتاحت وفاة عماد الدين زنكي وتقسيم مملكته بين ولديه فرصة طيبة لأعدائها للإقدام على غزوها، ففي الجنوب تطلع معين الدين أثر، صاحب السلطة الفعلية في دمشق إلى السيطرة على بعلبك وحص وحماة، وفي الشرق، حاول الملك ألب أرسلان السلاجقى فرض سيطرته على الأماكن الزنكية، غير أنه باء بالفشل، واسترد الأرادة المدن التي سبق أن ضمّها عماد الدين زنكي من ديار بكر. وفي شمال الشام، مضى ريموند بواتيه، أمير أنطاكيه، في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، وكان الناس آمنين، فقتل وسيبي عدداً كثيراً من المسلمين، وقاد في غاراته حتى بلغ صلدى ونهبها، وما وصل الخبر إلى حلب خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية للتتصدي له، فأدرك فرقه صليبية استاقت بعض الأسرى،

(١) صلاح الدين بين التاريخ والملحمة الأسطورية ص ٢٨٥، ٢٨٦، تاريخ الزنكيين في الموصل وببلاد الشام ص ٢٥٢.

فاصطدم بها وحرر الأسرى، ثم شنَّ الغارة على ارتاح^(١)، قبل أن يعود إلى حلب^(٢). وظل جوسلين الثاني أمير الراها قابعاً في تل باشر، إلا أنه أعد خطة لإعادة احتلال الراها^(٣). ولعل جوسلين الثاني هذا، كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكي، لأن استرداد الراها من الصليبيين كان أهم ما قام به عماد الدين في حياته، وهو العمل الرئيسي الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة في التاريخ، فكان نجاح الصليبيين في استرداد الراها، إذا ما حصل يُعد ضربة قاسية لأبنائه الذين سيفقدون المجد الذي حققه والدهم^(٤)، والأهم من ذلك الأثر المعنوي السليبي الكبير في نفوس المسلمين. لم يكن بقلعة الراها سوى حامية قليلة العدد، فاستغل الأرمن هذه الفرصة وكانوا شديدي الميل للصليبيين ودبّروا مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي وطرد المسلمين من المدينة، ووقف جوسلين الثاني على تلك التزعة فيهم فشجعهم على التمرد وتسليم البلد إليه، ووعدهم بتقديم المساعدة^(٥)، وخرج جوسلين الثاني على رأس قوة عسكرية ميمماً وجهه شطر الراها وهو عازم على استعادتها وسانده بدوين حاكم مرعش^(٦)، وكيسوم، في حين رفض ريموند بواتيه، حاكم أنطاكية، تقديم المساعدة^(٧). ويبدو أن رفضه ناتج عن التخطيط غير السليم للحملة^(٨). وكان جوسلين الثاني يأمل في مباغلة الحامية الإسلامية وبهاجمها على حين غفلة من أمرها، إلا أنها تلقت إنذاراً مبكراً بهذا الم妖وم، فاستعدت لصدده. وصل جوسلين الثاني إلى أسوار المدينة، شهر ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ - شهر أيلول عام ١١٤٦ م ونجح في دخول البلدة، لكن امتنعت عليه القلعة وقد احتمت بها الحامية الإسلامية^(٩).

وجد جوسلين الثاني نفسه أسيراً، هو ورجاله، داخل المدينة، ولما كانت قواته قليلة العدد لا يمكنها اقتحام القلعة، استنجد بأميري أنطاكية وطرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، وأرسلت الحامية من جهتها تطلب مساعدة نور الدين محمود في حلب، وكان جيشه آنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية. عذر صاحب نور الدين حاولة جوسلين الثاني هذه تحدياً له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجادات الصليبية، فخرج من حلب في شهر جمادي الآخرة/شهر تشرين الثاني على رأس جيش كثيف بلغ تعداده عشرة آلاف

(١) ارتاح : اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٢٥٣ . (٣) المصدر نفسه ص ٢٥٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٣ .

(٥) مرعش : مدينة في الشعور بين الشام وبلاد الروم، معجم البلدان (٥/١٠٧).

(٦) تاريخ الزنكيين ص ٢٥٣ . (٧) المصدر نفسه ص ٢٥٣ .

(٨) المصدر نفسه ص ٢٥٣ . (٩) المصدر نفسه ص ٢٥٤ .

فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار المدينة^(١)، وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى، الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج، فلم يقو على ملاقة هذه الجموع داخل الرها وخارجها، فأسقط في يده، وأدرك أن لا سبييل إلى النجاة إلا بالهرب، فتسلل أثناء الليل إلى خارج المدينة، واتخذ طريقه صوب الفرات^(٢). لكن هذه العملية لم تتم بسهولة فقد طارده نور الدين محمود واقتفي أثره، واستبick معه في اليوم التالي وتغلب عليه، إلا أنه استطاع الفرار إلى سميساط بصعوبة بالغة بعدما أصيب في رقبته، وكان بلد貌ين حاكم مرعش من بين القتلى، كما قتل باسيل أسقف العيaque، ووقع يوحنا أسقف الأرمي في الأسر^(٣). خرج الأرمي من الرها بعد أن أدركوا ما يتظرون به إذا ظلوا فيها، وقد أضرموا النيران في كثير من البيوت، لكن أكثرهم لم يتمكن من النجاة ووقعوا تحت ضربات المسلمين^(٤)، وكان من الطبيعي أن يحل العقاب بن بقي من أهل الرها النصارى الذين غدروا بالمسلمين بعدما تخلى جوسلين الثاني عنهم^(٥)، فقد أراد نور الدين أن يجعل من عصيان الرها وتمردتها درساً للأخرين فأباوها بجيشه وسيط أهلها، وأجلى من كان بها الفرنج.

وكانت الأخبار قد وصلت إلى الموصل بعصيان الرها وعودة جوسلين إليها، فأرسل سيف الدين غازي جيشاً لاستعادتها ولكن هذا الجيش رجع قبل وصوله للرها عندما علم باستعادة نور الدين للمدينة، وأقر سيف الدين غازي أخيه نور الدين في عمله^(٦). وكانت حادثة عصيان الرها واسترجاعها من قبل نور الدين محمود مع ما رافق ذلك من نهبها وسيط أهلها وقتل الغالية من جيش جوسلين أثناء هربه منها، ثم سكوت سيف الدين غازي عن احتلال أخيه نور الدين محمود للمدينة.. كان كل ذلك بثابة خيبة أمل كبيرة للفرنجية الطامعين في اندلاع الحرب بين الأمراء المسلمين، الذين فرحوا بوفاة عماد الدين زنكي وزوال خطره، ولكنهم أدركوا أن ابنه نور الدين محمود لا يقل خطورة عن أبيه، ثم تعززت خيبة الأمل لدى أولئك الأعداء بعد التقائه سيف الدين غازي بأخيه نور الدين محمود واتفاق الأخرين على التعاون فيما بينهما ضد الطامعين بملك أبيهم وملوكهم^(٧).

وهذا أول فتح لنور الدين، رحمه الله، وفيه يقول ابن منير:

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٤.

(٢) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الزنكيين ص ٢٥٤.

(٣) تاريخ الزنكيين ص ٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

(٦) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٢.

(٧) الباهر ص ٨٧، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٢.

شامه والعراق بعد عراقةً

تلك بكر الفتوح فالشام منها

وقال ابن القيسرياني:

فإن يك فتح الراحلة
فهل علمت علم تلك الديار

أن المقيم به ساراحل^(١)

- مساندة نور الدين لحاكم دمشق في حوران:

في عام ٥٤١ هـ / ربيع عام ١١٤٧ م خرج التونتاش أمير بصرى وصرخد في إقليم حوران، على حكمه، وأعلن استقلاله عن دمشق، وحتى يدعم موقفه التفت إلى مملكة بيت المقدس في محاولة لاستقطاب حكامها. وكان الذي شجعه على ذلك، اعتقاده بأن سياسة المسالمة التي اتبعتها الملك فولك نحو دمشق قد انتهت بوفاته في «شهر تشرين الثاني عام ١١٤٢م» وأن الحكام الجدد سوف يتزمون سياسة مغایرة وبخاصة أنه قدم إليهم في شهر ذي الحجة عام ٥٤١ هـ / شهر آيار عام ١١٤٧ م عرضاً سخياً يتضمن التنازل لهم عن بصرى وصرخد مقابل مساعدتهم له في الاستقلال بحوران^(٢)، وتردد بارونات بيت المقدس وحكامها في قبول هذا العرض المغرى الذي سيتيح لهم استغلال إقليم حوران، كما أن السيطرة على هذا الإقليم تجعل دمشق تحت رحمتهم، وبيدو أنهم أدركوا المخاطر الناتجة عن تفكيك عرى التحالف مع دمشق في ظل تربص نور الدين محمود وللخروج من هذا المأزق تصرفاً على محورين:

الأول: أنهم أمروا بجشد الجيش في طبرية استعداداً لمساعدة التونتاش عند الضرورة^(٣).

الثاني: أنهم أرسلوا إلى أنز يطلبون منه إعادة التونتاش إلى حاكمية حوران. استنشاط أنز غضباً من هذا التدخل السافر في شؤونه الداخلية غير أنه أراد أن يتتجنب نقض التحالف مع الصليبيين خشية من قوة نور الدين محمود، فأرسل يذكر حكام بيت المقدس بالحلف المعقود بينهم وبين حكام دمشق والذي يعود على الجانين بالفائدة ويحذرهم أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى محالفته نور الدين محمود لما يعرضهم لخطر جسيم، وعرض أن يؤدي نفقات الحملة التي جُهزت لمساندة التونتاش. الواقع أن أنز أدرك أن تحالفه مع الصليبيين رغم ما فيه من المهانة لكرامته في أعين المسلمين، أسلم عاقبة من يقائه وحيداً أمام نور الدين محمود^(٤) إلا أن الصليبيين لا عهود لهم ولا مواثيق، فقد هدد الفرنج دمشق ووصل جيشهم

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/١٦٧٧). (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٥٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٧.

بقيادة ملك القدس إلى أطراف حوران، فاضطر معين الدين أثر مقدم العساكر في دمشق والحاكم الفعلي إلى الاستنجاد بنور الدين الذي بادر بنفسه للمساعدة وتقابل مع أثر بالقرب من بصرى للتصدي للفرنجية الذين فوجئوا بظهور نور الدين محمود مع معين الدين أثر، واضطروا للانسحاب جنوباً ومؤخرات جيشهم تتعرض لغارات المسلمين حتى عبروا نهر الأردن^(١). وتحسن العلاقات بين نور الدين محمود ومعين الدين أثر بعد ذلك، وتوثقت أكثر بزواج نور الدين محمود من ابنة معين الدين، ورافق هذا الزواج إعادة مدينة حماة التي كان معين الدين أثر احتلها بعد مقتل عماد الدين زنكي إلى نور الدين محمود^(٢). في السنة التالية ١١٤٢ هـ / ٥٤٢ م تمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على عدة حصون وموقع تبع لإماراة أنطاكية منها أرتاح وباراه، وكفر لاثا^(٣)، وجميع هذه المواقع والمحصون كانت من أعمال حلب سابقاً استولى عليها الفرنجية خلال سيطرتهم على مدينة حلب وتوسيع الإمارات الفرنجية في بداية القرن، ويلاحظ أن نور الدين محمود وضع في قمة أولوياته إبعاد الخطر الفرنجي عن مدينة حلب، وهذا يعني التركيز على إماراة أنطاكية وتجريدها من كل ما استولت عليه في الماضي من المحصون والمواقع والبلدان التابعة لحلب حسب منهجه في ترتيب أولوياته، فقد أخذت الأخبار توارد من القسطنطينية وأسيا الصغرى عن تقدم جيوش فرنجية كبيرة جداً تتجه نحو المشرق الإسلامي لدعم وتعزيز الإمارات الفرنجية القائمة فيه واستعادة مدينة الرها التي كان عماد الدين زنكي استولى عليها عام ١١٤٤ هـ / ٥٣٩ م^(٤)، واحتلال ما يقدرون على احتلاله من بلاد المسلمين. وأخذت الدول والإمارات في المنطقة سواء كانت إسلامية أم فرنجية تعد نفسها وتضع في حسابها الصدام الكبير المقبل^(٥).

ثانياً: الحملة الصليبية الثانية:

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعث على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً أول إماراة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء الكبير الذي شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار^(٦). وكانت نداءات الاستغاثة قد

(١) عيون الروضتين (٢٠٢ / ٢)، (٢٠٣). (٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩.

(٣) زيدة حلب (٢٩١ / ٢)، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٣.

(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٣. (٥) المصدر نفسه ص ٩٣.

(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٧١.

وصلت إلى البابا يوجينيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها^(١)، وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يجتمعهما على الإسراع لتجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت نفسه كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٥ م أثناء الدعوة للحملة الفرنخية الأولى^(٢)، ولبي الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، دعوة البابا وخرجا كل بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية ومن هناك عبر مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى^(٣).

١- السلاجقة في آسيا الصغرى يقوضون على الجيش الألماني: كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام، وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقية نفس الموقع الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلچ أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى واصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم، ولما وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلاجوقى، وكان قد استبد بهم التعب والظماء فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وبابلأ من السهام، وقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالاتهم إلى العلف، عندئذ قرر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجوا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبّت الفوضى في صفوفه وتعرض أفراده لأفধ الخسائر بين قتل وأسر، والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحه مروعة، قتل فيها تسعة ألعشر الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجروح أشدّها في رأسه^(٤)، حاول كونراد الثالث، عبثاً، جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء معناً في الفرار مع من تبقى من رجاله، وقليل ماهم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم^(٥)، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسرموا أعداداً كبيرة منهم، وظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٤.

(٤) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ١٤٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٤.

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٦.

شهر^(١). وبهذه المزحة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سينمائي على الحملة الصليبية الثانية^(٢).

٢- سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي: خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني، وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور^(٣). وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الامبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته^(٤). وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الملك الفرنسي فقد فاجأه السلطان السلاجقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح ينادي الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر، ونشبت في هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر. عند ذلك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتذكر الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم ي GAMER مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدت لهم وأمطرتهم وأبلاً من السهام، كما طاردتهم وخطفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمريض، ولم ينج الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان^(٥)، ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة، وبعد أن شفى الامبراطور الألماني من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي^(٦)، والتقي الامبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع الملكين بلدوبين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين في مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذي ستوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول دمشق^(٧).

٣- الهجوم الصليبي على دمشق: توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أثر أتابك الملك مجير الدين آبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاوناً معهم^(٨)، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لما علم بنوايا الفرنجية ومسيرهم نحو دمشق اتخاذ جميع الإجراءات الالزمة للدفاع عن المدينة، وأرسل يطلب المساعدة من نور

(١) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ١٤٦.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٧.

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٧.

(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٥.

(٦) المصدر نفسه ص ١٤٧.

(٧) المصدر نفسه ص ٩٥.

(٨) المصدر نفسه ص ٩٥.

الدين محمود وسيف الدين غازي^(١)، كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية، وتحليلها بعمق ثم يخرج بالدروس والعبر التي تفيده في تقرير سياسته المستقبلية وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام ١١٤٨ هـ / ٥٤٣ م وكانت بالنسبة لنور الدين محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام ١١٤٦ هـ / ٥٤١ م والذي يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام ١١٤٤ هـ / ٥٣٩ م، على يد عماد الدين ولكن الذي حصل أن الحملة غيرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجأة أكبر لجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أثر المدبر الحقيقي لشئون إمارة دمشق، كانت مفاجأة نور الدين معروفة الأسباب، أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحديين من المسلمين في المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ في هدف الحملة التي لم يحصل ارتجالاً ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين^(٢)، بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع في المنطقة قام بها قادة الحملة في المجتمعات مكتفية اشتراك بها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق^(٣).

لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقي لغزو الفرنجة السابق في الحملة الأولى وال الحالي في الحملة الثانية والذي لا يمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح عليه السلام من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى القدس على طوال الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحي الذين خططوا لهذه الحرب، كما أن الهدف الحقيقي للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها لأن الحملة توجهت إلى دمشق حلبي الفرنجة في المنطقة ولم تتوجه إلى حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقي هو احتلال المشرق الإسلامي والسيطرة عليه كما كانت الامبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام، وأنهم لا يميزون في عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين، فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسيعهم، المجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٩٦ . (٢) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان ص ٥٢٣ .

(٣) نور الدين محمود.. سيرة مجاهد صادق ص ٢١٢ - ٢١٣ .

يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية مساحة وموارد، ولكونها الأضعف عسكرياً، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها، فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لابد أن يخوض هذه الحرب من بدايتها فدمشق بالنسبة له، كحلب تماماً وهي في الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وبباقي بلاد المسلمين، ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من حصن وبعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسي في فشل الهجوم الصليبي على دمشق. وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدرس مهم تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس: الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الاستراتيجية لإماراة دمشق في المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأي ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار^(١).

٤- موقف رجال الدين المسيحي من الحملة الصليبية الثانية: أما عن موقف رجال الدين المسيحي من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكدر نبا سقوط الرها - في يد عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م - يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوف وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأرضي المقدسة تحتاج مراجعة للمؤولين عن إماراة أنطاكية، واستقر الرأي على إرسال وفد إلى البابا يوجينيوس الثالث ٥٤٠هـ - ١١٤٥م ليدعوه إلى حملة صليبية جديدة فقادت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين، وبادر البابا يوجينيوس الثالث بدعاوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ليتزعمما تلك الحملة. وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعا أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخد من الترتيبات، ولما لم يجد هؤلاء أي حماس للاشتراك في هذه الحملة، قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة أشهر، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد - رئيس دير

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥١.

كليروفو الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة -على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي رنسيمان- فقد كان له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكمل الملك لويس السابع والبابا يوجينيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع القديس برنارد لتبليه هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى^(١)، وكما وقف البابا أوريان الثاني في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة وقف القديس برنارد خارج كنيسة فيزيليه في شوال ٥٤٠ هـ / مارس ١١٤٦ م يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانيه وبلاماته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصليبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديةه الخارجية فقطعت وحيكت صلباناً، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصليبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة^(٢). وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحي في الناس ومدى طاعة الناس لهم - في ذلك الوقت - فيقول فيها: لقد أمرتم، فأطاعت، وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة، فلم أكُد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زالت أزوجهن أحياء^(٣). وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذي أحرزه في فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للاشتراك في هذه الحملة، وقد نجح إلى حد كبير في التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوي الذي بعث به البابا إلى جميع مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها^(٤)، واستقر رأي المشاركين في هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها، واشتراك رجال الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع الجندي في حصار دمشق، فكان مع الملك الألماني كونراد قسيس عجوز يدعى إلياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق، ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليباً وحمل في يده صليباً وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يختلف من الصليبيين المشاركين في الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا

(١) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان (٤٠٧ / ٤٠٩).

(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٥.

القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً: لقد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ولا يردني أحد. ولكن باءت نبوءته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره^(١).

٥- انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية: في ربيع الأول سنة ثلاثة وأربعين وخمسماة نازلت الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألفاً، وعسكر البلد، فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن أتابك، وأخوه نور الدين في عشرين ألفاً إلى حماه، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجّ الناس والنساء والأطفال - مكشوف الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم^(٢)، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُحِبُّ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وكان من أسباب الله التي جعل فيها النصر لأهل دمشق وصول جيوش الموصل وحلب في الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين معين الدين أثر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجية، وكان معين الدين أثر حاكم دمشق لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين إذا حاولوا اقتحامها، وراسل حكام القدس ووعدهم دمشق لسيف الدين أو نور الدين إذا حاولوا اقتحامها، وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنias لهم إذا أقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بالانسحاب عن دمشق، وترافق هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجية أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها^(٣)، فقبل حكام القدس عرض معين الدين أثر، وأقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب عن دمشق خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي «ملك الشرق»^(٤)، الذي إن تسلمتها طمع باحتلال القدس وبباقي الإمارات الفرنجية فيما بعد فيزول الوجود المسيحي كله من الشرق، فانسحبت جيوش الفرنجية إلى فلسطين ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى فرنسا^(٥). وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الروم في وجه العدون، وبسبب توافق إرادة المقاومة والقتال في نفوس القادة، يعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توافق إرادة القتال، وضعف روح المقاومة في نفوس

(٢) شذرات الذهب (٦/٢١٩).

(١) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص ٢٥٥.

(٣) تاريخ المخوب الصليبي (٢/٢٥٥).

(٤) الباهر ص ٨٩، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٦.

(٥) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص ٩٦.

الحكام، كان نور الدين محمود المستفيد الرئيسي من فشل الحملة الفرنجية الثانية «بعد حاكم دمشق» فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجية على الانسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجية وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الإستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجية سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه لأكبر وأقوى الإمارات الفرنجية (ملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه، وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال^(١).

٦- مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق: لم تقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعركة، فعندما تعرضت مدينة دمشق عام ١٤٣ هـ / ١١٤٧ م للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندياوي المالكي، والشيخ عبد الرحمن الحلحي^(٢). وكان الشيخ الفندياوي زاهداً عابداً، خرج راجلاً، فرأه معين الدين - حاكم دمشق - فقصده وسلم عليه وقال له: ياشيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوّة على القتال، فقال: قد بعت واشترى، فلا تُقْيِلُهُ ولا نستقيله. يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْسَهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبه: ١١١] وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل - رحمه الله - شهيداً^(٣). واستشهد الشيخ الحلحي بعد قتال واستبسال^(٤) ورئي الشيخ الفندياوي في المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرُّ متقابلين^(٥).

٧- ما قيل من شعر: قال أبو الندى حسان بن ثور الكلبي في مدح مجير الدين صاحب دمشق:

غَرَّجَ عَلَى تَجْدِلِ لَعْلَكَ مُنْجِدِي
بِنَسِيمِهَا وَيَذْكُرُ سُعْدِي مُسْعِدِي

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٩٧.

(٢) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص ١٢٥.

(٣) أخبار الروضتين (١٩٠/١).

(٤) أخبار الروضتين (١٩١/١).

(٥) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص ١١٧.

وأخِيلٌ مثل السيل عند المشهد
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن العجاج بكل نقع أسود
وغداً بحمد من شريعة أَمْهَد^(١)

من قاتل الإفرنج دينًا غيره
رَدَ الأمان بكل ندب باسل
ومن السيوف بكل عَضْب أبيض
حتى لوى الإسلام تحت لواهه

ثالثاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية:

هناك مجموعة من النتائج تخصّصت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

١- أُجّجت العداء الغرب أوروي تجاه الامبراطورية البيزنطية، إذ أن المعاناة التي لقيها الامبراطور الألماني كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسي لويس السابع من خلال الطريق البري الذي مر بمناطق بيزنطية أكدت العداء المتأصل بين الطرفين وهو عداء سيترacom طوال القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري.

٢- أثّرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي في الشرق، فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي استراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والازدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا جلاءً أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك الحملة الفاشلة، لم يغّنهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة لاحتلال مناطق المسلمين طالما أن أطماءهم لا تحد، وجشعهم ليس له حدود. لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا، وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي^(٢). وهذا ما ينطبق على إسرائيل في هذا العصر.

٣- عجز الكيان الصليبي بامكانياته المحلية عن تغيير واقع عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتحليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة، أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعداً الإنجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من

(١) أخبار الروضتين (١٩٣/١).

(٢) الحروب الصليبية - العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٤.

المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزوة القدوم للمنطقة.

٤- بروز نجم نور الدين محمود: فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدمشقية من تطلعاته السياسية، إلا إنهم صاروا في علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث^(١)، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام، بصورة أقوى، فقد اعترف الدمشقية ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبو منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حلقة الأمس^(٢).

٥- ضعف حكام دمشق: والحملة المذكورة تلقي الضوء على مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي عليها، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي، ولا ريب في أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق^(٣).

٦- تدمير حصن العريمة: استغل نور الدين محمود أول فرصة سانحة له للعمل المشترك مع معين الدين أثر، فقد استعان رaimond أمير طرابلس بنور الدين ومعين الدين ضد أحد أمراء الفرنجية الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة، وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذياً للشاطئ حتى صار بمحاذاة إمارة طرابلس ونزل إلى البر ومعه فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس وتحصن فيه وأعلن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رaimond، ولم يتمكن رaimond أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقي الإمارات الفرنجية وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادراً بسرعة لحصار الحصن بقواتها واستوليا عليه، وأسرا كل من كان فيه ثم دمرا الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهما إلى مدنه^(٤)، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيئ الذي أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية في المشرق الإسلامي^(٥).

٧- كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين: يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي - المسيحي، بالإضافة إلى أنها

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٤.

(٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٨٥.

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٩٧. (٥) المصدر نفسه ص ٩٨.

أدت إلى احتطاط هيبة الصليبيين في الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التي ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكي الذي أحياناً مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين فينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصلبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراثقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي ستتمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي^(١).. هذه هي أهم النتائج.

رابعاً: سياسة نور الدين محمود في ضم دمشق:

كان نور الدين يحاول التقرب من أهل دمشق وكسب ثقتهم، ويستغل كل فرصة تتحقق له ذلك سعياً منه لتحقيق هدفه الرئيسي بضم دمشق دون حرب، وقد وصلته أخبار في نهاية عام ١١٤٩هـ / ١٧٣٤م عن أعمال نهب وتخريب يقوم بها الفرنجة في مناطق حوران التابعة لدمشق دون أن يردعهم أحد^(٢)، وكان المطر قد انحبس حتى ذلك الوقت وعاني الناس من القحط، فتوجه نور الدين بجيشه حتى وصل بعلبك، وراسل مجير الدين آبق حاكم دمشق، يقول له: إنني ما قصدت بنزلولي هنا طلباً لمحاربتكم، وإنما دعاني لهذا الأمر كثرة شركاء أهل حوران بأن الفلاحين أخذت أموالهم، وسيبقيت نساوهم وأطفاهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله تعالى وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستقرار بالفرنج على محاربي و بذلك لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية، ظلّمّاً لهم و تعدّياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولابد من المعونة بآلف فارس مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخلص ثغر عسقلان وغزة^(٣).

(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٠٠.

(١) السقوط ص ١٣٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٠.

فهذه الكلمات خرجت من قلب مكلوم، يرى الفرنج يتدعون على المسلمين كما تدعى الأكلة على قصعتها، وأولو الأمر يقفون مكتوفي الأيدي، فلا يذبون عن أمتهم، ولا يدافعون عن رعيتهم، بل ويصل الأمر إلى أنهم يبذلون أموال المسلمين لأعداء الإسلام، مع أنه لا يجوز إعطاء الكافرين أموال المسلمين وأرضهم، فكان لابد أن يتحرك الأبرار الشرفاء. إن نور الدين في هذه الرسالة غير حريص على قتال إخوانه في الإسلام، إنما الذي دفعه إلى الخروج، والنزول حول دمشق، هو إغاثة المكلومين الذين ابتلوا بالفرنج، ولا طاقة لهم في دفعهم، مع قعود مجير الدين صاحب دمشق عن نصرتهم ابتعاء مرضاه الله وقياماً بواجب عجز حكام دمشق عن القيام به، كما أنه لا يحل لسلم أعطاه الله القدرة على نصرة المسلمين وجهاد أعدائهم، لا ينصرهم. وفي هذه الرسالة يرسي نور الدين معلم على طريق التحرير لعل حكام المسلمين يعون ما فيها، حينما يذكر أن التمكين في الأرض نعمة، وكثرة المال، وكثرة الرجال نعمة تستحق الشكر لله عز وجل، وتوظيفها في طاعة الله عز وجل، أي لابد هنا من توظيفها في الجهاد في سبيل الله، ولا يحل لسلم أعطاه الله هذه النعم أن يقعد عن نصرة إخوانه في الإسلام ومجاهدة الأعداء، لهذا قرر نور الدين محمود أن يهب لنجدته إخوانه سكان دمشق^(١).

كان الجواب الذي تسلمه نور الدين من حاكم دمشق: ليس بيتنا وبينك إلا السيف وسيوفنا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا^(٢)، فقرر نور الدين التوجه إلى دمشق ومحاصرتها ولكن أمطاراً غزيرة جداً سقطت واستمرت أسبوعاً، غير رأيه حقناً لدماء المسلمين، ولهج أهل دمشق وحوران بالدعاء له واعتبروا نزول المطر ببركته^(٣)، وقرر نور الدين أن يستولي على المدينة بطريقة سلمية، وكان هذا القرار يتناسب مع عقيدة نور الدين محمود وطبيعته، فهو يكره سفك دماء المسلمين ويبذل قصارى جهده ليتجنب قتال المسلمين، وُعرف عنه قوله: إنني أرقه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم، كانت خطة نور الدين محمود للاستيلاء على دمشق سلماً تقتضي العمل على ثلاثة محاور: المحور الأول: العمل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم ومعاملتهم مع الأعداء، وبالمقابل إبراز ما يتظار لهم من نور الدين محمود، وكانت القواعد والأسس الالزمة مثل هذه الحملة متوفقة وموجودة أصلاً من خلال الواقع الذي يعيشه أهالي مدينة حلب وغيرهم،

(١) الطريق إلى البيت المقدس، د. جمال عبد الهادي ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ . (٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٨٣ .

(٣) عيون الروضتين نقلأً عن دور نور الدين ص ١٠٠ .

من رعايا نور الدين محمود، ومن خلال ما تناقله الناس عن عدله وحسن سيرته وجهاده، ولكنه أراد أن يخصلَّ أهل دمشق بمزيد من الاهتمام والرعاية في هذا المجال، فكان يوصي جنوده في كل مرة يدخل فيها أراضي الإمارة أن يحسنوا معاملة الفلاحين ومن يلقونهم من أهالي دمشق وألا يحدثوا أية أضرار في الممتلكات والمزارع، وعندما علم باعتداءات الفرنجية على حوران (جنوب دمشق) وقتلهم للمسلمين وسيئهم للنساء والأطفال ونبههم للمواشي، دون خروج حاكم دمشق لدفعهم، بادر بالتوجه بجيشه إلى دمشق، وعندما اقترب من المدينة وأرسل إلى حاكمها الرسالة الآفنة الذكر، وعندما علم نور الدين أن حاكم دمشق طلب مساعدة الفرنجية، أجرى تعديلاً على توزيع مواقع قواته للتعامل مع الموقف الجديد. التقى مجير الدين آبق مع قادة الفرنجية وأكمل معهم اتفاقه القديم ولكن أدرك فيما بعد عزم نور الدين وتصميمه على احتلال المدينة، فأرسل إليه يطلب الاجتماع به وإعلان الطاعة له، وذكر اسمه في الخطبة وسُكّ اسمه على التقدّم مقابل بقائه حاكماً على المدينة، فقبل نور الدين بهذا العرض، وتم الاجتماع في معسكر نور الدين، وخرج أغلب أهل دمشق إلى معسكر نور الدين ليملأوا عيونهم من طلة نور الدين^(١) وانتهت نور الدين محمود الفرصة فحرص على لقاء العلماء وطلبة العلم وقراء القرآن وأكرمه كما أحسن إلى الفقراء والضعفاء وشملهم بعطفه، مما ترك أحسن الأثر في نفوس الناس، ومع أن مجير الدين آبق نقض اتفاقه مع نور الدين وأعاد علاقته بالفرنجية كما كانت في السابق، إلا أن نور الدين كان قد تملك قلوب الرعية في دمشق وحقق نجاحاً كاملاً على المحور الأول من خطّه.

المحور الثاني: كان العمل يشمل الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار والقضاة والعلماء وبعض قادة الجندي، وقادّة التنظيمات الشعبية^(٢)، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب، وكان من أشهر العاملين على هذا المحور القائد المشهور أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين)، فقد كان الأخير من سكان دمشق ومن أشهر وجهائها^(٣)، بينما كان أسد الدين من أكبر القادة العسكريين العاملين مع نور الدين محمود، فاستغل نور الدين هذا الوضع وأوّلَ إلى قائده أسد الدين بمراسلة أخيه نجم الدين وتحريضه على الإطاحة بمجير الدين آبق، وتسهيل تسليم المدينة لنور الدين بدون قتال في الوقت المناسب، فاستجاب نجم الدين وبدل في هذا المجال جهوداً كبيرة أثمرت في نهاية الأمر حتى أخذ أعيان دمشق يراسلون نور الدين يطلبون

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.

(٢) الباهر ص ١٠٧، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.

(٣) الكواكب ص ١٢٢، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.

حضوره معلين استعدادهم حصار مجير الدين آبق في قلعة دمشق وتسليم المدينة له دون قتال^(١). وهكذا كان النجاح على هذا المحور كاملاً كما هو على المحور الأول.

المحور الثالث: كان المحور الثالث من اختصاص نور الدين نفسه، فقد استطاع بخبرته ومقدراته على تحليل النفوس البشرية، النفاذ إلى شخصية مجير الدين آبق وتحليلها، ومعرفة ميوله ورغباته وتعامل معه على هذا الأساس، فأخذ يراسله ويستشيره في أمور المسلمين ويقترب إليه بالهدايا حتى اطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يوقع بينه وبين قادته وأمرائه، فيكتب له عن بعض أمرائه وقادته بأنهم يراسلونه^(٢) (أي يراسلون نور الدين) فيقبض مجير الدين عليهم أو يجردهم من مناصبهم أو يقتلهم حتى لم يبق من كبار قادته وأمرائه من يعتمد عليه في ضبط أمور الجيش وإدارة القتال^(٣)، وأصبح مكروهاً من الرعية معزولاً عن الأعيان والوجهاء مجرداً من القادة الأكفاء، عندها حانت الفرصة المناسبة وأصبحت دمشق كالثمرة الناضجة، فسار نور الدين محمود إليها بجيشه وأوزع إلى أنصاره فيها لتنفيذ ما اتفق عليه، فثاروا وهاجوا أبواب المدينة من الداخل وفتحوها أمام جيش نور الدين، بينما تحصن مجير الدين آبق مع من بقي معه من الجندي في قلعة المدينة، وطلب النجدة من الفرنجة الذين سارعوا إليها ولكن نور الدين كان أسرع منهم فرجعوا خائبين، ثم أرسل نور الدين إلى مجير الدين يؤمه على نفسه وعلى من معه من الجندي، ويعده بإقطاعه مدينة حمص إذا استسلم وخرج من القلعة، فقبل وحق له نور الدين وعده ولكن أبدله بحمص مدينة بالس على نهر الفرات في الشرق^(٤). وهكذا نجحت خطة نور الدين في ضم دمشق إلى دولته بدون قتال نجاحاً كاملاً - بفضل الله - ثم حنكته السياسية ومقدراته على تأليف القلوب واستعمالها، بالإضافة إلى قوة عزمه وتصميمه على الهدف وصبره وترويه في التعامل مع الأمراء المنحرفين عن جادة الصواب^(٥).

ولقد تمكّن نور الدين من ضم دمشق في صفر عام ٥٤٩ هـ / أبريل ١١٥٤ م^(٦)، وبعد ضم دمشق من أهم إنجازات السياسة الخارجية النورية، وبذلك تحقق حلم طالما راود الزنكيين، وقد عده البعض أعظم إنجازاته على الإطلاق، وأنه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية^(٧)، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته، وصار الصليبيون بذلك

(١) الباهر ص ١٠٧، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤١.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٥، دور نور الدين ص ١٤٢.

(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٢ - ٣٢٧ . (٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٥) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٢ . (٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٤.

(٧) الشرق الأوسط للعربي ص ٢٩٩، الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٨٠.

يواجهون عدواً خطيراً^(١)، وإذا كان بدلوين الثالث بإسقاطه عسقلان عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م أكمل مد النفوذ الصليبي على كل أنحاء الساحل الشامي من الإسكندرية شمالاً إلى غزة جنوباً؛ فإن استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردي في قبضة قوة إسلامية موحدة^(٢)، وتلك هي المرة الأولى التي توحدت فيها الشام منذ العهد السلجوقي، وصار بإمكان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لأعدائه في الشمال صوب أنطاكية، وفي الجنوب صوب منطقة الجبل الأعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية، كذلك أدى إسقاط دمشق إلى فتح الطريق نحو القاهرة، التي غدت محطة أطماع متبدلة من جانب نور الدين والصلبيين على حد سواء^(٣).

خامساً: أهم نتائج ضم دمشق:

ترتب على ضم دمشق عدة نتائج كانت لصالح المسلمين لعل أهمها:

- ١ - قضى نور الدين محمود على الأسرة البوالية التي حكمت دمشق منذ عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م، وألت هذه الأتابكية بمنتها وإقطاعاتها إليه، فكان ذلك فتحاً للفتح وأضحت الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب.
- ٢ - صفت المالك بالشام لنور الدين محمود وألقى الإسلام بدمشق جرانه، وثبت أوطاده، وذلك إشارة إلى أن دمشق كانت في ظل حكم الأسرة البوالية تحت حماية الصليبيين.
- ٣ - قامت لأول مرة في بلاد الشام منذ أن وطئها الصليبيون دولة إسلامية متحدة مركزها دمشق، وقد أفرز هذا الصليبيين فعل المؤرخ وليم الصوري قائلاً: كان هذا التغيير مسؤولاً بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضع الصليبيين في مواجهة خصم عنيف في شدته مثل رجل مسلوب الإرادة، إشارة إلى مجير الدين آبق، قد جرّده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم، كما أنه ظلّ حتى ذلك الوقت يدفع لهم الجزية سنوياً شأنه في ذلك شأن التابع لهم^(٤). وفي رأينا أن التغيير المسؤول بالنسبة لمملكة بيت المقدس هو نفسه التغيير المبارك بالنسبة للمسلمين وهو توحد عدة مدن كانت دويلات في دولة واحد قوية وتوحد جيوشها المبعثرة في جيش واحد قوي على رأسه قيادة ربانية كنور الدين زنكي استطاعت أن تعطي هيبة وقوة للدولة.

- ٤ - شكل ضمُّ دمشق إلى حلب نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه

(١) (٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٥.

(٤) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (٢) / ٨١٥.

ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود، فمن الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق، فقبل ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى الإسلامي منقسمين إلى قسمين منفصلين، قسم في الجنوب أي مصر، وقسم في الشمال أي شمال الشام والعراق، وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق توجيه الضربات لكل قسم من هذين القسمين على انفراد دون أن يتمكن القسم الآخر من دفع خطرهم^(١).

٥- حقق ضمُّ دمشق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، بل فاق في كفة المسلمين رجحانه، فإذا كان الصليبيون قد حفظوا السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندرية إلى غزة، فإن ضم نور الدين محمود لدمشق جعل بلاد الشام الداخلية من الفرات حتى نهر بردي في قبضة إسلامية واحدة، وإذا كان الصليبيون في الشمال قد نجحوا في الاستيلاء على حارم على الضفة الشرقية لنهر العاصي، فإن ضياع هذه القلعة من المسلمين لا يعادل بأي حال الأهمية العسكرية والمعنوية لدخول نور الدين محمود دمشق^(٢).

٦- تحقق بضم دمشق جانب كبير من أهداف نور الدين محمود الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وكان قد أمنَّ المركز المسيطر على طريق وادي العاصي المؤدي إلى أنطاكية، فأضحت بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يسدّد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب بعد أن انهار الحاجز المنيع الذي كان يفصل حلب عن بيت المقدس، وبعبارة أخرى، أصبحت مملكة بيت المقدس في متناول يده.

٧- على الرغم من أن ممتلكات الصليبيين تفوق في المساحة وفي الشروط ممتلكات نور الدين محمود، فقد كان له ميزة توحيد الممتلكات تحت زعامة واحدة يقلُّ عن سائر أمراء الصليبيين المشرذمين، فيما يتعرض له من مناورة من قبل أتباعه الطموحين^(٣).

٨- أخذ نجم نور الدين محمود في الصعود، غير أنه كان شديد الخذر مما منعه في المضي في استكمال انتصاراته، لذلك أكدَّ من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس، فقد جدد في عام ١١٥٦هـ / ٥٥١م الهدنة لمدة ستين^(٤)، ولم تأخذ نور الدين نسوة الانتصار وعاطفة العوام ولم يتأثر بغزو الانتصار وإنما عالج الوضع بعقلية القائد الحنك

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٨٩.

(٢) الكامل في التاريخ نفلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٢٩٠.

واهتم نور الدين بالأمور الإدارية والحضارية والسعى لتعزيز المذهب السنّي بدمشق وعمارة الاستحكامات وأسوار المدن^(١).

- ما قيل من الشعر في حصار دمشق: في عام ٥٤٦ هـ حاصر نور الدين محمود دمشق فمدحه ابن المنير بقصيدة يحرضه على حكام دمشق فقال:

تصديق واصفه سرارة المتبَرِ
والمستطيل بمصر ظل قصُوره
والكوثر بن الكوثر وبين الكوثر
عقلوا جيادك عن بنات الأصفه
ناراً تَحَشُّ بهم غداً في المخمر
أُخْلِيَفَةَ اللَّهِ الَّذِي ضَمَّنَتْ
لَا يَسْتَطِيلُ بِمَصْرٍ ظَلَّ قُصُورَه
يَا نور دين الله وابن عماده
صَفَرَ بِحَدَّ السَّيْفِ دار أشائِب
هُمْ شَيَّدُوا صَرْحَ النَّفَاقِ وَأَوْقَدُوا
إِلَى أَنْ قَالَ:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنَادِيُّ جُودُه
فِي سَائِرِ الْآفَاقِ هَلْ مِنْ مَعْسَرٍ
فِي ظَلِّ مَلْكِكَ غَالِيَاتِ الْأَمْهَرِ^(٢)
إِنَّ الْقَصَائِدَ أَصَبَّحَتْ أَبْكَارُهَا

* * *

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٦١.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٦٠ ، ٢٦١).

المبحث الثالث

العلاقات مع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة والأناضول

أولاً: الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية من بلاد الشام:

إن حرص الدولة النورية على ضم وسط الشام إلى حلب لم يجعلها تتناسى أهمية إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، إذ أن ذلك يعد تدعيمًا حقيقياً لسلطانها في حلب ذاتها^(١).

ـ ١ـ العلاقة مع شيزر: كان نور الدين قبل سنة ٥٥٢هـ لا يهاجم شيزر لانشغاله عنها لجهاد الإفرنج وخوفاً من أن يسلمها صاحبها إلى الصليبيين ولكنها أصبت في هذا العام سنة ٥٥٢هـ بزلزلة وانهدم الحصن وقتل جميع آل منقد الموجودين^(٢) فيه، فبادر إليها بعض أمراء نور الدين وقصد إليها وجدد أسوارها فعادت جديدة^(٣)، ودخلت شيزر في دولة نور الدين وحقق ضمها مكاسب تجارية وسياسية واستراتيجية للزنكيين، فقد كانت تقع على خطوط التجارة بين حلب ودمشق وحمص، بحيث جعلت لن يحكم قبضته عليها حق جباية المкос، ومن جهة أخرى صار إخضاعها أمراً تمهلاً للأحداث بعد أن طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها حيث إنهم بادروا إلى ذلك في نفس العام^(٤)، ولا شك في أن محاولة الصليبيين قد جعلت الدولة النورية تدرك أكثر من أي وقت مضى أهمية إخضاع شيزر لأن استيلاءهم عليها يشكل خطراً داهماً خاصة على مدينة حلب قلب الدولة النورية في مرحلتها الباكرة^(٥). إن نجاح الدولة النورية في السيطرة على شيزر، بمثل تلك السهولة التي توردها المصادر، دلالة واضحة على أن النفوذ السياسي لبني منقد، حينذاك، انتهى بصورة فعلية على نحو لم يشكلا معه أية معارضة حقيقة للسياسة الخارجية النورية، ولذا جاءت أحداث الزلازل المذكورة لتعطي لنور الدين الحافر القوي للإجهاز على كيان سياسي محلّي متلاش^(٦) وهذا يذكرنا بسنة من سنن الله في خلقه وهي إذا أراد الله أمراً هياً له أسبابه، وقد تحدث الأمير أسامة بن منقد عما حدث لقومه من زلزلة عظيمة في شيزر، ودمرت حصنها على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقد وقتل عدد كبير من بني منقد في هذه الزلزلة، وقد حزن أسامة كثيراً على وفاة أقاربه فقال في رثائهم:

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٥ . (٢) (٣) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ٢٣٥ .

(٤) (٥) (٦) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٦ .

ولا تخرّمهم مثنى ووحدانا
وأحمد الخطب فيهم عز أو هانا
أخاؤكم فارقوها أهلاً وجيرانا
هل ما ترى تارك للحين إنسانا
قلباً أحشّمه صبراً وسلوانا
وعاش للهم والأحزان أشقاانا
كذاك كانوا بها من قبل سكانا
 وإن أروني منساواة وشنانا
وخلفوني على الآثار عجلانا^(١)
ورثي أسماء كذلك ولده عتيق وبكاه في أكثر من قصيدة، وكان حزنه لموته شديداً فمما قال فيه:

غالبتي عليك أيدي المنيا

فتخليست عنك عجزاً

وارادت جيل صبري فرامت

ولها في النقوس أمر مطاع

ولو أغنى دفاعي لطال عنك الدفاع

مطلوباً في الخطوب لا يُستطاع^(٢)

ونلاحظ في رثاء الشاعر لأهله وولده أنه كان متاثراً إلى حد بعيد بفاجعته فيهم وكانت قصائده تصور هذا الحزن العميق، والفاجعة الأليمة، وحيث إن رثاءه كان صادقاً ومعبراً عن حقيقة ما يشعر به تجاه هؤلاء الأقارب، فإن كلمته كانت صادقة ومؤثرة، وبعيدة عن التصنيع والتكلف^(٣).

-٢- **الأسرة الجندلية في بعلبك:** وامتداداً لسياسة تحجيم الأسر الحاكمة المحلية وإضعافها حتى لا تنافس الدولة النورية في حلب ودمشق سعت الدولة النورية إلى مواجهة الأسرة الجندلية التي سيطرت على بعلبك، وترأسها الضحاك بن جندل البقاعي، ودانست بالذهب الدرزي، ولا شك أن الأقليات الدينية خاصة الدرزية شعرت بصفة مستمرة برغبة في التكتل من خلال وجودها وسط محيط سني متهمس للكتاب والسنّة والعقيدة الصحيحة، ومناوئ للبدع الشيعية الرافضية الباطنية. وكان الضحاك بن جندل تابعاً لأنتابكية دمشق،

(٢) الديوان ص ٥٢٦.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٣٣٨، ٣٣٧).

(٣) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ص ٣٠١.

وأدرك خطورة سيطرة الدولة النورية على دمشق عام ١١٥٤هـ / ١١٥٤م، وأعلن عصيانه على نور الدين، وقد خشي الأخير أن يصطدم به حتى لا يطلب عون الصليبيين، خاصة ما عرف عنه من مناورات سياسية حيث تأرجح بين الولاء للمسلمين السنة تارة والصلبيين تارة أخرى^(١)، ليضمن بقاء كيانه السياسي بمنأى عن الاندحار وسط كيانات أكبر من أن يواجهها منفرداً^(٢). ولا مراء في أن الدولة النورية السنة نظرت بارتياح إلى وجود كيان محلي درزي في تلك المنطقة المهمة في سهل البقاع بالقرب من الوجود الصليبي، وعلى الرغم من أن الأسرة الجندلية لم تكن تقلل قوة سياسية كبيرة، فإن نور الدين محمود حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعي، ولا أدل على ذلك من أنه أخذه بالملائنة نحو ثلات سنوات حتى تمكن من إخضاع بعلبك لسيطرته عام ١١٥٢هـ / ١١٥٢م^(٣)، وكان ذلك بعد المصادقة على الاتفاقية بين نور الدين والملك الصليبي، ولم يظهر الضحاك مقاومة وأجاب أمر نور الدين وهكذا شهد عام ١١٥٢هـ / ١١٥٧م تأميناً لحلب في شمال الشام بإخضاع شيزر، ثم بتدعمه السيادة النورية في سهل البقاع بانتزاع بعلبك من السيطرة الدرزية، وبالتالي صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهيأً أكثر من ذي قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية ولم يعد سهل البقاع يحوي قوة تمثل موضعاً مضاداً للنفوذ النوري^(٤).

٣- ضم حران: اتجهت السياسة الخارجية النورية إلى ضم حران بعد أن خضعت للأئمة الأصغر لنور الدين نصرة الدين أمير أمiran^(٥)، ومن المعروف أنه اتخذها مقرًا له وقد اتسمت العلاقات بين الجانبيين بالود في بادئ الأمر، حتى أن نور الدين عندما وقع فريسة للمرض عام ١١٥٢هـ / ١١٥٧م أوصى أن يكون نصرة الدين خليفة على عرش الدولة النورية، غير أن العلاقات تدهورت بعد أن خدت حران أقل من الطموحات السياسية الجامحة لنصرة الدين الذي تطلع إلى حلب ذات الثراء التجاري العريض، ولذا اغتنم فرصة مرض أخيه ليستولي على السلطة ويبدو أنه تحصل على دعم من الشيعة الإسماعيلية وأنهم عاونوه على تحقيق مراميه. وطبععي أن سبب دعمهم لحركته عداء الدولة النورية لهم وحرمانهم من النفوذ السياسي الذي تتمتع به السنة ويبدو أنهم وجدوا فيه ورقة راجحة لضممان نفوذهم في الدولة النورية، وتتمكن نصرة الدين من الاستيلاء على المدينة غير أن قلعتها استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مثل أهم عوامل فشل المحاولة، على الرغم من وجود تنسيق

(١) (٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٧.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١، فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٨.

(٤) (٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٨.

بين المتأمرين في كل من حلب ودمشق من أجل السيطرة على المركزين الرئيسيين للدولة سياسياً واقتصادياً، وضمان إخضاع باقي الأقاليم بلا عناء كبير. ومن الواضح أن شرطة الدولة النورية تعمت بيقظة كبيرة، إذ أن المتأمرين سعوا إلى الاتصال وتنظيم المحاولة بالرسائل، غير أنها سقطت في أيدي الشحنكجية، وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم، وقد مثلوا عناصر فعالة في الجهاز الإداري للدولة^(١)، وأمام تلك الأحداث، قرر نور الدين إخضاع حران لسيادته نهائياً وإقصاء أخيه عنها، وحاصرها بالفعل لمدة شهرين وأسقطها عام ١١٥٤ هـ / ٥٥٤ م^(٢)، ولاذ نصرة الدين بالفرار. ولا نزاع في أن الاستيلاء على حران دعم قبضة الدولة النورية في مناطق الجزيرة، وأفادها داخلياً بتحجيم خطر الشيعة الإسماعيلية بالقضاء على نفوذ نصرة الدين وإيقاف دعمه لهم، ومع ذلك فإن نور الدين أدرك بثاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية بالرغم مما حدث، فتحسنت العلاقات بينهما^(٣) بعد انسحاب سحب النزاع السابق واشترك معه في بعض المعارك المهمة ضد الصليبيين في حارم عام ١١٦٤ هـ / ٥٥٩ م^(٤)، وبانياس عام ١١٦٥ هـ / ٥٦٠ م^(٥).

٤- منبج: حاول الأمير غازي بن حسان المنجبي الاستقلال بمنبج، وهي التي آلت إليه، بعد وفاة والده، وأمام ذلك لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا إرجاع الأمور إلى نصابها بالتدخل العسكري لقمع حركته حتى لا تستشرى عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود الدولة النورية، وفي مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام، وبالفعل أخذ حركته في عام ١١٦٧ هـ / ٥٦٢ م^(٦)، وأقطع منبج لأخيه قطب الدين ينال بن حسان، وتدل سياسة نور الدين تجاه منبج، ومن قبل حران، على أن الاهتمام بالتتوسيع والسيطرة لم يكن يقتصر على مناطق وسط الشام وشماله بل أيضاً الجزيرة الفراتية والمنطقة الواقعة فيما بين العراق وشمال الشام، وقد دفعه إلى الاهتمام بتلك المناطق بعض الدوافع، فهو بالإضافة إلى رغبته في تجنب امتداد مثل ذلك الصراع إلى عقر داره في داخل بلاد الشام، فإنه أيضاً لم يشاً أن يجعل نفوذاً لبعض القوى السياسية المحلية المسلمة بجوار الخلافة العباسية في العراق، على نحو يثير له المتابع من جهة، ويضعف من هيبة حكمه لدى بغداد من جهة أخرى، وطبيعي أنه سار وفق خطة قائمة على توحيد المدن الإسلامية، ولم تكن مجاهداته في

(١) (٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١١٩.

(٣) زيدة حلب (٣٢١ / ٢) فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.

(٤) البستان الجامع للأصفهاني ص ١٤٥، فن الصراع ص ١٢٠.

(٥) شدرات الذهب نقلأ عن فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.

(٦) الباهر ص ١٣٤ - ١٣٥، فن الصراع الإسلامي ص ١٢٠.

هذا الصدد بصورة عشوائية^(١).

وقال العماد الأصفهاني في فتح منبج عام ٥٦٣ هـ قصيدة جاء فيها:

فليهن هذا النصر كل متوج
في الملك يفتح كل باب مُرْتَجٍ
فانهض إليها بالجيوش وعَرَجٍ
ولنسبِّج لسواه كالأنموذج
طلباً فكيف خوارج في أَبْرُجٍ
أثر العُبُوسِ بوجهكَ المُتَبَلِّجٍ
في ضمنها تقويم كل مُعَوْجٍ
وعلى طرائبِ نوابئِ غَرَجٍ
مأثورة وسلكت أوضاع منهج
جَدَّدت منه كل رسم منهج^(٢)

بشرى المالكِ فتح قلعة منبج
أعطيت هذا الفتح مفتاحاً به
وافى يُيشَّرُ بالفتح وراءه
أشعر بيت القدس يتلو منجاً
ما أعجزكَ الشَّهْبُ في أبراجها
ولقدر من يعصيك أحرق أن يرى
لكن تهذبُ من عصاكَ سياسة
فانهد إلى البيت المقدس غازياً
قد سرت في الإسلام أحسنَ سيرة
وجميع ما استقرت من سُنن الْهُدَى

٥- فتح قلعة جعبر: وأما سياسة الدولة تجاه قلعة جعبر، فإنها لم تشاً أن تجعل من مناطق الحدود بين العراق والشام مراكز قوية قد تعادي يوماً، فقد كانت قلعة جعبر تقع على نهر الفرات وامتازت بمحاصاتها المنيعة، وقد اهتم عماد الدين زنكي بفتحها وقد قتل وهو يحاصرها عام ٥٤١ هـ / ١٤٦ م. وقد استخدم نور الدين محمود الطرق السلمية مع شهاب الدين العقيلي وبعد أن أسره على أيدي أعراببني كلاّب، عمل على إكرامه في أسره وملاليته لتسليم القلعة غير أنه رفض^(٣)، وعندما أدرك عدم جدواً الملاينة سعى إلى حصارها بيد أنه عجز عن ذلك، فعاد مرة أخرى لملاظته وعوضه عنها بمناطق سروج وأعمالها ومنطقة الملاحة من أعمال حلب وباب زباعة^(٤)، وهي مناطق ثرية بمواردها الزراعية، كذلك أسأل لعابه عندما وهبه عشرين ألف دينار وهكذا تمكن من الاستيلاء عليها عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م^(٥).

ولكل ولاية نهاية، يؤتي الله الملك من يشاء ويتنزعه من يشاء، فكان هذا آخر أمر بني مالك حكام قلعة جعبر، وكان آخر أمراؤهم شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٣٣ / ٢).

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٢١.

(٤) البستان الجامع نقلًا عن فن الصراع ص ١٢٢.

(٣) نهاية الأربع نقلًا عن فن الصراع ص ١٢٢.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٢ / ٢).

من آل عقيل من بنى المسيح، وكانت بيده ويد آبائه من قبل من أيام السلطان ملكشاه^(١). وقيل لشهاب الدين: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً، أسرور والشام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه^(٢). وقال العماد الأصفهاني قصيدة أنسدتها لنور الدين عند فتح قلعة جعبر جاء فيها:

وَدَمْ مُلْكَ الْبَلَادِ مُنْتَزِعًا
غَدَا بَعْبَءَ الْخُطُوبِ مُضْطَلِعًا
لَكْشَفِ ضيقِ الْأَمْرِ لِنَ يَسْعَا
وَرَافِعِ الْحَقَّ بَعْدَمَا قَنَعَا
الشَّرُكَ وَعَفْيَ الضَّلَالِ وَالْبَدَاعَا
الْمَلِكَ وَتَحْكَمِي بِزَهْدِكَ الْيَسْعَا
الْمُحْضَ وَحُسْنَ الْيَقِينِ وَالْوَرَعَا
مِنَ الْمَكْسِ بَعْدِلِ وَالْقَاسِطِ ارْتَدَعَا

أَسْلَمَ لِبَكْرِ الْفَتوحِ مُفْتَرِعًا
فَإِنَّ أُولَى الْسُورِيَّ بِهَا مَلِكًا
إِنْ ضَاقَ أَمْرُ فَغَيْرِ هَمْتَه
يَا مَحِيَّ الْعَدْلِ بَعْدِ مَيِّتَه
وَنُورِ دِينِ الْمَهْدِيِّ الَّذِي قَمَعَ
أَنْتَ سَلِيمَانَ فِي الْعَفَافِ وَفِي
وَحْزَنِ الْتُّقْىِ وَالْحَيَاءِ وَالْكَرْمِ
أَسْقَطْتَ أَقْسَاطَ مَا وَجَدْتَ

إِلَى أَنْ قَالَ:

غَدَا مطِيعًا لِلْأَمْرِ مُتَبَعًا
لِغَيْرِ رَبِّ السَّمَاءِ مَا خَشَعَا^(٣)

وَمَالِكَ حِينَ رَمَتْ قَلْعَةَ
عَنْ أَخْشَوْعَالِ رَبِّ مَلَكَةَ

وفي سابع عشر صفر من سنة ٥٦٤هـ توفي بها عمر أخوه مجد الدين ابن الدائمة، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة:

مَتَصَادِيُّ الْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ
عَمْرُ الْمَدْحُوِّ فِي سَنَانِ وَسَنَاءِ
وَعَلَىٰ الْمَأْمُولِ فِي الْلَّاؤَاءِ
فَهُمْ ذُوُّ الْإِحْسَانِ وَالنَّعْمَاءِ
دُونَ الْوَرَى فِي الْمَجْدِ وَالْعَلِيَاءِ
شَرْفًا وَبَدْرَ دُجَّةً وَبَهَاءَ
أَسْدَ الْحَرُوبِ ضَرَاغُمُ الْهِيجَاءِ

أَنْتُمْ لَحْمَوْدٌ كَآلِ مُحَمَّدٍ
يَتَلَوْ أَبَا بَكْرٍ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ
وَيَلِيهِ عُثْمَانَ الْمَرْجَى لِلْعُلا
وَيَقْبَلُ الْحَسَنَ الْمَجَدَ مَجَدهِمْ
فَرَعَتْ مَجَدُ الدِّينِ إِخْوَتِهِ الْذُرَى
مِنْ سَابِقِ كَرْمًا وَشَمْسِ سِيَادَةِ
سُرْجُ الْمَهْدِيِّ سُحْبُ النَّدِيِّ شَهْبُ

(٢) المصدر نفسه (٤٣/١).

(١) كتاب الروضتين (٤١/١، ٤٢، ٤٣).

(٣) المصدر نفسه (٤٤/١).

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علياً، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر،
ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة رحمة الله تعالى^(١).

ثانياً: ضم الموصل:

انتهت بوفاة قطب الدين مودود في شهر ذي الحجة عام ٥٦٥ هـ / شهر آب عام ١١٧٠ م مرحلة مهمة من مراحل التعاون بين إمارتي الموصل وحلب. فقد كان قطب الدين مودود حسن الاتفاق مع أخيه، وعلى تفاهم معه، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعساكره وأمواله، حضر معه المصالف بجaram وفتحها، وفتح بانياس وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف^(٢)، وأوصى قطب الدين مودود بالملك من بعده لابنه الأكبر عماد الدين، إلا أن نائبه فخر الدين عبد المسيح استطاع بالاتفاق مع زوجته الخاتون أن يحول دون توليه، وأخذ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني^(٣)، وبيدو أن النائب خشي من تأثير نور الدين محمود على ابن أخيه عماد الدين نظراً لطول إقامته عنده وزواجه من ابنته. وكان نور الدين محمود يكره لظلم كان فيه ويلوم أخاه قطب الدين مودوداً على توليه الأمور^(٤). وفعلاً استقر الأمر لسيف الدين غازي الثاني، وأضحم فخر الدين عبد المسيح المتصرف في أمور البلاد، وليس للأتابك من الأمر إلا الاسم^(٥). أدت التغييرات التي شهدتها دولة الموصل، بعد وفاة قطب الدين مودود، وردة الفعل المناهضة لها من قبل نور الدين محمود إلى ما يلي:

- خضوعها لنفوذ نور الدين محمود المباشر.

- تقلص رقعتها بسبب اقطاع بعض أجزائها.

والواقع أن نور الدين محمود أتف من ازدياد نفوذ عبد المسيح وتحكمه بأمور الموصل على حساب ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني الذي نازع أخيه الأكبر على الحكم، وشق عليه إبعاد عماد الدين زنكي عن خلافة والده وقال: أنا أولى بتدبير بنى أخي وملوكهم^(٦). لذلك قرر التوجه إلى الموصل لتسوية المشكلة وفقاً لمصلحته، وأرسل إلى الخليفة العباسي الحسن أبي محمد المستضيء بأمر الله (٥٦٦ هـ - ١١٧٥ م - ١١٨٠ م) يشرح له الهدف من هذا التوجه مؤكداً شرعيته وقال: إنني قصدت بيتي وبيت والدي، فأنا كبره،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٥/٢).

(٢) الباهر ص ١٤٩، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٣.

(٣) الباهر ص ١٤٦، تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.

(٤) الباهر نقل عن تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.

(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٣.

(٦) الباهر ص ١٥٢، تاريخ الزنكيين ص ١٨٣.

وارثه وأوصى رسوله إليه بأن يأخذ له إذناً في ذلك، وأنه تمثل لما يرد عليه منه^(١). وعبر نور الدين محمود الفرات عند قلعة جعبر في شهر حرم عام ٥٦٦هـ / شهر أيلول عام ١١٧٠ م فاصداً الرقة، وكانت من أملاك أخيه سيف الدين غازي الأول، فأذعن نائبه لها، وسلمه إياها^(٢). ثم تابع زحفه نحو الموصل، فانتزع الخابور كله، وأخذ نصبيين، فأقام بها يحشد العساكر من الأطراف، وانضمَّ إليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفاً، ثم توجه إلى سنجار، وبها حامية من الموصل، فحاصرها، وأقام المجانين عليها. ووفد عليه أثناء الحصار عدد من أمراء الموصل يستحثونه على القodium عليه حتى سقطت في يده، فأعطتها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي الذي كان يرافقه في هذه الحملة، ووصلت إليه أثناء الحصار خلعة الخليفة والإذن له بدخول الموصل والجزيرة، وتابع نور الدين محمود زحفه باتجاه الموصل، فوصل إلى بلده وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، ألقى نفسه عند حصن نينوى شرقى الموصل بحيث أضحي لا يفصله عنها سوى النهر. وحتى يبرر تقدمه، أرسل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني يوضح له أن الهدف من حملته، حفظ المدينة، وإبعاد فخر الدين عبد المسيح عن ولاية المسلمين بوصفه نصريانياً، بالإضافة إلى أن تصرفاته الخشنة، نفرت منه الأمهات^(٣).

والواقع أن عبد المسيح كان عاجزاً عن الوقوف في وجه نور الدين محمود، كما أنه وقف على مؤامرة دبرها أمراء الموصل ضده لإبعاده عن الحكم، وتسليميه الموصل، فأراد تقوية موقفه، فاستجدى بالأتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب بلاد الجبل، وأذربيجان، الذي أرسل بدوره رسولاً إلى نور الدين محمود، وكان حينئذ بسنجار، ينهاه عن التعرض للموصل، لكن نور الدين محمود أهمل الرسالة وقال للرسول: قل لصاحبك: أنا أرفق بيتي أخي منك، فلم تدخل نفسك بيننا؟ ثم هدده بالزحف على بلاده وانتزاعها منه لأنَّه أهمل حفظ البلد من تهديات الكرج^(٤)، واضطُرَ عبد المسيح أخيراً للجنوح إلى السلم واستشرط على نور الدين محمود أن:

- تبقى الموصل بيد سيف الدين غازي الثاني.
- يعطيه لنفسه وأهله.
- يمنجه إقطاعاً.

وقد استجاب نور الدين محمود لطلب الصلح، إلا أنه أصرَّ على خروج عبد المسيح من

(١) البرق الشامي ص ٩٤. (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٨٤.

(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ١٨٤. (٤) المصدر نفسه ص ١٨٥.

الموصل، ومرافقته إلى بلاد الشام^(١)، ودخل صاحب حلب الموصل في شهر جمادي الأولى عام ٥٦٦ هـ شهر كانون الثاني عام ١١٧١ م من باب السر^(٢)، واتخذ عدة إجراءات تنفيذية لترتيب أوضاعها منها:

- أقرَّ سيف الدين غازي الثاني على الموصل وجزيرة ابن عمر.
- ولِ مملوکه سعد الدين كمشتكي نائباً عنه في القلعة.
- أمر سيف الدين غازي الثاني بالعودة إليه في تدبير الأمور.
- أهدى ابن أخيه خلعة الخليفة المستضيء وألبسه إياها وزوجه ابنته.
- أبطل المكوس من البلاد.
- أمر ببناء الجامع النوري.
- انتزع حران ونصيبين والخابور والمجدل من إمارة الموصل، وأقطعها لأمراء عسکره، ثم عاد إلى بلاد الشام مصطحباً معه فخر الدين عبد المسيح وغيره له اسمه، وسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً^(٣)

غيرت هذه الترتيبات الإدارية التي نفذها نور الدين محمود في الوضع الجغرافي لدولة الموصل، كما تراجع نفوذها القيادي بعد أن خسرت سنجار لصالح عماد الدين زنكي، ونصيبين والخابور اللذين تولاهما نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، فخضعت خصوصاً تماماً لنور الدين محمود، وأضحى سيف الدين غازي الثاني مجرد حاكم تابع له، يعمل تحت إشراف نائبه كمشتكي صاحب السلطة الفعلية. وتديلاً على هيمنته على الإمارة فقد أعلنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين محمود، وضررت السكة باسمه^(٤)، وأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهير زوري إلى الخليفة المستضيء بأمر الله يطلب تقليله ما بيده من بلاد مصر والشام والجزيرة والموصل، والبلاد التي دخلت في طاعته في دياربكر وخلاط وبلاط قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، فوافق الخليفة على ذلك، وأرسل له التقليل بمحكم هذه البلاد جميعها^(٥)، وحرص نور الدين محمود على أن تسود العلاقات الطيبة بينه وبين ابن أخيه في الموصل. ففي عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م أرسل إليه هدية نفيسة عبارة عن تحف نادرة كان صلاح الدين الأيوبي قد انتخبها من خزائن القصر الفاطمي،

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٨٥.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٥.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٦.

بالإضافة إلى هدايا أخرى تشمل على منسوجات وعود وعنب (١).

١- رؤيا نور الدين لرسول الله ﷺ في الموصل:

حين دخل نور الدين الموصل خرج إليه ابن أخيه، فوقف بين يديه، فأكرمه وأحسن إليه، وألبسه خلعة جاءته من الخليفة، فدخل بها إلى البلد في أبهة عظيمة، ولم يدخل نور الدين الموصل حتى قوي الشتاء، فأقام بها أربعة وعشرين يوماً، فلما كانت آخر ليلة أقام بها رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له: طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال أعداء الله. فنهض من فوره إلى السفر، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان معه، على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب بها ابن أبي عصرون نواباً وأصحاباً (٢).

٢- بشري لنور الدين من رسول الله: قال أبو شامة: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمة الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتم السلسلة على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأشتحي من الله تعالى أن يراني متسبماً والمسلمون محاصرون بالفرنج (٣). وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدقني، فاذكر لي علامه يعرفها فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر. قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه يتزل إلى بغلس، ولا يزال يترکع فيه حتى يصل إلى الصبح، قال: فتعرّضت له فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامه، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمة الله تعالى: أذكِر العلامة كلها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها فبكى رحمة الله وصدق الرؤيا، وأرْخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة (٤). وجاء في رواية سبط ابن الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج لما نزلت على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهياً، ما يحس أحد يخاطبه في ذلك فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيى بشر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط. فقلت: يا رسول

(١) تاريخ الرنkinin ص ١٨٦ . (٢) البداية والنهاية (٤٤٧/١٦).

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٤٣/٢) . (٤) المصدر نفسه (١٤٤/٢).

الله، ربما لا يصدقني فقال: قل له بعلامة يوم حارم. واتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحيى، فقال له: يا يحيى أنا أحدثك، رأيت النبي ﷺ هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا. قال: نعم فبالتالي يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال: لما التقينا العدو، خفت على الإسلام، فانفردت، ونزلت، ومرغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدى اللهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً (يعنى نفسه) ومن هو محمود الكلب حتى يتصر؟ الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم أفعل ما يليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم^(١).

٣- رؤيا نور الدين المتعلقة بالقبر الشريف: هناك قصة شائعة على السنة الناس وهي أن نور الدين رأى - فيما يرى النائم - النبي ﷺ يطلب منه أن ينقذه من رجلين أشقررين - وأشار إلى شخصين تجاهه - فاستدعي نور الدين وزيره فعبره له بأن في المدينة المنورة حدثاً، فخرج نور الدين إلى المدينة واستعرض سكانها للصدقة، فأتى كلهم إلا رجلين مجاوريين من أهل الأندلس، فأمر بإحضارهما، فإذا هما اللذان رآهما في منامه، فسألاهما عن حاهمما وما جاء بهما، فأقرا بأنهما من الفرنجة، وصلا لكي ينقلان النبي ﷺ من الحجرة الشريفة، ووожدهما قد حفر نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد، فضرراً أعناقهما، ثم أحرقا بالنار، وركب عائداً إلى الشام، فاستغاث به أهل المدينة أن يبني لهم سوراً حولها، فأمر ببنائه، فبني سنة ٥٥٨هـ وكتب اسم نور الدين على باب البقع^(٢). وقد علق الأستاذ إبراهيم الزبيق على هذه القصة في تحقيقه لكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية - والصلاحية فقال: وهذه القصة لا تثبت لدى المنهج العلمي، إذ إن أول من رواها هو محمد بن أحمد المطري، مؤذن الحرم النبوى، المتوفى سنة ٧٤١هـ في كتابه التعريف بما أنسى الهجرة من معالم دار الهجرة، وبينه وبين نور الدين مائة واثنتان وسبعون سنة، ثم إن إسناد هذه القصة مسلسل بالمجاهيل، فقد سمعها المطري من طالب علم من المجاورين، وهو يعقوب بن أبي بكر - وكان أبوه فراشاً من قوم المسجد الشريف - وقد سمعها يعقوب من حدثه من أكابر من أدرك، ولم يجزم المطري بصحتها فقال: هكذا حدثني عمن حدثه وروى نحوها جمال الدين الإسنوى المتوفى سنة ٧٧٢هـ في رسالة له دون إسناد نقلها عنه السمهودي في وفاء الوفاء^(٣)، وهذا يعني أن القصة قد ذاعت بعد وفاة نور الدين، إذ لم يذكرها أحد من عاصر نور الدين من المؤرخين الملزمين له كابن عساكر وابن منفذ والعماد الأصفهانى الكاتب

(١) مرآة الزمان (٨/١٩٩، ٢٠٠)، من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامي، حسني أدهم جرار ص ٣٩.

(٢) شذرات الذهب (٦/٣٨٠)، الوجيز في الشام ص ٥٢. (٣) وفاة الوفاء (٢/٦٤٨، ٦٥٠).

ولا من المتبعين لسيرته كابن الأثير وأبي شامة مع شدة حرصهم على استقصاء أخباره وتحليلتها بكل جيل، بل إنه لم يذكرها من أرّخ للمدينة المنورة من عاصر تلك الفترة كابن النجاشي في «الدرة الشمينة»، وقد نقلها عن المطري من جاء بعده من المؤرخين كالمراغي في «تحقيق النصرة»، وابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية، والسمهودي في وفاة الوفاء، وابن العماد في شذرات الذهب، والبرزنجي في «نزهة الناظرين»^(١). ثم إن المطري ذكر أن القصة وقعت سنة «٥٥٧هـ» ولم يذكر أحد من المؤرخين أن نور الدين زار المدينة في تلك السنة، بل لم يذكروا أنه زارها في أي من سنتي حكمه، بل إنهم لم يذكروا أنه حج أبداً، فقد شغله جهاد الفرنج عن الحج، كما شغل صلاح الدين بعده، ولا عبرة بما ذكره الفاسي في شفاء الغرام^(٢) من أن نور الدين حج سنة «٥٥٦هـ» فقد وهم في ذلك، إذ إن الذي حج هو أسد الدين شيركوه، وقد خرج نور الدين إلى لقائه يوم رجوعه^(٣). وقد يتساءل المرء: ما الباعث لهذه القصة، فأقول: ربما أثارت تكلمة نور الدين لسور المدينة وكتابة اسمه عليه فكرة قدومه للمدينة، ثم اختلط هذا مع سياطي - بإذن الله - من محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة وذلك سنة (٥٧٨هـ) فقد أشيع وقتها أنهم كانوا يربدون نقل الجسد الشريف إلى فلسطين فيما ذكر ابن جبير في رحلته والمقرizi في خططه، فدمج الخيال بين الحدثان في حدث واحد ليكشف عن هاجس أطلق بالمسلمين وقتئذ وهو أن ما فشل الصليبيون في تحقيقه في العلن سيحاولونه في الخفاء، فكانت هذه القصة والله أعلم^(٤).

ثالثاً: سياسة نور الدين مع سلاجقة الروم:

كان نور الدين محمود يتبع الأحداث الجارية في المنطقة ويستغل الفرصة المتاحة لتحقيق أهدافه، من ذلك ما حدث عام ١١٧٣هـ / ٥٦٨م عندما هاجم قلوج أرسلان سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى إمارة ذا النون بن دانشمند التي تتألف من ملطية وسيواس جنوب شرق الأناضول واحتلها، فلجأ ذا النون إلى نور الدين مستنجدًا فأرسل نور الدين إلى قلوج أرسلان يطلب منه رد بلاد ذا النون عليه فرفض، فسار بجيشه إلى المنطقة واحتل مدنها مما أجبر قلوج أرسلان لطلب الصلح بالشروط التي يفرضها نور الدين، فأرسل إليه نور الدين رسالة منها: إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء أحدها أنك تجدد إسلامك على يد رسولي حتى يخل لي إقرارك على بلاد الإسلام فإني لا أعتقد مؤمناً، والثاني إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تُسيره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/٣١٧). (٢) (٣) (٤) المصدر نفسه (٢/٣١٧).

بلاد الإسلام، وتركت الروم وجهاههم وهادتهم، فلما أن تتجدني بعسكرك لأقاتل بهم الإفرنج وإنما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهاههم، والثالث أن تزوج ابتك بسيف الدين غازي ولد أخي، فلما سمع قلچ أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة على^(١) بالزنقة وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله^(٢). واستقر الصلح بعد أن عادت بلاد ذا النون إليه مع بقائها تحت حماية نور الدين. وما يهمنا من هذه الحادثة هو ما يظهر في ثناياها من سعي نور الدين لتحقيق هدفه الاستراتيجي الأكبر الذي سبق وذكرناه وهو إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في تحقيق الهداية والعدالة والحياة الكريمة لجميع الناس^(٣). ومع أنه لم يكمل بعد تحقيق هدفه الاستراتيجي الثانيتمثل بالقضاء على الفرنج وتحرير سواحل بلاد الشام من احتلالهم إلا أنه حقق هدفه الاستراتيجي الأول وهو وحدة الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنج، وأصبح القضاء على الفرنج مسألة وقت فقط، فلا بأس إذن من استغلال فرصة سانحة للسير ولو بضع خطوات باتجاه الهدف الاستراتيجي الأكبر المذكور أعلاه، وما يدلنا على قصد نور الدين في هذا المعنى طلبه من قلچ أرسلان في رسالته إليه تجديد إسلامه على يد رسول نور الدين ليحل^(٤) لنور الدين إقراره على بلاد الإسلام، ويفرض عليه إنما مجاهدة الروم المجاورين له أو إرسال جنده إليه ليجاهد بهم الإفرنج. في هذا الموقف يجعل نور الدين من نفسه مسؤولاً عن جميع المسلمين وعن بلادهم، ويتوجب عليه بناءً على هذه المسؤولية لا يسمح بتولي حاكم غير مؤمن على بلاد المسلمين، ويجدر بنا أن نوضح هنا أن نور الدين كان يصدر في هذا الإحساس بالمسؤولية عن فهمه الصحيح للشريعة الإسلامية، فهو يعتبر نفسه جندياً في خدمة الدين، وروي عنه قوله: نحن شحن لها «للشريعة» نُضي أوامرها^(٥). وهذا القول ينطبق مع تفسير الإمام أبي حامد الغزالى للعلاقة بين الملك والدين حيث يقول: «الملك والدين توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهلاً، وما لا حارس له فضائع»^(٦). وقد تقدم أن نور الدين كان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ولكن الأمر لا يقتصر على إحساس نور الدين بالمسؤولية وقد عبر عن ذلك في رسالته لمجير الدين آبق حاكم دمشق بقوله:.. ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على

(١) الباهر ص ١٦٠ - ١٦٠ ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٣.

(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٣.

(٣) عيون الروضتين نقلأ عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٥٤.

(٤) إحياء علوم الدين (١/١٧).

نصرة المسلمين وجihad المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها^(١).

فهو يعتبر أن توافر القدرة والإمكانية لديه يفرض عليه نصرة المسلمين والدفاع عنهم أينما كانوا، ويذكر مثل هذا الموقف عام ١١٧١هـ / ٥٦٦م في رسالته لشمس الدين إيلدرز صاحب بلاد الجبل وأذربيجان^(٢).

يتبيّن من هذه المواقف الثلاثة التي وقعت في تواريخت مختلفة ومتباينة خلال فترة حكم نور الدين، الحادث الأول مع حاكم دمشق دمشق عام ١١٤٩هـ / ٥٤٤م والثاني مع حاكم آسيا الصغرى عام ١١٧٣هـ / ٥٦٨م، أنه وضع أهدافه وقرر سياساته منذ بداية حكمه، ولم يغيّرها حتى نهاية حكمه، وأنه كان يسير حسب خطة محكمة تتالف من مراحل منسقة، لكل مرحلة هدفها، وأنه كان يتبع الأحداث الجارية، ويقتضي الفرصة المتاحة دون أن يؤثر ذلك على خطته الرئيسية وأهدافه الاستراتيجية^(٣).

* * *

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٥.

المبحث الرابع

سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية

أولاً: العلاقات مع مملكة بيت المقدس:

عاصر عهد الدولة النورية اثنان من أقوى ملوك بيت المقدس، بـلـدوـينـ الثـالـثـ ٥٣٩ـ هـ ١١٤٤ـ مـ، وـعـمـوريـ الـأـوـلـ ٥٥٧ـ ٥٦٨ـ هـ ١١٦٢ـ ١١٦٢ـ مـ. وـيـعـدـ بـلـدوـينـ الثـالـثـ أـوـلـ الـمـلـوـكـ الصـلـيـيـنـ الـذـيـنـ ولـدواـ عـلـىـ أـرـضـ الـمـلـكـةـ، وـقـدـ سـيـطـرـتـ عـلـيـهـ والـدـتـهـ مـيـلـزـنـدـاـ، وـتـمـكـنـ مـنـ توـسـيـعـ حـدـودـ الـمـلـكـةـ وـأـمـكـنـهـ الـاستـيـلاءـ عـلـىـ عـسـقـلـانـ عـامـ ١١٥٣ـ هـ ١١٥٣ـ مـ وـأـمـنـ بـالـتـالـيـ حـدـودـهـ الـجـنـوـبـيـةـ، كـذـلـكـ عـمـلـ عـلـىـ تـشـيـيدـ عـدـدـ قـلـاعـ وـحـصـونـ مـنـ أـجـلـ تـدـيـعـ مـنـاطـقـ سـيـادـتـهـ فـيـ موـاجـهـةـ أـعـدـائـهـ الـمـسـلـمـيـنـ وـأـيـضاـ سـعـىـ إـلـىـ حـمـاـيـةـ إـمـارـتـيـ طـرـابـلـسـ وـأـنـطـاكـيـةـ مـنـ خـطـرـ الـفـوـضـيـ الدـاخـلـيـةـ^(١) وـالـأـخـطـارـ الـخـارـجـيـةـ، وـهـدـفـ إـلـىـ كـسـبـ عـونـ الـإـمـبـاـطـورـيـةـ الـبـيـزـنـطـيـةـ لـتـسـاعـدـهـ فـيـ موـاجـهـةـ الـأـحـدـاتـ فـيـ شـمـالـ الشـامـ، أـمـاـ الـمـلـكـ عـمـوريـ الـأـوـلـ، فـإـنـهـ أـرـادـ توـسـيـعـ حـدـودـ الـمـلـكـةـ هـوـ الـآـخـرـ وـعـمـلـ عـلـىـ غـزوـ مـصـرـ وـإـخـضـاعـهـ لـسـيـطـرـتـهـ دـوـنـ جـدـوـيـ، وـسـعـىـ إـلـىـ طـلـبـ عـونـ الـبـيـزـنـطـيـ فـيـ مـشـارـيعـ التـوـسـعـيـةـ خـاصـةـ ضـدـ مـصـرـ^(٢). وـقـدـ عـمـلـ نـورـ الدـيـنـ مـحـمـودـ لـتـصـدـيـ لـمـشـارـيعـ مـلـكـةـ بـيـتـ الـمـقـدـسـ التـوـسـعـيـةـ وـكـانـ دـافـعـهـ الـمـحـركـ فـيـ ذـلـكـ هوـ عـقـيـدةـ الـجـهـادـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ لـاـ كـمـاـ يـزـعـمـ بـعـضـ الـبـاحـثـيـنـ لـاسـيـماـ مـنـ الـغـرـبـيـنـ الـذـيـنـ أـنـكـرـواـ ذـلـكـ الـاتـجـاهـ لـأـسـبـابـ اـسـتـشـرـاقـيـةـ تـعـصـبـيـةـ لـاـ تـخـفـيـ عـلـىـ أـحـدـ، وـفـيـ مـقـدـمـتـهـ الـمـؤـرـخـ الـأـمـرـيـكـيـ جـوـنـ لـامـونـتـ الـذـيـ أـنـكـرـ الطـابـعـ الـدـينـيـ لـحـرـوبـ نـورـ الدـيـنـ مـحـمـودـ، وـفـضـلـ الـأـخـذـ بـالـدـوـافـعـ السـيـاسـيـةـ وـرـأـيـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ مـهـتـمـاـ بـالـحـرـوبـ الـدـينـيـةـ اـهـتـمـاماـ خـاصـاـ وـأـنـهـ حـارـبـ الـصـلـيـيـنـ عـلـىـ أـسـاسـ أـنـهـمـ وـجـدـواـ فـيـ مـجـالـ توـسـعـهـ الـطـبـيـعـيـ^(٣)، وـأـنـ رـغـبـتـهـ فـيـ توـسـعـ رـقـعـةـ مـلـكـتـهـ فـيـ الـاتـجـاهـ الـوـحـيدـ الـمـمـكـنـ هـيـ الـيـ أـمـلـتـ عـلـيـهـ السـيـاسـةـ الـقـيـ اـتـبعـهاـ فـيـ عـلـاقـاتـهـ مـعـ جـيـرـانـهـ الـلـاتـيـنـ، وـيـذـكـرـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ لـلـدـيـنـ دـخـلـ فـيـ ذـلـكـ، وـأـنـ مـرـاجـعـةـ أـعـمـالـهـ الـحـرـبـيـةـ توـضـحـ أـنـ دـافـعـهـ الرـئـيـسيـ كـانـ سـيـاسـيـ^(٤). وـالـوـاقـعـ أـنـ الرـغـبـةـ فـيـ القـضـاءـ عـلـىـ عـقـيـدةـ الـجـهـادـ الـإـسـلامـيـ الـقـيـ اـتـبعـهاـ فـيـ مـرـحلـةـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـيـةـ كـانـ أـحـدـ الـأـهـدـافـ الـأـسـاسـيـةـ لـلـمـسـتـشـرـقـيـنـ الـذـيـنـ تـنـاوـلـواـ بـالـدـرـاسـةـ تـلـكـ الـمـرـحلـةـ، وـذـلـكـ مـنـ أـجـلـ القـضـاءـ عـلـىـ النـماـذـجـ الـتـارـيـخـيـةـ لـفـكـرـةـ الـجـهـادـ

(١) فـنـ الـصـرـاعـ الـإـسـلامـيـ الـصـلـيـيـ صـ ١٣٧ـ .

(٢) المـصـدرـ نـفـسـهـ صـ ١٣٨ـ .

(٣) الـحـرـوبـ الـصـلـيـيـةـ وـالـجـهـادـ نـقـلاـ عـنـ فـنـ الـصـرـاعـ صـ ١٣٩ـ .

(٤) فـنـ الـصـرـاعـ الـإـسـلامـيـ الـصـلـيـيـ صـ ١٣٩ـ .

الإسلامي، واقتلاعها من أساسها، خاصة أنها فكرة محورية في الإسلام^(١). ولا شك أن عقيدة الجهاد وتحرير المقدسات من الاحتلال الصليبي كانا المحرك لحركة المقاومة للمسلمين في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك وما يجري اليوم في أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان. وقد كان تحرك نور الدين محمود ضد مملكة بيت المقدس يستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري أحياناً بالقتال وبالمفاوضات أحياناً أخرى.

- **المجال الاقتصادي:** فقد وصفت الدولة النورية بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلي والمنفذ البحري على امتداد الساحل الشامي تم إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوروبا وحصولهم على الدعم البشري والمالي والمعنوي، وكان تصريف قسم منهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ على سلامه الطرق التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ومنطقة الجبل الأعلى في شمال فلسطين بوصفها حلقة وصل إلى الساحل الشامي البالغ الحيوية^(٢).

- **المجال السياسي:** مثُل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية ولا نزاع في أن مواصلة الصراع الحربي معها كان ضروريًا، من أجل أن يقوم نور الدين محمود بدوره في مجاهدة الكفار، ومثل هذا واجباً شرعاً ضرورياً لدعم حكمه وتوفير الاستقرار السياسي له وعدم قدرة المعارضة على كسب أعون لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعي الحيوى، أضاف إلى ذلك؛ أن الدولة النورية بعد نجاحها في توحيد بلاد الشام والجزرية بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس منافساً سياسياً خطيراً لها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا المنافس كان كياناً دخيلاً وافداً على المنطقة ولا يملك وجوده أصلاً أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لجميع الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية^(٣).

- **المجال العسكري:** أدركت الدولة النورية أن تحييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلية الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرست الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والمحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ولتأمين حدود الدولة النورية، والإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتتطور مستقبلاً إلى ما هو أبعد من هذا في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق

(٢) الرحلة ص ٢٥٣.

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٣٩.

(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.

في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي^(١).

١- المشكلة الحورانية: تعد المشكلة الحورانية من أهم الأحداث السياسية التي جعلت

نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكري مملكة بيت المقدس ومطامعها في دمشق؛ إذ تمرد الأمير الأرمني الأصل التوتناش^(٢)، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركي والذي تولى حكم بصرى وصرخد^(٣)، تمرد على سيده معين الدين أثر أتابك دمشق^(٤)، وقد تحدثت عن جهود نور الدين في دعم حاكم دمشق ضد هذا المتمرد الذي استعان بالصليبيين في بيت المقدس، وطلب منهم العون الحربي، وأن يستولوا على بصرى وصرخد في حالة تدخلهم العسكري في مقابل أن يكون سيداً على إقليم حوران^(٥)، فقد تصاهر نور الدين محمود من ابنة معين الدين أثر أتابك دمشق وكانت هذه الزينة بمثابة عون سياسي وعسكري لدمشق، وفي نفس الحين حرست أتابكية دمشق على التحالف مع الصليبيين لخوفها من طموحاته الكبيرة، ورغبته في ضمها إلى أملاكه في شمال الشام، بل إن دمشق عقدت هدنة مع المملكة الصليبية، وأمام دعم الصليبيين للتوتناش أرسل معين الدين أثر يطلب مساعدة صهره ضدتهم، وقد تقدم نور الدين وما معه من قوات حتى بلغ دمشق^(٦)، وتوجه إلى صرخد ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلّم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى بوصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى وعلىها فرقاً وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها، ووّقعت العين على العين، فانهزم الكُفَّار وولوا الأدبار، وتسلّم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسليمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم، وفي هذا الوقت وصل التوتناش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهماً منه أن يُكرِّم ويصطبغ بعد الإساءة القبيحة، فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.

(٢) كتاب الروضتين نقاًلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٠.

(٣) تبعد بصرى مسافة ١٤١ كيلو متراً عن دمشق وعدت قبة إقليم حوران، أما صرخد بعده عن السويقات بنحو ٣١ كيلو متراً.

(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤١.

(٥) المصدر نفسه ص ١٤١.

(٦) مرآة الزمان نقاًلاً عن فن الصراع الإسلامي ص ١٤٣.

خطلخ بما جناه عليه من سُمْل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص، فسُمْل كما سُمَّل أخاه، وأطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها^(١).

وتعتبر المشكلة الحورانية هي التي جعلت نور الدين محمود يواجه لأول مرة خلال تلك المرحلة من حكمه في حلب مملكة بيت المقدس، كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكري لأتابكية دمشق إذ لم تكن تستطيع صد الهجوم الصليبي بدون عونه الحربي، وأظهره ذلك على مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذي قبل على نحو دعم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولى من حكمه، وعلى المستوى الصليبي؛ كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الجنة السياسية، إذ أنها اتجهت إلى محاربة أحد حلفائها من أجل أمير شق عصا الطاعة عليه، وأوضحت موقفها أن مطامعها السافرة في إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها، ولا شك في أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقي الصليبي، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لتجهيزه لطمة مجهزة لذلك التحالف المنش^(٢).

٢- الحملة الصليبية الثانية: وعلى الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس، إلا أن الصليبيين قرروا غزوها، وقد تحدثت عن الحملة الصليبية الثانية فيما مضى من الصفحات ودعم نور الدين وأخيه سيف الدين غازي لدمشق ويكفنا أن نقول إن نور الدين اتجه إلى مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دعم دمشق^(٣).

٣- سقوط عسقلان: حدث تطور كبير على جانب كبير من الأهمية وقع جنوب بلاد الشام لاسيما على الساحل في صورة عسقلان التي تمكّن الصليبيون في عهد الملك الطموح بـلـدوـنـ الـثـالـثـ من إسـقـاطـ عـسـقـلـانـ فيـ عـامـ ١١٥٣ـ هـ / ٤٨ـ مـ^(٤)، وجاء ذلك في وقت ضعفت فيه الدولة الفاطمية في ظل تعزّز الوزراء العظام، وحقق الصليبيون بذلك انتصاراً مزدوجاً على نور الدين محمود والفاتميين، وانتصارهم على نور الدين تفوق على انتصارهم على الدولة الفاطمية، لأن الآخرين كانوا قد ونهوا، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغاً على الوجود الصليبي، بينما نور الدين مثل قوة سياسية وحربية متوازنة في شمال الشام تطبع في دمشق^(٥)، وتأتي أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراكه أهمية عسقلان نفسها فقد مثلت مركزاً تجاريًّا هاماً على الساحل الفلسطيني، وقاعدة للأسطول الفاطمي،

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٤.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ص ١٨١.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٥ - ١٤٧.

(٤) فن الصراع الإسلامي ص ١٤٨ ، الباهر ص ١٠٦.

(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٨.

وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية في الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامي من الإسكندرية حتى غزة جنوباً، ومهد بذلك السبيل أمام الصليبيين لغزو مصر^(١). وعلى أية حال لم يكن نور الدين محمود زنكي أن يقف لا يحرك ساكناً أمام التحرك الصليبي في الجبهة الجنوبية، وسرعان ما أتى الرد دون تأخير، فتمكن نور الدين محمود بالفعل من الاستيلاء على دمشق عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م أي في العام التالي مباشرة، وبذلك حق مكاسب أكبر من أن تخصى، فقد مد حدوده إلى الجنوب، ولم يعد منعزلاً في الشمال، وقد تمكن بذلك الإنجاز من تهديد حدود مملكة بيت المقدس ذاتها، ولم يعد أمامه إلا نطاق جغرافي ضيق محدود لكي يوجه ضرباته إلى الجليل بصورة لم تكن متوفرة له من قبل، وشنان بين توجيه الضربات في الأطراف والوصول إلى قرب القلب الصليبي^(٢)، ولا نغفل أنه بإخضاع دمشق؛ صار نور الدين محمود يسيطر بصورة أو بأخرى على ثلاث مدن رئيسية يمكن أن توصف بأنها مدن الظاهر الإسلامي في الجزيرة وبلاد الشام وهي: الموصل - التي دانت له بالولاء - وحلب ودمشق، وهي مدن ذات كافية سكانية فاعلة، وأهمية اقتصادية حيوية من خلال وقوعها على خطوط التجارة الدولية، فإذا لم يغب عن ذهنتنا أنها أمام قائد للجهاد نذر نفسه له، أدركنا كم كانت المكاسب كبيرة للمسلمين بضم عاصمة الأمويين من قبل دمشق، خاصة مع عدم إغفال أنها المرة الأولى التي اتحدت فيها حلب ودمشق منذ العصر السلجوقي تحت سيطرة سيد واحد^(٣).

ومن الروايات ذات الأهمية البالغة: إدراك أن توجيه ضربات فاعلة للصليبيين تؤثر على قلبهما في بيت المقدس، لن يكون إلا بإخضاع المدن الأربع المؤثرة في قبضة الدولة النورية، وهي الموصل، حلب، دمشق، القاهرة، وهكذا لم تعد هناك إلا مدينة واحدة: هي القاهرة قلب الوجود الفاطمي الذي بلغ من الكبر عتياً، ويلاحظ أن ضمها لشقيقاتها الثلاث سيتأخر من خلال اعتبارات عديدة^(٤) يأتي بيانها وتفصيلها في محله بإذن الله تعالى. على أية حال من الممكن تناول قضية مهمة وهي أيهما حقن مكاسب سياسية حرية أخطر، بلهودين الثالث باستيلائه على عسقلان عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، أم نور الدين محمود باستيلائه على دمشق عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م. إن إسقاط عسقلان كان بمثابة إسقاط إحدى المدن الشامية الساحلية وربما كان له تأثيراته الكبيرة في حالة عدم تمكن ذلك الحاكم المسلم من انتزاع دمشق من قبضة البورين، إذ أنه اكتسب العديد من الميزات، وأدى ذلك إلى نقله لمجال

(١) التنظيمات الدينية، مؤسس عوض ص ١٤٨.

(٢) الحروب الصليبية - العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٦.

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧.

جديد أرحب من ذي قبل، ويلاحظ أنه إذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان انفتحت أمامهم الأبواب نحو مصر، على اعتبار أن عسقلان عدت بوايتها، إلا أن الاستيلاء على دمشق فتح الطريق هو الآخر أمام نور الدين محمود نحو ذات المهد، ومن ثم سيحدث فيما بعد التسابق بينه وبين الصليبيين لإسقاط مصر الفاطمية، وهكذا نصل إلى حقيقة مفادها؛ إن استيلاء بدلوين الثالث على عسقلان، كان من الممكن أن يكون على أكبر قدر من المكاسب في حالة استمرار الوضع القائم في صورة ارتباط نور الدين محمود بحلب في شمال الشام، أما الآن بعد الاتجاه جنوباً نحو دمشق، فتأكد للصليبيين أن سيد حلب صار سيد حلب ودمشق معاً. ويكتفي أن نطالع ما سطره مؤرخ الصليبيين البارز وليم الصوري كي ندرك كيف أن إخضاع عاصمة الشام عُدّ أحد مظاهر الخطر الإسلامي القادم في الأفق على نحو ينذر بأوخر العواقب على الصليبيين والمسلمين في مرحلة جديدة اتسمت باحتدام الصراع بينهما، والتسابق على مناطق نفوذ جديدة بقوة عسكرية أكبر، وكأننا أمام استعراض عسكري للقوة من كل من الطرفين المتنافسين، وواقع الأمر أن التسابق على ضم مصر لأحد الجانبين لم يكن ليبدأ دون تلك الخطوة التكتيكية المحورية في صورة إسقاط الصليبيين لعسقلان والرد من جانب نور الدين بالاستيلاء على دمشق^(١).

٤- معركة بانياس: شهدت العلاقات بين الدولة النورية وملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس عام ١١٥٢هـ / ١١٥٧م، والتي وقعت في وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانبين إلا أن الملك بدلوين الثالث خرقها، وتتجلى بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية والرعوية ومميزتها الاستراتيجية كعوامل دفعت بالصليبيين إلى نقض شروط المعاهدة وإعلان الحرب على الدولة النورية، فقد توافرت في بانياس المراعي الغنية بقطيعان الماشية^(٢)، كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعي حيث وجد الفلاحون والرعاة طمع الصليبيين في أسرهم واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية، وهذا يفسر عمليات الاسترافق التي حرصن الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة، كذلك احتلت بانياس أهمية استراتيجية متغيرة إذ وقعت بالقرب من دمشق وفي المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين، وإذا اعتربنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق^(٣)، ولا شك أن كل تلك المغريات لعبت دورها في إغراء الملك بدلوين الثالث على شن هجومه على بانياس، وكان الرعاة وال فلاحون المسلمين في المنطقة قد ارتكروا إلى وجود معاهدة

(١) الحروب الصليبية - العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٨.

(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٩.

السلام مع الصليبيين، وبينما هم منهمكون في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة، وقد قتل وجرح العديدون، وتم سلب قطعان الماشية وأسر العديدين ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير في حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ونعني بهم الاستبارية والداوية^(١)، وما تجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمي وليم الصوري أقر واعترف صراحة بأن حملة البدوين الثالث على بانياس، كانت خرقاً لاتفاقية المعقودة مع نور الدين، وأن الأمر كان أبعد من أن يكون مجدًا عسكرياً للملكة الصليبية^(٢)، ولم يكن هناك مفر من الرد العسكري النوري، وقد قام المسلمين بنصب كمين للقوات الصليبية كلل بالنجاح، وقتل منهم الكثيرون. وعلى حد قول ابن القلانسي: صاروا بآجعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح^(٣)، وغنائم وفيرة، وأمكنهم احتلال بانياس^(٤)، غير أن البدوين الثالثتمكن من استردادها في نفس العام^(٥)، وعاد نور الدين وفرض سيطرته عليها عام ١١٦٤هـ / ٥٥٦٠م^(٦)، وكان قد سار إليها بعد عودته من فتح حارم وأذن لعسكر الموصل ودياريكر بالعودة إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجدًا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها، ونازلاها وضيق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أمiran، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رأه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعد لك لتمنيت أن تذهب الأخرى^(٧)، ولما فتح نور الدين حصن بانياس، كان ولد معين الدين أثر الذي سلم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذاك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّ جلدك والدك من نار جهنم^(٨).

٥- اتفاقيات وهدنة قصيرة: وعلى الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة، لاحت في الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب متمثل في اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الأشهر الثلاثة والعامين وقعت بين الطرفين، ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التي اتبعها نور الدين محمود في بعض الأحيان تجاه مملكة بيت المقدس وتمثل في أبعاد اقتصادية وعسكرية واستراتيجية. وكانت الدولة النورية تهتم بالعلاقات التجارية مع القوى الصليبية في بلاد الشام

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥١.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٩.

(٤) الحركة الصليبية ، عاشرور (٦٦٨/٢).

(٥) شذرات الذهب نقلًا عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٢.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤٣٧/١). (٧) المصدر نفسه (٤٤٠/١).

لعدة اعتبارات منها؛ أن بعض المواد الخام وجدت في أرض أعدائها وكانت في حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع، ثم أن بعض الطرق التجارية الدولية التي مررت ببلاد الشام كانت منافذها في المناطق الساحلية الصليبية، وكان تصريف الدولة النورية يحتم ضرورة وجود صلات ما من أجل ضمان وصول السلع إلى شاطئ البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا، كذلك فإن التجارة مع مملكة بيت المقدس كانت تدر على الدولة أرباحاً طائلة من عائد العشور على نحو يدعم ميزانيتها، وتوجد إشارات إلى وجود علاقات وثيقة بين الجانبين على المستوى التجاري، ويقرر ابن جبير أن اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعتريض. ويضيف أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسيتم بدخول إلى بلاد المسلمين^(١).

وإذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلى العصر الأيوبي، فإنه يعد امتداداً طبيعياً لما كان موجوداً بصورة فعلية من قبل في عهد الدولة النورية^(٢)، ومن جهة أخرى، فالنسبة للصلبيين، نعرف أنهم كانوا يدخلون إلى دمشق وغيرها من المدن المسلمة من حين لآخر من أجل «قضاء حوائجه»^(٣)، وطبعي أن من بينها عمليات الشراء والتجارة مثلما حدث عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م^(٤). ولاشك في أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية، كانت تضع نصب عينيها المصالح التجارية، بل أن تلك المصالح هي التي حددت - في بعض الأحيان - موقفها السياسي من أعدائها^(٥).

وأما الجانب العسكري، فتمثل في أن الحروب التي خاضها الجيش السوري ضد مملكة بيت المقدس كانت حروباً موسمية في الغالب، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب على مدى العام بأكمله، واحتاج إلى أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال، ثم أن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة، وإعداد الجنود وتوفير التموين اللازم وإعداد الدواب إلى غير ذلك، ثم إنها مثلت استهلاكاً لموارد الدولة على نحو هددها اقتصادياً، وأمام تلك الاعتبارات كان الاتجاه الإسلامي مطلباً ضروريًّا من وجهة النظر النورية، ولا نغفل أيضاً أنها اتجهت إلى مهاجمة مملكة بيت المقدس لكي تتفرغ للحرب في الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية، أو لكي تواجه سلاجقة الروم، وكان أخوف ما تخافه أن تقع بين شفتي الرحمي، إمارة أنطاكية وهي تشن هجماتها الحربية على مركز الدولة التجاري في حلب، ومملكة بيت المقدس تهاجم مراكزها التجاري والصناعي في الجنوب أي في دمشق، إذ أن ذلك

(١) الرحلة ص ٢٥٣.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٤.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٤.

كان يعني استهلاكاً أكبر لطاقةها البشرية والمادية على نحو أدى إلى تشتت قدراتها وعدم تحقيقها للإنجازات كبيرة على أي من الجبهتين^(١).

ونجد أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة ١١٥٥/٥٥٠ م لدة عام وفي العام التالي ١١٥٦هـ/٥٥١^(٢) تجددت المواجهة فتم إرسال قطيعة للصلبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانيير الصورية^(٣)، وفي نهاية المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوزين الثالث مراعي بانياس، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين في عام ١١٥٦هـ/٥٥٦ م، وعلى أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام عام ١١٧٠هـ/٥٦٦ م اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عموري الأول، ويفضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر في عام ١١٧٣هـ/٥٦٨ م^(٤)، وتركزت المعاهدات والهدنات التي وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية في المدة من عام ١١٥٥هـ/٥٥٠ م وعام ١١٧٣هـ/٥٦٨ م، وطبعي أن عقد الهدنات تطلب جهداً دبلوماسياً مكثفاً^(٥). كان هدف نور الدين توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر ضد الصليبيين وكانت سياسته قائمة على إيجاد توازن حقيقي في القوى مع أعدائه، على أن يكون القضاء عليهم في مرحلة تالية، وقد تكفل بها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، ويظهر دهاء نور الدين في استخدام عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يربح قواته من عناء الحرب ويدعم قواته في آن واحد، ولم تشهد ساحات الصراع بينه وبين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك متعددة يقضي فيها على قواته قضاءً مبرماً، وحق للمؤرخ السرياني المجهول، ووليم الصوري أن يصفه بالدهاء والحكمة^(٦)، ويلاحظ أنه لم يسع إلى نقل الصراع مع المملكة اللاتينية إلى نطاق النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري، إذ قصر الحرب على ساحاتها دون مجال التبادل السلمي، وأفاد من حركة القوافل الصليبية في فرض العشور على نحو دعم اقتصاديات دولته وأمدتها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعها مع الصليبيين^(٧).

وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة في صراعه ضد الصليبيين، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه سمايل واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم، وأرجع ذلك إلى جبنة وانعدام روح المبادرة لديه، وخوفه من التدخل البيزنطي لصالح الدول اللاتينية، وأن الغزوtas في عهده لم تكن تتسم بالطموح والواقع.

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٦.

(٢) ذيل تاريخ دمشق نقلًا عن فن الصراع الإسلامي ص ١٥٦.

(٣) تاريخ الزنكين في الموصل وبلاد الشام ص ٢٩١. (٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه ص ١٥٨. (٦) (٧) المصدر نفسه ص ١٥٩.

إن استعراض مراحل صراعه مع المملكة الصليبية يعكس لنا صورة مغايرة لذلك، فالاستيلاء على دمشق عام ١١٥٤هـ / ٥٤٩م، حسم أمرها تماماً لصالح السيادة الإسلامية، ولم تستطع المملكة اللاتينية أن تفرض سيطرتها عليها، لذلك فإن إخضاع مصر عام ١١٧١هـ / ٥٦٧م لسيادته حسم الصراع حولها والذي استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين، وكان نور الدين يحارب في جهات عديدة في وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ثم إن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه وبين المملكة الصليبية، وقد أسلحت جهود نور الدين محمود وصراعه مع مملكة بيت المقدس لتمهيد السبيل لصلاح الدين الذي استطاع إسقاط مملكة بيت المقدس عام ١١٨٣هـ / ٥٨٣م، وقد امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس، وأسقط ما يزيد على الخمسين من المحسنون والمعاقل، وتصارع مع جهتين شمالية وجنوبية في آن واحد، وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي وحافظ على طاقاته وإنجازاته^(١).

٦- الرصيد الأخلاقي في قتال نور الدين للأعداء: يروى أنه لما بلغ نعي الملك بلدoin مسامع القادة المسلمين وهم يعدون العدة لغارات جديدة، عقدوا مجلساً للمداولة فيما بينهم، وقالوا لنور الدين: إننا نستعد لهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد، فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانئ الأخرى ونحو بيت المقدس والمحصن الجبلية للاستيلاء عليها قبل أن تجف دموع الصليبيين وقبل أن يصحوا من ذهولهم، فلنضربهم ضربة قاضية وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف، إن حزنهم وحدادهم حلیفان لنا في هذه الحرب؛ فلم يشاطرهم نور الدين الرأي وقال لهم: إن مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق، عمل لا يليق بي وبكم، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة، فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخناً بالجراح، إن أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن أنفسهم، وقد أحاط قواهم بجنة مليكهم ي يكونه ويترحمون عليه، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجمهم ونخرجهم من أرض ندھا ملکاً لنا ونرفع عليها أعلامنا. أما اليوم، فإني سأبعث إليهم بوفد من أبطالنا، لا للتحدي ولكن للتعزية. وما لبث أن أرسل إلى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرمدة^(٢) معزيًا إليها بوفاة العاهل الراحل، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كان

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٥٩، ١٦٠.

(٢) هي الأميرة البيزنطية تيودورا وكانت قد زفت إلى بلدoin الثالث سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م وهي في الثالثة عشرة من عمرها وقد بلغت يوم وفاتها سن السابعة عشرة.

الامبراطور البيزنطي قد أرسله هدية لها فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً، وأكمل لها الرسول أن نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد، فتأثرت الملكة الحزينة لشهادة نور الدين وبعثت إليه مع رسوله منديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بجميله ومرءته^(١).

ثانياً : العلاقات مع إمارات الصليبية :

من المعروف أن الحملة الصليبية الأولى نجحت في إقامة ثلاث إمارات هي الراها في أعلى نهر الفرات وأنطاكية في أقصى شمال الشام وطرابلس على الساحل اللبناني، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطاً وثيقاً مع بعضها البعض، وكذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية^(٢).

1- إمارة الراها: حاول جوسلين الثاني استرداد إمارته المفقودة في عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧ م وذلك بعد مقتل زنكى، بمساعدة العناصر الأرمنية بداخلها^(٣)، وأمكنه عبور نهر الفرات في ربيع الثاني من عام ٥٤٢هـ / أكتوبر ١١٤٧ م وساعدته الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها، وإن عجز عن قلعتها^(٤) نظراً لمناعتها وتجهيزاتها بالمعدات والرجال، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها^(٥)، أمام ذلك الموقف، هب نور الدين إلى إنقاذ الراها، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار، وقد تحken الجيش التورى من إلحاق الهزيمة بالصليبيين، وأصيب جوسلين نفسه وقتل فيمن قتل بلد貌ن صاحب مرعش^(٦)، وقام الأول بعبور الفرات مسرعاً حتى بلغ سميساط وفر من كان معه في اتجاهات متفرقة، وقادت القوات النورية بسلب المدينة ونهبها، كعقاب لأهلها على تردهم، وغنم من وراء ذلك الغنائم الوفيرة^(٧)، ووجدت لدى نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثاني استرداد الراها، إذ أنه أراد إنقاذ الإنماز الكبير الذي حققه والده زنكى بإخضاع أولى إمارات الصليبية وما غنممه المسلمون من وراء ذلك من مغامن استراتيجية كبيرة، كذلك أراد أن يوقف آية توسعات صليبية في المنطقة المتدة في شمال العراق، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للراها، كان من شأنها توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجي القائم بين المدينتين، والذي حرص نور الدين على

(١) صلاح الدين الأيوبي، قدرى قلعي ص ١١٣ ، الجنة في ظلال السيف، حبيب جاماتي ص ٧٥ - ٧٧ .

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦١ . (٣) المصدر نفسه ص ١٦٤ .

(٤) (٥) المصدر نفسه ص ١٦٥ .

(٦) (٧) المصدر نفسه ص ١٦٦ .

عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة^(١).

أ- هزيمة نور الدين:

سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها تل باشر، وعين تاب، وعزاز وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم حرب شديدة أسفرت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار^(٢) كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وأقصر وغيرهما من تلك الأعمال، وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره^(٣).

ب- أعمال نور الدين للحيلة ووقوع جوسلين في الأسر:

عظمت هذه الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقتله جمع جوسلين الفرنج وحضر وامتنع، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً وإما أسرًا، فاتفق أن جوسلين خرج في عشرة، وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسيىء، فاستحسن من السيئ امرأة منهم فخلأ معها تحت شجرة، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً.. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقوس قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها وتغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أمن جانبه بالعقود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره، وحاق به مكره، قال تعالى: «وَلَا يَحِقُّ الْمُكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» [فاطر: ٤٣]. فلما أسر تيسير فتح كثير من بلادهم وقلائعهم، فمنها عين تاب، وعزاز، وقرش والرأوندان، وحصن البارزة، وتل خالد، وكفر لانا، وكفر سود، وحصن بسرفوت بجبل بني عليلي ودُلُوك، ومرعش، ونهر الجوز، وبرج الرصاص^(٤).

وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصنًا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نصرة تجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٦.

(٢) سلاح دار: معناه مسك السلاح.

(٤) المصدر نفسه (١/٢٤٦).

(٣) كتاب الروضتين (١/٢٤٦).

محتاجة إلى شيء^(١). لقد رغب نور الدين محمود زنكي في تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل وبين حلب ودولة سلاجقة الروم والأمبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهمية كبيرة إذ أنها على ما يبدو فرضت نوعاً من السيطرة على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه وبالذات في الجزء الشمالي لبلاد الشام، أما الدوافع الإستراتيجية العسكرية فتمثلت في رغبة نور الدين الأكيدة في تأمين الخط الدفاعي الحربي الواقع بين الموصل وحلب، إذ أن خضوع تلك القلاع والمحصون في أيدي الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاماً، ويمكن تلخيص سياسة نور الدين تجاه إماراة الرها، أنها تمثلت في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبعي أن ندرك أن دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إماراة أنطاكية مثلاً، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده^(٢)، ولقد أصبحت انتصارات نور الدين يتغنى بها الشعراء، فقال ابن منير:

تتبّه لـه المشاعر والمحجـون قـويٌّ منك في الجـلـى أـمـين أـسـير في صـفـادـك أو كـنـين وجـرـع مـرـّ جـوـسـك جـوـسـلـين ^(٣)	لـقد أـشـعـرت دـيـن الله عـزـزاـ وـقـام بـنصرـه وـالـنـاسـ فـوـضـىـ رـجـعـت مـلـوكـهـ وـهـمـ خـيـوفـ فـبـرـئـسـتـ الـبـرـنـسـ لـقـاعـ خـسـفـ
---	---

- إمارة أنطاكية: تولى حكم إمارة أنطاكية خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء، ريموند دي بواتيه (٥١٩ - ١١٤٩ / ٥٤٣ - ١١٣٦ هـ) وقد اتجه إلى محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية عندما قدمت إلى الشام من أجل مساعدته في استرداد أملاكه المفقودة شرق نهر العاصي. وريمنود شاتيون أو أرنات في المصادر العربية (٥٤٨ - ١١٥٣ / ٥٥٧ - ١١٦٢ هـ)، فقد شن هجماته على الأعمال الخلبية ووصف بالاندفاع والتهور، وجرت تصرفاته على الصليبيين في بلاد الشام بصفة عامة أو خصم العواقب، وقد عمل نور الدين على أسره، وتمكن بالفعل من ذلك ومكث في السجن سبعة عشر عاماً خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة. وتولى بوهيمند الثالث (٥٥٨ - ٥٩٥ / ١١٦٣ - ١٢٠٠ هـ) عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملاة ريموند دي بواتيه، ويلاحظ أنه أسر في

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٤٧). (٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٩.

(٣) المصدر نفسه (١/٢٧١، ٢٧٠).

معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م^(١) وقد امتازت سياسة نور الدين محمود تجاه إماراة أنطاكية بتنوع المعارك الكبيرة التي خاضها ضدّها على نحو لم تجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى^(٢)، ومن أشهر هذه المعارك:

أ- معركة يغري: في سنة ٥٤٣هـ سار نور الدين إلى يغري وقد اجتمع بها الفرنج في قصبهم وقضي عليهم، وقد عزموا على فقد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتلوه أشداء قتال، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج، وكانوا بين قتيل وأسير، وفي هذه الواقعة قال القيسرياني:

المحمود والسلطان محمد
إن رواق العدل مددود
وطحال الدولة مسعود
إلا وشلوا الكفر مقدود
إلا ونور الدين موجود
عليه تاج الملك معقود
فه سليمان وداود
إن رضاب العز مسورود
عند ملك الشرك مشهود
أو موثق بالقيد مشدود
قالت لهم هيبيه عودوا
قطار طوراً ومطروداً
عاد وقد عاد لها هؤود
في قلبك بأسنك محمود
وكلئغر بك مسدود^(٣)

ب- معركة أنب: وقعت معركة أنب في يونيو ١١٤٩م / صفر ٥٤٤هـ وقد حقق الجيش النوري فيها انتصاراً كبيراً، وتم قتل ريموند دى بواتيه، وعدد كبير من كبار قادة الصليبيين

وكيف لأنثني على عيشنا
فليشكّر الناس ظلال المنى
ونيّرات الملك وهاجة
وصارم الإسلام لا ينشي
مناقب لم تك موجودة
مُظفر في درعه ضياع
نال المعالي حاكماً مالكاً
ترشيف الأفواه أسيافه
وكم له من وقعة يومها
والقوم إما مُرهق صرعة
حتى إذا عادوا إلى مثلها
والكر والفر سجال الوغى
 وإنما الإفرنج من لغيها
قد حصص الحق فما جاحد
فكـل مصرـ بكـ مـستـفتحـ

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٠.

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٦٩.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٠٠).

ويلاحظ أن الشيعة الإمامية النزارية وقفوا خلال المعركة إلى جانب الصليبيين؛ مما كشف بجلاء عن حقيقة دورهم خلال تلك المرحلة، ولقي قائدتهم علي بن وفا مصرعه على نحو ذلك على التواطؤ والتعاون مع أعداء الإسلام^(١) والارقاء في أحضان الصليبيين ضد القيادة السننية المجاهدة^(٢)، وقد قال ابن منير في مدح نور الدين قصيدة جاء فيها:

رتقسي دينها السُّمْرُ الصَّعاد
فوارس من عزائمها الحلاَد
شَدُّ بضبِعِهِ السَّبْعُ الشَّدَاد
ونور الدين في يده الزَّنَادُ
إذا انقضوا على الأبطال صادوا
وإن أبدوا عداوَتَهُمْ أبادوا
وهل تخشى وأنت لها عِمَاد
بأنسب مَا يُؤْبَنُها سِنَادُ
وليس سوى النجيع لها مِدَادُ
فادي السيف قد وقع الحصاد
ولا طعن هنَاكَ ولا طِرَادُ
توسَّدَ والستَّانَ لَهُ وسَادُ

^(٣) مُلِيَّة لـ دعوتك العِبَادُ

وذِي المَكَارِمِ لَا مَا قَالَتِ الْكُتُبُ
تَعَرَّت خلفها الأشعار والخطبُ
براحَةً لِلمساعي دونها تعبُ

فيما مضى نسيت أيامها العرب

تفِي بضمها البيضُ الحِدَادُ
وتدركُ ثارها من كُلِّ بَاغٍ
ويُعْشِي حُومَةَ اهْيَاجاً هَمَامٌ
أظْهَوا أن نَازَ الْحَرْبِ تَخْبُو
وَجْهَهُ كالصَّقُور على صُقُور
إذا أخفِوا مَكِيدَتَهُمْ أخافُوا
وَنَصْرَةَ دُولَةَ حَامِيتَهُمْ
إِنْ شَلِ القَوَافِي مَا نَلَثَةُ
جَرَتْ بِالنَّصْرِ أَقْلَامَ الْعَوَالِي
وَطَالَتْ أَرْؤُسَ الْأَعْلَاجِ خَصْبًا
أَحْطَتْ بِهِمْ فَكَانَ القَتْلُ صَبَرًا
وَلِلإِبْرِيزِ فَوقَ الرَّمْحِ رَأْسُ
إِلَى أَنْ قَالَ:

وأذعنَتِ الْمَالِكُ وَاسْتَجَابَتْ
وَمَا قَالَ ابن القيسراني:

هَذِهِ الْعَزَائِمُ لَامَا تَدْعِيَ الْقَضَبُ
وَهَذِهِ الْهَمَمُ الْلَّاتِي مَتَى خَطَبَتْ
صَافَحتْ يَا ابْنَ عَمَادِ الدِّينِ ذُرْوَتَهَا
وَهِيَ قَصِيَّةٌ طَوِيلَةٌ جَاءَ فِيهَا:

أَبْنَاءَ مَلْحَمَةٍ لَوْ أَنَّهَا ذَكَرَتْ

(١) الحروب الصليبية- العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٧٥.

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧١.

(٣) كتاب الروضتين (١/٢٠١).

من الملوك فنور الدين مُحتسبٌ
إلا ترق عن شمس الضحى الحُجْبُ
ووجهه نائبٌ عن وصفيه اللَّقَبُ
شغل فكل مديحي فيه مُقْتَضِبٌ
هل يأسر الغلَبَ إلا من له الغلَبُ^(١)

من كان يغزو بلاد الشَّرك مكتسباً
ذو غرة ما سمت والليل معتكر
أفعاله كاسمها في كل حادثةٍ
في كل يوم لفكري من وقائعه
من باتت الأسد أسرى في سلاسله

إلى أن قال:

إلا شهدت وعِبَادُ الْهَوَى غَيْبُ

هذا وهل كان في الإسلام مكرمة

وقال فيه قصائد كثيرة شعراء عصره بسبب فتوحاته ومعاركه التي خاضها مع الصليبيين. وعلى أثر مقتل ريموند دى بواتيه، اضطربت الأوضاع السياسية في أنطاكية، وحلت الفوضى بها واستولى الهلع على جميع الناس وصارت الأرض مهددة أمام قوات نور الدين، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش، وأمير البلاد، ولم يعد هناك من يقدم حماية قوية ضد الأخطر التي هددتهم، وطبعي أن يسعى نور الدين إلى الإفاداة من انتصاره فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون الأنطاكية في كل الوادي الأوسط لنهر العاصي، ومنها أزمان وأنب، وعم، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون) وبذلك قضى على المراكز الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب وأنطاكية، بل إنه هدد أنطاكية نفسها وحاصرها واتفقت معه المدينة على الاستسلام في حالة عدم مقدم الملك الصليبي بلدوين الثالث، وبالفعل حضر وفرض حصاره على حصن حارم ولماباء بالفشل، عاد أدراجه إلى أنطاكية وعقد هدنة مع نور الدين^(٢). واتجه نور الدين محمود إلى أسر أمير أنطاكية رينودي شاتيون مثلما فعل ذلك من قبل مع جوسلين الثاني، وبالفعل تم أسره حوالي عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م على نحو بعث الاضطراب في تلك الإمارة الصليبية وبصورة عكست أن أسلوب أسر حكام الإمارات الصليبية مثل أفضل الأساليب حينذاك التي من خلالها يتم إضعاف ذلك الكيان الصليبي وبعث الاضطراب والفوضى في صفوف أبنائه بصورة أو بأخرى^(٣).

جـ الاستيلاء على أقاميه: سار نور الدين إلى حصن أقاميه سنة ٤٥٤هـ وكان حصنًا منيعًا على تل مرتفع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على

(١) إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطيه ص ٢٣٦ .

(٢) كتاب الروضتين (١٧٥/١).

(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٤ .

أعمال حماة وشيزر وينهبونها فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نور الدين إليه، وحصره وضيق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتتابع عليهم القتال ليمعنوا الاستراحة، فاجتمع الفرنج من سائر بلادها وساروا نحوه ليزحفوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملاهه ذخائر؛ من طعام ومال وسلاح ورجال، وبجمع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوا جده في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وكان قصاراً لهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء وأثروا^(١).

د- حصار حارم: في عام ٥٥٧هـ جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصراًها وجَدَ في قتالها فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجاعتهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصالف، فلم يحيطوا إلى ذلك، وراسلوه وتلطّفووا الحال معه، فعاد إلى بلاده ومن كان معه في هذه الغزارة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ وكان من الشجاعية في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله يومئذ كتب على حائطه^(٢):

علىٰ وفضل لا يحيط به شكري من الغزو موفور التنصيب من الأجر مضى نحو بيت الله ذي الرُّكن والحجر تحملت من وزر الشَّبيبة عن ظهري	لك الحمد يا مولاي كم لك مئة نزلت بهذا المسجد العام قافلاً ومنه رحلت العيسى في عامي الذي فأدَيْت مفروضي وأسقطت ثقل ما
--	---

قال أبو شامة: أذكرني هذا ما كتبه أسامة بمدينة صور وقد دخل دار أبي عقيل فرأها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام:

تغَّترَ بِالعمرِ القصَّيرِ صَرَعَتْهُ مَنَّا بِالغُرُورِ مِنَ الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ سَكَنَاهَا إِلَى سُكْنَى الْقَبُورِ ^(٣)	احْتَذَرَ الْمَدِنِيَا وَلَا وَانظَرَ إِلَى آثَارِ مَنَّا عَمَرُوا وَشَادُوا مَا تَرَاهُ وَتَحْوَلُوا مَمَّا نَعَدَ
---	--

هـ- معركة حارم: وفي سنة ٥٥٩هـ اغتنم نور الدين خُلُو الشَّام من الفرنج وقصدتهم، واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصالف فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم

(١) كتاب الروضتين (٢١٧/١).
 (٢) المصدر نفسه (٣٩٦/١).

(٣) المصدر نفسه (٣٩٧/١).

ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية، وقومص طرابلس وابن جوسلين ودوك الروم، وذلك في رمضان^(١). وقد اشترك في هذه الغزوة ضد نور الدين، القوى الصليبية والبيزنطية والأرمنية^(٢). وسبب الانتصار لنور الدين أنه لما عاد منهزاً في معركة حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهد والاستعداد للجهاد والأخذ بثاره، وثار الإسلام، وغزو العدو في عقر داره، ليرتك ذلك الفتى، ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن - أي حصن كيما - ونجم الدين أبي بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف، فأما قطب الدين أتابك فجمع عساكره، وسار مجدداً، وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال على القعود، فإن نور الدين قد تخفّف من كثرة الصوّم والصلاحة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أتجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنتقطين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمين من الفرج، وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يخلوا المسلمين على العزة، فقد قعد كلُّ واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليَّ، فلا بدَّ من إجابة دعوته، ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين أبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل من لم يسر إلى مصر، فخشدوا وجاءوا مقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم وهو رئيس الروم ومقدمها، وجعلوا من الرجال مالا يقع عليه الإحصاء، ملأوا الأرض وحجبوا بقسطهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرق نفاث الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح^(٣) وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا على عم^(٤). وتيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٥.

(٢) كتاب الروضتين (٤١٦/١).

(٣) المصدر نفسه (٤١٧/١).

(٤) كتاب الروضتين (٤١٨/١).

حرمتهم كلَّ خيرٍ، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفُوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبددوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولوا الأدبار وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الضرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بال العدو مكروهٌ، وهو أن يبعد عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المسلمين، ويضعوا فيهم السيف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذاً عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجمون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم وتأخذهم سيف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دَبَّروا، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيالاتهم ولم يُمنعوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معرفين، وبدمائهم مضرجين، فسقط في أيديهم، ورأوا أنْهُم قد ضلُّوا، وخضعت رقابهم وذلُّوا فلما رجعوا عطف المنهزمون أعتئهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحيثُنَذَ حمى الوطيس، وبasher الحرب المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضتُ العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُعاث الطيور، فمزقُوهُم بَدَداً وجعلوهم قَدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف^(١)، وقال الذبي:.. ثم التقاهم في سنة ٥٩ هـ فطحنتهم وأسر ملوكيهم، وقتل منهم عشرة آلاف بحارم^(٢). وأما الذين أسروا وهم الذين من قبل ذُكرُوا^(٣). وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، خلوها من يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة بوهيمند أحبُّ إلى من المجاورة ملك الروم وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلووا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويداء وغير ذلك وعادوا سالمين، ثم إن نور الدين أطلق بوهيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم^(٤).

تلك كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت

(١) كتاب الروضتين (٤١٨/١). (٢) سير أعلام النبلاء (٤١٥/٢٠).

(٣) (٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٤١٩/١).

ذروتها في حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغيير حاسم، وكان الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام متغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الامبراطورية البيزنطية تقف حائلًا دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقرب بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها^(١).

- إمارة طرابلس: عاصر نور الدين محمود اثنين من أمراء طرابلس، ريموند الثاني ٥٣٢هـ - ١١٣٧م وريموند الثالث ٥٤٧هـ - ١١٨٧م في وقت اتسمت الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس بصراع عنيف لإسقاط حصونها وقلاعها، واحتلت تلك الإمارة الصليبية أهمية متميزة لديها نظرًا لتصريف التجارة الشامية عبر موانئها إلى عالم البحر المتوسط، ودخلت إمارة طرابلس في صراع مصالح مع الشيعة الإسماعيلية بسبب وقوع قلاع الدعوة الشيعية الإسماعيلية في مناطق إمارة طرابلس، وحيث إن الاغتيال كان سلاح الشيعة الإسماعيلية الرهيب الذي أشهرته في وجوه خصومها، فإن أمير طرابلس ريموند الثاني لم يسلم منه فقد تم اغتياله^(٢).

- حصن أنطروسوس: ورد الخبر في المحرم من عام سبع وأربعين وخمسمائة بنزول نور الدين على حصن أنطروسوس في عسکره وافتتاحه، وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمان على التفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عدّة من الحصون بالسبّي والسيف والإحراب والأمان^(٣)، وقال ابن منير قصيدة مدح نور الدين وبهنهء بفتح أنطروسوس وغيرها فقال:

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكاً
ثدْنِي لك الأمل البعيد سواهم
وتُؤوب منه مؤيداً منصوباً
محْفَت أهلُهَا وَكُنْ بُدُوراً

وجاء فيها:

البسَّامُ من عِزَّ الثغور تغيراً	هَتَّمَتْ طَرَابِلْسَا فَاصْبِحَ ثُغْرُهُ
قلقاً فجئتَ مبشرًا ونذيرًا	ضَحَّكتَ لَكَ الْأَيَّامُ وَأَكَّابَ الْعَيْنَ
تَخِذَ الْكِتَابَ مَظَاهِرًا وزَيْرًا	لَا مُلْكَ إِلَّا مُلْكُ مُحَمَّدِ الدَّيْ
تَأْتِهِنَ فَسِيْحُكُمُ التَّقْدِيرَا	تَشَيِّي وَرَاءَ حُلْدُودِهِ أَحْكَامَهُ

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٩.

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٧٧.

(٣) كتاب الروضتين (١/ ٢٨٠).

يقظان ينشر عدله في دولة جاءت مطوى السماح نشورا^(١)

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أخترت منها هذه الأبيات:

فأضاء نيره وصاب شهابه
والآمن حيث تصرمت أسرابه
يُرجى ويُرْهَبُ خوفه وعقابه
وسنائه وإهابه وثيابه
أعداؤه تحت الوغى أحبابه
وأرى الصّحابة ما احتذاه صاحبه^(٢)

ملك تكئف دين أحمد كنه
فالعدل حيث تصرفت أحكامه
متهلل الموت في ثباته
طبع الحديد فكان منه جناته
ويهش إن كبت الوجه كأنما
نشرت بهمود شريعة أسد

بـ حصن الأكراد: في عام ٥٥٨ هـ جمع نور الدين عساكره، ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، في بينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم ير عهم إلا ظهور صُلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم فأراد المسلمون دفعهم، فلم يطقوها، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج من ظهر خيمته عجلًا بغير قياء، فركب فرساً هنالك للنوبة، ولسرعته ركب وفي رجله شيءة^(٣)، فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلصي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وسار نور الدين إلى مدينة حصن، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس على فرسخ من حصن وبينهما وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم هنا، فإن الفرنج ربما حل لهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبئه وأسكنه وقال: إذا كان معى ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، ووالله لا أستظل بمدار حتى آخذ بثار الإسلام وثاري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والذواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجندي، فأكثر وفرق ذلك جيشه على من سالم، وأما من قُتل فإنه أقر إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا

(١) كتاب الروضتين (١/٢٨٢).

(٢) المصدر نفسه (١/٢٨٢).

(٣) هي التي تربط بد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه.

عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنه من القوة أن يمنعنا. وكان نور الدين -رحمه الله تعالى- قد أكثر العطایا إلى أن قسماً في يوم واحد مائة ألف دينار، سوى غيرها من الدواب والخيام، والسلاح وغير ذلك؛ وتقدماً إلى ديوانه أن يحضرروا الجندي ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكل من ذكر شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما أدعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية، ويستأذنونه في تخليف الجندي على ما أدعاه، فأعاد الجواب: لا تكدرروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيرة^(١). وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إداراتٍ كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: والله إنني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما تُرزقون وتنصرون بصفائلكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رأي بسهام قد تخطئ وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجدهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا^(٢). وما يذكر في هذه الهزيمة موقف الشيخ البرهان البلخي حيث قال: أتريدون أن تتصرروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور. كلا. وقال كلاماً مع هذا، فلما سمع نور الدين ذلك، قام ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الفرنج^(٣).

ج- فتح حصن المنطرة وبعض الحصون: اتجه الجيش النوري إلى الاستيلاء على حصن المنطرة في عام ١١٦٥هـ/١٧٥١م وغنم الغنائم الوفيرة، وفي العام التالي ١١٦٦هـ/١٧٥٢م تمت مهاجمة المناطق الخيطية بحصن الأكراد، وسلب الغنائم، كذلك تم الاستيلاء على حصن صافينا والعريقة وهما من حصون الإمارة المنية، ووقع صدام بين الجيش النوري، وجيش إمارة طرابلس ١١٦٩هـ/١٧٥٥م فيما عرف بمعركة اللببة، وبعد عامين أي في عام ١١٧١هـ/١٧٥٧م واصل نفس السياسة وتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة واستولت عليه عام ١١٧١هـ/١٧٥٧م واحتوى على جميع ما فيه وغنم الناس غنيمة عظيمة^(٤). كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها ولم

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٣٩٩). (٢) المصدر نفسه (١/٣٩٩).

(٣) المصدر نفسه (١/٣٨٠). (٤) المصدر نفسه (١/٢٢٤).

تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس كالتي حدثت في مواجهة أنطاكية^(١)، وما تجدر الإشارة إليه، أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري، معارك كبيرة مثل يغري، وأنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والمحصون، مثل المنيطرة، وانططروس، وغيرهما^(٢). وكانت المعارك جموعها بربة ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية، خاصة إمارتي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا ساحلًا متداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل، بسبب تصدي مملكة بيت المقدس والأمبراطورية البيزنطية لتوسيعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه وأدى ذلك إلى عدم تملك الدولة النورية أية موانئ^(٣).

ثالثاً: العلاقات النورية - البيزنطية:

عاصر عهد الدين محمود في بلاد الشام عهد الامبراطور البيزنطي مانويل كومين ٥٤٠ - ٥٧٥ هـ/١١٤٠ - ١١٨٠ م^(٤)، الذي تولى عرش الامبراطورية خلفاً لحنا كومين، وقد كان مانويل إمبراطوراً يؤمن ب فكرة السيادة العالمية وساعدته على تحقيق ذلك أنه كان دبلوماسيًّا ماهراً ورجل دولة قديراً، وقد كانت له سياساته في الشرق والغرب معاً، ورغب مثل أسلافه في فرض سلطته على روما سواء إذا كان ذلك عن طريق القوة أو بالاتفاق والتعاون مع البابوية^(٥)، وأراد القضاء على الامبراطورية الغربية التي نظر إليها البيزنطيون على أنها مغتصبة لحقوقهم، ولذا فقد اتخذ موقفاً عدائياً من الامبراطور الألماني فرديريك بارباروسيا وقد توجهت سياسة الدولة النورية نحو الامبراطورية البيزنطية من خلال دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية عسكرية^(٦).

- أما الدوافع الاقتصادية: فتمثلت في رغبة نور الدين محمود في استمرار الصلات التجارية بين الطرفين، فمعلوم أن الامبراطورية البيزنطية غدت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق التي دخلت الدولة النورية طرفاً مهمًا في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية ومنها الامبراطورية البيزنطية، وقد دعم الصلات التجارية بين الجانين مرور أحد الطرق التجارية الدولية المهمة بمنطقة وادي به طريق الشرق الأقصى - الخليج العربي - الشام، وقد بدأ من رأس الخليج العربي إلى البصرة ثم بغداد واتخذ اتجاهين صوب الشمال

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٣.

(٢) (٣) (٤) المصدر نفسه ص ١٨٤.

(٥) المصدر نفسه ص ١٨٨.

(٦) المصدر نفسه ص ١٨٦.

نحو ديار بكر والثاني باتجاه غربي نحو دمشق ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل اللاذقية، وطرطوس، وعكا، وغيرها، وتلك الموانئ شرق البحر المتوسط مثلت دور الوسيط التجاري بين الدولة النورية والأمبراطورية البيزنطية^(١).

- وأما الدوافع السياسية: فحاول نور الدين محمود استثمار الخلافات القائمة بين الجانين من أجل محاولة إيجاد توازن في علاقات الامبراطورية البيزنطية بدولته وبالكيان الصليبي في بلاد الشام، وساعده على ذلك أن تلك الامبراطورية احتاجت إلى قوته من أجل استمرار الصراع مع الصليبيين وإلحاق الخسائر بهم، على نحو يجعلهم يطلبون عون البيزنطيين ولا تغيب سطوتهم عن بلاد الشام وهذا ما هدفوا إليه. ومن أجل تحقيق سياسة توازن القوى في المنطقة، وعدم ارقاء بيزنطة بثقلها في دعم الصليبيين، نجد أن نور الدين عمل على تبادل السفارات مع الامبراطور البيزنطي، وكذلك الهدايا، ثم لم يجهز بالعداء تجاه تلك الامبراطورية، بل حاول أن يكسب صداقتها بقدر الإمكان، ونجد ذلك واضحاً بالنسبة للغة المصادر الرسمية، فعلى حين أشارت بالعداء الكامل تجاه الصليبيين فإنها كانت أقل حدة عندما أشارت إلى الروم أي البيزنطيين^(٢)، ولأمراء في أن الدولة النورية نجحت في تحقيق تلك السياسة التي مارستها أيضاً الامبراطورية البيزنطية، وهي التي رأت أن دبلوماسيتها ينبغي أن تقوم على أساس شغل القوى السياسية المجاورة بصراعاتها لإضافتها، من أجل أن تقوى الامبراطورية نفسها، ولا شك في أنها هدفت إلى استمرار صراع الدولة النورية مع الصليبيين^(٣).

- وأما الدوافع الاستراتيجية العسكرية: فيمكن ملاحظتها من خلال أن الامبراطورية البيزنطية شكلت قوة عسكرية كبيرة في المنطقة، وقد فاقت قوة الدولة النورية بصورة كبيرة، ويمكن إدراك ذلك من خلال إشارات المصادر عن حجم الهلع الذي انتشر في الأعمال الإسلامية الشامية^(٤) خلال مقدم مانويل كوميني بقواته مشاركاً الصليبيين، لقد حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحديدها وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام، وفي الاتجاه الجنوبي الغربي صوب الدولة الفاطمية^(٥).

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٩ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ . (٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٩.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ ، فن الصراع الإسلامي ص ١٩٠ .

(٥) فن الصراع الإسلامي ص ١٩٠ .

١- تجديد التحالف بين مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية: كانت الخطة التي وضعها بلدويون الثالث لاستقطاب مانويل هي المعاشرة فأرسل لهذا الغرض سفاره إلى البلاط البيزنطي في منتصف عام ١١٥٢هـ / صيف عام ١١٥٧م برئاسة أرنارد رئيس أساقفة الناصرة، الذي توفي في الطريق، وعضوية كل من هموري الثاني سيد تبنين^(١)، وجوسلين بسيليوس، ووليم دي باري، لطلب يد الأميرة تيودورا ابنة إسحاق أخي الامبراطور^(٢)، أحسن مانويل استقبال السفاره وكان أن قمت الصفقة على أن تكون هدية الزواج التي يقدمها بلدويون الثالث لعروسه مدينة عكا وما يتبعها من أراضٍ، والراجح أن المفاوضات تطرقت إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابلة تعاظم قوة نور الدين محمود، وما يمكن أن يقدمه الامبراطور من مساعدة. ومن الواضح أن مانويل استغل هذه الزيجة التي قمت في شهر رجب عام ١١٥٣هـ / شهر آب عام ١١٥٨م للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الامبراطورية في كيليكية وأنطاكية، وبيدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف لนาهضة نور الدين محمود وتأديب رينولد شاتيون صاحب أنطاكية، وكان هذا الأخير قد حالف ثوروس الثاني صاحب أرمينية الصغرى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية معاً، في الوقت الذي اتخاذ فيه الامبراطور البيزنطي من سلاجقة الروم حاجزاً يقي أملاكه في آسيا الصغرى من تضخم نفوذ الأمير الأرمني^(٣).

٢- مانويل يغزو كيليكية: لم تك الأميرة البيزنطية تيودورة تغادر القسطنطينية في صيف عام ١١٥٣هـ / ١١٥٨م متوجهة إلى بيت المقدس، حتى خرج مانويل على رأس جيش يقدر بخمسين ألف جندي، متوجهاً إلى كيليكية ليسترد حقوق الامبراطورية ومن ثم سيتوجه إلى أنطاكية لإخضاعها وتأديب حاكمها رينولد شاتيون^(٤)، وكان أن عبر مانويل آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي متظاهراً بمحاربة السلاجقة حتى يُمْوَه على أهداف حملته، واتسم خروجه بالسرية التامة وكان الأمير الأرمني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكانية حصول غزو بيزنطى لأراضيه، حتى علم فجأة ذات يوم من من شهر رمضان / شهر تشرين الأول بأن العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس فهرب إلى الجبال ثم دخل مانويل سهل كيليكية واحتل بعض المدن والقلاع الكبرى مثل طرسوس، وتل حمدون وعين زربة والمعصنة التي اتخذ مقامه فيها،

(١) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وسور.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وببلاد الشام ص ٣٠٧.

(٣) وليم الصوري (٢/٨٥٩)، تاريخ الزنكيين ص ٣٠٧.

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وببلاد الشام ص ٣٠٨.

وأضحت كيليكية في قبضته، ولاذ ثوروس بالفرار من مكان إلى آخر^(١)، وأرسل مانويل إلى رينولد شاتيون في أنطاكية يستدعيه لمحاسبته على ما فعل بجزيرة قبرص، ويبدو أن حاكم أنطاكية انزعج لقدوم الامبراطور الذي رابط على حدود إمارته إذ أدرك أنه ليس بوسعه أن يتصدى للجيش الامبراطوري الكثيف فطلب مساعدة بدوين الثالث متوجهاً أن ملك بيت المقدس لا يقلُّ استياء من الامبراطور، وأخَرَ مثوله أمام الامبراطور بانتظار وصوله إلى أنطاكية حيث كان في طريقه إليها، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، وعرض على مانويل تسليميه قلعة أنطاكية، ورأى الامبراطور أن ذلك ليس كافياً، وأصر على أن يحضر رينولد شاتيون إلى مجلسه ليقدم خضوعه وولاءه، فاضطر إلى إجابة الطلب فعجل بالمسير إلى معسكر الامبراطور خارج أسوار مدينة المعصيَّة وأعلن خضوعه له^(٢).

٣- **مانويل في أنطاكية:** ما إن علم بدوين الثالث باقتراب مانويل من أنطاكية، حتى عجل بالمسير نحو الشمال يرافقه أخوه عموري والبطريك إيمري، فبلغ المدينة عقب عودة رينولد شاتيون إليها، وإذا أظهر ملك بيت المقدس شيئاً من الامتعاض عندما سمع بنبأ العفو عن رينولد شاتيون، بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالامبراطور ونتيجة للمباحثات التي جرت بينهما تم الاتفاق على ما يلي:

١ - عقد تحالف بين الطرفين.

بـ- تسوية علاقات بدوين الثالث برينولد شاتيون، وحصل الأول بال مقابل على وعد من الامبراطور بالعفو عن ثوروس الثاني، دخل مانويل بعد ذلك مدينة أنطاكية في شهر ربيع الآخر عام ٥٥٤ هـ - شهر نيسان عام ١١٥٩ م وأجرى مفاوضات أخرى مع بدوين الثالث ورينولد شاتيون اتسمت بالسرية التامة، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبرى ضد المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب^(٣)، ولم تذكر المصادر المعاصرة أن بدوين الثالث اعترف في تلك المباحثات بسيادة الامبراطور البيزنطي على الصليبيين في بلاد الشام^(٤). والواضح أنَّ ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المعاذمة التي يقودها نور الدين محمود الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأصبح يشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به وقتذاك من الموافقة على الدعوة لهاجحة أملاك نور الدين محمود إنما قصد

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٨، وليم الصوري (٢/٨٦١، ٨٦٢).

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٩، ٣٠٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٠٩.

به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية^(١).

٤- مانويل في بلاد الشام: وبدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين، فكتب إلى ولة الأعمال والمعالق بإعلامهم ما حدث من الروم، ويعدهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكبة من يظفر منهم^(٢). ثم مضى إلى حلب والمناطق الشامية الأخرى يشحذ المهم ويبعث الطمأنينة في نفوس السكان^(٣)، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الامبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير مع استعداده في نفس الوقت للحرب، وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم ومع هذه الكثرة العددية إلا أن نور الدين استهدف العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده حتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال. واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين، والفااطميين وملكة بيت المقدس الصليبية أي بكل القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية^(٤). واللاحظة المهمة في فقه نور الدين زنكي المتأخرة في المفاوضات مع الاستعداد الكبير لخشد الجيوش والاستعداد للقتال واستئثار الأمة للتصدي، وقد تخلل الاتصالات الدبلوماسية تبادل هدايا ومحاولة توطيد العلاقات السياسية بين حلب والقدسية^(٥)، ومهما يكن من أمر، فإن الاتفاق بين الطرفين احتوى على:

١ - إطلاق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى النصارى الذين كانوا معتقلين بسجونه منذ الحرب الصليبية الثانية^(٦).

ب- تعهده بمساندة مانويل في حربه ضد سلاجقة الروم^(٧). وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية والصليبية الشرط الثاني^(٨)، وقد فرح المسلمون بهذا الاتفاق وبرحيل الامبراطور بعد الصلح إلى بلاده، مشكوراً محموداً ولم يؤذ أحداً من المسلمين^(٩). وقد ترتب على هذا الصلح نتائج إيجابية منها:

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٠٩.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٤٠، ٥٤١، تاريخ الزنكيين ص ٣٠٩.

(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ١٩٦. (٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٣٠٩.

(٥) المصدر نفسه ص ١٩٧. (٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وببلاد الشام ص ٣١٠.

(٧) (٨) المصدر نفسه ص ٣١٠.

(٩) ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠، تاريخ الزنكيين ص ٣١٠.

- أنها أنهت التحالف البيزنطي الصليبي وكان على الصليبيين أن يعتمدوا على أنفسهم أو مساعدات أوروبا في صراعهم مع الزنكيين.
- أنها حفظت وحدة الشام والتي تعد الأساس المهم لأي وحدة بينها وبين مصر.
- أنها أعادت التوازن بين الصليبيين والزنكيين بخروج البيزنطيين من الساحة ومن ثم عاد التزاع بينهما على مصر متوازناً مرة أخرى^(١).

لقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبي وهذا لم يأت بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخاذ نور الدين خطوة يصعب تقديرها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعدها البيزنطيين للروم السلاغقة ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليس ضد البيزنطيين، فإنه وازن بين الإطاحة بهم وuate على يد الحملة الصليبية البيزنطية وبين الوقف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الامبراطور البيزنطي ضد السلاغقة، فقبل الامبراطور وانسحب من الحلف الصليبي فأوقف الحملة وزال الخطر، وكان من أعظم النتائج التي ترتب على هذه الخطوة أن تم استبعاد السلاغقة الروم من الصراع الدائر في المشرق، ذلك أن الامبراطور البيزنطي سرعان ما قام بحملة ضد السلاغقة وتعرض قلوج أرسلان الثاني لضغط ثلاثي من ياغي أرسلان الدشمند والزنكيين والدولة البيزنطية، ولما لم يكن باستطاعته أن يحارب على جميع الجبهات جنح إلى السلم وبدأ بالجانب الإسلامي، وتم الصلح أولاً بينه وبين نور الدين محمود^(٢).

وقد أحسن نور الدين في الأداء السياسي مع مانويل، وقد تمثل دهاء نور الدين محمود السياسي في عدم إثارته للصراع مع الامبراطورية البيزنطية واتجاهه إلى عقد اتفاق سلمي معها وذلك من أجل تجنب تحالف صليبي - بيزنطي ضد دولته على نحو يؤدي إلى خسائر فادحة تلحق بهما، ولا شك أنه استغل خبرة دولته الدبلوماسية من أجل إجراء تلك المفاوضات، واستطاع تحجيم خطورها من خلال الاتصالات الدبلوماسية، وقد ساند النجاح السياسي الكبير قوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي - الصليبي، ومعه الأرمن في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م^(٣).

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي إسلامي على أصول أهل السنة يستوعب طاقات الأمة ويكون للقيادة القدرة على الاستفادة من إمكانياتها الكبيرة في المجال العسكري

(١) الدولة العباسية من التخلّي عن سياسات الفتح إلى السقوط ص ١٣٧.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣١٢. (٣) فقه الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٠٦.

والسياسي، والاقتصادي، والتربوي، والاجتماعي، والعلمي، والإعلامي.. إلخ.

رابعاً: أهم الدروس وال عبر والفوائد:

في هذا الفصل كثير من الدروس وال عبر والفوائد منها:

١- التفكير الاستراتيجي عند نور الدين: بعد أن تولى نور الدين الحكم كرس جهوده وإمكانيات دولته لحرب الصليبيين، وجعل القضاء على مالكهم وإماراتهم وتحرير البلاد من احتلالهم من أهدافه الاستراتيجية وسعى لتحقيق ذلك بكل ما يملك من قوة، وخاصضدهم معارك عديدة قتلوا وأسرموا خلاها أمراءهم وقادتهم وعشرات الآلاف من رجالهم واستعاد أكثر من خمسين موقعاً وبلدة ومدينة منهم، ونور الدين محمود لم يكن قائداً عسكرياً فقط، بل كان زعيماً سياسياً يعلم أن للسياسة دوراً أكبر في مواجهة العدو وأن استخدام القوة العسكرية وخوض العمليات العسكرية إنما يكون لتحقيق الأهداف السياسية، فإذا أمكن تحقيق هذه الأهداف دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية أو باستخدامها كتهديد فقط دون التورط في القتال فإن ذلك أفضل وأوفر للرجال والمال. ومع أن تطبيق هذا المبدأ على حالة المسلمين مع الفرنجية لا يستقيم، لأن النزاع بينهما في بلاد الشام هو نزاع وجود، فلا تتحقق أهداف المسلمين إلا بالقضاء على الفرنجية، وهذا لا يتم إلا باستخدام القوة العسكرية في نهاية الأمر، إلا أن النزاع طويل ولا بد أن تخليه فترات هدوء يتم فيها الاستعداد والتحضير للجولات القادمة، أو التحول من جهة إلى أخرى، كانت فترات الهدوء تحصل في بعض الأحيان بالاتفاق بين الطرفين على هدنة محددة المدة، لستين أو ثلاث سنوات، لا تجري فيها عمليات عسكرية بين الطرفين، وكان نور الدين لا يوافق على هدنة مع إحدى الإمارات الفرنجية إلا إذا كان ينوي التركيز على المواجهة مع إمارة أخرى، أو التفرغ لمعالجة بعض القضايا الداخلية، ففي عام ١١٤٨هـ / ٥٤٣م اضطر إلى منح جوسلين أمير تل باشير هدنة لمدة عامين، لأنه جأ إلى معسكره رافعاً الرایات البيضاء مستجيراً وطالباً حماية نور الدين واعتبر نفسه تابعاً له^(١)، كان الموقف محاجأً لنور الدين فهو لا يرغب منح جوسلين حمايته واعتباره أحد أتباعه ولا يستطيع ردّه خائباً عملاً بآداب العقيدة السمحنة وتقالييد الفروسية التي كان يتمثل بها ويصرص عليها، فكانت المدنة لمدة ستين حلاً وسطأً بين الحالتين. وفي عام ١١٤٩هـ / ٥٤٤م حاصر نور الدين مدينة أنطاكية وطال الحصار دون أن يتمكن من فتحها فعرض عليه الفرنجية أموالاً وهدايا وطلبو منه مهلة يقررون خلالها أمرهم

(١) نور الدين، د. حسين مؤنس ص ٢٣٠.

فأهلهم وسار إلى حصن أقاميه القريب من أنطاكية وكان تحت الحصار أيضاً فافتتحه وعاد إلى أنطاكية يطلب من أهلها الاستسلام ويعرض عليهم الأمان لأنفسهم إذا استسلموا ولكنهم تحصنوا بالمدينة ورفضوا العرض، وكان نور الدين قد علم بقدوم جيش الفرنجة من الجنوب لنجددة المدينة، كما وصلته أخبار عن معارك بين جوسلين أمير تل باشر وقلج أرسلان سلطان سلاجقة آسيا الصغرى، فاضطر إلى الاتفاق مع فرنجية أنطاكية على أن تكون الواقع القريبة من المدينة فقط تابعة لهم وأن تكون باقي المناطق باتجاه الشرق تابعة لحلب، ورفع الحصار عن المدينة متوجهاً نحو الشرق ليراقب الأحداث الجارية على الحدود الشرقية لملكته^(١). وفي عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م بعد استيلائه على دمشق التزم نور الدين بالهدنة التي كانت قائمة بين مجير الدين آبق حاكم دمشق وملك بيت المقدس وحددها عام ٥٥١هـ/١١٥٦م لمدة عامين آخرين ليتفرغ لعلاقاته مع جيرانه في الشمال سلاجقة آسيا الصغرى والأرaque في الجزيرة الفراتية^(٢). ولكن ملك بيت المقدس نقض الهدنة في العام التالي واعتدى على بعض الواقع والبلدان التابعة لدمشق ونهبها، فانتقم منه نور الدين وانتصر عليه في عدة مواقع^(٣). وفي عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م وقع نور الدين هدنة طويلة الأجل مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كوميني الذي وصل على رأس جيش كبير إلى أنطاكية وحاول أمراء الفرنجة معه وتوريته لغزو حلب، فراسله نور الدين واتفق معه على هدنة طويلة الأجل وأطلق سراح بعض الأسرى النصارى، الذين أسرهم نور الدين وأرسل الامبراطور لنور الدين هدايا كثيرة وثمينة، الأمر الذي أغاظ أمراء الفرنجة، وأفشل مساعيهم وجهودهم للتحالف مع الإمبراطور ضد نور الدين^(٤)، وفي عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م كان تركيز نور الدين على الجبهة الجنوبية مع مملكة بيت المقدس، فقد كان يعتقد أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية لها، بعد ضم مصر واستقرار الأوضاع فيها فوق هدنة مع إمارتي طرابلس وأنطاكية ليتفرغ لأمر مملكة القدس.. ولكن توفي قبل أن يتحقق ذلك^(٥).

كان الدور السياسي لنور الدين محمود أهم الأدوار في حياته فقد حقّق من خلاله أعظم إنجازاته بتوحيد المشرق الإسلامي، بلاد الشام ومصر وشمال العراق وشبه جزيرة العرب في دولة واحدة بزعامته، فكان هذا الإنجاز المرحلة الأساسية في مقاومة غزو الفرنجة والقضاء

(١) عيون الروضتين نقاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٧.

(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٧.

(٣) (٤) المصدر نفسه ص ١٦٧.

(٥) الباهر ص ١٥٤، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٨.

عليهم فيما بعد، وقد بذل نور الدين جهوداً مضنية في سبيل تحقيق هذا الإنجاز. ظهرت من خلاها حكمته ومهاراته السياسية، لقد كان واضح الرؤية منذ بداية حكمه حتى نهايته، فقرر أهدافه الاستراتيجية الرئيسية وحدد أولوياتها، ووضع الخطط المحكمة لتنفيذها، فكان كما قيل: عقرياً في التخطيط والتنفيذ^(١)، قضى أولاً على إمارة الراها التي كانت تشكل تهديداً خطيراً للدولته من جهة الشرق، فلا يستطيع أن يتوجه غرباً أو جنوباً دون أن يحسب حسابها، ثم ركز على إمارتي أنطاكية وطرابلس فجردهما من جميع الواقع شرق نهر العاصي، وحصرهما في شريط ضيق على البحر، وأصبحا لا يشكلا خطراً كبيراً على دولته وتفرغ بعد ذلك لضم دمشق، فاستولى عليها دون إراقة دماء في خطوة رائعة كانت مزيجاً من الدهاء والتهديد والترغيب، ومن بعد ذلك تطلع إلى مصر وأخذ يتهيأ لضمها وعندما سنت الفرصة لذلك أظهر من العزم والتصميم والصبر والمرونة ما حقق له الفوز على الفرنجية وحليفهم الوزير المصري شاور، وعندما لاحت الفرصة لضم شمال العراق عام ١١٧١هـ /١٩٥٦م لم يتردد في اغتنامها فاستولى على الموصل دون إراقة دماء أيضاً بفضل ما يكتنه أهلها له من حب واحترام^(٢)، كان نور الدين حاكماً عظيماً، واكتسب احترام رعاياه وأعدائه على حد سواء^(٣)، وكان دوره السياسي سلسلة من النجاحات والإنجازات العظيمة المتواتلة التي وضعته عن جدار واستحقاق في مكان الصدارة بين الزعماء السياسيين في زمانه وجعلت منه مثالاً رائعاً للقيادة السياسية الحكيمية الناجحة على مدى الأزمان من بعده^(٤).

٢- أهمية صلاح أولي الأمر: ورد ذكر أولي الأمر في القرآن الكريم أكثر من مرة، وفرض طاعتهم على المؤمنين وقرنها بطاعته وطاعة رسوله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ أَطْيَعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِنَّا أَمْرٌ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِنَّا أَمْرٌ مِّنْهُمْ لَعَلَمَهُ اللَّهُمَّ الَّذِينَ يَسْتَطِعُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وأولو الأمر صنفان: الأئمّة والعلماء، وقدّم الماوردي العلماء على الحكم بقوله: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك^(٥). ويعتبر العلماء أهل الفكر بينما يعتبر الحكماء أهل السياسة، ولابد أن يعمل أهل الفكر وأهل السياسة معاً حتى تتحقق مواصفات القيادة الصالحة للأمة^(٦)، يقول الإمام الغزالى في هذا المعنى: الملك والدين توأمان، الدين أصل

(١) الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، هادية الدجاني ص ٢٨٣.

(٢) دور نور الدين محمود في غزو الأمة ص ١٦٨.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان (٤/٦١٣).

(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٦٩. (٥) السياسة الشرعية ص ١٥٩.

(٦) إحياء علوم الدين (١/٧)، دور نور الدين ص ٢٣٢.

والسلطان حارس، وما لا أصل له، فمهدومن وما لا حارس له فضائع^(١). ونتذكر هنا قول السلطان نور الدين محمود: «إنما نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها»^(٢). قوله: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طرق والأذى الحاصل منهما قريب، أفلأ نحفظ الدين ونمنع عنه ما ينافقه^(٣). وقد رحم الله الأمة بأن هيا لها قيادة صالحة تمثلت في السلطان نور الدين محمود الذي جمع من حوله العلماء والفقهاء وأشرفهم في السلطة وأعاد لهم اعتبارهم الذي يستحقونه، وسار على طريق الخلفاء الراشدين، فنهضت الأمة من جديد وتعافت من جراحها واستعادت قوتها وأرضها ومقدساتها وكرامتها^(٤)، وصدق الشاعر عندما قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبني إلا على عمد
ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمئ أوتاد وأعمدة
يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا^(٥)

وحتى تخرج الأمة من أزمتها الراهنة لابد من صلاح أولي الأمر بصفتهم: الحكماء، ولابد من تعاونهم ليكونوا فريقاً واحداً في قيادة واحدة تسير على نهج السلف الصالح، وللأمّة في تاريخها خير عظة وعبرة، ولها العبرة كذلك من الدول المتقدمة في الوقت الحاضر حيث تشكل مراكز البحوث والدراسات الكثيرة المختلفة للأغراض مرجعاً للحكام في تلك الدول لتنفيذ سياساتهم وتحقيق مصالح بلادهم، وفي دولة العدو (إسرائيل) يضع أهل الفكر من العلماء الخطوط العريضة التي تسير عليها حكومتهم في جميع المجالات^(٦).

٣- الاستفادة من المسيحيين: قال الذهبي في أحداث سنة ٥٦٧هـ: وفيها هزم مليح بن لاون الأرمي السيني عسكراً صاحب الروم وكان مصافياً لنور الدين، يبالغ في خدمته ويحارب معه الإفرنج، ولما عותب نور الدين في إعطائه سينس، قال: أستعين به على قتال أهل ملته، وأربِحُ طائفته من جندي، وهو سُدٌّ بيني وبين صاحب قسطنطينية^(٧)، وفي رواية لابن الأثير توضح بعد نظر نور الدين وحسن سياساته في هذا المجال يقول: ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن لاون ملك الأرمي من صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضرماً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استعمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلالعه منيعة، وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٣٢ . (٢) إحياء علوم الدين (١/١٧).

(٣) الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٢٣٢ .

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٣٢ .

(٥) الشعب اللامعة ص ٢٣٧ .

(٦) سير أعلام النبلاء (٢١/٢٧).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢١/٢٧).

أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب أنْجِز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك المتولى للأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رفعه^(١)، وبذلك استطاع نور الدين أن يستفيد من الخلاف بين أرمينية وبيزنطية وحقق كسباً عسكرياً، وكفل للمسلمين حقن دمائهم وجنب المسلمين معارك رآها خاسرة بعد دراستها، فهو ربيب «الموصل» ذات الجغرافية التي تدخل الجبال تضاريسها الشمالية، وحرب الجبال كما هو معروف غاية في الصعوبة، ومن هنا ضن بدماء المسلمين في غير ضرورة^(٢).

٤- شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج: أعطى نور الدين محمود الأولوية في أهدافه الاستراتيجية من حيث التنفيذ لهدف تحقيق الوحدة بين الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجية، مصر وبلاط الشام، لأنه أدرك من خلال تحليله للموقف الدولي والإقليمي أنه لن يتمكن من القضاء على دول الفرنجية في بلاط الشام وخاصة مملكة بيت المقدس قبل تحقيق الوحدة مع مصر^(٣)، وإزالة الجسم الغريب في الأمة المتمثل في الدولة الفاطمية الشيعية، الرافضية الباطنية، ثم الاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب المصري ومن إمكانياته الكبيرة في المواجهة الأخيرة التي لابد أن تنتصر فيها دول أوروبا إلى جانب الفرنجية في الشام، وقد حصل هذا بالفعل فيما بعد في زمن صلاح الدين، وثبتت صحة الاستراتيجية التي وضعها نور الدين وبدأ بتنفيذها ولكنه توفي قبل أن يكملها^(٤): ولذلك اخند نور الدين قراراً سياسياً في منشئه، عسكرياً في طبيعة تنفيذه وهو يقصد من خلاله إضعاف قوة الإمارات الفرنجية وكسر شوكتها، وتحطيم معنييات قادتها وأفرادها واسترداد ما يمكن استرداده من الواقع والخصوص والقلاع منها، وقتل أكبر عدد ممكن من رجالها، وهذا هو مفهوم حرب الاستنزاف والغاية منها، حتى إذا ما تحققت الوحدة بين بلاط الشام ومصر وتوفّرت الإمكانيات العسكرية الكافية تم القضاء على الإمارات الفرنجية وإزالتها من الوجود، ومواجهة كل ما يمكن أن يتبع ذلك من تدخل أوروبي، يظهر صحة هذا التحليل من موقف نور الدين بعد انتصاره الكبير في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م حيث تمت إبادة وأسر أغلب الجيش الفرنجي، وكان من بين الأسرى قادة الفرنجية الثلاثة، أمير أنطاكية، وأمير طرابلس، وقائد الحامية البيزنطية في المنطقة، وأصبحت أنطاكيه بعد المعركة هدفاً

(١) الباهر ص ١٧٩، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٩.

(٢) الحروب الصليبية مواقف وتحديات ص ٧٣.

(٣) (٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٦.

سهلاً، فلما طلب قادة نور الدين محمود منه مهاجمتها واحتلالها قال: أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وملكته إليها ومحاورة بوهيموند أمير أنطاكية أحب إلى من محاورة ملك الروم^(١)، وقبل ذلك عام ١١٤٩هـ/٥٤٤م قضى نور الدين محمود على جيش أنطاكية وقتل أميرها في معركة أبيب^(٢)، ثم تقدم إلى أنطاكية وحاصرها فامتنعت ولم يضيق عليها الحصار بل تركها بعد أن جردها من أغلب حصونها الشرقية، وفي عام ١١٥٩هـ/٥٥٤م وصل إمبراطور القسطنطينية بجيشه الكبير إلى أنطاكية في عرض واضح للقوة، وحاول أمراء الفرنجة استغلال وجوده مع جيشه الكبير فحرضوه على مهاجمة حلب واحتلالها وكان نور الدين محمود يتبع الأحداث فأرسل سفارة إلى الإمبراطور واتفق معه على هدنة طويلة بين الطرفين، كما تم تبادل الهدايا، وأطلق نور الدين بعض الأسرى النصارى. وتدل هذه الحوادث الثلاثة على أن نور الدين محمود كان يتتجنب إثارة إمبراطور القسطنطينية حتى لا يضطر إلى مواجهة عدوين في وقت واحد، وأنه كان يسعى لتحييد الإمبراطورية البيزنطية ودول أوروبا جميعها حتى تتغير الأوضاع، وتوافر له الإمكانيات الكافية لمواجهة هذه الأطراف، إذا تدخلت عندما يحول حزب الاستنزاف إلى حرب تحرير شاملة يقضي من خلالها على إمارات الفرنجة في بلاد الشام. ويؤكد وجود هذه الاستراتيجية عند نور الدين محمود قوله عندما أرسل له صلاح الدين الأيوبي هدايا من الجوائز والتحف التي استولى عليها من قصور الفاطميين بعد إسقاط دولتهم عام ١١٧٢هـ/٥٦٧م فقد قال: والله ما كان لنا حاجة إلى هذا وما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه في العسكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل^(٣). وقد حقق نور الدين فوائد كثيرة وإنجازات كبيرة من خلال حرب الاستنزاف التي شنها على الفرنجة طول فترة حكمه (٥٤١هـ-٥٦٩هـ) فقد استرجع منهم أكثر من خمسين مدينة وموقعًا وحصنًا^(٤)، وجرد إمارته أنطاكية وطرابلس من جميع الواقع والخصوص التي كانت لها شرق نهر العاصي، وجعلهما شريطاً ضيقاً على امتداد الساحل، واسترد بعض الواقع والخصوص من مملكة بيت المقدس أهمها حصن بانياس جنوب غرب دمشق^(٥)، وألحق بالفرنج هزائم منكرة قتل فيها عشرات الآلاف من رجالهم وقادتهم وأسر أكثر من ذلك، فانخفضت معنوياتهم، وصار همهم المحافظة على ما

(١) عيون الروضتين نقلًا عن دور نور الدين ص ٣٠٤ . (٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٦ .

(٣) سنا البرق الشامي ص ٦٥ ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٧ .

(٤) الكواكب الدرية ص ٢١٣ ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٤٧ .

(٥) البداية والنهاية نقلًا عن دور نور الدين محمود ص ١٤٧ .

بأيديهم، بعد أن كانوا يطمحون للتوسيع على حساب بلاد المسلمين^(١)، وكان من أهم الإنجازات القضاة على إمارة الراها نهائياً، وفي المقابل ارتفعت معنويات المسلمين، وحصل نور الدين على ثقتهم ومحبتهم مما سهل له تحقيق وحدة بلاد الشام وشمال العراق ومصر بسهولة ويسر بدون قتال باستثناء ما حصل في مصر^(٢).

٥- اعتماد اللين والرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة:

كان نور الدين محمود يحكم عقيدته وطبيعته التي تميل إلى الرحمة والرأفة يكره إراقة الدماء على غير طائل، ويسعى لتحقيق أهدافه بأقل الجهد والخسائر، ولا يتزدد في أساليب المكر والخداع مع العدو، وصفه المؤرخون بأنه كان في السياسة والدهاء على جانب عظيم^(٣)، وأنه كان يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب^(٤)، اتبع هذا الأسلوب مع جوسلين (أمير الراها سابقاً) حتىتمكن من أسره - كما مر بنا -، وفي عام ١١٦٦هـ / ١٥٦١م، شن نور الدين غارة مفاجئة بسرية من الفرسان على حصن المسيطرة شرق طرابلس وتمكن من احتلاله بالرغم من منعاته وقوته الحامية المدافعة عنه، ولم يجسر أمير أنطاكية أو أي من أمراء الفرنجية الآخرين على مهاجمته لتوقعهم أنه احتل الحصن بكامل جيشه وليس بسرية صغيرة فقط^(٥)، وفي عام ٥٥٩هـ عندما حاصر الفرنجية وجيشه شاور الوزير المصري أسد الدين وجيشه في بلبيس اشتغل القلق بنور الدين وخشي على قواته في مصر، فأرسل مع بعض جنوده أعلام الفرنجية وسلامتهم وملابسهم ما غنمها في معركة حارم ومعركة طبريا^(٦) إلى أسد الدين المحاصر في بلبيس حتى ينشرها في أسواق بلبيس وعلى أسوارها أمام أنظار الفرنجية ليذكرون بما حل بإمارتهم في بلاد الشام، فلما فعل أسد الدين ذلك أضطر الفرنجية لرفع الحصار والعودة إلى الشام^(٧)، وكان لسلوك نور الدين مع مجير الدين آبق (حاكم دمشق) على الوجه الذي ذكرناه، أكبر الأثر في تسهيل الاستيلاء على دمشق بدون قتال^(٨).

٦- الاستراتيجية العسكرية لنور الدين: يعرف المفكرون العسكريون في العصر الحديث الاستراتيجية العسكرية بأنها: علم وفن بناء وتطوير واستخدام القوات المسلحة لتحقيق الأهداف الوطنية^(٩)، فإذا قمنا بتطبيق هذا التعريف على ما قام به نور الدين في المجال

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٤٧ . (٢) المصدر نفسه ص ١٤٨ .

(٣) الباهر ص ١٦٩ ، دور نور الدين محمود ص ١٤٨ . (٤) (٥) (٦) دور نور الدين محمود ص ١٤٨ .

(٧) المصدر نفسه ص ١٤٨ . (٨) المصدر نفسه ص ١٤٩ .

(٩) المصدر نفسه ص ١٩٢ .

ال العسكري خلال فترة حكمه، فإننا نجد أنه كان من أعظم الاستراتيجيين في زمانه، فقد بدأ حكمه لإمارة صغيرة تتالف من مدينة حلب وضواحيها يواجه تهديداً خطيراً من قبل الغزاة الفرنجية، ومنافسة شديدة من قبل الإمارات الإسلامية الأخرى في بلاد الشام، وبعد ثمان سنوات (سنة ١٥٤٩ هـ / ١٨٥٤ م) وبعد استيلائه على دمشق أصبح الحاكم الأقوى في المشرق الإسلامي ومن أقوى الحكام في العالم الإسلامي، والعالم كله، فلابد من قوة عسكرية توافرت لنور الدين، ولابد أنه أحسن إدامتها واستخدامها حتى تمكن من تحقيق إنجازه المذكور^(١). وتظهر ملامح استراتيجية العسكرية في النقاط التالية:

- التركيز على النوعية والفاعلية: اعتمد نور الدين على جيش نظامي كان صغير الحجم في بداية حكمه، ولكنه كان منظماً وفعلاً، إن نور الدين بطبيعته يهتم بال نوعية أكثر من اهتمامه بالكمية، رائد في ذلك الحكمة المؤثرة: القوة القليلة أفضل من القوة الكثيرة المبعثرة^(٢)، فكان يحسن اختيار قادته وجندوه ويحسن إعدادهم وتدريبهم وتسلیحهم، فيعوض النقص في عدهم بزيادة فعاليتهم، وزاد نور الدين في حواجزهم بزيادة مرتباتهم وإقطاعاتهم وتبنيت الإقطاع في أبنائهم في حالة استشهادهم، فكانوا يقولون: إنما هي أملاكنا نقاتل دونها^(٣). وإذا كان أبناء الشهيد صغار عين لهم رجالاً أميناً يشرف على إقطاعهم حتى يكروا، مما زاد في إخلاص الجنود وحماسهم وولائهم. فكان نور الدين يواجه أعداء بجيشه الصغير غير مبال بكثرتهم وتفوقهم العددي، وينتصر عليهم، فقد انتصر في معركة آلب سنة ١٥٤٠ هـ / ١٨٥٠ م على جيش إمارة أنطاكية وقتل أميرها بالرغم من تفوق العدو العددي، وكذلك في معركة حارم سنة ١٦٥٥ هـ / ١٩٥٩ م حق انتصاراً ساحقاً على تجمع كبير من جيوش عديدة، وكان هذا شأنه في أغلب معاركه مع الفرنجية. وفي سنة ١٦٦٨ هـ / ١٩٦٢ م انتصر جيشه في مصر بآلفين من الفرسان فقط بقيادة أسد الدين شيركوه على جيش الفرنجية بقيادة ملك القدس عموري، وجيشه مصر بقيادة الوزير شاور في معركة البابين، وعندما أظهر بعض الجنود ترددًا أو تخوفاً قبل بدء المعركة بسبب كثرة عدد العدو وقلة عدهم قام أحد رجال نور الدين المعروفين بشجاعتهم وصلاح فيهم: من يخاف القتل والجرح فلا يخدم الملوك والله لأن عدم إلى الملك العادل من غير غلبة ولا عنز ليخذن إقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه منذ خدمتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذنون أموال المسلمين وتغرون من عدوهم وتسلمون الديار المصرية يتصرف بها الكفار^(٤).

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٢ . (٢) المصدر نفسه ص ١٩٣ .

(٣) الباهر ص ١٦٨ ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٣ .

(٤) الباهر، نقلًا عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٣ .

أ- إعلان الجهاد (التبعة العامة للأمة): دعا نور الدين منذ بداية حكمه للجهاد في سبيل الله، وأعلن أن هدفه تحرير بلاد المسلمين ومقدساتهم من الاحتلال الفرنسي، وراسل باقي الحكام المسلمين في بلاد الشام وشمال العراق ليسهموا معه في تحقيق هذا المهد وتعززت دعوته هذه بما حققه من انتصارات على الفرنجية وما عرف عنه من عدل وصدق وقوى وزهد، فاكتسب مصداقية كبيرة وتحقق له شعبية واسعة بين عامة المسلمين في بلاد الشام وال伊拉克 والجزيره ب مختلف طبقاتهم واتجاهاتهم، وصار في أعينهم رائد الجهاد ضد الفرنجية وأمل المسلمين في استعادة أرضهم ومقدساتهم المحتلة، واستقطبت دعوة الجهاد أعداداً كبيرة من المتطوعين، كان نور الدين يستفيد منهم في عملياته العسكرية، وأوجدت رأياً عاماً قوياً وضاغطاً على الحكام والأمراء ليستجيبوا للدعوة نور الدين، فمن يتخلّف منهم عن تلبية الدعوة يتعرض للنقد حتى من رعيته ويتهم بدینه ووطنيته، ويخشى خروج الحكم من يده، ونحو نور الدين في استثمار هذا الشعور إلى بعد الحدود، فكان يخاطط للمواجهة مع الفرنجية في الوقت والمكان المناسبين ويطلب العون من باقي الأمراء والحكام المسلمين فيبادرون لإرسال القوات إليه، وغالباً ما كانوا يحضرون بأنفسهم ويضعون أنفسهم تحت قيادته فيتحقق له التفوق على العدو وتحقيق الانتصارات الباهرة، ويحصلون بذلك على حقهم من الغنائم ويعودون إلى إماراتهم. أدى تكرار هذا العمل إلى توافر القوة الكافية لنور الدين في الوقت الذي يريده دون تحمل عبء نفقات إدامة هذه القوات خلال فترات الراحة والمدورة، كما أدت هذه الظاهرة إلى تحسين العلاقة بين الحكام والأمراء العرب وال المسلمين وتنميتها على أساس الثقة والتعاون والتنسيق ضد العدو المشترك، وزوال الخلاف والتزاع والتنافس الذي كان قائماً بينهم فيما سبق، وأصبح النزاع في المنطقة واضحاً محدداً بين جهتين فقط هما الجبهة الإسلامية وجبهة الفرنجية، وصار نور الدين زعيم الجبهة الإسلامية بدون منافس^(١).

ب- التدرج في مواجهة العدو: كان نور الدين يستخدم قواته حسب إمكانياتها ولا يكلّفها فوق طاقاتها، ويتجنب التورط في معركة بدون تحضير واستعداد يجعله مطهّناً إلى تحقيق النصر فيها ويقدر قوة عدوه تقديرًا صحيحاً ودقيقاً كما يقدر قوّته بالمقابل بالمعايير نفسه وهو في هذا المجال يطبق الحكمة المشهورة «اعرف عدوك واعرف نفسك تستطيع خوض مئة معركة دون هزيمة»^(٢)، وهذا لا يعني التقدير العددي فقط، بل كان يأخذ بالاعتبار العوامل الأخرى؛ المعنويات، والكفاءة والقيادة والأسلحة. واستفاد نور الدين من

(١) (٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٤.

تجربة الحملة الفرنجية الثانية درساً مهماً، ذلك أن قوة الفرنجية في المشرق الإسلامي لا تقتصر على قوة إماراتهم فيه، وإنما تشمل دعم الدول الأوروبية لهم كلما دعت الحاجة، فقرر ألا يخوض معركة فاصلة معهم إلا بعد أن تتوافر لديه القوة الكافية للقضاء على إماراتهم في بلاد الشام ومواجهة احتمالات التدخل الأوروبي سواء حصل هذا التدخل قبل الفراغ من تدمير الإمارات أم بعده، وقد شكلَّ هذا القرار السبب الرئيسي في توجّه نور الدين وسعيه الحيث لضم مصر إلى دولته، للاستفادة من إمكانياتها البشرية والاقتصادية والحصول على القوة المطلوبة لمواجهة الموقف المذكور^(١).

جــ إنهاك العدو واستنزاف قوته: إذا كانت القوة الازمة للقضاء على ممالك وإمارات الفرنجية غير متوافرة لنور الدين قبل استيلائه على دمشق ومن بعد ذلك على مصر، فإن القوة المتوافرة لديه كافية لإيقاع ضربات موجعة بالعدو يتم من خلالها قتل قادته وأفراده وتدمير اقتصاده وتحطيم معنوياته، واسترجاع ما يمكن من الأرض والقلاع والمدن التي اغتصبها من المسلمين، فقرر شن حرب استنزاف ضد الفرنجية يحقق من خلالها ما ذكر أعلاه بالإضافة إلى رفع معنويات المسلمين وإثارة روح الجهاد في صفوفهم، وما يتحقق من غنائم ومكاسب مادية تحصل من فداء أسرى العدو، تساعد في رفد موارد الدولة وتغطية نفقات الحرب^(٢).

ـ ٧ـ تطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية:

اكتسب نور الدين خبرة واسعة ومهارة فائقة في إدارة الحرب وتطبيق مبادئها قبل توليه السلطة، وكان ذلك من خلال مشاركته في جميع المعارك التي خاضها مع والده عماد الدين زنكي على مدى فترة حكمه التي دامت عشرين عاماً (٥٤١ـ ١١٢٧هـ) - (١١٤٧ـ ١١٤١م)^(٣) ومن الطبيعي أن تزداد خبرته ومهاراته في هذا المجال بعد توليه الحكم من خلال المعارك الكثيرة التي خاضها ضد الفرنجية وغيرهم وحقق فيها انتصارات باهرة، ولعل مبادئ الحرب الأساسية لم تكن تحمل نفس الأسماء المعروفة بها في الوقت الحاضر إلا أن مضمونها لم يتغير منذ العصور القديمة وإنما تغيرت الوسائل والأسلحة والمعدات وبعض المصطلحات، وما زالت المبادئ نفسها تدرس في المعاهد العسكرية العليا في هذه الأيام ومن مبادئ الحرب التي طبقها نور الدين:

ـ ٨ـ تحديد الهدف: كان نور الدين واضح الرؤية منذ حكمه، كان هدفه الاستراتيجي

(١) الكواكب الدرية ص ٢٠١ . (٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٥.

(٣) الباهر ص ٧٤ ، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٥ .

الرئيسي في المجال العسكري تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنسي، وبما أن الهدف يتطلب إمكانيات كبيرة جداً لم تكن متوفرة لنور الدين في بداية حكمه، فقد جعل تحقيق هذا الهدف على مراحل كل مرحلة هدفها وخطتها المستقلة والتي تتكامل كلها مع بعضها في سبيل بناء القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي، وقد فصلنا ذلك فيما مضى.

بـ العمل التعرضي: يعني هذا المبدأ مهاجمة العدو أولاً والمحافظة على زمام المبادرة وذلك بضرب العدو باستمرار وعدم إعطائه فرصة للاستراحة أو إعادة التنظيم، ويظهر من سيرة نور الدين أنه كان مبادراً - غالباً - وأنه احتفظ بزمام المبادرة في أغلب مواجهاته مع الفرنجية^(١).

جـ الحشد: يعني هذا المبدأ تجميع قوة ممكنة في المكان والزمان المناسبين لمواجهة العدو والتفوق عليه، وقد طبق نور الدين مبدأ الحشد عدة مرات خلال مواجهاته مع الفرنجية^(٢).

دـ المناورة وقابلية الحركة: يعني هذا المبدأ قدرة القوات على الانتقال بسرعة من مناطق التجمع والحشد إلى ميدان المعركة في الزمان والمكان المناسبين لها دون أن يتحقق ذلك للعدو، ثم للحركة ضمن ميدان المعركة بالشكل الذي يوفر للقوات فرصة أفضل لضرب العدو والقضاء عليه، وهذا ما كان يفعله نور الدين باستمرار في إطار تطبيقه لمبدأ العمل التعرضي، فكان يختار مكان المعركة ويسبق عدوه إليه، وتميز جيشه بسرعة الحركة وسرعة التجاوب لأمر الحركة لأنه كان في حالة استنفار دائمة كما عبر عن ذلك بنفسه في جوابه لصديقه الزاهد الذي لامه على ممارسته للعبة كرة البولو وإتعابه الخيل في اللهو واللعب، فكان من ضمن جوابه قوله:.. إنما نحن في ثغر العدو ومنا قريب فربما وقع صوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر، فإذا طلبنا العدو أدركناه^(٣). وكان في تنقل بين أطراف مملكته لتفقد أحواها فهو في حركة مستمرة، وتعتبر حملاته على مصر من أروع الأمثلة على المناورة الاستراتيجية السعيدة كما أنها تميزت بالجرأة والسرعة وحسن التخطيط ودقة التنفيذ، ومن بين الحملات الثلاث تميزت الثانية بأنها كانت سباقاً بين جيش نور الدين وجيش مملكة القدس على مصر، فكان السبق لجيش نور الدين الذي عبر النيل وجر العدو إلى المكان الذي اختاره للمعركة فحقق انتصاراً باهراً، بالرغم من أن المسافة التي قطعها أبعد من تلك التي قطعها الجيش الفرنجي. وأما المناورة في ميدان المعركة فقد كان نور الدين يوليه اهتماماً كبيراً، فكان يخطط للمعركة ويديرها ويشرف على القتال فإذا التهم

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩٦ . (٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ .

(٣) الكواكب الدرية، ص ٥٥ الباهر ص ١٦٤ .

الجيشان واشتد القتال وحى الوطيس اندفع لمشاركة رجاله مما يثير حميتهم وحماسهم فيتحقق النصر، وكان ينظم جيشه في المعركة ثلاثة أقسام كما هو معروف عن السلاجقة في هذا الأمر، ميمنة ميسرة وقلب، وعند الاصطفاف للمعركة يرجع القلب للخلف في خطة مرسومة فيندفع العدو خلفه إلى مسافة محددة ثم يثبت القلب ويضغط الجناحان على جيش العدو الذي يصبح محاصراً من ثلاث جهات، وعندما يزداد الضغط على جيش العدو ان تضيق فسحة المناورة له فترتكب صفوفه ويسارع للهرب من الجبهة المفتوحة في الخلف بشكل غير منظم مما يجعله فريسة سهلة للقتل والأسر، نفذ نور الدين هذه المناورة في معركة آلب عام ١١٦٤هـ / ٥٥٩م، ومعركة حارم عام ١١٥٠هـ / ٥٤٤م بينما نفذها جيش نور الدين في معركة الباين بعمر، وكان بقيادة أسد الدين شيركوه، ولقد حقق نور الدين من خلال تطبيقه لمبدأ المناورة وقابلية الحركة وسرعة الحركة فائدة عظيمة بالإضافة إلى تفوقه على العدو وانتصاره عليه، تمثل ذلك بنقل المعركة إلى أرض العدو، فكان الحراب والدمار يحلّ دائماً في مناطق العدو وعلى أرضه بينما تبقى بلاد نور الدين في أمن وسلام^(١).

هـ - **وحدة القيادة:** يؤدي تطبيق هذا المبدأ إلى تجاوز الخلافات وتوحيد الجهود، واختصار الوقت والإجراءات، مما يساعد في تحقيق النصر، جمع نور الدين في شخصه بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، فكان الملك وقائد الجيش في الوقت نفسه، وقد جيشه إلى النصر في أغلب المعارك التي خاضها ضد الفرنجة، وتمكن من توحيد بلاد الشام وشمال العراق والجزيرة ومصر في دولة واحدة بزعامته، فصارت الجبهة الإسلامية صفاً واحداً متراصاً في وجه الغزوة الفرنجية، بقيادة سياسية واحدة وقيادة عسكرية واحدة فتهيأت الظروف لتحقيق النصر^(٢).

قال الشاعر:

ولا سرارة إذا جهـا لهم سـادوا	لا يصلح الناس فوضى لا سـرة لهم
ولا عمـاد إذا لم تـرس أوـتـاد	والبيـت لا يـبني إـلا عـلى عـمد
يـومـاً فـقد بلـغـوا الـأـمـرـ الـذـي كـادـوا	فـإـن تـجـمـعـ أوـتـادـ وأـعـمـدةـ

وـ **عنـصـرـ المـاظـجـأـةـ:** حقـقـ نـورـ الدـيـنـ المـفـاجـأـةـ فيـ أـغـلـبـ هـجـمـاتـهـ عـلـىـ الفـرنـجـةـ، فـكـانـ يـرـبـكـهـمـ وـيـفـقـدـ سـيـطـرـتـهـمـ عـلـىـ قـوـاتـهـمـ، وـيـحـتـلـ المـوـقـعـ حـصـنـاـ كـانـ أـمـ بلـدـةـ أـوـ يـقـضـيـ عـلـىـ الـقـوـةـ

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٠.

(٢) الشهـبـ الـلامـعـةـ صـ ٢٣٧ـ .

قبل أن تصل النجدة إليهم، حدث هذا في هجومه السريع على مدينة الرها عام ٥٤١هـ / ١٤٤٧م، وفي هجومه على حصن أقاميه عام ٥٤٤هـ / ١١٥٠م، وفي هجومه على حصن بانياس عام ٥٥٩هـ / ١١٦٧م^(١).

ز- الخديعة: كان نور الدين يكثر من أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنجة، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب^(٢).

ح- الاستخبارات: كان نور الدين عيون يثق بصدقهم وأمانتهم في كل مدينة أو حصن ضمن مملكته، وفي الدول والإمارات المجاورة: الفرنجية والإسلامية يزورونه بكل ما يستجد من أحداث، فيكون باستمرار مطلعاً على أحوال رعيته وأحوال الدول الأخرى، فيضع خططه على أساس هذه المعلومات، وكان دائم الحركة بين أقاليم مملكته ليتأكد بنفسه من الأوضاع العامة، وما ساعد في سرعة نقل المعلومات استخدامه وسيلة اتصالات سريعة جداً وهي الحمام الزاجل، فقد وضع نظاماً دقيقاً لاستخدام الحمام الزاجل يغطي أطراف مملكته الواسعة ومدنها الكثيرة، فبني الأبراج على الحدود، وعلى الطرق المؤدية إلى المدن باتجاه الداخل وركز على الحدود مع الإمارات الفرنجية، ووضع في هذه الأبراج الرجال المدرّبين على تربية الحمام الزاجل واستخدامه، فكانت الأخبار تأتيه في وقتها، وساعد هذا النظام في كشف تحركات العدو الفرنجي وفي سرعة الإجراءات للرد عليها، يقول ابن الأثير في هذا المجال: أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكرارها وتحذى في سائر بلاده وسبب ذلك أنه اتسعت بلاده، وطالت مملكته، فكانت من حد النوعية إلى باب همدان لا يتخللها إلا بلاد الفرنج، وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويُسرِّ إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحيثُنَّ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الخبراء لها ولرببيها فوجد بها راحة كثيرة، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانخفضت الثغور بذلك^(٣)، كان نور الدين يدرك أهمية المعلومات وأهمية التأكد من صحتها لأن نجاح خططه التي يضعها على أساس هذه المعلومات يعتمد على مدى دقتها وصحتها، ولذلك لم يعتمد فقط على

(١) (٢) دور نور الدين محمود ص ٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

العلماء (العيون) الذين كانوا يحصلون على مرتبات ومكافآت وافرة مقابل ما يقدمونه، كوظيفة رسمية، بل كان له أصدقاء كثر من التجار والزهاد المتجولين في البلاد وبين الناس، وكانوا يرسلونه باستمرار ويزورونه بالأخبار، والأهم من هذا أنه كان يحصل على المعلومات عن الإمارات الفرنجية بطريقة تعرف في العلم العسكري الحديث باسم الاستطلاع بالقوة، فكان يرسل سرايا من جيشه يتখبهم من الفرسان الأشداء إلى مناطق العدو ينفذون إغارات سريعة على مواقع العدو وحصونه ويتوغلون في بلاده وربما أقاموا معسكرات متنقلة سرية كلما اكتشفهم العدو وطاردهم انتقلوا إلى مكان آخر، ثم يعودون بعد فترة بالكثير من المعلومات وربما كان معهم بعض الأسرى من العدو يمكن الاستفادة من معلوماتهم أيضاً^(١)، ويمكن اعتبار حملته الأولى على مصر من باب الاستطلاع بالقوة للتعرف على أحوال مصر بالإضافة للمهمة الرئيسية التي كلفت الحملة بها^(٢).

طـ- التقرب غير المباشر: طبق نور الدين هذا المبدأ عندما قرر اتباع سياسة التدرج في مواجهة العدو، فبدأ بأضعف الإمارات الفرنجية، إمارة تل باشر، بقايا إماراة الراها، وبعد أن فرغ منها توجه بقوته نحو إماراة أنطاكيه فجردها من جميع الأراضي التي كانت تسيطر عليها شرق نهر العاصي، وتحول إلى إماراة طرابلس ففعل بها مثل ذلك، وعندما حان وقت توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقدس كانت خطته تقضي بالبدء من حصن الكرك الذي كان يعد نقطة ضعف بالنسبة لمملكة القدس، بالرغم من مناعته، كحصن، ولكنه يقع في أطراف المملكة ولا بد لإنقاذه من توجه الجيش الفرنجي إلى منطقة الكرك مما يسهل على نور الدين اختيار مكان المعركة وجر العدو إليها^(٣)، ويظهر بوضوح تطبيق نور الدين لمبدأ التقرب غير المباشر في تعامله مع الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، خلال حملاته الثلاث على مصر، فقد كان يستغل توجه جيش مملكة القدس إلى مصر وبهاجم إماراة أنطاكيه أو إماراة طرابلس أو أراضي مملكة بيت المقدس ليحقق تخفيف الضغط عن جيشه في مصر من جهة، ويتحقق انتصارات ومكاسب في موقف يعتبر العدو فيه ضعيفاً من جهة أخرى، ففي عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م وبينما كان جيش مملكة القدس والجيش المصري يحاصران جيش نور الدين في بلبيس، توجه نور الدين بالقوات التي تجمعت لديه من الموصل والجزيرة إلى مدينة حارم وحاصرها فتجمعت جيوش الفرنجية من أنطاكيه وطرابلس بالإضافة إلى الحامية البيزنطية في أنطاكيه لإنقاذها، وهذا ما كان يخطط له نور الدين فسحق هذه الجيوش وأسر

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٢.

جميع الأمراء المشاركون واحتل حارم ثم استثمر الفوز وتوجه إلى بانياس التي تتبع مملكة بيت المقدس وحاصرها واحتلها، فاضطر ملك القدس لرفع الحصار عن جيش نور الدين في بلبيس والإسراع بالعودة إلى مملكته، وكان هذا أيضاً ما خطط له نور الدين وقد حققه بهجوم مفاجئ وسريع على مكان ضعيف وبعيد عن بلبيس حيث يوجد جيش مملكة القدس، وكرر نور الدين هذه الاستراتيجية عام ١١٦٧هـ / ٥٦٢م، عندما حاصر الفرنجية والبيزنطيون مدينة دمياط في مصر، ونجح في المرتين الأخيرتين كما نجح في المرة الأولى في تحقيق انتصارات باهرة في الشمال وإنقاذ جيشه المحاصر في مصر^(١).

ي- الجاهزية القتالية: كان نور الدين القدوة الحسنة في تطبيق هذا المبدأ فقد كان كما قيل: أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك ^(٢)، وكان يتفقد جنوده باستمرار ويطمئن على أحوالهم ويتفقد سلاحهم ودوابهم ويقول في هذا المجال: نحن كل وقت بقصد النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الإسلام ^(٣). وعلق ابن الأثير على كلام نور الدين بقوله: لقد صدق ^{عليه} فيما قال وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه علينا ^(٤). وقد طبق نور الدين جميع مبادئ الحرب التي لم يرد ذكرها أعلاها كالإدارة والاقتصاد بالجهد، والبساطة والأمن والمعنيات، وقد ورد كثير من هذه المبادئ في ذكر سيرته وصفاته وأدواره ^(٥).

الحرب النفسية عند نور الدين: ركز نور الدين على الحرب النفسية وأحسن استخدامها، فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين، ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحددة هي: دين واحد هو الإسلام السنّي، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجية من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة^(٦). وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبث هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من العلماء والعباد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب تدور كلها حول

(١) دور نور الدین محمود فی نهضۃ الاممہ ص ٢٠٣ . (٢) الباهر ص ١٦٩ ، دور نور الدین محمود ص ٢٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤ . (٤) الاهر ص ١٦٩.

(٦) المقدمة

^(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٤ . (٦) المصدر نفسه ص ٢٠٤ .

مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات في مختلف المناسبات، وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتمز قولهً وفعلاً بالمبادئ، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة^(١)، وقد أسفرت الحرب النفسية المذكورة عن نتائج إيجابية كبيرة، فقد تحولت اتجاهات الرأي العام الإسلامي نحو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة واكتسب نور الدين ثقة المسلمين ومحبتهم وتعاطفهم، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على باقي الحكام والأمراء للاستجابة لدعوته للجهاد والانضواء تحت لوائه^(٢). أما الحرب النفسية الموجهة لفرنسا (العدو) فقد كان مضمونها أن المسلمين بقيادة نور الدين لن يتوقفوا عن الجهاد حتى يحرروا بلادهم ومقدساتهم المحتلة، وأن الإسلام يأمر بالعدل والمساوة والإحسان إلى الأسرى ويحرم الظلم والعدوان، وأن من يعتقد الإسلام يكتسب من الحقوق ما للMuslimين، فكان لهذه الأفكار وما عرف عن نور الدين من ورع وعدل والتزام بالعهود والمواثيق وما تحقق له من انتصارات، أثر عميق في نفوس قادة فرنسا وأفرادهم فصاروا يرعبونه ويحترمونه في الوقت نفسه، وكانتوا يعتقدون أن له سراً مع الله، فإذا طلب منه طلباً استجاب الله لطلبه^(٣).

٩- الإنجازات العسكرية:

كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح فرنسا عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام ١١٤١ هـ / ١٧٥٤ م وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغير الموقف العسكري فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوق العسكري الإسلامي على فرنسا واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين الذي حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمتلئ بشكل عام من ناحيتين:

الأولى: إلحاق هزائم منكرة بجيوب فرنسا في معارك كثيرة.

الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتلة ومن خلال الناحية الأولى تحققت الإنجازات التالية:

- تحرير الكثير من المدن والمواقع والخصون الإسلامية من الاحتلال الفرنسي.

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٥ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٥ .

- تغيير الموقف العسكري في المنطقة لصالح المسلمين والإثخان في الصليبيين وقتل عشرات الآلاف من رجالهم وأسر أكثر من ذلك وانهيار معنوياتهم.
- بث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة ورفع معنوياتهم وتوحيد جهودهم وتوجيهها نحو تحرير الأرض المقدسات.
- الإسراع في تحقيق الوحدة السياسية لبلاد الشام وشمال العراق ومصر وشبه جزيرة العرب.

- توفير الأمن والاستقرار، مما هيأ الظروف المناسبة لتحقيق المنجزات الإدارية التي قامت على أساسها نهضة الأمة^(١).

١٠- التشابه في الأسباب بين الغزو الفرنجي والصهيوني: قد تحدثت فيما مضى عن أسباب الحرب الصليبية من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية في كتابي عن دولة السلاجقة، وهذه الأسباب تتشابه مع أسباب الاحتلال الصهيوني، فمثلاً أفرزت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أسباب الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، أفرزت الأوضاع نفسها في المنطقة ذاتها أسباب الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي نفسه في بداية القرن العشرين، ومثلاً استخدم الغزو الفرنجي الدين لإثارة حماس الشعوب الأوروبية ودفعها للغزو واستخدم الغزو الصهيوني بلباس الدين باعتبار فلسطين -التي تشكل قلب المشرق الإسلامي- الأرض المباركة التي منحها رب ملوكاً لبني إسرائيل قبل ألفين وخمسة عشر عام وأنها كانت موطنهم في ذلك التاريخ، مما يجعل لهم فيها حقاً تاريخياً^(٢). ومع السبب الديني المحرك للجانب العقائدي، هناك أسباب سياسية واقتصادية، واجتماعية، فقد كانت الأسباب السياسية من وجهة نظر الصهيونية إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، كمقدمة لإقامة دولة إسرائيل الكبرى، في معظم مناطق المشرق الإسلامي وذلك كله مرحلة أولى يتبعها السعي للسيطرة على العالم في المرحلة اللاحقة، أما من وجهة نظر شركاء الصهيونية في الغزو: بريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرها فكانت دوافعهم السياسية هي السيطرة على منطقة المشرق العربي الإسلامي بالتفاهم فيما بينهم، وإقامة دول تتبعهم وتسهل مواصلاتهم مع مستعمراتهم الأخرى في جنوب شرق آسيا^(٣)، وتمثلت الأسباب الاقتصادية للغزو الصهيوني الأوروبي المشترك بالسيطرة على موارد البلاد الاقتصادية واستغلالها لإدامة صناعتها وجعل البلاد سوقاً لاستهلاك متتجاتها الصناعية. وأما

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٠٦.

(٢) حقائق قضية فلسطين ص ١٢٠ - ١٢١، إسرائيل الكبرى ص ٢١ ، ٢٠.

(٣) المقصود الهند وفيتنام وكمبوديا ولaos.

الأسباب الاجتماعية فقد تملّلت في خلاص اليهود المقيمين في أوروبا من حياة البوس والشقاء والعزلة التي كانوا يحيونها بسبب تمسّكهم بمعتقداتهم العنصرية وأساليبهم الاحتكارية التي كرهت الشعوب الأوروبية فيهم وجعلت الدول الأوروبية تسعى للخلاص منهم^(١).

١١- التشابه في الأهداف بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني: كانت أهداف الغزو الفرنجي واضحة محددة، فالهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار^(٢). كان هذا الهدف مشتركاً عاماً بين جميع أطراف الغزو: المؤسسة البابوية والقادة والأمراء من الفرجة والنورمان، أما الأهداف الأخرى الفرعية فهي:

أولاً: استغلال ثروات الشرق وتحقيق مغانم ومكاسب اقتصادية من التجارة والمحروب وهذا هدف عام مشترك أيضاً لأطراف الغزو جميعهم شاملاً تجار أوروبا المشهورين في المدن الإيطالية، البندقية، جنوا وبيزا^(٣).

ثانياً: تحقيق سيادة المؤسسة البابوية على العالم المسيحي، وتفوق مركزها على مركز الامبراطورية في أوروبا وإقامة كنيسة كاثوليكية في الشرق تتبع كنيسة روما، وتقتضي على نفوذ كنيسة القسطنطينية وهذه أهداف خاصة بالمؤسسة البابوية^(٤).

ثالثاً: الاستجابة لطلب امبراطور بيزنطة ومساعدته في استعادة الأراضي التي احتلها المسلمين الأتراك في الأناضول، ويمكن اعتبار هذا الهدف عاماً للجميع.

من جهة أخرى كانت أهداف الغزو الصهيوني واضحة ومحددة أيضاً، بالرغم من إيقاعها طي الكتمان فترة من الزمن لتضليل العرب وخداعهم وكسب مساعداتهم للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وعندما تكشفت هذه الأهداف بعد الحرب كانت كما يلي: الهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار، كان هذا الهدف مشتركاً بين جميع أطراف الغزو الصهيونية العالمية، بريطانيا، فرنسا. أما الأهداف الأخرى فهي: إقامة دولة إسرائيل في فلسطين وتهجير اليهود المقيمين في أوروبا والذين سيمهاجرون إلى دولتهم الجديدة في فلسطين، والجانب الثاني هو خلق دولة غريبة في قلب المشرق العربي الإسلامي، بل في قلب العالم العربي كله، تكون أداة يستغلها бритانيون وحلفاؤهم من دول الغرب لمنع قيام الوحدة الإسلامية الكبرى، وإغراق المنطقة كلها في حروب مستمرة تستنزف طاقاتها، وتسهل السيطرة الغربية عليها

(١) دولة اليهود ص ٣٠ ، ٣١ ، ٤٠ .

(٢) الحروب الصليبية. سهل زكار نقلأ عن دور نور الدين ص ٢٢١ .

(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢١ .

(٤) الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية ص ٨٢ ، ٨٣ .

لاستغلال مواردها، علماً بأن الصهيونية كانت وما زالت تعتبر إقامة دولة إسرائيل في فلسطين مرحلة أولى لتوسيع في المراحل اللاحقة وتشمل أغلب منطقة المشرق العربي الإسلامي، وقد احتفظت بهذا الهدف لنفسها دون شركائها في الغزو^(١) قال الجنرال اللبناني قائد القوات البريطانية في فلسطين بعد احتلال القدس عام ١٩١٧م: الآن انتهت الحروب الصليبية^(٢)، وقال الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية التي احتلت لبنان وسوريا عام ١٩٢٠م بعد احتلال دمشق: ها قد عدنا يا صلاح الدين^(٣)، ويظهر من كلام القائدين المذكورين أن فكرة غزو المشرق العربي الإسلامي لم تبارح أذهان الأوروبيين وخاصة البريطانيين والفرنسيين منذ الحروب الفرنجية، في العصور الوسطى وأن بريطانيا وفرنسا تعتبران احتلالهما للمشرق الإسلامي خلال الحرب العالمية الأولى امتداداً للحروب الفرنجية، ومن الجدير بالذكر أن الفرنجة أطلقوا على مملكة بيت المقدس اسم: فرنسا ما وراء البحار، باعتبارها امتداداً للوطن الفرنسي الأم^(٤). علماً بأن أغلب جيوش الحملة الفرنجية الأولى خرجت من فرنسا، ولا ننسى أن الفرنسيين أطلقوا على مستعمراتهم في الجزائر، والشرق اسم فرنسا ما وراء البحار^(٥)، ولابد أن الصهيونية العالمية وبريطانيا وفرنسا استلهمت الكثير من تاريخ الصليبية وأحداثها في تحطيم المشروع الإسرائيلي وتفيذه.

١٢- التشابه في الأساليب بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني: أقام الفرنجة إماراتهم في المناطق التي احتلوها بالقوة العسكرية في بلاد الشام وإمارة الرها في أعلى الفرات، وقاموا بتوسيع إماراتهم على حساب الإمارات الإسلامية المجاورة بفعل العسكرية، وكذلك فعل اليهود الصهاينة، فقد هيأت لهم بريطانيا الظروف المناسبة في فلسطين لبناء قوتهم العسكرية التي مكنتهم من احتلال الأرض وتأسيس دولتهم عام ١٩٤٨م، ثم استمروا ببناء قوتهم العسكرية المتقدمة حتى تمكنوا من توسيع رقعة دولتهم على حساب الدول العربية المجاورة عام ١٩٦٧م، ولا يزالون حتى الوقت الحاضر حريصين على تحقيق التفوق العسكري في المنطقة لأنهم يعلمون علم اليقين أن تغيير موازين القوى لصالح الدول العربية يعني زوال دولتهم من الوجود تماماً كما حصل مع الفرنجة الذين قاموا بفعل القوة العسكرية، فلما تغيرت موازين القوة لصالح المسلمين زالت إماراتهم من الوجود، ولذلك تبذل إسرائيل كل جهودها وتسعي الصهيونية العالمية بكل طاقاتها من خلال نفوذها في الدول العظمى، لحرمان الدولة الإسلامية من امتلاك الأسلحة المتقدمة أو بناء قوة عسكرية متقدمة يمكن أن تشكل خطراً على إسرائيل، فإذا ما ظهرت قوة إسلامية يمكن أن تشكل خطراً عليها بادرت إسرائيل بشن الحرب لتدمير هذه القوة

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢. (٢) أبعاد في المواجهة العربية الإسرائيلية ص ٢٨٠.

(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢. (٤) الحروب الصليبية، د. قاسم عبده ص ٧.

(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.

قبل اكتمال بنائها، حصل ذلك في حرب عام ١٩٥٦ وفي حرب ١٩٦٧، وفي قصف المفاعل النووي العراقي^(١) عام ١٩٨١، وإذا لم تستطع تدمير هذه القوة العربية بنفسها سخرت القوى العظمى لتحقيق ذلك، كما حصل في حرب الخليج بداية التسعينيات عندما شجعت الصهيونية العالمية الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب الأخرى على شن الحرب ضد العراق وتدمير قوته العسكرية المتقدمة التي كانت في نظرهم تشكل خطراً كبيراً على إسرائيل^(٢)، ويختل مبدأ استخدام القوة العسكرية المتفوقة المقام الأول في الاستراتيجية الوطنية الإسرائيلية، وضع هذا المبدأ أحد رواد الحركة الصهيونية المشهورين، اسمه آشر غتربرغ وأطلق على فكرته التي تحولت مع الوقت إلى عقيدة راسخة في الذهنية الصهيونية اسم (التجمع والاقتحام)، ويقول بأنه استلهمها من تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام وانقضاء فترة التي في صحراء سيناء، فقد تشعوا بروح الاقتحام والفتاك التي مكتنهم من احتلال فلسطين^(٣). وكان جابوتينسكي أول من طبّق عقيدة التجمع والاقتحام في فلسطين عام ١٩٢٠ باستخدامه الأسلحة النارية في أول صدام بين العرب واليهود في القدس وهو أول من دعا إلى تشكيل المنظمات الإرهابية اليهودية التي ارتكبت أبغض المجازر بحق العرب في القرى والمدن الفلسطينية ثم تحولت تلك المنظمات بعد قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ إلى الجيش الإسرائيلي، يقول مناحيم ييغن رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، الذي كان عضواً في عصابة أرغون الإرهابية وتلميذاً لجابوتينسكي: إن المبدأ الرئيسي لكل إسرائيل يجب أن يكون: أنا أحارب فأنا موجود^(٤). ويقول ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل: سوف نواجه العرب بالقوة، إن النتيجة الوحيدة المتوقعة لهذا الصراع هي النتيجة التي تفرضها القوة. ويقول مائير كهانا أشهر المتطوفين اليهود وكان عضواً في الكنيست الإسرائيلي: حدود إسرائيل هي حيث يقف الجنود الإسرائيليون^(٥). وقد تشابهت أساليب الغزو الصهيوني مع أساليب الغزو الفرنجي في مجالات من أهمها:

١- الاعتماد على المساعدة الخارجية: اعتمدت الإمارات الفرنجية في المشرق العربي الإسلامي في توسعها واستمرارها على الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التي كانت تعتبر الدولة الأم لتلك الإمارات. كانت هذه المساعدة تشمل المال والسلاح والرجال وكانت تأتي في بعض الأحيان على شكل جيوش متكاملة بقيادة ملوك وأباطرة أوروبا، عندما تواجهه الإمارات الفرنجية خطراً، كما حصل بعد تحرير مدينة الراها، عاصمة إمارة الراها الفرنجية عام

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢.

(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٣) حرب الخليج وأثرها على العالم الإسلامي ص ٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٤.

(١) . وأما اليهود الصهاينة فقد وضعوا في خططهم منذ البداية استغلال قوة ونفوذ الدول العظمى في تحقيق أهدافهم (٢) ، وها نحن نرى الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل.

بـ- الهجرة والاستيطان: استقرت جيوش الحملة الأولى الصليبية في المناطق التي احتلتها من بلاد الشام وأقامت فيها إمارات الفرنجية المعروفة، بعد ذلك تدفق المهاجرون من أوروبا إلى تلك الإمارات بأعداد كبيرة، ومع أن بعضهم كان يأتي لغرض الحج إلى القدس ويعود بعد إكمال الزيارة إلا أن غالبيتهم كانوا يأتون بقصد الإقامة والاستيطان، كانت هذه الهجرة متواصلة وبأعداد كبير زادت في بعض الحالات عن أعداد بعض الحملات المنظمة التي عرفت بأرقام متسلسلة (٣) . ساعدت هذه الهجرة على زيادة قوة الإمارة الفرنجية، وتوسّعها وصمودها في وجه القوة العربية الإسلامية التي كانت تحاول القضاء عليها (٤) ، على الجانب الآخر كانت هجرة اليهود إلى فلسطين تشكل الركن الأساسي في المشروع الصهيوني لإقامة دولة اليهود فيها، وحظي موضوع الهجرة من حيث الدعاية لها وتنظيمها وتنفيذها بالقسط الأوفر من اهتمام المفكرين الصهاينة الأوائل، ومن أهمهم تيودور هرتزل أول زعيم للصهيونية العالمية الذي وضع فصلاً خاصاً في كتابه المشهور «دولة اليهود» عن الهجرة وأهميتها وتنظيمها وباب الهجرة مفتوح على مصراعيه بعد قيام دولة اليهود (٥) إلى يومنا هذا.

جـ- تضليل الرأي العام وخداعه: قامت المؤسسة البابوية التي خططت للحروب الفرنجية وأشارت على تنفيذها بتضليل الرأي العام الأوروبي من خلال الدعاية الكاذبة التي كانت تسبق كل حملة، فقد افتتح البابا أوربان الثاني الحملة الدعائية الكبيرة للحرب الفرنجية في خطابه المشهور عام ١٠٩٥ م في جمع كليرمونت، وادعى فيه أن المسيحيين في المشرق الإسلامي يتعرضون للأضطهاد والتعذيب والقتل، وأن بيوتهم وكنائسهم تحرق وتُهدم وأن المسلمين، البربرية المتوحشين، استولوا على مدينة القدس ومنعوا المسيحيين المؤمنين من زيارة قبر السيد المسيح فيها، ولذلك يوجب على مسيحيي أوروبا نجدة إخوانهم مسيحيي الشرق وتخليصهم من الأضطهاد والتعذيب والقتل، وتحرير قبر المسيح من سيطرة البربرية المسلمين (٦) ، انتشرت هذه الدعاية الكاذبة المضللة في أوروبا على يد رجال الكنيسة وكان لها أثر كثير في إثارة الحماس الديني لدى الأوروبيين، فتجمعت حشودهم وتوجهت تحت راية الصليب لحرب المسلمين، وبنفس الأسلوب جرت الدعاية الصهيونية المضللة قبل الغزو

(٢) (٣) (٤) المصدر نفسه ص ٢٢٥.

(١) دور نور الدين محمود ص ٢٢٤.

(٥) (٦) المصدر نفسه ص ٢٢٦.

الصهيوني للمشرق الإسلامي، فقد قامت وسائل الإعلام الأوروبية الخاضعة لسيطرة الصهيونية العالمية بتصوير المسلمين على أنهم بدرو حل يعيشون في الصحراء مع مواشיהם، وأن اليهود سيهاجرون إلى تلك البلاد التي تعتبر موطنهم الأصلي لاستصلاح الأراضي وزراعتها وتعميرها ولبناء معبدتهم القديم في القدس «هيكل سليمان»^(١). وكانت الدعاية الصهيونية تركز على أوضاع اليهود في مختلف دول العالم باعتبارهم مغضطهدين محروميين من أدنى الحقوق الإنسانية وأن من حقهم أن يعودوا إلى أرض آبائهم «فلسطين» ليقيموا لهم فيها وطنًا قوميًّا كباقي شعوب الأرض^(٢).

د- الإرهاب والعنف: ارتكب الفرنجة مجازر بشعة بحق المسلمين في المدن والقرى التي استولوا عليها، وشكّلوا فرقاً عسكرية خاصة من خبرة فرسانهم، وكان تقوم بشن الغارات على المدن والقرى الإسلامية وتقوم بأعمال القتل والسلب والتخريب، وتشيع الخوف والرعب بين السكان، فكانوا لا يتورّعون عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، حتى إنهم تعرضوا لقوافل الحجاج بالقتل والنهب^(٣).

وقد تبني الصهاينة الأسلوب نفسه في غزوهم لفلسطين، فشكّلوا منذ العشرينات، قبل قيام دولتهم، عصابات إرهابية كانت مهمتها اقتحام القرى الآمنة، وإبادة سكانها من الرجال والنساء والأطفال بصورة همجية بشعة لإثارة الرعب والهلع بين السكان المسلمين وإجبارهم على مغادرة مدنهم وقراهem وأراضهم والهجرة إلى خارج فلسطين^(٤)، واندمجت العصابات الإرهابية اليهودية بعد قيام دولة إسرائيل لتشكيل الجيش الإسرائيلي، الذي توّلى مهمة تنفيذ العمليات الإرهابية ضد السكان المسلمين، وأصبحت هذه العمليات سياسة رسمية لإسرائيل، تنفذها وحدات من الجيش الإسرائيلي الذي أطلق عليه قادة إسرائيل اسم «جيش الدفاع» زوراً وتضليلًا، بينما هو في الحقيقة أكثر جيوش الأرض عدواناً^(٥)، ولم تقتصر عمليات الإرهاب والقتل والاغتيال على السكان المسلمين في فلسطين بل تعدت إلى الدول المجاورة وحتى البعيدة، فقد قامت القوات الخاصة الإسرائيلية بتنفيذ عمليات اغتيال لقادمة المقاومة الفلسطينية في الأردن ولبنان وتونس وجرت محاولات اغتيال لقادمة المقاومة الفلسطينية في مختلف الدول العربية والأجنبية^(٦).

* * *

(١) دولة اليهود ص ٤٩.

(٢) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ٢٢٧.

(٣)

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٨.

(٥)

(٦)

المبحث الخامس

فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية

أولاً: جذور الشيعة الإمامية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين من نسبوا أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة ساقت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنا عشرية. وفرقة نفت عنه الإمامة وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإمامية^(١). قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإمامية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل^(٢). وقال الشهريستاني: الإمامية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر قالوا: ولم يتزوج الصادق رحمه الله على أمه - أم إسماعيل - بوالدة من النساء ولا تسرى بخارية كستنة رسول الله في حق خديجة رضي الله عنها، وكستنة على^{عليه السلام} في حق فاطمة رضي الله عنها^(٣).

فإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفا بها غير لقب الإمامية منها الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تزييل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفا بهذين اللقين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية الملحدة، وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإمامية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم^(٤). وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م في الشمال الأفريقي على يدي أبو عبد الله الشيعي بعد سقوط القبوران أمام قواته وهرول زباد التغلبي إلى مصر في جمادى الآخرة عام ٢٩٦هـ^(٥)، وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القبوران عام ٢٩٧هـ/٩١٠م وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين^(٦).

١- عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول: هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء العبيدية الباطنية الذين قبلوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإمامية وبثوا الدعاة يستغون الجليلة والجهمة^(٧)، وذكر الذهبي ما قيل عنه في نسبة ثم

(١) الدولة الفاطمية العبيدية للصلابي ص ٣٥.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٦٢.

(٣) الملل والنحل (١٩١/١).

(٤) المصدر نفسه (١٩٢/١).

(٥) موسوعة المغرب العربي (٦٠/٢).

(٦) المرجع السابق (٧٠/٢).

(٧) سير أعلام النبلاء (١٤١/١٥).

قال: والمحققون على أنه دعى بحث إنَّ المَعْزَ منْهُمْ لَمْ سَأَلْهُ السِّيدُ ابْنُ طَبَاطَبَا عَنْ نَسْبِهِ، قَالَ: غَدَا أَخْرَجَهُ لَكُ، ثُمَّ أَصْبَحَ وَقَدْ أَلْقَى عُرْمَةً مِنَ الْذَّهَبِ، ثُمَّ جَذَبَ نِصْفَ سِيفَهُ مِنْ غَمْدِهِ فَقَالَ: هَذَا نَسِيٌّ، وَأَمْرُهُمْ بِنَهْبِ الْذَّهَبِ، وَقَالَ: هَذَا حَسِيٌّ^(١). وَأَمَّا مَفْتِي الدِّيَارِ الْلَّيْبِيَّةِ رَحْمَهُ اللَّهُ الشِّيْخُ طَاهِرُ الزَّاوِي فَقَدْ قَالَ فِي تَرْجِمَةِ عَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ: هُوَ مَؤْسِسُ الدُّولَةِ الْعَبَيْدِيَّةِ وَأَوْلُ حَاكِمٍ فِيهَا وَهُوَ عَرَاقِيُّ الْأَصْلِ، وَلَدَ فِي الْكُوفَةِ سَنَةَ ٢٦٠ هـ وَاخْتَبَأَ فِي بَلْدَةِ سَلَمِيَّةِ بُؤْرَةِ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ فِي شَمَالِ الشَّامِ. وَمِنْ يَوْمِ أَنْ وَلَدَ إِلَى أَنْ اسْتَقِرَّ فِي سَلَمِيَّةِ كَانَ يَعْرَفُ بِاسْمِ سَعِيدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِيمُونَ الْقَدَاحِ، وَفِي مَنْطَقَةِ سَلَمِيَّةِ مَقْرَرٍ لِلِّإِسْمَاعِيلِيَّةِ مَاتَ عَلَيْ بْنَ حَسَنَ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَأَقَامَ لَهُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مَزَارَاتٍ سَرِيَّةً، وَقَرَرُوا نَقلَ الْإِمَامَةَ مِنْ ذَرِيَّةِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَأَقَامَ لَهُمْ بِالنَّكَاحِ الرُّوحِيِّ^(٢)، ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَصْلُ عَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ، وَهَذَا أَصْلُ الْعَبَيْدِيِّينَ الْمَسْوِيِّينَ إِلَيْهِ^(٣). وَيُذَكَّرُ أَنَّ عَبِيدَ اللَّهِ الشِّيعِيَّ عِنْدَمَا دَخَلَ إِفْرِيقِيَّةً «يُعْنِي تُونِس» أَظْهَرَ التَّشِيعَ الْقَبِيْحَ وَسَبَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَزْوَاجَهُ إِلَّا عَلَيْ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَالْمَقْدَادِ وَعُمَارَ بْنَ يَاسِرٍ وَسَلَمَانَ الْفَارَسِيِّ وَأَبَا ذَرَ الْغَفَارِيِّ، وَزَعَمَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ ارْتَدُوا بَعْدَهُ غَيْرَ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرُوا^(٤). وَكَانَ أَهْلُ السَّنَةِ بِالْقِيرَوَانِ أَيَّامَ بَنِي عَبِيدٍ فِي حَالَةٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الْأَهْتَضَامِ وَالْتَّسْرِيْرِ كَأَنَّهُمْ ذَمَّةٌ^(٥) تَجْرِي عَلَيْهِمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَيَّامِ مُحَنَّ شَدِيدَةً، وَلَا ظَهَرَ بْنُو عَبِيدٍ أَمْرُهُمْ وَنَصَبُوا حَسِينًا الْأَعْمَى السَّبَابَ فِي الْأَسْوَاقِ لِلْسَّبِّ بِأَسْجَاجِ لُقْنَاهَا يَتَوَصَّلُ مِنْهَا إِلَى سَبِّ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْفَاظِ حَفْظُهَا^(٦) مِثْلًا؛ العَنْوَانُ الْغَارُ وَمَا وَعَىٰ، وَالْكَسَاءُ وَمَا حَوَىٰ وَغَيْرُ ذَلِكِ وَالْغَارِ الْمَقْصُودُ مِنْهُ غَارُ ثُورٍ الَّذِي اخْتَفَى فِي الرَّسُولِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ﷺ عَنْ أَعْيْنِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي كَانَتْ تَطَارِدُهُمْ فِي قَصْةِ الْهِجْرَةِ، وَهَذَا الْلَّفْظُ فِي سَبِّ لِلَّنْبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ عَلَى حِدَّ سَوَاءٍ وَكَذَلِكَ فِي سَبِّ لِلْأَلِّ الْبَيْتِ الَّذِينَ حَوَاهُمُ الْكَسَاءُ^(٧). وَعَلِقَتْ رَؤُوسُ الْأَكْبَاشِ وَالْحَمْرَ عَلَى أَبْوَابِ الْحَوَانِيَّةِ، عَلَيْهَا قِرَاطِيسٌ مَعْلَقَةٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ الصَّحَابَةِ، وَاشْتَدَ الْأَمْرُ عَلَى أَهْلِ السَّنَةِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ أَوْ تَحْرُكَ قُتُلَ وَمَثَلَ بِهِ^(٨).

٢- من جرائم العبيديين في الشمال الأفريقي: ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية

-
- (١) سير أعلام النبلاء (١٤٢/١٥).
 (٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٥٣.
 (٣) الدولة الفاطمية العبيدية للصلabi ص ٤٧.
 (٤) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٢٩١.
 (٥) ترتيب المدارك (٣١٨/٢).
 (٦) (٧) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٢٩١.
 (٨) الكواكب الدرية في السيرة扭ورية ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

أ- خلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدى: حتى أنه أنزله منزلة الإله وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أبي المهدى) دعوة بالغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه أن المهدى ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق^(١)، وأما زعمهم بأنه إله فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى أحمد البلوي النحاس: يصلى إلى رقاده أيام كان عبيد الله بها، وهي منه إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية وهي منه إلى الشرق صلى إليها^(٢) باعتبار أنها مكة المكرمة - شرفها الله - وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بي عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدى إليها:

قدوم فيه للدهر ابتسام
بها الصلوات تقبل والصيام
كمابتها ملة البلد الحرام
ترى قدميك إن عدم المقام
لنا بعراص قصركم الشام
فكلكم لها أبداً إمام^(٣)

ليهنيك أيها الملك الهمام
لقد عظمت بأرض الغرب دار
هي المهدية الحرم الموقى
كأن مقام إبراهيم فيه
وإن لثم الحجيج الركن أضحت
لنك الدنيا وسلك حيث كنت

ومن الشعر أيضاً في تأليهه ما مدحه به محمد البديل حيث يقول:

حل بها آدم وزوج
حل بها الكبش والذبائح
 وكل شيء سواه ريح

حل برقاده المسيح
حل بها أحمد المصطفى
حل بها الله ذو المعالي

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب، فيظهر من إيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة^(٤). ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعلم الغيب إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْنَوْنَ﴾ [النمل: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَعَنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَيَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي

(١) البيان المغرب (٢٥٨/١ - ٢٥٩/١). (٢) المصدر نفسه (٢٢١/١).

(٣) المصدر نفسه (٢٢١/١). (٤) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص ٩٠.

كتاب مُبِين﴿ [الأنعام: ٥٩]. كما أن الحلف لا يكون بمحظوظ وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت. وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء^(١).

بـ- التسلط والجور: وإعدام كل من يخالف مذهبهم، هذا بالإضافة إلى ما ذكره القاضي عياض في طعنهم في الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش الدالة في زعمهم على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التي كانوا يقومون^(٢) بها، وكان إجبار الناس على الدخول في مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل وقد نفذوا حكم الإعدام في أربعة آلاف رجل مرة واحدة. قال القابسي: إن الذين ماتوا في دار البحر - سجن العبيد - بالمهديّة من حين دخل عيّد الله إلى الأن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح^(٣). هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية، ومع ذلك فإن هذه المخنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيزة وصبراً واحتسباً وتمسكاً بالكتاب والسنّة.

جـ- تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك: حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب بمذهب مالك، ولم يبحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيhe المعروف بالهزئي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد المتوفي في عام تسع وعشرين وثلاثمائة^(٤).

دـ- إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة: والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة «حي على خير العمل» في الأذان وإسقاط صلاة التراويح^(٥)، بعد أن ترك الناس يصلونها عاماً واحداً، وهذا ترك أكثر الناس الصلاة في المساجد، وبا وبح من يسقط عبارة: حي على خير العمل من الأذان، من ذلك ما روي أن عروسي المؤذن (ت ٣١٧هـ) وكان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أدائه حي على خير العمل، فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه وطيف به في القيروان ثم قتل^(٦)، إلا أن بعض العلماء فطن

(١) جهود علماء المغرب ص ٣١٢.

(٢) مدرسة الحديث بالقيروان (١/٧٦).

(٣) رياض النفوس (٢/٥٦).

(٤) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٠٩.

(٥) البيان المغرب (١/١٨٢ - ١٨٣). (٦) ترتيب المدارك (٢/٥٢٥ - ٥٢٨).

لکید العیبدین وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك وهو إخلاء المساجد من المصلين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا حي على خير العمل لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم، ومن هؤلاء العلماء: أبو الحسن علي بن محمد بن مسروور العبدي الدبغ (ت ٣٥٩هـ)^(١)، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع، فقد فطن لغرض العیبدین، فكانوا أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد، لفعلكم هذا - وأنتم معذرون - خير من إخلاء المساجد^(٢).

هـ- منع التجمعات: حرصت الدولة الفاطمية الرافضية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم، ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجّد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء^(٣)، وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها ﴿مَا أرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وـ- اتلاف مصنفات أهل السنة: أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتاب أبي محمد بن أبي هاشم الشجاعي (ت ٣٤٦هـ) توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بنى عبيد فأخذها ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه^(٤).

زـ- منع علماء أهل السنة من التدريس: منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بنى عبيد، فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر ابن البجاد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تتبل بالعرق خوفاً من بنى عبيد^(٥). وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها ببعضها تمنع هذا الأمر كلّياً، وبعضها تسمح بعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

حـ- عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فروأ مقلوباً داباً على يديه ورجليه فيقول لهم: (بح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فاما دخولي على يدي ورجلتي فإنما أردت بذلك

(١) ترتيب المدارك (٥٢٦/٢).

(٤) مدرسة الحديث بالقيروان (١/٧٦).

(٣) المصدر نفسه (٤٢٣/٢).

(٥) رياض النقوس (٥٠٤/٢).

أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا وضوء ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوبًا فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتם الدين، وأما قوله لكم يَحْ، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر^(١).

ط- إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال: وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال^(٢)، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقير ابن الحبلي قاضي مدينة برقة، قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحبلي أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أفتر الناس، وأنقلهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور - وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية - فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبلول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلى، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تنصّل، وأغفو عنك، فامتنع، فأمر، فُعلق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقِن، ثم صلبوه على خشبة فلعنة الله على الظالمين.^(٣)

ى- إزالة آثار خلفاء السنة: عمل حكام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنين، فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد وجعل اسمه بدليلاً منهم واستولى هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العباد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح^(٤).

ك- دخول خيولهم المساجد: من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أورانها وأبوابها طاهرة؛ لأنها خيل المهدى، فأنكر عليهم قيم المسجد، فذهبوا به إلى المهدى فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك^(٥).

إن المسلمين المعاصرین يقرءون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلسفه ولكن القليل من يذكر بطن هؤلاء الباطنية بالعلماء

(١) مدرسة القironان (٧٣/١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٧٤/١٥).

(٣) رياض النقوس (٢٩/٢).

(٤) أعيid التاريخ نفسه، محمد العبد ص ٣٩.

(٥) مقدمة حسين مؤنس على رياض النقوس ص ١٧.

من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز ل الدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر الشيعي الرافضي، وبذلك لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا زال الصراع الباطني والإسلامي متداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأن أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطاهرين الطيبين رضي الله عنهم أجمعين.

٣- **أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية:** لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية، والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر.. إلخ.

١- المقاومة السلبية: أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة التي قاطع بها علماء المغرب كل ما له صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم، وتمثل تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعماها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها^(١)، ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر، فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقironان^(٢)، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الوعاظ عبد الصمد^(٣)، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وبيغضي في عبيد الله وذراته، وحيي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقته^(٤). ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله، وكل من كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْرَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فهذا خلف بن أبي القاسم البراذعي (ت نحو ٤٠٠ هـ)^(٥) قام عليه فقهاء القironان لصلته بملوك بنى عبيد وقبوله هداياهم وتأليفه كتاباً في تصحيح نسبهم، وزادت النسمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على

(١) البيان المغرب (١/٢٧٧).

(٢) معلم الإيمان (٣/٢٣٧).

(٣) المصدر نفسه (٣/٧١).

(٤) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٤.

بني عبيد ممثلاً ببيت^(١) الخطيئة:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا
ولإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
لذلك كله أفتى فقهاء القبوران بطرح كتبه وعدم قراءتها وإزاء ذلك اضطر هو إلى
الهجرة إلى صقلية حيث حصلت له حظوة كبيرة عند أميرها^(٢).

بــ المقاومة الجدلية: كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة المنحرفين، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذاب عن بيضة هذا الدين، ومنهم نجحه في ميدان المناظرة لبني عبيد العالم ابن تبان حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة وكان هذا الإمام - فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة - شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدばاغ من أن عبد الله المعروف بالمحتاب^(٣) صاحب القبوران قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القبوراني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنك إن أتي عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم^(٤). وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في مخلتهم ولكنه أبي وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقاً يقال له هذا؟ لو نشرتوني في اثننتين ما تركت مذهب^(٥)، ولما خرج من عندهم بعد أيامهم منه تبعه أعونان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلة عليه ليخاف من يراه من الناس على تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدى الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وجح: تشبثوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم^(٦). وكان يخشى على العامة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشع عليهم الذنوب، لأن مولاهم كريم، وإنما أخشع عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار^(٧).

ومن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية أبو عثمان سعيد بن الحداد (٣٠٢) لسان أهل السنة وابن حنبل

(١) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٤.

(٢) ترتيب المدارك (٥٢٤ - ٥١٧/٢)، شجرة التور الزنكية (٩٥ - ٩٦).

(٣) أحد عمال دولة بني عبيد.

(٤) معلم الإيمان (١١٣/٣).

(٥) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٧.

(٦) المصدر نفسه ص ٣٢٧.

(٧) معلم الإيمان (٩١/٣).

المغرب، قال عنه السلمي: كان فقيها صالحًا فصحيحاً متبعداً أوحد زمانه في الماناظرة والرد على الفرقة^(١). وقال عنه الخشنبي: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة وله في ذلك مقامات مشهودة وأثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القیروان بأحمد ابن حنبل^(٢). وقال عنه المالكي: وكانت له مقامات في الدين مع الكفرا المارقين أبي عبد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم^(٣)، حاولت الدولة الفاطمية بال المغرب إجبار الناس على مذهبهم بطريقة الماناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك وجلوا إلى أبي سعيد وسائلوه التقبة فأبى وقال: قد أربيت على التسعين، وما لي في العيش حاجة، ولا بد لي من الماناظرة عن الدين أو أن أبلغ في ذلك غدراً ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة^(٤)، ومن أشهر هذه المناظرات:

- التقاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهم: وأولى هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعلم حول التقاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهم، وبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأله أبو عبد الله الشيعي ابن الحداد: أنت تفضلون على الخمسة أصحاب الكفاء غيرهم؟ - يعني بأصحاب الكفاء: محمد^ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، يعني بغيرهم: أبا بكر^{رض} - فقال أبو عثمان: أيهما أفضل؟ خمسة سادسهم جبريل عليه السلام؟ أم اثنان الله ثالثهما؟^(٥) فبهر الشيعي.

- موالة علي^{رض}: في هذه الماناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالة في قوله عليه الصلاة والسلام: من كت مولا فعلى مولا^(٦) يعني العبودية، قال له: بما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا؟ فقال ابن الحداد: لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالْبُيُّوْةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُوْنُوا عَبِيْدَ اللَّهِ وَلَكُنْ كُوْنُوا رَبَّيْنِ بِمَا كُتْبَتْ ثَلَمُوْنَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُتْبَتْ ثَدُرُسُوْنَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَخَذُوْا الْمَلَائِكَةَ وَالرَّبَّيْنِ أَرْبَابًا أَيَّمُرُكُمْ بِالْكُفُرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ﴾ [آل عمران: ٨٠، ٧٩]، فيما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلى^{رض} لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي^ﷺ^(٧). هذه إشارات عابرة

(١) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٨.

(٢) طبقات الخشنبي ص ١٩٩، معلم الإيمان (٢/٢٠٩).

(٣) رياض النقوس (٢/٧٥).

(٤) معلم الإيمان (٢/٢٩٨)، جهود علماء المغرب ص ٣٢٩.

(٥) سنن الترمذى ، وتحفة الأحوذى رقم ٣٧٩٧ حسن غريب.

(٦) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٣١.

(٧) معلم الإيمان (٢/١٨٥)، جهود علماء المغرب ص ٣٣٧.

وهي جزء صغير من مجموع المذاهب التي دارت بين الفريقين.

جـــ المقاومة المسلحة: لم يكن علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج لقتالهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط ونزل القیروان، فلما كلام في ذلك قال: كنا نخرس عدواً بيمنا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك وقال: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك^(١). واستدل بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ﴾** [التوبه: ١٢٣] ومنهم الإمام: أبو القاسم الحسن بن مفرج (ت ٣٠٩ھـ) الذي كان من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً، قتله عبيد الله المهدى وصلب هو ورجل يدعى أبي عبد الله السدرى الذى كان من الصالحين وكان قد بايع على جهاد عبيد الله، وجعل يحيى الناس على جهاده فبلغ خبره عبيد الله، فأمر بقتله^(٢)، ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية، وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لعتقداتهم الفاسدة. قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي - رحمه الله - مع شيوخ إفريقية إلى حرببني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول - ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد - هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة - يريد عسكر بن عبيد - فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من «هو» على غير القبلة، فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تيمى، وأبو عبد الملك مروان نصروفات، وأبو إسحاق السجائي وأبو الفضل وأبو سلمان ربيع ابن القطان^(٣)، وغيرهم كثير^(٤). وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصى بهم عدد، ولم يتختلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم خرج، وكان ربيع القطان في طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقدلاً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحيانى حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك^(٥). وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاه حسنة، وقدموا صوراً حقيقة للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم ما لا يقل عن الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميس وغيرهما، وأظهروا شجاعة نادرة وتفانياً

(١) رياض النفوس (٢/ ١٦٩ - ١٧٢).

(٢) الدولة الفاطمية العبيدية للصلابي ص ٧٨.

(٤) معالم الإيمان (٣/ ٣٧ - ٤٢).

(٥) البيان المغرب (١/ ٢١٨).

(٣) المصدر نفسه ص ٧٨.

(٦) البيان المغرب (١/ ٢١٨).

لا مثيل له في قتال عدوهم، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلّت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفو عنهم بقوله: أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم^(١) وكان غرضه من تلك الفعلة الشنيعة والخدعة المنكرة الراحة منهم. لأنه فيما ظن إدراة قتل شيوخ القريوان وأئمّة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء فيتبعونه^(٢)، فهزّم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهاية يوم ٣٣٦ هـ^(٣)، وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم حتى بعد خروج بيبي عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلواهم وأخذوا أموالهم، فقد ذكر ابن عذاري في البيان المغرب أنه: كان بمدينة القريوان قوم يتصرفون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انتصرت العامة إليهم من فورهم، قتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً، وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهت دورهم وأموالهم^(٤)، ويصف القاضي عياض هذه الحادثة: وكان ابتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أบรح، قتل بالقريوان وحرقوهم وانتهوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطتها عليهم، وخرج الأمر من القريوان وإلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم في إفريقيا إلا من اختص^(٥). وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاكها، طهر الله به أرض المغرب من بدعة التشيع الباطني الرافضي.

د- المقاومة عبر التأليف: وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة في مقاومة الشيعة والتي كان لها أثر طيب في إلقاءهم وقض مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر في تبصير العامة بالحق وإراسء دعائم السنة وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

- المؤلفات التي تتناول مسائل العقيدة جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بينها مسألة الإمامة عند أهل السنة وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة والترضي عن أصحاب رسول الله جميعاً من

(١) البيان المغرب (١/٢١٨).

(٢) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٤٤.

(٣) البيان المغرب (١/٢٦٨).

(٤)

.

(٥) المصدر نفسه (٢/٦٢٥).

غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدواً خلافاً للشيعة الذين يكفرونهم ويفسقونهم عدا نفر قليل منهم، فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق في تبصير الناس بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفًا للإسلام وخارجًا عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة، وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتب (١).

والنوع الثاني: المؤلفات التي ألفت للرد على الشيعة وعلى عقائدهم الباطلة: وهذا النوع من التأليف - كما سبق الحديث عنه - جاء نتيجة ظروف خاصة أو جبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم. من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابي «الإمامية» اللذين ألهما الإمام محمد بن سحنون، وهما أعظم ما ألف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما (٢)، وكتاب الإمامة للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيدي، وكتاب الرد على الرافضة له أيضاً، وللذان كانوا السبب في محتته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة (٣).

هـ- مقاومة شعراء أهل السنة: إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لمجوبي عبيد وذمهم، وقد بُرِزَ في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزارى، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

نالوا بهم سبب النجاة عموماً
فأراهم عوج الضلال قوياً
أحكامهم لا سلموا تسليماً
وابا قدرة واللعين تعيماً
عمن أصارهم الإله نجوماً
دھريّة جعلوا الحديث قدّيماً
عبدوا النجوما وأكثروا التنجيمَا
أن لا عذاب غداً ولا تنعيمَا
النورين عن ظلماتهم تعظيمَا
وبشركم حقباً وكان رحيمَا

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم
وتمكن الشيطان من خطواتهم
رغباً عن الصديق والفاروق في
 واستبدلوا بهما ابن الأسود ناجماً
تبعوا كلا布 جهنم وتأخروا
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم
أم هم من الصابئين أم من عصبة
أم هم زنادقة معطلة رأوا
أم عصبة ثانية قد عظموا
سبحان من أبلى العباد بكفرهم

(١) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٩.

يَارَبُّ فِي الْعَنْهُمْ وَلَقَهُمْ
بِأَيِّ يَزِيدُ مِنَ الْعَذَابِ أَيْمًا^(١)

وَمِنْ أَشْهَرِ مَا قَالَهُ قَصِيدَتُهُ الرَّائِيَةُ الَّتِي اتَّسَرَتْ فِي الْآفَاقِ وَالْبَلْدَانِ وَالْيَقِيَّ قَالَ فِيهَا:
يَقُولُونَ بِهَا دُعَى أَوْ كَفُورٌ
لَهَا وَتَلَوَّنُتْ مِنْهَا السَّدَهُورُ
وَلَمْ تَعْنِيَ الْمَعْاقِلُ وَالْقَصْرُورُ
إِلَيْهِ دَافَعَ عَنْهَا قَادِيرٌ
وَمِيزَ مَا أَكْتَبَهُ الصَّدُورُ
وَأَسْبَلَ فَوْقَهَا سَتْرَ سَتِيرٍ
بَحْرَارُ لَا تَعْدُ دُولًا بَحْرَورٌ
إِذَا عَدُوا وَلَيْسَ لَهَا نَاظِيرٌ
فَقَدْ طَابَ الْأَوَّلُ وَالْآخِيرُ
وَفَادُوا مَا اسْتَبَدَ بِهِ الْمَغِيرُ
فَرَالَتْ عَنْهُمْ تَلَكَ الشَّرُورُ
أَمَاتِ عَرْوَقَهَا ضَرِيرٌ ضَرِيرٌ
لَهُمْ أَهْلًا وَأَكْثَرُهُمْ شَطِيرٌ
هُنَاكَ وَدُورَنَا لِلْقَوْمِ دُورٌ
وَقَامَ بِشَكْرَنَا مِنْهُمْ شَكُورٌ
لَغَابَ طَعَامَهُمْ وَالْمَخُ^(٢) رِيرٌ
وَلَا حِيلَ أَعْالِيَّهُ وَعَوْرٌ
لَنَا مِنْ حَفْظِ رَبِّ الْعَرْشِ سُورٌ
إِذَا قَضَى الْقَضَايَا نَحْنَ الْبَحُورُ
وَفِي أَيْمَانِنَا الْبَيْضُ الْذَّكُورُ
بَهَا تَحْمِي الْحَرَامَ وَالثَّغُورُ
بَهَا ظَمَّاً مَوَارِدَهَا النَّحُورُ

(١) رِيَاضُ النُّفُوسِ (٤٩٤ / ٢ - ٤٩٥ / ٢).
(٢) المَصْدُرُ نَفْسُهُ (٤٩٣ / ٢).

عَجَبَتْ لِفَتْنَةِ أَعْمَتْ وَعَمَتْ
تَرَلَزَتْ الْمَدَائِنُ وَالْبَوَادِي
وَضَاقَتْ كُلُّ أَرْضٍ ذَاتِ عَرْضٍ
فَنَجَى الْقَيْرَوَانُ وَسَاكِنُهَا
أَحْاطَ بِأَهْلِهَا عِلْمًا وَخَبْرًا
وَجَلَّهُمْ بِعَافِيَةٍ وَأَمْنٍ
وَأَبْيَتْ جَلَةُ الْعُلَمَاءِ فِيهَا
وَمِنْهَا سَادَةُ الْعُلَمَاءِ قَدْمًا
وَفِيهَا الْقَوْمُ عَبَادُ خِيَارٍ
هُمْ فَتَكُوا سَبَابِيَا كُلُّ أَرْضٍ
كَفِينَاهُمْ عَظَائِمُهُمْ جَمِيعًا
وَسَكَنَاهُمْ قُلُوبَيَا خَافِقَاتٍ
وَأَوْيَنَاهُمْ وَآسَنَاهُمْ وَكَنَاهُمْ
فِيَاتٍ طَعَامَنَاهُمْ طَعَامًا
وَكَانَ لَنَا ثَوَابُ اللَّهِ دُخْرًا
وَلَوْلَا الْقَيْرَوَانُ وَسَاكِنُهَا
وَلَيْسَ لَنَا كَمَا نَاهُمْ حَصُونٌ
وَلَا سُورٌ أَحْاطَ بِنَا وَلَكِنْ
وَلَا نَأْوِي إِلَى بَحْرٍ وَإِنَّا
وَلَكَنَّا إِلَى الْقُرْآنِ نَأْوِي
عَقَائِقَ كَالْبَوَارِقِ مَرْهُوفَاتٍ
وَسُئْمَرَ في أَعْلَاهُنَّ شَهَبٌ

إلى أن قال:

نَحْبٌ إِذَا تَشَعَّبَتِ الْأَمْرَوْر
بِهِ تَرْجِي السُّعَادَةِ وَالْبَحْرِ
وَمَا اخْتَلَفُوا فِرِبْرِهِمْ غَفُورٌ
مُحَمَّدُ الْبَشِيرُ لَنَا النَّذِيرُ
مَعَ الرَّكَبَانِ يَنْجَدُ أَوْ يَغُورُ^(١)

وَإِنَّا بَعْدَ مَنْ خَوْفَ وَأَمْنَ
رَسُولُ اللَّهِ وَالصَّدِيقُ حَبَّا
وَبَعْدَهُمَا نَحْبُ الْقَوْمَ طُرَّاً
أَلَا بِأَبِي وَخَالِصَتِي وَأَمِي
سَاهَدَى مَا حَيَتْ لَهُ ثَنَاءٌ

٤- المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر: كان يتبع أحوال حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدى في سنة ٣٥٥هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزם ودب وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، التي كانت تزيد على مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويتزلعوا في ر CAB جوهر الصقلي، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطنى إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمسة عقود متالية في الشمال الإفريقي، رفضين المذهب الباطنى معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدى التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلباً من أعونه وسعياً للقضاء على الدولة العباسية وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٨هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلي الذي لم يجد أى عناء في ضمها لأملاك العبيدين وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة ٣٦١هـ ليكون مختصاً لإعداد دعوة المذهب الإسماعيلي الباطنى وبعد أن مهدت مصر للمعز الفاطمى العبيدى جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجى بلkin بن زيري وضم المعز إلى مصر كلا من طرابلس وسرت وبرقة وكان معه شاعر الذى غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسى الذى قال:

وَكَانَتْ أَنْصَارَكَ الْأَنْصَارَ
فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
حَقًا وَثَمَدًا إِنْ تَرَاهُ النَّارُ

فَكَانَتْ أَنْتَ السَّنِيْيِّ مُحَمَّدٌ
مَا شَتَّتْ أَنْتَ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ
هَذَا الَّذِي تَجْدِي شَفَاعَتَهُ غَدَأً

(١) رياض النقوس (٢/٤٩٤).

ومن شعره في المعز:

والفوق أنت وكل فوق دون
وأقرب بهم زلفى فأنت مكين

النور أنت وكل نور ظلمة
فارزق عبادك فضل شفاعة
ومنه:

غفاراً موبقة الذنب صفوحاً
لدعى من بعد المسيح مسيحاً
وتنزل القرآن فيك مدحياً

تدعوه متقدماً عزيزاً قادراً
أقسمت لولا أن دعى خليفة
شهدت بمحرك السموات العلا

ومنه:

لم يؤت في الملائكة ميكائيلا
لم يخلق التشبيه والتآوila

وعلمت من مكنون سر الله ما
لو كان آتى الخلق ما أؤتيه

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في ٣٦٢هـ وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة ٣٦٢هـ، وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة، وتأسف المعز على قتله. وقال: هذا الرجل كانا نرجوا أن نفاخر به شعراً المشرق فلم يقدر لنا ذلك^(١)، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر، وأمتد ملك المعز من سبته بالغرب إلى مكة بالشرق يأتى بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي، وبقي المعز في مصر ستين ونصفاً وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثة عشرين سنة^(٢). قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفتة وشمخ بأنفه في مصر والشام والجazar والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بويه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرَسْ فعزّلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن^(٣).

٥- زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا: استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر وأثروا في بعض الوزراء والأمراء الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة،

(١) الفتح العربي في ليبيا ص ٣٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٥ / ١١٣ ، ١١٤) .

وأستطيع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها عندما تولى المعز إفريقية في ذي الحجة سنة ٦٤٠ هـ وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضلة، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة وبغضنا للمذهب الشيعي الباطني، واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكرة المعز بن باديس الذي تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي. وقد وصف الذهي المعز بن باديس فقال: وكان ملكاً مهياً، وسريًا شجاعاً عالي الملة، عبأً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثُر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمدة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسى، فبعث إليه المستنصر يتهده فلم يخفه^(١)، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر وقال له: هل اتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك وهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخر وهم لتقديموا بأساففهم^(٢)، وبين لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضلة الباطنية ولحكام مصر وظهر ذلك في عام ٤٣٥ هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله ﷺ، فأوزع للعامة وللجنود بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه، وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله، وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث: كما قتلوا بأرض القيروان
وسوف يقتلون بكل أرض

وقال آخر:

وسَرَرَ وَاغْبَطَاطَ وَجَذَلَ
وعْتِيقَاً فِي الْمَلَاعِينَ السَّفَلَ
بِأَقَاصِي الْأَرْضِ فِي كُلِ الدُّولَ^(٣)

يَا مَعْزَ الدِّينِ عَشَ فِي رَفِعَةٍ
أَنْتَ أَرْضَيْتَ النَّبِيَّ الْمَصْطَفَى
وَجَعَلْتَ الْقَتْلَ فِيهِمْ سَنَةٍ

(١) سير أعلام النبلاء (١٨٠ / ١٨).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، لطاهر الزاوي ص ٢٨٩.

(٣) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، لطاهر الزاوي ص ٢٨٩.

واستمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تحطيمه للانفصال الكلي عن العبيدين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته وأعلن انضمامه للخلافة العباسية وغير الأعلام إلى العباسين وشعاراتهم، ومنع أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم، وأمر بسبك الدرهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيدين والتي استمر الناس يتعاملون بها ١٤٥ سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر ﴿وَمَن يَسْتَغْرِفُ
عَنِ الْإِسْلَامِ دِيَنَ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المختلفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعزلة، والإباضية. وفي سنة ٤٤٣ هـ انضممت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جباراً بن مختار الطاعة له، وكان أول من قاد حملة التطهير ضد الشيعة الإمامية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المستنصر وكنيته أبو الحسن المتوفي عام ٤٣٢ هـ^(١).

٦- جهود السلجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني: كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والشرق ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد وافق الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله الدعاة إلى بغداد سنة ٤٢٥ هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس^(٢)، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، ومن أشهر دعوة وفلسفه المذهب الشيعي الإمامي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البصيري أحد القادة العسكريين في الدولة العباسية، وقد استطاع البصيري أن يستولى على بغداد ويزبح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين، وانقطعت دولة بنى العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلبي العقيلي فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بنى عقيل، وخطب لبني عبيد الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر^(٣). وحاول البصيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش

(١) تاريخ الفتح العربي ص ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) دولة السلجقة للصلabi ص ٥٤.

(٣) أخبار الدول المنقطعة (٣/٤٣، ٥).

ابن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسى وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذة المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محبى الدين بن مهارش العقيلي - صاحب حديث بالتحفظ على الخليفة وتتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيرى للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقيته ببني العباس فى الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام^(١)، ولم يكتفى البساسيرى بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعماته وشباكه^(٢)، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، وكان البساسيرى قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة وأطمعهم في نهب دار الخليفة ونهب أهل الكرخ - الشيعة - دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة التمغاني، وهلك أكثر السجلات والكتب الحكيمية وبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخلافة وأعادت الروافض الأذان بمحى على خير العمل، وأذن به في سائر جوامع بغداد في الجمعة والجماعات، وخطب ببغداد وضررت له السكة على الذهب والفضة، وحُوصرت دار الخليفة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسالمة ووجبه البساسيرى ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً واعتقله مهاناً عنده ونهبت العامة دار الخليفة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجوائز والثياب والدياج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُحَدّ ولا يُوصَف.

وفي يوم عيد الأضحى في سنة ٤٥٠ هـ ألبس البساسيرى الخطباء والمؤذنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرافضة في غاية السرور والأذان في سائر العراق بمحى على خير العمل، وانتقم البساسيرى من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرق خلقاً من كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا، ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسالمة الملقب برئيس الوزراء وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويد، فأركب جملأ^(٣)، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه حلقان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبوه، وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفتهم في كل زمان ومكان، وأوقفوا بيازاء دار الخليفة وهو في ذلك يتلو ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ

(١) الخطط للمقرizi (٤٣٩/١).

(٢) الشباك : هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكل بيديه على حافظه.

(٣) البداية والنهاية (٤٥٩/١٥).

ثُرْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَرْغِيْلُ الْمُلْكَ مَمَّنْ تَشَاءُ وَتَعْزِيْزُ مَنْ تَشَاءُ وَتَذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْحَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [آل عمران: ٢٦] فالبس جلد ثور بقرنيه وعلق بكلوب في شدقته ورفع إلى الخشبة حيًّا، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً^(١).

من خصائص النفسية الشيعية الرافضة الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف ولكن متى استشعروا القوة، فإنها تمارس أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام، وكان طغرل بك السلطان السلاجوقى الذى أزاح البوهيين كان خارج العراق بجيشه يحارب المنشقين عنه ويمكن لدولته ولما قضى على الفتن كر بجيشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسى إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره، واستطاع ملاحقة البساسيرى وقتله وعادت العراق إلى الخلافة العباسية السنوية من جديد وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي مقاومة التغلغل الباطنى والغزو الصالبى. وقد أدرك السلاجقة الخطر الذى يهددهم من وراء الدعوة الفاطمية فى بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبوا سياسة حكيمية بعد أن قبضوا على زمام الأمور فى بغداد تمثل فى مناهضة الدعوة الفاطمية^(٢) ودعاتها بالحرم والشدة فتبعقوها دعاة الفاطمية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية فى بلاد فارس - كما قاموا بإقصاء المتشيعين للمذهب الإسماعيلي عن دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم^(٣)

٧- المدارس النظامية ودورها في الإحياء السنوي والتصدي للفكر الشيعي الرافضي: بدأ التفكير الفعلى في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامى والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام ٤٥٥هـ، فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنيناً متھمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة، وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سنوي ماثل يتصدى له بالحججة والبرهان^(٤). فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية

(١) دولة السلاجقة للصلابي ص ٨٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٩١.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٨.

تعني بنشر مذهبهم في عام ٣٧٨هـ^(١).

هذا بالإضافة إلى البرامج التعليمية التي كانت تعد بعنابة خاصة في عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثر في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الدعوة^(٢)، لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي يتشرّب به، ومعنى ذلك رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً^(٣)، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدّة من الوحي الإلهي، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نسبت إليه، لأنّه الذي جد في إنشائِها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة^(٤). وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قل نظيره في التاريخ السياسي والعلماني والديني. فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التي طاولت الزمن زهاء أربعة قرون إذ كان آخر من عرفنا من درس فيها صاحب القاموس الفيروز أبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ حيث زالت في نهاية القرن التاسع الهجري^(٥)، وأدت رسالتها من تخرج العلماء على المذهب السنّي الشافعى وزودت الجهاز الحكومى بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحساب والاستفتاء، وهى أهم وظائف الدولة في ذلك العصر. وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية في مصر وبلغوا الشمال الإفريقي ودعموا الوجود السنّي بها. لقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون إلى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعى والحديث الشريف وينشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة في دواوين الدولة، وينقل السبكي عن إسحاق الشيرازي - أول مدرس بنظامية بغداد - بقوله: خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا كان قاضيها أو مفتفيها أو خطيبها تلميذى أو من أصحابي^(٦)، وقد أسهمت هذه المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة، وكان أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس وكان الإمام الغزالى على قمة

(٢) التاريخ السياسي والفكري ص ١٧٩.

(١) دولة السلاجقة للصلابي ص ٢٩١.

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٩.

(٦) دولـة السلاجقة للصلـابـي ص ٣٩٠.

(٥) نظام الملك ص ٤٠١.

المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الراضة^(١).

وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين حتى يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات، وتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح وخاصة في المناطق التي كانت موطنًا لنفوذ الشيعة في تلك المرحلة كالشام ومصر وغيرها. إن الأخطار العظيمة التي تواجه الأمة اليوم تمثل المشروع الباطني الجديد النشط في أنحاء المعمورة وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبها وتاريخها وعظامها، فهل نستلهم الدروس ونستخرج الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ فيكون من حكامنا مثل ألب أرسلان في شجاعته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همته وغيره، ومن علمائنا كالجويني والغزالى والبغوى والجيلاني في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة وقضايا الفكر الإسلامي الصحيح، وتوظيف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه المؤثر وفكرة البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله والدار الآخرة ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وإذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السنى فإن من أبرز أثارها أيضاً اختفاء نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالى - العالم السنى - على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الراضة إذ يذكر هو أنه ألف في ذلك كتاباً عدة أشهرها فضائح الباطنية الذي كلف بتأليفه في ٤٨٧هـ من قبل الخليفة المستظر^(٢)، على أن الشيء المثير للإعجاب هو أن شجاعة الغزالى في حملته على الإسماعيلية الباطنية جاءت فى وقت انتشر فيه دعائهم فى فارس، وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع وهددوا أمن الناس وسلامتهم وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه. والغزالى قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة مع رغبة الغزالى العالم السنى فى القيام بواجبه فى الدفاع عن الإسلام الحقيقى وهذا شيء جليل لما تلتقي جهود السلطة السياسية مع علمائها فى تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كذلك قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطنى، فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت

(١) رجال الفكر والدعوة (١/٢٠٤)، الغزالى للقرضاوى ص ٥٧.

(٢) المجهاد من المجرة إلى الدعوة والدولة ص ١٤٧.

بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت كما يقول الأستاذ الندوبي - أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور^(١)، وأما الباطنية، فكانت تتسرب إلى المجتمع وتتفتت سموها فيه، وكان لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي. وكان لكتابات الغزالى أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكرة القوى وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الاطني، وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال: ظاهروهم الرفض وباطنهم الكفر الحضن، فهم يسترون بالتشيع وما هم من الشيعة من شيء، وإنما هو قناع يخونون وراءه كيدهم لأهل الإسلام^(٢). وما يذكر للغزالى استمراره على نقد هذه الطائفية وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك، وكانت الشيعة الاطنية تهدد كل من يرونها خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالى في صدّه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكون التبيجة ولن يصيّب إلا ما كتب الله له^(٣). وهذا درس وتذكرة للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الاطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويختلفون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية، وبعضهم وقع تحت تأثير إبر التخدير الاطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة، ولذلك تركوهم يعيشون بعقائد الأمة ومقدساتها وساعدتهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تقلب فيه القلوب والأبصار ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم.

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

قام الوزير الفاطمي ابن السلاط - السني المذهب - بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال، ويقوم

(١) الإمام الغزالى بين مادحه وناديه ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٢.

الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبيين وعرض عليه ابن السلاط أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح له مدى انشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفاطميين إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته^(١). ويلاحظ أن ابن السلاط استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام ١١٥٦هـ / ٥٤٦م أسطولاً أفقى عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية، وقد تحدث الذهبي عن ابن السلاط فقال: وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً مهياً شافعياً سنياً، ليس على دين العبيدية، احتفل بالسلفي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف^(٢) وجبروت. وتجددت المحاولات السابقة في عهد وزارة طلائع ابن رزيك الذي اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ غير أن نور الدين لم يتوجه وكأنه يرى أن الفرصة المناسبة لم تأت بعد. وكانت بين أسامة بن منقذ وأبي الغارات طلائع بن رُزِيك مساجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزِيك:

فقولوا لسور الدين لا فل حدة
تجهز إلى أرض العدو ولا تهمن
ومنها ما كتبه إلى أسامة بن منقذ:
يا سَيِّدَا يَسْمُو بِهِمْتَه
فِي نَالْ مِنْهَا حَيْنَ يُحَرَّم
أَنْتَ الصَّدِيقُ وَإِنْ بَعْدَتْ
ثَبِيْكَ أَنْ جِيشَنَا
سَارَتْ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ
فَتَغِيرُ هَذِي بُكْرَةً
فَالْوَيْلُ مِنْهَا لِلْفَرْنجِ
جَاءَتْ رَؤُوسُهُمْ تَلْوِحُ
إِلَى الرُّتْبَ بِالْعَلَيِّةِ
غَيْرِهِ أَوْ فَيْ مَزِيْةَ
وَصَاحِبِ الشَّيْمِ الرَّضِيَّةِ
فَعَلَتْ فِعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ
أَبْطَاهَا مَئِسَّرَةً
وَثَعَادُ الْأَخْرَى عِيشَيَّةَ
فَقَدْ لَقِوا جَهَدَ الْبَلَيَّةَ
عَلَى رُؤُوسِ السَّمْهُرِيَّةِ

فَلَا حَكَمَتْ فِيهِ الْلَّيَالِيِّ الْغَوَاشِمِ
وَتَظَهَرَ فَسُورَا إِنْ مَضَتْ مِنْكَ حَارِمَ
يَا سَيِّدَا يَسْمُو بِهِمْتَه
فِي نَالْ مِنْهَا حَيْنَ يُحَرَّم
أَنْتَ الصَّدِيقُ وَإِنْ بَعْدَتْ
ثَبِيْكَ أَنْ جِيشَنَا
سَارَتْ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ
فَتَغِيرُ هَذِي بُكْرَةً
فَالْوَيْلُ مِنْهَا لِلْفَرْنجِ
جَاءَتْ رَؤُوسُهُمْ تَلْوِحُ

(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٨٤.

(١) كتاب الروضتين (١/ ٣٧٠).

بين الجنود على السَّوَيَّةِ
 الأَسْرَى تَقَادُ إِلَى الْمَيْتَةِ
 الْمُدِينَ بِالْحَمَالِ الْجَلَيَّةِ
 بِهَا تَكُونُ الْقَضَيَّةِ
 مِنْهُ أَفْعَالًا وَنَيَّةِ
 الرُّقُّاقِ الْمُشَرِّفَةِ
 يَفْنِي بِهَا تَلَكَ الْبَقِيَّةِ
 أَوْ مَلَكَهُ أَوْ لِلْحَمَيَّةِ

قد حاز في الفضل الْكَمَالَ
 عَلَى مَكَارِمِهِ عِيَّا الْأَ
 الأَشْعَارِ مُسْرِعَةً عَجَالًا
 مِنْ مَحَاسِنِكَ الْوَصَالَ
 حَتَّى لَمْ تَبْذُلْ فَعَالًا
 فِي الْمَسْوَدَةِ وَاحْتَمَالًا
 أَصْخَتْ قَصَارًا أَوْ طَوَالًا
 الشَّامَ تَعْسِفُ الرَّمَالَ
 جُرْدَ الْخَيْلِ أَتَيَاعًا ؟ وَالْوَالِيَّ^(١)

يَجْعَلُ فَعْلَنَا فِيهِمْ مَثَالًا
 كَيْ يُثَالِهِمْ نَزَالًا
 بِمَا قَدْ كَانَ قَالَا
 فِي مَعْاقِلِهَا اعْتَقَالًا
 الغَرْبُ أَوْ قَصَدُوا الشَّمَالَا

وَقَلَائِعَ قَدْ قُسَّمتْ
 وَخَلَائِقَ كَثُرَتْ مِنْ
 فَانْهَضَ فَقَدْ أَنْبَيَتْ مُحَمَّدَ
 وَالْمَمْ بِنُورِ الدِّينِ وَاعْلَمَهُ
 فَهُوَ الَّذِي مَا زَالْ يَخْلُصُ
 وَيُؤْيدُ جَمْعَ الْكُفَّارِ بِالْبَيْضِ
 فَعَسَاهُ يَنْهَضُ نَهْضَةَ
 إِمَّا لِلنُّصُرَةِ دِينَهُ

وَكَتَبَ إِلَى أَسَامَةَ بْنَ مَنْقُذٍ أَيْضًا فَقَالَ:

قَلْ لَابْنِ مَنْقُذٍ الَّذِي
 فَلَذِكَ قَدْ أَضْحَى الْأَنَامَ
 كَمْ قَدْ بَعْثَنَا نَحْنُوكَ
 وَصَدَدَتْ عَنْهَا حِينَ رَامَتْ
 هَلَاءَ بَذَلَتْ لَنَا مَقَالَا
 مَعَ أَنْتَأُولِيكَ صَرِيرًا
 وَنَبْلُكَ الْأَخْبَارَ إِنْ
 سَارَتْ سَرَایَاتِ لِقَصَدِ
 ثَرْجَيَّيِّ إِلَى الْأَعْدَاءِ

إِلَى أَنْ قَالَ:

فَلَوْلَوْ أَنَّ نَسْوَرَ الْمُدِينِ
 وَيُسَيِّرُ الْأَجْنَادَ جَهَرًا
 وَوَفَى لَنَا وَلِأَهْلِ دُولَتِهِ
 لِرَأْيَتِ لِلْإِفْرَنجِ طَرَرًا
 وَتَجْهَيَّزُوا لِلسَّرِيرِ نَحْنُ

(١) كتاب الروضتين (٣٦٨/١).

النصر يحة واعٍ زالا
لحكمة خالقنا تعالى^(١)

وأك رمهم فعالا
بئه قدرًا وحالا
فخراً ومجدًا لن ينالا
في جوانحه اشتعالا

إذا أبلى إلأ اطراح
عُذنا بتسليم الأمور

فأجابه ابن منقد بقصيدة منها:

يا أشرف الوزراء أخلاقاً
بئهت عياداً طالما
وعبت فافتله
لكن ذاك العتب يُشعِّل

إلى أن قال:

نور الدين والقبه الرجال
الشام جمعاً أن ظزلا
وجمعهم حالاً فحالا
والدنيا بدولته اختيالا
فلهم يدع منها مجالا
رأت عيونهم الكمالا
جمى وللدنيا جمالا^(٢)

واشتد يديك بود
 فهو المحامي عن بلاد
وميبد أملاك الفرنج
ملوك يتنه السدهر
جمع الخلال الصالحات
فإذا بـدا للظاظرين
فبقيتما للمسلمين لمرين

ولم يدخل نور الدين في تحالف عسكري مع طلائع بن رزيك إلا أنه اهتم بالاتصالات الدبلوماسية، وقد وصلت في ٥٥٢هـ / ١١٥٧م سفارة من جانب نور الدين وتكرر ذات الأمر في العام التالي أي ٥٥٣هـ / ١١٥٨م، وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النوري إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين^(٣). ونجد سفارة أخرى من نور الدين في عام ٥٥٤هـ / ١١٥٩م ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد في عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م بالخلع إليه، والواقع أن التعليل المنطقى لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م أدركوا عن ذي قبل؛ خطورة

(٢) الجهاد والتجديد ص ١٩٥.

(١) كتاب الروضتين (٣٦٩/١).

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٦.

الصلبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري^(١).

ـ دوافع فتح مصر عند نور الدين: كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتأمرها معهم وهي التي تبنت المذهب الباطي ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجروا المرة تلو المرة، وعندما جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخلص مصر من مطامعهم، وإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين^(٢)، ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر فيما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء، فقد قتل الطاfer على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاءون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور وضرغام، فضلت الدولة وسادت الفوضى في البلاد، ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده «ضرغام» ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتوحيد الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العاسي باطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام ٥٤٩ هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر^(٣).

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتأمرت مراراً مع أعدائهم^(٤). فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام^(٥)

(١) الجهاد والتجدد ص ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٥.

(٤) مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ص ١٣.

وفي هذه الظروف التي كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام ٥٥٩ هـ الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، ووعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر، إذا ساعده في التغلب على ضراغم عدوه، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكته بمصر، ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين^(١). لكن نور الدين كان متربداً متريثاً، يقدم إلى هذا العرض رجلاً، ويؤخر أخرى حتى استخار الله في الأمر، على ما هنالك من خطأ جسيمة مماثلة في الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه في إخلاص شاور السعدي^(٢). ثم جهز نور الدين الحملات المتواترة، ووجهها نحو مصر منذ عام ٥٥٩ هـ حتى ٥٦٤ هـ بقيادة أسد الدين شيركوه^(٣).

٢- الحملة النورية الأولى ٥٥٩ هـ:

قرر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

- الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمها، وبخاصة أن شاور وعده إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنته في مصر.

- إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضراغم بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق^(٤)، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوض للدخول مصر وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعاده على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادي الآخرة ٥٥٩ هـ / شهر نيسان ١١٦٤ م

(١) الكامل في التاريخ نقلأً عن الجهاد والتجدد ص ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨.

(٣)

الجهاد والتجدد ص ١٩٨.

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٢٨.

بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره وسار على الطريق المحدد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون^(١)، وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً لحياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر^(٢)، وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه أجتاز بربخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل صراغم قوة عسكرية بقيادة أخيه يدعى ناصر الدين، للتصدي لزحفه، أسرف لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادي الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضراغم بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة، وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة. اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلى الجيش والناس وال الخليفة عن ضراغم، وقتل أثناء حماولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة - المزعوم - في شهر رجب ٥٥٩هـ / شهر حزيران ١١٦٤ م كما قتل أخوه ناصر الدين، ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة متصرفاً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكراً خارجها^(٣).

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التي اتصف بها - من المكر والخداع - ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود، بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، ورداً على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية^(٤)، ولم يسع شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأنب للزحف على مصر، وأخذ يخوفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

(١) التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٦.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٢٩.

(٤) الباهر ص ١٢١ - ١٢٢، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣٠.

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

- يمنع هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لاغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

- يتکفل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر^(١). وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار محاولاً بذلك إثارة لهم لمصلحته الخاصة، ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت خواوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحب بها، وبذلك لم يُضيع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الخليف، الأمر الذي لا يهمه في شيءٍ فكل ما يعنيه هو دخول مصر^(٢).

٣- حملة عموري الثانية على مصر: فشلت حملة عموري الأولى على مصر واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس وكانت في عام ٥٥٨هـ / ١١٦٣، وعندما أتيحت الفرصة مرة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وقرر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقائد من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي، وأمل في أن يتمكّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرر بأن يتولى بوهيميوند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه^(٣)، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام ٥٥٩هـ / شهر آب عام ١١٦٤ واتصل، فور وصوله إلى فاقوس^(٤)، بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بليس، وصمداً هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلاها عن موقعه^(٥)، وفجأة قرر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، مما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ وهنا تبرز عبرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة، فقد تلقى عموري الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرض

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣٠.

(٢) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.

(٣) فاقوس : مدينة في جوف مصر الشرقي (٤/٢٢٢).

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.

متلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضى عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بليبيس. وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت في النفاد فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد وأن الوضع العسكري ليس في صالحه لذلك قبل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر^(١).

وفعلاً تم الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، شهر تشرين الأول، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه^(٢). وكان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لصالحه، فتخلص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء كما تخلص من ضراغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والتحكم في مقاليد البلاد^(٣)، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر، تحت تصرف نور الدين محمود، وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها، وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء بهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثير الخليفة بما سمعه وشجعه على العودة إليها^(٤).

وعلى الرغم من أن حلة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن التسليمة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعمت في بلاد الشام وارتفع شأنه في العالم الإسلامي، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم^(٥)، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تمنع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويتصادر أموال الناس، بحيث لم يبق لل الخليفة الفاطمي العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور

(١) (٢) (٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.

(٤) (٥) المصدر نفسه ص ٣٣٢.

الدين محمود يستنجد به ليخلصه منه^(١).

٤- الحملة النورية الثانية: أعد نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في شهر ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ / شهر كانون الثاني عام ١١٦٧ م بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبة ابن أخيه صلاح الدين وسيئ معه جماعة من الأمراء^(٢)، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس^(٣)، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرض الصليبيين له^(٤)، وسار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالمخاطر، فالصلبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضون عليهم وينكلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيروا طريق سيرهم أحياناً للتخفى، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد، وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر، الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيشه عنها، حتى لا يتمكن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود^(٥). وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجندي لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء متأخراً^(٦). وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرض ل العاصفة الرملية عرقلت تقدمه، وكانت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في شهر ربيع الآخر / أوائل شهر شباط) وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين حتى بلغ نهر النيل عند أطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة^(٧)، ثم عبر إلى

(١) التحوم الزاهرة (٥/٣٤٨).

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٢.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/١٣).

(٤) الكامل في التاريخ نقلأ عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٢.

(٥) مفرج الكروب (١٤٩/١)، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.

(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.

(٧) الكامل في التاريخ نقلأ عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.

الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسکر بمواجهة الفسطاط، وتصرف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً^(١).

أ- حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية:

خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧ م متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المأثور من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس، وارتاع شاور من ظهوره المفاجيء وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى أطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافه إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقي به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة^(٢)، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعين ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يقسم عموري الأول على هذا^(٣)، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائهما صيغة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من هيو، سيد قصارية، وجفرى، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستقبل الرسولان استقبلاً حافلاً في القصر الفاطمي وتم التصديق على المعاهدة^(٤). وكان من الطبيعي أن يرحب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية، وتبع أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد^(٥).

ب- معركة البابين: كان أسد الدين والعسكر الثوري قد ساروا إلى الصعيد بلغوا مكاناً يُعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادي الأولى وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم، وجدّهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتاً لهم، وأن تحكم السيف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطّبهم فيه أقرب من السّلام، لقلة عددهم ويعدهم عن بلادهم فاستشارهم، فكلّهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشّام وقالوا له: إنّ نحن انهزمنا - وهو الذي لا شك

(١) الكامل في التاريخ نقاً عن تاريخ الزنكيين ص ٣٤٤ . (٢) وليم الصوري (٨٩٦/٢).

(٣) المصدر نفسه (٨٩٩/٢)، تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٤ .

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٤ . (٥) المصدر نفسه ص ٣٤٤ .

فيه - فإلي أين نتجي وبين نتحمي، وكل في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا، ويودون لو شربوا دماءنا؟ وحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بعذوا عن ديارهم ونأى ناصرهم أن يرتاب من لقاء عشرات الألوف، فلما قالوا ذلك قام إنسان من المالك الثورية يقال له شرف الدين بزغش - وكان من الشجاعة بالمكان المشهور - وقال: من يخاف القتل والجرح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عذتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاه تُعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتُوه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أناخذن أموال المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرّف فيها الكُفَّار؟ قال أسد الدين هذارأيي ويه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر المواقفون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعنته، وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية فقد جعل الأثقال في القلب يستكثِر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظلون أنني في القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزاره وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقونهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزوا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حيئته أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الفرنج الذين حملوا على القلب - من المصريين والفرنج - فهزمهم وضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وأنهزم الباقيون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار، فانهزوا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل^(١).

جـ- حصار الإسكندرية: ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبي ما في طريقها من القرى والسواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فسلمها من غير قتال؛ سلمها أهلها إليه فاستتاب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتسلكه وجبي أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية - وبها صلاح

(١) الباهر ص ١٣٢ - ١٣٣ ، كتاب الروضتين (١٣/٢).

الدين في عسكر ينعنونها منهم، وقد أعادتهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح^(١).

د - المفاوضات النورية - الصليبية بشأن الجلاء عن مصر: وبعد مفاوضات بين الطرفين

تم عقد صلح على الأسس التالية:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.

- تبادل الأسرى.

- إطلاق سراح الجنود النوري داخل الإسكندرية.

- بخرج شيركوه مع عسكره من مصر.

- عدم التعرض لهم في الطريق من قبل القوات الصليبية.

إن قراءة متأنية لسير الواقع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح وما حدث بعد إبرام الاتفاقية يمكن رصد الملاحظات التالية: فقد وافق الجانبان النوري والصليبي الفاطمي على:

- خروج القوات النورية والصليبية من مصر.

- تبادل الأسرى.

- يتعهد شاور بـألا يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا

أسد الدين شيركوه^(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في شهر شوال / شهر آب) في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقي الرجال وأعجب كل منها بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام^(٣). على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكُد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتاج هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى^(٤). وكانت هذه هي المرة الثانية التي يغدر

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٤/٢). (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٥٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥١. (٤) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٤.

فيها شاور وقد علمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تكرر، واقتصرَ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م^(١).

هـ- الحماية الصليبية على مصر: غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في شهر ذي القعدة / شهر أيلول في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه من بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصلبيين.
- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرّر محاولة الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم^(٢).

والراجح أن فكرة تملك مصر كانت نашطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعيه أن يتخلّى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين^(٣). وبهذه الإجراءات تأكّدت الحماية على مصر، وترتب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري^(٤).

٥- الحملة التورية الثالثة على مصر عام ٥٦٤ هـ:

سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة في القاهرة، وسلموها أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملوكهم عموري - في القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهونوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بليسيس مستهل صفر ونهبواها، وقتلوا وأسرعوا من فيها، ثم ساروا إلى «القدساط» فأمر شاور بإحرارها وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن يملكونها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المسؤول للعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملوكهم عموري ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها «مائة ألف دينار» وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال فلم

(١) (٢) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٥.

(٣) النجوم الظاهرة (٣٤٩ / ٥).

(٤) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٥.

يستطيع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث إن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أمواهم^(١).

أ- العااضد يستنجد بنور الدين محمود:

كان حاكم مصر العااضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج^(٢)، وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

- منحه ثلث بلاد مصر.
- منح قادته الإقطاعات.
- يسمح لشريكوه بأن يقيم في مصر^(٣).

ب- أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة:

شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وإعدادها إعداداً قوياً وأعطى قائداً الحملة (شيركوه) مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن، يأخذ حاجته، فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف، وسار نور الدين وشريكوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء^(٤)، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شريكوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي^(٥)، وسار أسد الدين مجدًا فلما قارب مصر، رحل الفرنجة إلى بلادهم بمخفي حنين، خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشارتين في بلاده ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعااضد، الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرایات الكثيرة^(٦).

ج- مقتل شاور: وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجندي، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين

(١) (٢) كتاب الروضتين نقلًا عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٢.

(٣) تاريخ الفاطميين، محمد سهيل طقوس ص ٥٠٤.

(٤) الجهاد والتجديد ص ٢٠٢، رأس الماء في منطقة حوران.

(٥) الكامل في التاريخ نقلًا عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٢.

(٦) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/٥٥).

وأمراه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرّفَنَ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن قُتلت ونحن مسلمون والبلاد بين المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحيثند لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه^(١)، وأخيراً اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر، عام ٦٤٣ هـ^(٢).

د- تولى أسد الدين الوزارة للعاضد: ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشاعر أسد الدين شيركوه لما حقق من الانتصارات، فقال العماماد:

ونلت ما عجزت عن نيله القدر
فقل لنا: أعلى أنت أم عمر
ما قد فعلت، فكلّ فيك مفتکر
وصلّت إذ جبوا، بل طلت إذ قصروا^(٣)

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً
أخير فإن ملوك الأرض أذهلهم
سهرت إذ رقدوا بل هجنت إذ سكنوا

هـ- وفاة أسد الدين: ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، رحمه الله رحمة واسعة وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين^(٤). وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهدها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام وكان رحمة الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره فهابه جنده وأحبه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة^(٥) نفع الله بها الإسلام والمسلمين وأسهمت في تقوية المشروع بإذن الله عن أسد الدين شيركوه وبني أيوب في حديثنا عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة صلاح الدين الأيوبى بإذن الله تعالى.

(١) كتاب الروضتين (٢/٥٦).

(٢) كتاب الروضتين ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) كتاب الروضتين ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٤ .

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي أنجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته لعمه، أسد الدين شيركوه، أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عميه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، اختاره العاضد لأنّه كان أصغر الأمراء سنًا ولعله يكون أكثر طواعية له، إلا أن الملك الناصر - كما لقبه العاضد - خيب ظن الفاطميين، فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عميه، فمال الناس إليه وأحبّوه وسيطر على الجندي سلطة تامة^(١)، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة واستطاع القضاء على مراكز القوة:

- مؤامرة مؤمن الخليفة: جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة الفاطمية، لازالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جائماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم ليتفرغ لمحاباه ما قد ينشأ من تطورات سياسية، ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة وهو عازم على الاستئثار بكل الاختصاصات حتى التي تخص منصب الخليفة ونفذ عدة تدابير كفلت له الميمنة التامة منها:

- استعمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبّوه.
- أخضع عماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجندي بعد أن أحسن إليهم.

- قوى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية^(٢). وقد أدت التدابير التي نفذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد، وبالتالي مركز الإمامة، وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤمن الخليفة، وهو نوبي، وقائد الجندي السوداني، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً، وبيدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن

(١) الجهاد والتجدد ص ٢٠٥.

(٢) تاريخ الفاطميين ص ٥٠٩، البداية والنهاية (٤٣٣/١٦).

يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويثبت على منصب الوزارة ويتقاسم البلاد مع الصليبيين، غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتّخذهما رسول مؤمن الخليفة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياتتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤمن الخليفة وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أبناء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لهاجة مصر^(١). وقد قام صلاح الدين بإبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخليفة، واستعمل على الجميع في القصر، بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره^(٢).

- وقعة السُّودان: وذلك أنه لما قتل الطوashi^(٣)، مؤمن الخليفة الخادم الحبشي، وعزل بقية الخُدَّام غضباً لذلك واجتمعوا قريباً من خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيشه الملك صلاح الدين بين القَصْرَيْن فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قُذِفَ الجيُشُ الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد وقيل: لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر - صلاح الدين - شمس الدولة توران شاه - وكان حاضراً للحرب قد بعثه نور الدين إلى أخيه ليُشدَّ أزره - أمر بإحرق منظرة العاضد، ففتح الباب وُؤْدِي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلاذكم، فقوى الشاميون وضعف جأش السودان جدًا، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالنصرة التي فيها دورُهم وأهلوُهم بباب زويلة فأحرقها فولوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم السيف فقتل خلقاً كثيراً، ثم طلبوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدولة توران شاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل ﴿فَلَمْ يَبْرُءُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَّمُوا﴾ [النمل: ٥٢]^(٤). ويبدو أن حاكم مصر الفاطمي كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤمن الخليفة، لأنَّه ليس من المتصور أن يجري ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أنَّ قوات صلاح الدين يوسف بن أيوب تعرضت وهي تصفي أطراف المؤامرة، هجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إنَّ العاضد كان يراقب المعركة من القصر^(٥).

(١) الكامل في التاريخ نقلأً عن تاريخ الفاطميين ص ٥١٠. (٢) البداية والنهاية (٤٣٤ / ١٦).

(٣) الطوashi: جمع طواشية وهو الخصيان الذين استخدموها في الطبقات المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.

(٤) البداية والنهاية (٤٣٥ / ١٦).

(٥) الطريق إلى القدس ص ٩١.

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء وبالذات القاضي الفاضل الذي كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وثبت المذهب السني وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضي الفاضل يرافق كتاب ديوان الإنشاء والمسرحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية، في القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محطات البريد أو محطات الاتصال بين مصر والفرننج، وقد كانت هذه العيون على اتصال مباشر بالقاضي الفاضل تزوده بتقريرها بواسطة الرسل وعلى أجنحة الحمام الزاجل^(١).

٣- القضاء على الأرمن: ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء على شوكة السودان بل أتبعه بفل شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنساب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد^(٢)، أضعف صلاح الدين بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً^(٣).

٤- اهتمام صلاح الدين بتقوية جيشه: أخذ صلاح الدين يعمل حال توليه الوزارة على إعداد جيش أبيوي ليكون نواة لجيش مصرى جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يخف عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة ٥٥٩هـ وسنة ٦٦٤هـ / ١١٦٣ - ١١٦٨ م وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والخربية، ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان، والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان، وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق^(٤)، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر كما أشرنا سابقاً، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة، الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز

(١) القاضي الفاضل عبد الرحيم البisanاني العسقلاني ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) (٣) المصدر نفسه ص ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦.

معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش، ويشرف على العيون والرسل، فألم بهذه القوات وعرف دخائلها واطلع على كل فرقة منها، وعلى نيات كل قائد من قوادها، ولم يضنَّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين ومن الشام إلى مصر لستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج، وقد أنشأ صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعدة بمرور الوقت واتساع عملياته الخربية ضد الفرنج، وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكونت من أمراء الإقطاع وجندتهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة ١٧٤ هـ / ٥٧٠ مـ والبدو^(١)، ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط ٥٦٥ هـ:

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر، وتولى صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس «عموري» مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم وحاصروها دمياط تنفيذاً لذلك التحالف^(٢)، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكوا ما هم فيه من المخافة ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثرى، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية^(٣) .. إلى صلاح الدين فسر. وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه واتخذ القرار السليم ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر، ليترنح بعد ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الإستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي^(٤) وقامت حامية دمياط بدور بطلوي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت

(٢) الجهاد والتجدد ص ٢٠٧.

(١) القاضي الفاضل ص ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧.

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٠.

وصول السفن اليونانية إليها وأنزل المسلمين المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حول المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهما للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطع البحارة الذين كانوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم ففرق معظمها، ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً^(١).

١-أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصلبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

١- فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

- صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.
- سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المهاجرين.

- التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

٢- القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق^(٢):

- موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوئاً كثيرة يتبع بعضها بعضاً، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فقصد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط^(٣).

- استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فعالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبي لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرقة^(٤)، والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وإنزال نصره على عباده المجاهدين.

(١) الجهاد والتجدد ص ٢٠٨.

(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل وببلاد الشام ص ٣٧٩.

(٣) البداية والنهاية (٤٤٠ / ١٦).

(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وببلاد الشام ص ٣٨٠.

بـ- فيما يتعلّق بالجانب الصليبي:

- لقد أخرَ الملك عموري الأول المهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحسين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد^(١).
- إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرّضت لمجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المفرج^(٢).

جـ- فيما يتعلّق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوسيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً وبذا كانه قائد بري وليس قائداً بحرياً.
- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.
- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.
- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يسبتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.
- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

دـ- هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرضت القوات المتحالفه للسيول التي أغرتت معسراها وللعواصف التي كانت تبعد قطع الأسطول عن الشاطئ.
- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفه، وهي المنطقة التي تمت بطول الساحل، وبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً حيث حشروا في هذا المكان الضيق، فقدوا حرية الحركة والانتشار الضروري للدخول في معركة ناجحة.
- أدى سوء اختيار المكان أن أصبحت القوات المتحالفه هدفاً سهلاً لرمي المسلمين وهجماتهم.
- عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القياداتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما

(١) تاريخ الزنكين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٨١.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٠.

بينهما، مما تسبب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتنشى الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة.^(١)

٢- نتائج الحملة على دمياط:

يعد فشل الحملة الصليبية - البيزنطية المشتركة على دمياط أصبحت هذه الحادثة نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول مهمة - أيضاً - في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتأمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

بات المسلمون يهددون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضيق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحووا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين^(٢).

إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية فإن هزيمة النصارى أمام دمياط شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خلّيت أمله، وأناحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيهه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي والإسماعيلي، وقدرت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية وأضحت سيد مصر دون منازع^(٣).

٣- وصول نجم الدين أيوب إلى مصر: طلب صلاح الدين من نور الدين إرسال والده إليه فوافق نور الدين على ذلك، وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي^(٤).

(١) ، (٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٨١

(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨٢ .

وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشى نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق^(١)، ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسماة، وخرج العاضد - صاحب القصر - لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه، واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف - عليهما السلام - حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]. وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين وال الخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقربين: ﴿وَرَأَعَلَى الْعَرْشِ وَخَرُوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايِّي مِنْ قَبْلِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفاء له، فلا ينبغي أن تغير موقع السعادة^(٢)، فحكمه في الخزائن بأسرها وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة^(٣). وفيما حدث لصلاح الدين من اجتماعه بوالده وأهله قال عمارة اليماني:

ما كان من نعمى بني أيوب
حسبي فائتم غاية المطلوب
عز القوى وذلة المغلوب
لولم يجلوها أتت بكروب
عُتقاؤهم من نازح وغريب
وهم للباب فأنت غير لبيب
تشكوه سقاماً لم يُعن بطبيب
والدهر ولاد لك لعجيب
نسقاً على ضرب من التفريب
مصر على التدرج والترتيب^(٤)

من شاكر والله أعظم شاكر
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا
جلبوا إلى دمياط عند حصارها
وحلوا عن الإسلام فيها كربة
فالناس في أعمال مصر كلها
إن لم تظن الناس قسراً فارغاً
صحت به مصر وكانت قبله
عجبًا لمعجزة أنت في عصره
رد الإله به قضية يوسف
 جاءاته إخوته ووالده إلى

(٢) مفرج الكروب (١٨٦/١).

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٦.

(٣) المصدر نفسه ص (١٨٦/١).

(٤) عيون الروضتين (٣٠١، ٣٠٢).

وَحُكِيَ أَنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ صَلَاحُ الدِّينَ بْنُ الْوَالِدِ فِي دَارِ الْوُزَارَةِ، وَقَعَدَا عَلَى طَرَاهَةٍ وَاحِدَةٍ، ذَكَرَ نَجْمُ الدِّينَ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينَ وَلَدَ لِيْلَةً إِخْرَاجَهُ مِنْ قَلْعَةِ تَكْرِيتَ قَالَ: فَتَشَاءَتْ لَهُ وَتَطَيِّرَتْ لَمَّا جَرِيَ عَلَيْهِ وَكَانَ مَعِيَ كَاتِبُ نَصْرَانِيَ فَقَالَ: يَا مَوْلَايَ مِنْ يَدْرِيكَ أَنَّ هَذَا الطَّفَلُ يَكُونُ مَلِكًا عَظِيمًا عَظِيمَ الصَّيْبَتِ جَلِيلَ الْمَقْدَارِ. قَالَ: فَعَطَفَنِي كَلَامُهُ عَلَيْهِ. فَتَعَجَّبَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ هَذَا الْإِتْفَاقِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ^(١). وَقَدْ تَوَفَّ نَجْمُ الدِّينَ أَيُوبَ فِي ٥٦٨ هـ فَقَدْ رَكِبَ نَجْمُ الدِّينَ أَيُوبَ، فَشَبَّ بِهِ فَرْسُهُ بِالْقَاهِرَةِ عِنْدَ بَابِ النَّصْرِ وَسَطَ الْمَحْجَةَ يَوْمَ الْاثْنَيْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَةِ، وَحَمَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَعَاشَ ثَمَانِيَّةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ تَوَفَّ يَوْمَ الْثَّلَاثَاءِ السَّابِعِ وَالْعَشَرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَةِ، وَكَانَ كَرِيمًا رَحِيمًا عَطْوَفًا حَلِيمًا وَبِابِهِ مَزْدَحَمٌ بِالْوَفُودِ، وَهُوَ مُتَلِّفٌ الْمَوْجُودُ بِبَذْلِ الْجَهُودِ^(٢). وَكَانَ نَجْمُ الدِّينَ عَظِيمًا فِي أَنْفُسِ النَّاسِ بِالْدِينِ وَالْخَيْرِ وَحَسْنِ السِّيَاسَةِ، وَكَانَ لَا يَمِرُّ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْدِينِ بِهِ إِلَّا حَمَلَ إِلَيْهِ الْمَالَ وَالضِيَافَةَ الْجَلِيلَةَ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ فِي مَدِينَةِ إِلَّا أَنْفَدَ إِلَيْهِ^(٣)، وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينَ غَائِبًا فِي بَلَادِ الْكَرْكِ وَالشَّوْبَكِ عَلَى الْغَزَاءِ، فَدُفِنَ إِلَى جَانِبِ قَبْرِ أَخِيهِ أَسْدِ الدِّينِ فِي بَيْتِ فِي الدَّارِ السُّلْطَانِيَّةِ، ثُمَّ نُقْلَا بَعْدِ سِنِينٍ إِلَى الْمَدِينَةِ الْشَّرِيفَةِ النَّبُوَيَّةِ عَلَى سُكَّانِهَا أَفْضَلُ الصَّلَوةِ وَالسَّلَامِ وَقَبْرِهِمَا فِي تَرْبَةِ الْوَزِيرِ جَمَالِ الدِّينِ الْأَصْفَهَانِيِّ وَزَيْرِ الْمُوَصَّلِ^(٤)، وَقَدْ رَثَاهُ عَمَارَةُ الْيَمَانِيِّ فَقَالَ:

وَحَادَثَتِ الْمَوْتُ لَا يُقْيِي وَلَا يَذْرُ
لَوْأَرَتَ عَنْدَنَا الْآيَاتِ وَالْثُّدُرُ
فَمَا مَعَ الْمَوْتِ لَا غَشِي وَلَا كَدْرُ
لَمْ يَنْجِ مِنْ سُكْرِهَا أَنْثَى وَلَا ذَكْرُ
مَا أَضَعَفَ الْقَدْرُ إِنَّ أَلْوَى بِهِ الْقَدْرُ
شَعُوا يَقْطَرُ مِنْهَا التَّابُ وَالظُّفُرُ
وَلَمْ يَفْتَهَا أَبُو بَكْرٌ وَلَا عُمَرٌ
فَلَلْوَرِي بِرَسُولِ اللَّهِ مُعْتَبِرٌ^(٥)

صَفُّ الْحَيَاةِ وَإِنْ طَالَ الْمَدِيْ كَدْرُ
وَمَا يَزَالُ لِسَانُ الدَّهْرِ يُنْذِرُنَا
فَلَا يَقْلُ غَرَّتِ الدُّنْيَا مَطَامِعُنَا
كَأسُ إِذَا مَا الرَّدَى حِيَا الْحَيَا بِهَا
كَمَا شَامِخٌ العَزِّ لَاقَى الدُّلُلُ مِنْ يَدِهَا
فِي كُلِّ جِيلٍ وَعَصَرٍ مِنْ وَقَائِعَهَا
أُودِي عَلَيْهِ وَعُثْمَانَ بِمَخْلِبِهَا
وَمَنْ أَرَادَ التَّأْسِيَ فِي مَصْبِيَتِهِ

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٤٨/٢).

(٤) المصدر نفسه (٢٤٩/٢).

(١) عيون الروضتين (١/٣٠٤).

(٣) المصدر نفسه (٢٥٢/٢).

(٥) عيون الروضتين (١/٢٥٩).

خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية :

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمر بإقامة الخطبة لل الخليفة العباسي المستضيء فأعتبر صلاح الدين بالخوف من قيام أهل مصر ضده ليلهم إلى الفاطميين وبأنه لم يتهم بذلك بعد، إلا أن نور الدين أرسل إلى نائبه يلزمـه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتـه في تأخـير إقامة الدعـوة له بـبصرـة، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحملـه رسـالة فيها: وهذا أمر تجـبـ المـبـادـرةـ إـلـيـهـ، لـنـحـظـيـ بـهـذـهـ الـفـضـيـلـةـ الـجـلـيلـةـ وـالـنـبـيـلـةـ قبل هجـومـ الموـتـ وـحـضـورـ الفـوتـ لـاسـيـماـ إـمامـ الـوقـتـ -ـ الـمـسـتـجـدـ -ـ مـتـطـلـعـ إـلـىـ ذـلـكـ بـكـلـيـتـهـ وـهـوـ عـنـهـ مـنـ أـهـمـ أـمـنـيـتـهـ^(١). وكان صلاح الدين متـهـيـاـ متـرـدـداـ في إـسـقـاطـ تلكـ الـخـلـافـةـ، حيثـ إنـ مـيرـاثـ العـبـيـدـيـنـ فـيـ مـصـرـ، كـانـ عـمـرـهـ أـكـثـرـ مـنـ مـائـيـ سـنـةـ، وـكـانـ نـورـ الـدـينـ يـعـتـرـ أنـ فـتـحـ مـصـرـ نـعـمةـ منـ نـعـمـ اللـهـ عـلـيـهـ وـعـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ، مـنـ أـجـلـ تـوـحـيدـ الـبـلـادـ عـلـىـ مـنـهـجـ أـهـلـ السـنـةـ وـإـزـالـةـ الـبـدـعـ وـالـرـفـضـ^(٢)، وـكـانـ نـورـ الـدـينـ مـتـهـيـاـ لـظـرـوفـ صـلـاحـ الـدـينـ وـكـانـ يـخـاطـبـ بـالـأـمـيرـ (ـأـسـفـهـلـارـ)ـ وـلـوـ أـرـادـ لـأـرـسـلـ خـطـابـاـ بـعـزـلـهـ عـنـ مـصـرـ وـتـولـيـتـهـ قـطـراـ آـخـرـ، وـهـذـاـ مـاـ صـرـحـ بـهـ نـجـمـ الـدـينـ لـوـلـدـهـ صـلـاحـ الـدـينـ فـيـ مـصـرـ: إـنـ أـرـادـ عـزـلـكـ.. يـأـمـرـ بـكـتـابـ مـعـ نـجـابـ حـتـىـ تـقـصـدـ خـدـمـتـهـ وـيـوـلـيـ بـلـادـهـ مـنـ بـرـيـدـ^(٣). وـمـنـ دـلـائـلـ اـحـتـرامـ نـورـ الـدـينـ لـصـلـاحـ الـدـينـ مـاـ جـاءـ فـيـ خـطـابـهـ لـابـنـ أـبـيـ عـصـرـونـ يـوـلـيـهـ قـضـاءـ مـصـرـ وـيـقـولـ فـيـهـ: تـصـلـ أـنـتـ وـوـلـدـكـ حـتـىـ أـسـيرـكـ إـلـىـ مـصـرـ، وـذـلـكـ بـمـوـافـقـةـ صـاحـيـ، وـاتـفـاقـ مـنـهـ، صـلـاحـ الـدـينـ، وـفـقـهـ اللـهـ، فـأـنـاـ شـاـكـرـ لـهـ كـثـيرـاـ كـثـيرـاـ، جـزـاهـ اللـهـ خـيـراـ وـأـبـقـاهـ، فـقـيـ بـقـاءـ الصـالـحـيـنـ وـالـأـخـبـارـ صـلـاحـ عـظـيمـ^(٤). فـحـقـيقـةـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـقـائـدـيـنـ اـحـتـرامـ مـتـبـادـلـ وـتـقـدـيرـ عـظـيمـ وـسـيـاتـيـ الـحـدـيـثـ فـيـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـهـمـاـ بـإـذـنـ اللـهـ وـالـردـ عـلـىـ الـكـتـابـ الـذـيـنـ تـلـقـواـ روـاـيـاتـ اـبـنـ أـبـيـ طـيـءـ الشـيعـيـ الـذـيـ حـرـصـ عـلـىـ تـشـويـهـ وـتـلـطـيـخـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الرـجـلـيـنـ وـالـطـعـنـ فـيـ سـيـرـهـمـاـ كـلـمـاـ أـمـكـنـهـ ذـلـكـ.

١- التدرج في إلغاء الخطبة لل الخليفة الفاطمي: استفاد صلاح الدين من الرجل الكبير القاضي الفاضل، فقد ساعده على إحكام خطـةـ مـدـرـوـسـةـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ الدـوـلـةـ الفـاطـمـيـةـ والمـذـهـبـ الشـيـعـيـ الرـافـضـيـ الإـسـمـاعـيـلـيـ، وـشـرـعـ صـلـاحـ الـدـينـ فـيـ تـنـفـيـذـهـ بـدـقـةـ مـتـنـاهـيـةـ وـبـعـدـ أـنـ هـيـأـ صـلـاحـ الـدـينـ الـمـصـرـيـنـ لـلـانـقـلـابـ وـقـلـمـ أـطـفـارـ الـمـؤـسـسـةـ الـفـاطـمـيـةـ، فـعـزـلـ قـضـاءـ الشـيـعـةـ وـأـلـغـىـ مـجـالـسـ الدـعـوـةـ وـأـزـالـ أـصـوـلـ الـمـذـهـبـ الشـيـعـيـ، فـفـيـ سـنـةـ ٥٦٥ـهـ / ١١٦٩ـمـ أـبـطـلـ الأـذـانـ

(١) كتاب الروضتين نقلـاـ عنـ الجـهـادـ وـالـتـجـدـيدـ صـ ٢٠٩ـ .

(٢) كتاب الروضتين نقلـاـ عنـ الجـهـادـ وـالـتـجـدـيدـ صـ ٢١٥ـ .

(٣) كتاب الروضتين نقلـاـ عنـ الجـهـادـ وـالـتـجـدـيدـ صـ ٢١٥ـ .

(٤) المصدر نفسهـ صـ ٢١٥ـ .

بجي على خير العمل محمد وعلى خير البشر. ويعلق المقرizi بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة^(١). ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة ٥٦٥هـ / ١١٦٩ - ١١٧٠ م بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي، وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يتحمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لديناك^(٢). وولى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى المكارري السني فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدرس المذاهب السنة وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد، فيلغى مخصصاته ويحرمه من المال والخليل والرقين وينع رسم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويتحجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمعادره إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجوم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يحمد من نفوذهم شيئاً فشيئاً، ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرق إقطاعاتهم عليهم^(٣). وكان العاضد يتبع ذلك كله بقلب حزين ونفس كثيبة وقد خابت الآمال التي عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة لهم والمرض^(٤)، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مواتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السنة ومتصرفوها وأسأهم الرأي والنصححة وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد^(٥). وفي بداية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ - ١١٧٢ م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧هـ / ١١٧١ - ١١٧٢ م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستجد بالله، وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية^(٦). وللما لاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر ب نحو أسبوعين وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي^(٧).

-٢- وفاة العاضد عام ٥٦٧هـ: وقد توفي العاضد في العاشر من محرم ٥٦٧هـ / ١١٧١ - ١١٧٢ م^(٨)، ويقال أن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه

(٢) القاضي الفاضل ص ١٣٧.

(١) انتظام الحنفيا (٣١٧/٣)، القاضي الفاضل ص ١٣٧.

(٣) الخطط للمقرizi نقلأً عن صلاح الدين الأيوبي لقلعجي ص ١٦١.

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٢.

(٤) صلاح الدين الأيوبي، قدرى قلعجي ص ١٦٢.

(٨) القاضي الفاضل ص ١٣٩.

(٦) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص ٥٩.

تعجل في قطع خطبته وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترتفعون اسمه من الخطبة لم يمت^(١)، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبته أو مستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية^(٢).

قال ابن كثير: والعاضد في اللغة: القاطع واسمه عبدالله، ويكن بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر ابن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى أول ملوكهم وكان مولد العاضد في سنة سِتٍ وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة^(٣).

٣- فرح المسلمين بزوال الدولة الفاطمية: ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون فزيت بغداد، وغلقت الأبواب وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحاً شديداً وكانت الخطبة قد قطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي، باني القاهرة إلى هذه الأوان، وذلك مائتا سنة وثمانين سين^(٤) وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا فقد قال العماد الأصفهاني:

يفتح ذو بدعة بمصر فما
يوسفها في الأمور محكما
داخل من الشرك كل ما اضطر ما
بهما وعقد السداد منتظمما
العباس حقاً والباطل اكتتما
ومن دعاء الإشراك متقدماً
داجية من غيابه وعمى
لما أضاءت منابر العلماء
بناء حقٌّ قد كان منه دِمَا

توفي العاضد الداعي لما
وعصر فرعونها انقضى وغداً
قد طفت جمرة الغواة وقد
وصار شملُ الصلاح ملشماً
لاغداً مشمراً شعار بني
وبات داعي التوحيد متظراً
وظل أهل الضلال في ظلل
وارتبك الجاهلون في ظلل
وعاد بالمستضيءِ متهداً

(١) القاضي الفاضل ص ١٣٩.

(٢) المصدر نفسه (٤٥٠ / ١٦).

(٣) البداية والنهاية (٤٥١ / ١٦).

وانتصر الدين بعدهما اهتضا
وافترَّ ثغر الإيان وابتسمَا
فليُقْرِعَ الْكُفُرَ سِنَّةً ؎
الْحَمْىٰ وَفِيُّ الطُّغْيَا مُقْسَمَا
عَامِرٌ بَيْتَ مِنَ الْكَمالِ سَمَّا
وَمَاتَ ذَلِّاً وَأَنْفَهَ رَغْمَاً^(١)

واعتلَّتِ الدُّولَةُ الَّتِي أَضْطَهَدَتْ
وَاهْتَزَّ عَطْفُ الْإِسْلَامِ مِنْ جَذْلِ
وَاسْبَشَرَتْ أَوْجَهَ الْمُهْدِيِ فَرْحَانَا
عَادَ حَرِيمُ الْأَعْدَاءِ مُتَهَكِّمَا
قَصْوَرُ أَهْلِ الْقَصْوَرِ أَخْرَبَهَا
أَزْعَجَ بَعْدَ السُّكُونِ سَاكِنَهَا

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً استراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فتم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقاده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة دولة الشيعة الرافضة.

٤- اعتبار واعظاظ من زوال الفاطميين من مصر: كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب وكان لم يتعنوا فيها، وكان أول من ملك منهم المهديٌ وكان من أهل سَلَمَيَّةٍ حَدَّاداً اسمه سعيد، وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمى بعيد الله، وادعى أنه شريف علوى فاطمي، وقال: إنه المهديٌ وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكبار كالقاضي أبي بكر الباقلاني والشيخ أبي حامد الإسفاريني وغير واحد من سادات الأئمة... والمقصود أنَّ هذا الدَّعْيَ المُدَعَى الكذاب راجٍ له ما افتراه في تلك البلاد ووازره جماعة من جهله العُبَاد، وصارت له دولة وصولة، فتمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدي نسبة إليه، وصار ملِكًا مطاعاً يظهر الرفض وينطوى على الكفر الخوض، ثم كان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز - وهو أول من دخل مصر منهم وبنيت له القاهرة - ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، ثم المستنصر ثم المستعلي، ثم الامر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملِكًا، ومدتهم مائتان ونِيَفَ وتسعون سنة... وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمتهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبارهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثُر أهل الفساد وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثُر بأرض الشام

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/١٩٥).

الثصيرية والدرزية والخشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس الشريف ونابلس وعجلون والعورَ وبلاد غَرَّة وعسقلان وكرك الشَّوَّيْك وطبرية وبانياس وصور وعشليت وصيدا وبيروت وعكا وصفد وطرابلس وأنطاكيه وجميع ما وآل ذلك في بلاد آياس^(١) وسيس^(٢)، واستحوذوا على بلاد آمد والرُّهَا ورأس العين وبلاط شَّئِيْ، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله، وسبوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان مالا يُحَدُّ ولا يوصَفُ، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن صانها الله بعنایته وسلمها برعایته، وحين زالت أيامهم وانتقض إبراهيم أعاد الله هذه البلاد كلُّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين^(٣).

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان وأثروا في كل جوانب حياة مجتمعها، إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكن بعض مفكري الدولة الفاطمية، ورجالها وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدولة السابقة من أفكار وامتيازات^(٤)، فعملت تلك القوى الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بي رزيك وبي شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية^(٥)، وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصبة المتشددة المتصلبة، وتوارزوا وتزاوروا فيما بينهم خفية وخفية وعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيَّة، وعيتوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتديير، وبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل^(٦)، وبيدو أن مؤامتهم كانت في غاية التنظيم إذ عينوا خليفة وزيراً ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرة يدعونهم في إدراها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غالباً في الكرك، والتف هؤلاء حول عماره اليمني، الفقيه والأديب السنّي المذهب، الفاطمي الولاء الذي تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضي الفاضل عن

(١) آياس : مدينة من بلاد الأرمن على الساحل البحر.

(٢) سيس : قاعدة بلاد الأرمن، صبح الأعشى (٤/١٣٤). (٣) البداية والنهاية (١٦/٤٥٧).

(٤) صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري ص ١٦٨.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢/٢٨٢).

(٦) المصدر نفسه (٢/٢٨٢).

طريق ديوان الإنماء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين مختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات أولاًهما أن أحد الكتاب في الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاضل بحضور زائد، يخدمه ويقترب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب، وخفف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وقال له: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقررهم فأقرّوا بمؤامرتهم، فاعتقلتهم ثم أمر بصلبهم^(١) وتشير الرواية الثانية إلى أن المتأمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لا ينكمش من أملاك، فوافق وأمر بمحالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجد من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية، وبرسالة باطنية للمتأمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين^(٢). وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنم عن اطلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعله هو الذي دسّ من أعلمه بتفاصيل المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنماء المصري من الفرنج، وأخرين بينهم على اتصال بالديوان^(٣). وجاء في الكتاب الذي كتب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى نور الدين بعدما تم التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، وشخص الكاتب بتركيز وشمول بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفية كشفها، وصلب رؤوس المتأمرين أمام بيوتهم^(٤).

إن صلاح الدين كان لا يزال بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر جند مصر.. وأهل القصر الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده ويتوقع منهم القيام بعمل ضده ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم.

وأنهم كانوا من إعلان الخطبة العباسية وحتى القبض عليهم لا يمر عليهم شهر ولا سنة

(١) القاضي الفاضل ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٦، مفرج الكروب (١/٢٤٤، ٢٤٥).

(٣) القاضي الفاضل ص ١٤٦.

(٤) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٦٩.

إلا وهم يُدبرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُّسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتب المترابطة والراسلات المتقارطة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُلُّ المطامع.. ويزينون لهم الإقدام والقدوم^(١). لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤملونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

ووصل الأمر إلى أنهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قواته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه وقالوا في كتابهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَدْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين وينزعه من العودة، وعند ذلك ثور في القاهرة حاشية القصر، وكافة الجندي (الفاطمي السابق في مصر) وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامة الإسماعيلية، وتفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته في العاصمة^(٢). لكن يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أدركت عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوب الأردن، وجدهه عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

ولم يأس التآمرون، فعندما وصل المدعو جرج (جورج أو جورجيوس) كاتب الملك عموري إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين (ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السلم) اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أن العساكر متباudeة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم علاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور، فعلنا ما تقدم ذكره في الثورة^(٣). وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعون وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى^(٤).

أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ «جرج» رسولاً إلى صلاح الدين: ظاهراً إلينا، وباطنا إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي

(١) كتاب الروضتين (٢٨٧/٢).

(٢) المصدر نفسه (٢٨٨/٢).

(٣) المصدر نفسه (٢٨٨/٢).

(٤) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٠.

يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين «الجند» في أثناء هذه المُنَدِّرَة تردد، وكتب إلى الفرنج تجدد^(١).

كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعدائه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخلّى سبيلهم فلا يزيدتهم العفو إلا ضرامة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة^(٢).

وأتصل المتأمرون في ذات الوقت «بشيخ الحيل» سنان^(٣)، زعيم الإسماعيلية التزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته محتاجين: بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ولا يجب به قعود عن ثصرة^(٤). وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال «الملوك» كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم، وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة^(٥)، أحد رجال الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الجبل عند اكتشاف المؤامرة فالتوجهوا إلى الصليبيين^(٦).

ولا نعرف إذا كان المتأمرون اتصلوا بذلك صقلية لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين لكن الأسطول قدم بعد فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من ٢٠٠ سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجال، فمعنى بخسائر كبيرة خاصة أن الملك عموري لم يتقدم في البر كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتأمرين بمحزم^(٧).

وفي المرة الأخيرة التي قدم فيها «جرج» برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان «من لا نرتاب به من قومه «الصليبيين» يذكرون أنه رسول مخاتلة (خداع) لا رسول مجاملة، فاختذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شك فيه، وقام «جرج» بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود، عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعته فدَسْنَا إليهم من طائفتهم من داخلهم^(٨)، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم^(٩).

وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة صلاح الدين من اكتشاف الأمر وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً

(١) كتاب الروضتين (٢٨٧/٢).

(٢) المصدر نفسه (٢٨٩/٢).

(٣) المصدر نفسه (٢٨٨/٢).

(٤) (٥) (٦) المصدر نفسه (٢٨٩/٢).

(٧)

(٨) (٩) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٢.

أمام صلاح الدين، وقرّرُهم على هذه الحالة فأفروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعُتْ
أرزاقهم وأخذتْ أموالهم^(١).

تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عيّنوا خليفة وزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول
ال الخليفة وحول الوزير (آل رُزِيك أو آل شاور).

استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في
التنفيذ، طالب أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَرَ الأمر بقتلهم وصلبهم،
وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم^(٢). وكان المشهورون
الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس،
وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح
الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة
فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره^(٣).

وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بدأياً، ثم نُقلوا إلى أماكن مختلفة وأعطي القصر إلى أخيه
العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى: أنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسن الأطماء عنها،
فإنه «القصر» حبالة للضلال منصوب، وبيعة «مقام» للبدع محجوبة^(٤).

وشُرِدت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر وتُفُوا أما البقية فقد أعلن في القاهرة: بأن
يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر ورجال السودان إلى أقصى بلاد الصعيد^(٥).

وكشفت التحريات والبحث في هذه القضية عن وجود داعية يُسمى «قدِيد القفاص» في
الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر،
وأن أرباب المعيش (الحرب والصناعات) في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم،
والنسوان يعيشن إليه شطرًا وافيًا من أموالهن^(٦). كما وجد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر
الصريح^(٧). وهكذا فقد تمكّن صلاح الدين بفضل الله ثم بصيره وقيادته الحازمة من القضاء
على هذه المؤامرة والفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة
الفااطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، وحاشية، والجناد والسودان^(٨).

(١) كتاب الرؤوفتين في أخبار الدولتين (٢٨٩/٢).

(٢) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٢.

(٣) كتاب الرؤوفتين (٢٩٠/٢).

(٤) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.

(٥) كتاب الرؤوفتين (٢٩٠/٢).

(٦) المصدر نفسه (٢٩٠/٢).

(٧) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.

(٨) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.

قال عنه الذهي: أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي اليماني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور، ولد سنة خمس عشرة وخمسين وتقفاره بزياد مدة، وحج سنة تسع وأربعين ونفذه أمير مكة قاسم بن فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد في أبي بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزِيك فاوضه وقال: ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا علينا، وأن محبتهما واجبة. فضحك، وكان مُرتاضاً حصيفاً، قد سمع كلام فقهاء السنة. قال الذهي: هذا حلم من الصالح على رفضه^(١). وقال ابن واصل في سبب موالاة عمارة اليماني للفاطميين: وكان عمارة بن علي اليماني شديد التعصب لهم، لأنّه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخلووه، فرعى ذلك ووفى لهم، والإنسان - كما قيل - صناعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليده؛ ولما تحرك جماعة في عود الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكرأ لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شنق^(٢)، كما مر ذكره - وقد ذكر عمارة ميله للذهب القوم في قصيدة يقول فيها:

أفاعيلهم في الجحود أفعال سُنة
 وإن خالفوني في اعتقاد التشيع^(٣)

وقد علق الذهي على هذا البيت فقال: يا ليته تشيع فقط، بل يا ليته ترفض، وإنما يقال:
هو انحراف ونونقة^(٤)، وقد قال عمارة في رثاء الفاطميين والعاضد:

أَسْفُّ الْعَقِيمِ عَلَى فِرَاقِ الْوَاحِدِ
أَمْرَائِهِ أَهْلِ النَّاءِ الْخَالِدِ
يَا ابْنَ النَّبِيِّ مِنْ ازْدِحَامِ الْوَافِدِ
كَانُوا كَأَمْوَاجِ الْخَضْمِ الرَّاكِدِ
فَكِبَا وَقَصَرُّ عَنْ صِلَاحِ الْفَاسِدِ
مَا عَوَدْتُكُمْ مِنْ جَيْلٍ عَوَّايدُ^(٥)

أَسْفِي عَلَى زَمْنِ الْإِمَامِ الْعَاصِدِ
جَالَسْتُ مِنْ وزرَائِهِ وَصَحِبَتْ مِنْ
لَهْفِي عَلَى حُجَّرَاتِ قَصْرِكِ إِذْ خَلَتْ
وَعَلَى انْفِرَادِكِ مِنْ عَسَارِكِ الَّذِي
قَلَدْتَ مُؤْتَمِنًا الْخَلَافَةَ أَمْرَهُمْ
فَعَسَى الْلَّيَالِيَ أَنْ تَرُدَّ إِلَيْكُمْ

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٩٤، ٥٩٥).

(٢) مفرج الكروب (١/٢١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٩٦).

(٤) المصدر نفسه (٢٠/٥٩٦).

(٥) كتاب الروضتين (٢/٢٩٣).

وله من جملة قصيدة:

لَكَ الْمَلَمَةِ إِنْ قَسَرْتِ فِي عَزْلِي
عَلَيْهِمَا لَا عَلَى صَفَنِ وَالْجَمَلِ
فِي كُمْ قُرُوْحِي وَلَا جُرْحِي بَمْنَدِلِ
فِي نَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ^(١)

يَا عَازِلِي فِي هُوَيْ أَبْنَاءِ فَاطِمَةِ
بِاللَّهِ رُزْ سَاحَةِ الْقَصَرِينَ وَابْكِ مَعِي
وَقُلْ لِأَهْلِهِمَا وَاللَّهِ مَا التَّحْمِتَ
مَاذَا تَرَى كَانَتِ الْإِفْرَنجُ فَاعْلَةً

وَأَنَا أَسْتَغْرِبُ مِنْ عَمَارَةِ الْيَمَنِيِّ فِي نَعِيَّهِ لِأَيَامِ الْفَاطِمِيِّينَ وَحِينِهِ إِلَى بَدْعِهِمْ وَأَعِيَادِهِمْ
وَقُصُورِهِمْ وَتَحْدِيهِ لِلدوْلَةِ السُّنِّيَّةِ الْجَدِيدَةِ فِي مَصْرَ وَدَفَاعَهُ عَنِ الْفَاطِمِيِّينَ وَأَكَادِيَّهُمْ فِي
زَعْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ النَّسْلِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، فَهُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا الْزَّائِلُ يَفْعُلُ بِالْعُقَادِ الْصَّحِيحَةَ مَا
فَعَلَهُ بِعَمَارَةِ الْيَمَنِيِّ، وَهُلْ الْعَطَاءِيَا وَالْجَاهُ وَالْمَنَاصِبُ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَتَرَكُ عَقِيْدَتَهُ الْصَّحِيحَةَ
وَيَبْكِيُ عَلَى أَطْلَالِ الدُّوْلَةِ الْفَاطِمِيِّةِ الشَّيْعِيَّةِ الرَّافِضَةِ؟ إِنْ هَذَا لَشَيْءٍ عَجَابٌ.

٢- حصار الإسكندرية: إنَّ أَهْلَ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ أَسْهَمُوا فِي خِجَاجِ الْمَشْرُوْعِ السُّنِّيِّ بِمَصْرَ،
وَدَافَعُوا عَنْ صَلَاحِ الدِّينِ عَنْدَمَا حُوْصِرَ بَهَا وَهُمْ يَدَافِعُونَ عَنِ الْمَدِينَةِ بِشَجَاعَةٍ فَاتِّقةٍ وَرَجُولَةٍ
مِنْقَطَعَةِ النَّظِيرِ، وَمُسْلِمٌ مَصْرُ عَمُومًا وَأَهْلُ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْهُمْ خَصْوَصًا دَائِمًا وَأَبْدًا في
الْخَنْدَقِ الْمَدَافِعِ عَنْ قَضَايَا الْأَمَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَلَهُمْ مِنَ الطَّاقَاتِ الْفَكِيرِيَّةِ وَالْإِمْكَانَاتِ الْمَادِيَّةِ،
وَالْأَقْلَامِ السِّيَالَةِ وَصَفَاءِ الْفَطَرَةِ مَا يَجْعَلُهُمْ فِي مَصَافِ مَنْ يَتَصَدِّيُ لِلْمَشْرُوْعِ الشَّيْعِيِّ
الرَّافِضِيِّ الْبَاطِنِيِّ وَالْمَشْرُوْعِ الْأَمْرِيَّكِيِّ الْغَرْبِيِّ، وَقَدْ قَاومَ الْمَصْرِيُّونَ قَدِيمًا النَّفُوذَ الشَّيْعِيِّ
الْبَاطِنِيِّ وَتَعَاوَنُوا مَعَ إِخْرَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ السَّنَّةِ، فَكَرِيًّا وَعَقَادِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَعَسْكَرِيًّا وَاقْتَصَادِيًّا
وَإِعْلَامِيًّا حَتَّى تمَ القَضَاءُ عَلَى الْمَشْرُوْعِ الشَّيْعِيِّ الْبَاطِنِيِّ، وَلَذِلِكَ نَجْدُ كِتَابَ الشَّيْعَةِ الرَّافِضَةِ
يَقُولُونَ عَنِ مَصْرَ وَأَهْلِهَا: أَبْنَاءُ مَصْرٍ؛ لَعْنَوْا عَلَى لِسانِ دَاؤِدِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجَعَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ
الْقَرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ^(٢)، وَمَا غَضَبَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا أَدْخَلَهُمْ مَصْرَ، وَلَا رَضِيَ عَنْهُمْ إِلَّا
أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا^(٣)، وَقَالُوا: بَئْسَ الْبَلَادُ مَصْرُ، أَمَا أَنَّهَا سِجْنٌ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ^(٤)، وَقَالُوا: اتَّحَوْا مَصْرًا وَلَا تَطْلُبُوا الْمَكْثُ فِيهَا لَأَنَّهُ يُورِثُ الْدِيَاثَةَ^(٥)، وَجَاءَتْ
عَنْهُمْ عَدَدٌ رَوَايَاتٌ فِي ذَمِّ مَصْرٍ، وَهُجَاءُ أَهْلِهَا، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ سُكَّنَاهَا، وَنَسْبُوا هَذِهِ
الرَّوَايَاتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِلَى مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ، وَإِلَى عَلِيِّ الْبَاقِرِ، وَهَذَا رَأْيُ الشَّيْعَةِ الْرَّوَافِضِ

(١) كِتَابُ الرُّوْضَتَيْنِ (٢٩٥ / ٢).

(٢) بَحَارُ الْأَنْوَارِ (٦٠ / ٢٠٨)، تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ صِ ٥٩٦. (٣) تَفْسِيرُ العِيَاشِيِّ (١ / ٣٠٤) الْبَرَهَانُ (١١ / ٤٥٦).

(٤) تَفْسِيرُ العِيَاشِيِّ (١ / ٣٠٥)، الْبَرَهَانُ (١ / ٤٥٧).

(٥) بَحَارُ الْأَنْوَارِ (٦٠ / ٢١١)، أَصْوَلُ الشَّيْعَةِ (٢ / ٩٠٠).

في مصر في تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقب المجلسي الشيعي الرافضي على هذه النصوص بقوله بأن مصر صارت من شر البلاد في تلك الأزمنة، لأن أهلها صاروا من أشقي الناس وأكفرهم^(١) ويبدو أن هذه النصوص هي تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيدين على يد صلاح الدين، الذي ظهر أرض الكناة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة في مصر وأهلها الأحبة من وصية حبينا محمد ﷺ بأهل مصر^(٢).

إليك أيها القاريء الكريم ما قام به أهالي الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنوية الجديدة في مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لإنزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام ٥٦٩هـ / نهاية تموز ١١٧٤م، وكان الأسطول النورماندي يتكون من مائتي^(٣) سفينة، وقيل من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثون ألف مقاتل تنفيذاً للمخطط واسع النطاق الذي اتفقت عليه العناصر الموالية للباطل مع ملكي بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية في مصر^(٤) ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه. وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية في ١٦ ذي الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضى على المتآمرين في الداخل من جهة وبعد وفاة عموري الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان في مهاجمة الإسكندرية ونجحوا في إغراق بعض المراكب المصرية التي كانت راسية على الساحل^(٥). وقد أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصب قرب السور «وأحسنا القتال والصبر». وكان صلاح الدين غالباً عن الإسكندرية، وحين وصلها زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله^(٦). فما كان على الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير^(٧). وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالي الإسكندرية ضربة ماحقة ب أصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنه لم يتخلوا عن الفكرة كلية، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن^(٨).

(١) بحار الأنوار (٥/٢٠٨).

(٢) مسلم (٢/٢٩٧٠).

(٣) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص ٣٨٢.

(٤) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ص ٨٠.

(٥) المصدر نفسه ص ٨١.

(٦) الكامل في التاريخ نقاً عن الجيش الأيوبي ص ٣٨٣.

(٧) المصدر نفسه ص ٣٨٣.

سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب الفاطمي وتراثه :

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتتدابير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب^(١)، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والجسم الفوري المباشر، وبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نجح البعض الآخر سبيلاً الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها^(٢)، وإليك بعض هذه الوسائل:

١- **إذلال الخليفة الفاطمي العاضد:** بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة «الولاية» التي تبني عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب، عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرضت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتاجبه عن الناس لعدم ابتنائه بكترة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس^(٣)، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيف، إذ خلع عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والمهدايا^(٤)، ثم مافيء صلاح الدين يعمل على الاستهانة بال الخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته ومتلكاته الشخصية وخ يوله، بمحنة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد، حتى إن الخليفة في آخر الأمر، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة^(٥)، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه لل الخليفة للاستهانة به أمام رعيته كان يهدف أيضاً إلى إجبار الخليفة على الاعتزاز، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون^(٦).

(١) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص ٥٦ . (٢) المصدر نفسه ص ٥٦ .

(٣) كتاب الروضتين نقاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٥٦ . (٤) (٥) (٦) المصدر نفسه ص ٥٧ .

٢- وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمية: عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية إذا ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها «بالدولة القسرية»^(١) نسبة لسكن خلفاء الفاطميين لقصور عاصمتهم القاهرة، ففي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لملوكه فرماوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر المؤلولة على الخليج، وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين^(٢).

٣- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به: ما لبث صلاح الدين في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر، طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذي اتخذ الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الشيعية الإسماعيلية^(٣)، وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبة، وهو امتناع إقامة الخطيبين لل الجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس^(٤)، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة، بإزالة الشعائر الشيعية، التي أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طول عصر دولتهم، من الأذان، وإيان إقامة الصلوات، فأبطل من الأذان قول «حي على خير العمل» واستمر الأذان في مصر على المذهب السنوي^(٥) ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان^(٦)، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذًا سنياً يجمع فيه الدعاة للصحابية رضي الله عنهم، وللتبعين ومن سواهم، ولأمehات المؤمنين زوجات النبي ﷺ، ولعميه حمزة والعباس رضي الله عنهمَا، ويأتي للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية^(٧). وما لاشك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذي ظل طوال العصر

(١) كتاب الروضتين ص ٥٨.

(٢) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص ٦٠، ٦١، ٩٣. (٣) المصدر نفسه ص ٩٣.

(٤) الخطط للمقرizi (٤/٤) ص ٥٣.

(٥) المصدر نفسه (٤/٤)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٩٣. (٦) تاريخ مصر الإسلامية ص ٩٣.

(٧) المصدر نفسه ص ٩٤.

الفاطمي أضخم مراكز الدعوة الإمامية بمصر^(١)، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة - وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم - وهجرة علماء أهل السنة للتدرис فيه قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر وفي أغلب أرجاء العالم الإسلامي^(٢).

٤- إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإمامية: عمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكيّة الفاطمية، وكثُرَ القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها وأهداها بعضها إلى نور الدين زنكي، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشرة سنين^(٣)، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين^(٤)، وتحول إلى كتب الدعوة الإمامية، التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التي صودرت من مكتبة القصر، على كبار علماء وأنصار دولته، مثل العmad الأصفهاني والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهاني، مما يؤكّد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط^(٥)، وفي الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإمامية من أهم وسائل التأثير التي يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم. وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإمامية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإمامية إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر^(٦)، هذا في الغالب.

٥- الغي جميع الأعياد المذهبية للفاطميين: لم يغب عن فكر صلاح الدين خطورة أثر الأعياد والملائمة والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى انفراطها من مصر منذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي، ومنطلق عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية تم القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر، بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم^(٧).

٦-محو الرسوم الفاطمية وعماراتهم: واقتربن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة أنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في

(١) (٢) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص ٩٧.

(٣) كتاب الروضتين (٢١٠ / ٢)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٦١.

(٤) المصادر نفسه ص ٦٢.

(٥) المصادر نفسه ص ٦٢.

(٧) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٣ - ٦٥.

الخلافة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ، عَلَيْهِ وَلِيُّ اللَّهِ» كما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وصيغ عقائدية فاطمية، كما أن بعضها كانت عملاً تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة^(١).

٧- التحفظ على أفراد البيت الفاطمي: احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهما على الانفراد وقرر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انفراضهم^(٢)، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يتحفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم^(٣).

٨- إضعاف العاصمة الفاطمية: بعد أن نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحسين مصر ضد هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التي ظلت طوال مدة دولتهم، مدينة ملكية خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت في نفس الوقت حصنًا عسكرياً بحيث كان أغلب أهل مصر يسكنون مدينة الفسطاط^(٤)، وقد علق المقريزي على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصنًا يعقل به، ودار خلافة يتتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، مازالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم^(٥)، ولكن ما فعله صلاح الدين في سبيل الله ونهرة لنبيه ﷺ.

٩- إحياء الأيوبيين لقضية انتقال النسب الفاطمي إلى البيت النبوى: ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمي، إحياءهم لقضية انتقال النسب الفاطمي إلى البيت النبوى وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودي أو مجوسى، والاستمرار في هدم السندي الشرعي المزيف للخلافة الفاطمية. ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة في فضحهم، مثل ابن خلkan، وابن أبي شامة، وابن واصل وغيرهم وأطلقوا على الفاطميين اسم «بني عبيد» إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القذاح الموسى، بل نجد أبو شامة، يخبرنا

(١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٦٦ .

(٢) كتاب الروضتين (٢١٠/٢).

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٦ .

(٤) تاريخ مصر الإسلامية ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٥) العمارة العربية في مصر الإسلامية ص ٦٨ .

بأنه ألف كتاباً منفرداً، يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين^(١)، ولقد خصص أبو شامة في كتابه الروضتين، صفحات طوال في بيان ادعائهم للنسب النبوى الشريف^(٢).

٤- الاستمرار في ملاحة التشيع في الشام واليمن: هكذا قضى أهل السنة بزعامة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا ترائها، وتبعوا أتباعها في مصر وانكمش التشيع ودخل في طور التخفي والشتت، وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار عساكر نور الدين في مصر عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنوية في إيران والشام، وظل التشيع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة^(٣).

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في محاربة المذهب الشيعي الرافضي آتت أكلها فانقرض من مصر ذلك المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل، وذلك فقه عميق والأمة في أشد الحاجة إليه والدرس أن اجتناث البدع من المجتمعات الإسلامية يحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل بين الإحياء الإسلامي الصحيح والتصدي لل الفكر الباطني وتربيّة الأمة على انتزاع حقوقها، ومقاومة الغزاة الصليبيين وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السنوي والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ، وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها استحداث المدارس السنوية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السنوي وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السنوي، ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الدولة الأيوبية. وقد قام الباحث محمد حمدان خالد القيسي بتقديم رسالة لاستكمال المتطلبات لدرجة الماجستير في جامعة اليرموك بالأردن حول أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغير واقع المجتمع المصري يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع.

(١) كتاب الروضتين نقلًا عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٧٠.

(٢) كتاب الروضتين (٢١٤/٢ - ٢٢٣).

(٣) تاريخ مصر الإسلامية ص ٧٦.

ثامناً: فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي

١- **جهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين**: تحقق هدف نور الدين محمود «المرحلي» وهو الوحدة الكاملة بين شمال العراق وبلاد الشام ومصر، وبعد ستين أي في عام ١١٧٤هـ / ٥٦٩ م شملت مملكة نور الدين السودان والجaz واليمن، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الاستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، منذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين^(١)، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس^(٢)، وكتب إلى صلاح الدين يأمره بالسير على رأس جيش مصر ليلاقه على قلعة الكرك الفرنجية^(٣)، سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك «جنوب الكرك»، فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه يبلغه فيها أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة لضبط الأمور وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين^(٤)، كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام، وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين، وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ قال: والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلاع، فهو - صلاح الدين - يعلم أنا ما أتفقنا الذهب في مصر وينا إلى الذهب فقر.. لكنه يعلم أنها نريد ثغور الكفار من بلاد الشام^(٥). أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد^(٦). وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الاستراتيجية إلا أنه خاف من اضطراب مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف هذه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيشه والاتفاق على الصليبيين منها بقيادته، وأحسن صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي^(٧)، وبعض قادة الجيش وشاعرهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته ويدعى

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٤) الباهر ص ١٥٨، دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجدد ص ٢١٣.

(٦) الجهاد والتجدد ص ٢١٣.

(٧) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من النساء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجرسوا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن ماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجابة يقول فيه: «بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجابة يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وماها هنا من يمتنع عليك»^(١). وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا، فنحن ماليك نور الدين وعيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر^(٢)، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرفونه قوله، وتكلب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي؟ يحيى نجابة يأخذني بحمل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدي، واستغل بما هو أهم عنده^(٣). وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين رحمه الله - تعالى - وهكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين^(٤). وفي بداية عام ١١٧٣هـ / ٥٦٨م وبعد عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشورةً من الخليفة بالموصل والجزيره وإربل وخلط الشام وببلاد قلچ أرسلان وديار مصر، وفي شهر شوال من العام نفسه خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها وأعلم نور الدين بمخروجه تفيذاً لما تم الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين من دمشق بدوره ليلاقاه فلما وصل إلى الرقيق (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويستغوا فيها وأنه مضطر للرحيل إلى مصر^(٥). وعندما علم نور الدين بذلك قال: إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره^(٦)، ثم لم

(١) (٢) كتاب الروضتين (٢/٢٢٨).

(٣) (٤) المصدر نفسه (٢/٢٢٩).

(٥) الباهر ص ١٥٩.

(٦) الكامل في التاريخ نقاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٠.

تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لخاوف صلاح الدين فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤمنن الخليفة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمني وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي، وقد بينت ذلك فيما مضى. وفي عام ٥٦٨هـ شن نور الدين الغارات على الصليبيين، وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل وهو يقول له: كيف تصف ما جرى؟ فمدحه بقصيدة وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال:

وبَدَأْتُ لِعَصْرِكَ آيَةَ الإِحْسَانِ
الصَّيْدُ الْلَّيْلُوتُ وَفَارِسُ الْفَرْسَانِ
حُزْتُ الْفَخَارَ عَلَى ذُوي التَّبْجَانِ
فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ بِكُلِّ لِسَانِ
أَقْسَمْتُ مَالِكَ فِي الْبَسِيْطَةِ ثَانِ
لَكَ مَؤْذِنٌ أَبْدَا بِكُلِّ أَمَانِ
حَرْبٌ لِقَمْعِ الْمُشَرِّكِينَ عَوَانِ
قَدْ سَارَ فِي الْآفَاقِ وَالْبَلْدَانِ
وَقَرَنَتْ رَأْسُ بَرْنَسِهِمْ بِسَنَانِ
بِالْتَّلُّ فِي الْأَقِيَادِ وَالْأَسْجَانِ
وَسَحَبْتُهُمْ هُونَاءً عَلَى الْأَذْقَانِ
وَالْبَيْضُ ثُخَضَبُ بِالْتَّجَيِّعِ الْقَانِيِّ
وَالْهَمَامُ رَقَصُ عَوَالِي الْمُرَانِ
نَارٌ تَأْلُفُ مِنْ خَلَالِ دُخَانِ
فِيهِ بَرِي الصَّارِمُ الظَّمَانِ
لَتَنْبُوْعُ عَنْهَا أَنْجَمُ الْحُرْصَانِ
طُرُقُ الضَّلَالِ وَمَرْكَبُ الطُّغَيَانِ

عَقِدْتُ بِنَصْرِكَ رَايَةَ الْإِيَانِ
يَا غَالِبَ الْعُلُبِ الْمُلُوكِ وَصَائِدِ
يَا سَالِبَ التَّبْجَانِ مِنْ أَرْبَابِهَا
مُحَمَّدُ الْحَمْودُ مَا بَيْنَ الْوَرَىِ
يَا وَاحِدًا فِي الْفَضْلِ غَيرُ مُشَارِكِ
أَحْلَى أَمَانِيكَ الْجَهَادِ وَإِنَّهُ
كَمْ بَكَرَ فَتْحَ وَلَدَتِهِ ظُبَّاكَ مِنْ
كَمْ وَقْعَةٍ لَكَ بِالْفَرْنَجِ حَدِيثَهَا
قَمَصَتْ قَوْمَصَهُمْ رَدَاءَ مِنْ رَدِيِّ
وَمَلَكَتْ رَقَّ مَلَوْكَهُمْ وَتَرَكَتْهُمْ
وَجَعَلَتْ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَاهُمْ
إِذْ فِي السَّوَابِعِ تُحَطِّمُ السُّمْرُ الْقَنَاِ
وَعَلَى غَنَاءِ الْمُشَرِّفَةِ فِي الْطُّلُسِ
وَكَأَنْ بَيْنَ النَّقَعِ لَمَعَ حَدِيدَهَا
فِي مَأْزَقِ وَرَدِ الْوَرِيدِ مَكَفِّلٌ
غَطَّى الْعَجَاجَ بِهِ نَجْوَمُ سَمَائِهِ
أَوْ مَا كَفَاهُمْ ذَاكَ حَتَّى عَاوَدُوا

وَمِنْهَا:

لَا أَتَيْتُ بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
وَالرَّأْيِ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجَاعِ

وَجَلَوْتُ نَورَ الدِّينِ ظُلْمَةَ كُفَّرِهِمْ
وَهَزَمْتُهُمْ بِالرَّأْيِ قَبْلَ لِقَائِهِمْ

والكفرُ منك مضعضع الأركان
الماضي وشِدت مباني الإيمان
لله في سرّ وفي إعلان
لكن وثقت بنصرة الرّحْمَان
ما كان في وسْعٍ ولا إمكان
حقّته لنفذ أمرك داني
مصر إلى قُووص إلى أسوان
أهاك فرض الغزو عن هَمَزان
بالترك والأكراد والعربان
لَكَ أوجَهَ الْأَمْلَاكَ بِالإذْعَان
ملآن من عُرْفٍ ومن عِرْفٍ
في نطق قُسْىٍ في ثقى سلمان
في شأنها سُورَّ من القرآن
صافي الحياة مُخْلَدُ السُّلطَانَ^(١)

أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً
قوَضَت أساس الفَلَلَ بعزمك
قل أين مثلك في الملوك مجاهداً
لم تلْهُمْ ثقة بقوَة شوكة
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
دانست لك الدُّنيا فقاصلتها إذا
فمن العراق إلى الشَّام إلى ذرا
لم تلْهُ عن باقي البلاد وإنما
للروم والإفرنج منك مصائب
اذعنَتَ الله المهيمن إذ عننت
أنت الذي دون الملوكِ وجده
في بأس عمرو في بسالة حيدر
سِرْلُوَانَ الْوَحِي يَنْزَلُ أَنْزَلَت
فاسلم طويلاً العُمر متداً المدى

- ضم المغرب الأدنى: عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التي حققها في مصر وذلك بتتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرة، وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى فقد كانت شمال إفريقيا مرتبطة عضوياً بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضم بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى، ففي عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش غلام المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وصفاقس، وقفصة، وتونس^(٢).

- ضم اليمن: يدخل ضم اليمن ضمن المخطط السوري الهدف إلى توحيد جبهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي^(٣)، وقد هدفت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن إلى:

(١) كتاب الروضتين (٢٤٣/٢). (٢) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٤٦.

(٣) تاريخ اليمن الإسلامي، د. محمد عبد السروري ص ٢١١.

أ - التضييق على أنصار الفاطميين وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان شيئاً رافضاً.

ب- استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبيّة، لأنّ ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمّن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبيّة ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

ج- كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسيّة والدينية والمذهبية وبخاصة بين زيد وصنعاء، كما ظهر دعيّ زعم أنه المهدى المنتظر هو عبد النبي بن مهدي وتغلب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسين، وتسمى بالإمام، وبني على قبر أبيه قبة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

د- أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوئ التي تهدّد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم^(١). ومهما يكن من أمر، فقد وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذي ورد مكة فاعتبر بها وسار منها إلى زيد، فامتلكها كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال: ما جئنا لنخرّب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكيّتها، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بجذافيره وخطب للخليفة العباسى^(٢). وقتل الدعي المسمى بعد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها^(٣)، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له^(٤).

٤ - فتح بلاد النوبة: وكانت عملة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلا تقع في أعلى النيل، وترتبطها بمصر روابط متينة بشكل عام منذ الفتح الإسلامي ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدّي عليها من ناحية الجنوب، وأرسل أخيه توران شاه في شهر جمادي الآخرة عام ٥٦٨هـ / شهر كانون الثاني عام ١١٧٣م إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاط الشام ص ٤٨ . (٢) الطريق إلى بيت المقدس ص ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٦ . (٤) المصدر نفسه ص ٩٦ .

اماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل، وعين إبراهيم الكردي والياً عليها^(١). وكان هذا الفتح سبباً في إزالة الحواجز التي كانت تحول دون انتشار الإسلام فيها^(٢).

تاسعاً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقه نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقاً عن ابن أبي طي أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة سبع وستين وخمسماة. وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين^(٣)، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طي عدد من المؤرخين^(٤)، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تحيص، وغالوا في تعليقاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفو العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهمما كان يخاف صاحبه، وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين، ويجد أن تظل منطقة الكرك فاصلةً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين وما إلى ذلك^(٥) وهذا التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن أبي طي وابن الأثير:

فاما ابن أبي طي: فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أذلَّ الشيعة بمحلب، وأبطل شعارهم وقوَّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طي كثير التحامل على نور الدين ويساومه أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه التنة^(٦).

واما ابن الأثير: فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين^(٧)، فمؤرخ البيت الزنكي في كتابه الكامل في التاريخ والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية قد ذكر الآراء في كتابيه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٤٩.

(٢) جهاد الأيوبيين والمالك خذ الصليبيين والمغول، د. فرست ص ٥٢.

(٣) الباهر ص ١٥٨، ١٥٩، كتاب الروضتين (٢٢٧/٢).

(٤) نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ١١٦.

(٥) المصدر نفسه ص ١١٧.

(٦) كتاب الروضتين (١١٨، ١١٧/٢).

(٧) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمالك ص ٦٢.

الدين، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمه السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الآراء^(١) كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، وأضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهذا نفسهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفص وتتراجع الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقاً من سوء وتشريد وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده^(٢)، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام، هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج^(٣)، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددتها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بمخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتحليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين، وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت ومتلكاته من ناحية أخرى خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ^(٤). وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك:

١- قال العماد الأصفهاني إن صلاح الدين كان لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين ويرجع في جميع مصالحة إلى رأيه المتن^(٥).

٢- وأما أبو شامة، فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بمخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة، أن نور الدين لم يتتقد على صلاح الدين إلا إسرافه في تفريق الأموال وصرفها، واستبداده بذلك من غير مشاورته^(٦). ويؤكد أبو شامة رأيه بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي

(١) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢.

(٣) مرآة الزمان (٣٢٧/٨، ٣٢٨) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٢.

(٤) التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص ٣٨، ٤٩.

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٣.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٣.

عصرهن، الذي تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح الدين بمصر، إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السنّي بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرهن مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل^(١).

٣- الواقع أن جميع الخطوات الخامسة، التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية^(٢).

٤- وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان زيارته للخليفة الفاطمي العاضد^(٣)، وأثر نقل الخطبة للعباسين، كان الخطيب بمصر وأعمالها يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقررت السكّة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فُقِّش اسم كل منهما في وجه^(٤).

٥- وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة ٥٦٨-٥٦٩ هـ لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعتها لتقرير القطعية أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكّد تبعية مصر لنور الدين^(٥).

٦- لقد أدركت الخلافة العباسية هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخلع الخليفية لنور الدين وبين الخلع الخليفية لصلاح الدين، وجعلت خلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خلعاً سيراًها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر^(٦)، وتأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

٧- كان صلاح الدين يراعي التأدب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح

(١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.

(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.

(٣) السلوك للمقربي (٤٥/١)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.

(٤) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.

(٥) مفرج الكروب (٢١٩/١)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٥.

(٦) مفرج الكروب (٤٧/١)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٦.

الدين على مداومة إرسال ما فرّ عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة^(١).

٨- وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس والقضاء على الدعوة الإمامية بمصر قد تمت بتوجيهه مباشر من نور الدين وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين فإن ضمًّ صلاح الدين لليمن تم بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإمامية هناك وضم اليمن لجبهة المقاومة بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة بنفسه لل الخليفة العباسي^(٢)، وكذلك في ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة وبشر الخليفة العباسي بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس^(٣). فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي: وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفاتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام ومن جملة حسنات هذه الأيام الظاهرة، ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة، والوصول إلى مواضع منها، لم يُطرُقها سبائك الخيل الإسلامية في العصور الحالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها.. حتى بلغوا إلى حدود المغرب^(٤).

٩- ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيد نور الدين رمزاً للولاء والتبعية، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فتجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين والتي كان من ضمنها عمارة اليماني^(٥)، وليس أدلة على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهمما الاستراتيجي في قتال الفرنج؛ فيذكر أبو شامة أنه في سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م تولى السلطانان نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ «جهاد السُّلطانين للفرنج»^(٦)، وهذا ما أكدته صلاح الدين في كتاب له لل الخليفة العباسي بقوله إنه: كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمة الله، في أن يتتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام، المملوك (أي صلاح الدين) بعسكره وببره وبجره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره^(٧).

١٠- ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة

(١) (٢) مفرج الكروب (١/٢٣٥)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٧.

(٤) كتاب الروضتين (٢/٢٣٩).

(٤) مفرج الكروب (١/٢٤٨)، تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٧.

(٧) المصدر نفسه ص ٢٧.

باسمـه^(١)، ووافـى إرسـال الرـسائل في العـزاء بنـور الدـين^(٢)، وعـلى هـذا الأـسـاس نـسـطـيع أنـ
نـقـول أـللـهـ حتى وفـاة نـور الدـينـ، كـانـت مـصـرـ والـشـامـ قد تـوحـدتـا تحتـ زـعـامـة نـور الدـينـ^(٣)،
وـهـذا ما عـبرـ عـنـهـ العـمـادـ الـأـصـفـهـانـيـ حينـ اـمـتـدـحـ نـورـ الدـينـ فـقـالـ:

بـلـكـ مـصـرـ أـهـنـىـءـ مـالـكـ الـأـمـمـ
فـثـقـ وـأـبـشـرـ بـنـصـرـ اللـهـ عـنـ أـمـمـ
فـمـلـكـ مـصـرـ وـمـلـكـ الشـامـ قـدـ نـظـمـاـ

وـفـي كلـ الـأـحـوـالـ لـمـ تـصـلـ عـلـاقـةـ نـورـ الدـينـ بـصـلاحـ الدـينـ إـلـى درـجـةـ العـدـاءـ وـلاـ مـسـوـغـ
لـاعـتـارـ الـاـخـتـلـافـ فـيـ الرـأـيـ وـحـشـةـ وـنـفـرـةـ كـماـ يـقـرـرـ ذـلـكـ عـدـدـ مـنـ الـمـؤـرـخـينـ وـالـكـتـابـ وـكـلـ ماـ
هـنـالـكـ أـنـ نـورـ الدـينـ كـانـ يـتـطـلـعـ إـلـىـ مـصـرـ عـلـىـ أـنـهـاـ مـصـدـرـ لـلـوـارـدـاتـ وـسـدـ بـهـ نـفـقـاتـ الـجـهـادـ
ضـدـ الـصـلـيـبيـينـ فـيـ الشـامـ، وـأـنـهـاـ مـصـدـرـ لـلـطـاقـةـ الـبـشـرـيـةـ الـمـجـاهـدـةـ، وـكـانـ صـلاحـ الدـينـ أـكـثـرـ
عـرـفـةـ مـنـ نـورـ الدـينـ لـمـ يـجـريـ فـيـ مـصـرـ مـنـ أـخـطـارـ نـاجـمـةـ عـنـ اـسـتـعـدـادـ أـنـصـارـ الـفـاطـمـيـينـ
لـلـانـضـامـ إـلـىـ الـفـرنـجـ فـوـجـهـ اـهـتـامـهـ إـلـىـ بـنـاءـ جـيـشـ قـويـ، بـحـيثـ يـسـتـطـعـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ مـصـرـ،
وـرـأـيـ أـنـ ثـبـيـتـ كـيـانـ الدـوـلـةـ الـجـدـيـدةـ فـيـ مـصـرـ أـوـلـىـ مـنـ الـاـنـشـعـالـ بـمـسـائـلـ الشـامـ^(٤)، وـهـذـاـ يـتـفـقـ
مـعـ مـاـ قـالـ نـورـ الدـينـ لـلـرـسـوـلـ الـذـيـ بـعـثـهـ صـلاحـ الدـينـ يـعـتـذـرـ عـنـ مـوـقـفـهـ مـنـ حـصارـ الـكـرـكـ،
حـيـثـ قـالـ: حـفـظـ مـصـرـ أـهـمـ عـنـدـنـاـ مـنـ غـيرـهـ^(٥).

عاشرـاً: وـفـاةـ نـورـ الدـينـ مـحـمـودـ:

قالـ العـمـادـ الـأـصـفـهـانـيـ: وأـمـرـ نـورـ الدـينـ رـحـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ بـتـطـهـيرـ (ختـانـ) ولـدـهـ الـمـلـكـ
الـصـالـحـ إـسـمـاعـيلـ يـوـمـ عـيـدـ الـفـطـرـ، وـاحـتـفـلـنـاـ لـهـذـاـ الـأـمـرـ، وـغـلـقـتـ مـحـالـ دـمـشـقـ أـيـامـاـ.
قالـ: وـنـظـمـتـ لـلـهـنـاءـ بـالـعـيـدـ وـالـطـهـرـ قـصـيـدةـ مـنـهـاـ:

عـيـدانـ: فـطـرـ وـطـهـرـ
فـتـحـ قـرـيـبـ وـنـصـرـ
كـلـاـهـمـ الـلـكـ فـيـهـ
وـفـيهـمـ لـنـاـ مـسـتـمرـ
رـسـمـ لـنـاـ سـانـيـ

(١) السـلـوكـ (١/٥٥)، تـارـيـخـ مـصـرـ الـإـسـلـامـيـةـ صـ ٢٨.

(٢) كـتـابـ الـرـوـضـتـيـنـ نـقـلاـ عـنـ تـارـيـخـ مـصـرـ الـإـسـلـامـيـةـ صـ ٢٨.

(٣) تـارـيـخـ مـصـرـ الـإـسـلـامـيـةـ صـ ٢٨.

(٤) كـتـابـ الـرـوـضـتـيـنـ نـقـلاـ عـنـ تـارـيـخـ مـصـرـ الـإـسـلـامـيـةـ صـ ٢٨.

(٥) نـورـ الدـينـ زـنـكـيـ فـيـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبيـةـ صـ ١١٩ـ.

(٦) زـيـدةـ حـلـبـ (٢/٣٣٩ـ)، نـورـ الدـينـ زـنـكـيـ فـيـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبيـةـ صـ ١١٩ـ.

طهارة طباب منهـا أصل وفرع وذكر^(١)

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتمد محفوفاً من الله بالسعادة، مكتوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفراش قاضي العسكر، بعد أن صلّى به وذكّر، وعاد للقلعة، طالع البهجة بهيج الطلع، وأنه布 سماطه العام على رسم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقام والانتقام^(٢)... وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب وجمل الموكب.. ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود، وهو في الأكابر معنود، وكان قدّما في أوّل دولته وإلى حلب وقد جرب الدهر بحثكه.. فقال نور الدين في كلامه عظة لم يغتر بأيامه: هل تكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل تكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة، فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه، فاعتراضه في حاله أمير آخر اسمه يرثقي و قال له: ياش^(٣)، فأحدث له الغيط والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبة الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله، والناس من الختان لا هون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، مما انتهت تلك الأفراح إلا بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح^(٤). قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالقصد فامتنع، وكان مهياً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين^(٥)، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانق اعتبرته عجز الأطباء عن علاجها^(٦)، وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسة مئة، ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله، جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى^(٧). وكان رحمه الله حريراً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت

(١) (٢) (٣) كتاب الروضتين (٣٠٨/٢).

(٤) المصدر نفسه (٣٠٩/٢).

(٥) المصدر نفسه (٣١٣/٢).

(٦) المصدر نفسه (٣١٠/٢).

(٧) سير أعلام النبلاء (٥٣٢/٢٠).

للشهادة فلم أدركه، وقال الذي: نور الدين الشهيد^(١)، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

والسدهر في غمّم لفقد أميره
والشام حافظ ملكه وثغوره
إذ كان هذا الخطب في مقدوره
قرت نواطُرُهم بفقد نظيره
أو ما كفاه الموت في تذكيره
له طوعاً عن خلوصِ ضميره
فقد أصيب بركنه وظهيره
من للهـى يبغى فكاك أسيره
من للزمان مـهلاً لوعـره
من مـشرق في الدـاجيات بنوره
من للـيتيم ومن لـجـبرـكـسـيرـه
من للـجـهـادـ وـمـنـ لـحـفـظـ أـمـورـهـ
برـاحـهـ في غـزوـهـ وبـكـورـهـ
وـفـوـدـهـ، من لـلـحـجاـ وـوـفـورـهـ
يـخـبـسـوـ وـلـيلـ الشـرـكـ في دـيـجـورـهـ
يـخـلـوـ الشـئـرـىـ من زـورـهـ وـزـئـيرـهـ
عـنـ مـخـفـلـ مـتـشـرـفـ بـحـضـورـهـ
مـذـغـيـتـ غـاضـ النـئـىـ بـيـحـورـهـ
فـضـعـ العـلـامـةـ منـكـ في منـشـورـهـ
فـارـفعـ ظـلامـتـهـ بـنـصـرـ عـشـيرـهـ^(٢)
وـقـعـ لـهـ بـالـأـمـنـ مـنـ مـحـثـورـهـ
فـأـدـمـ لـهـ التـقـرـيـبـ في تـقـرـيـرـهـ

الـدـينـ في ظـلـمـ لـغـيـةـ نـورـهـ
فـلـيـنـدـبـ الـإـسـلـامـ حـامـيـ أـهـلـهـ
مـاـ أـعـظـمـ المـقـدـارـ في أـخـطـارـهـ
مـاـ أـكـثـرـ المـأـسـفـينـ لـفـقـدـ مـنـ
مـاـ أـغـوـصـ إـنـسـانـ في نـسـيـانـهـ
مـنـ لـمـسـاجـدـ وـمـدـارـسـ بـانـيـاـ
مـنـ يـنـصـرـ إـلـاسـلـامـ في غـزوـاتـهـ
مـنـ لـفـرـنـجـ وـمـنـ لـأـسـرـ مـلـوكـهـاـ
مـنـ لـلـخـطـوبـ مـذـلـلـاـ جـمـاـحـهـاـ
مـنـ كـاـشـفـ لـلـمـعـضـلـاتـ بـرـأـيـهـ
مـنـ لـلـكـرـيمـ وـمـنـ لـنـعـشـ عـثـارـهـ
مـنـ لـلـبـلـادـ وـمـنـ لـنـصـرـ جـيـوشـهـاـ
مـنـ لـلـفـتوـحـ حـمـاـلـاـ أـبـكـارـهـاـ
مـنـ لـلـعـلـاـ وـعـهـودـهـاـ، مـنـ لـلـنـدـىـ
مـاـ كـنـتـ أـحـسـبـ نـورـ دـيـنـ مـحـمـدـ
أـعـزـ عـلـيـ بـلـيـثـ غـابـ لـلـهـىـ
أـغـزـ عـلـيـ بـأـنـ أـرـاهـ مـغـيـباـ
لـهـفـيـ عـلـىـ تـلـكـ الـأـنـامـلـ إـنـهـاـ
وـلـقـدـ أـتـىـ مـنـ كـنـتـ ثـجـريـ رـسـمـهـ
وـلـقـدـ أـتـىـ مـنـ كـنـتـ تـكـشـفـ كـرـبـهـ
وـلـقـدـ أـتـىـ مـنـ كـنـتـ تـؤـمـنـ سـرـبـهـ
وـلـقـدـ أـتـىـ مـنـ كـنـتـ ثـؤـثـرـ قـرـبـهـ

(٢) كتاب الروضتين (٣٦٩/٢).

(١) سير أعلام النبلاء (٥٣٧/٢٠).

فاركـب لـبصـرـه أوان عـبـورـه
 وقضـت بـعـد وفـاتـه بـنـشـورـه
 هـو مـنـذ غـبـت مـعـرـضـه لـدـلـورـه
 حـتـى سـكـنـت اللـحـدـاـ في مـخـضـورـه
 إـرـوـاء بـيـضـه اـهـنـدـه مـنـ تـامـورـه^(١)
 عـقـرـ بـلـادـه وـسـبـيـتـه أـهـلـ قـصـورـه
 وـرـغـبـتـه في الـخـلـدـ المـقـيمـه وـحـورـه
 مـيـعـادـهـ في فـتـحـهـ وـظـهـورـهـ
 وـتـقـدـسـ السـرـحـنـ في تـطـهـيرـهـ^(٢)
 عـجـبـ نـهـوضـكـ بـحـمـلـ ثـبـيرـهـ
 مـنـ صـالـحـ الـأـعـمـالـ نـشـرـ عـبـيرـهـ
 مـسـتـجـمـعـينـ عـلـىـ شـفـيرـ حـفـيرـهـ
 هـلـاـ وـفـيـتـ وـسـرـتـ عـنـدـ مـسـيرـهـ
 وـسـقاـكـ مـنـهـلـ الـحـيـاـ بـدـرـورـهـ
 أـذـيـالـ سـنـدـسـ خـزـهـ وـحـرـيرـهـ
 حـلـفـ الـمـسـرـةـ ظـافـرـاـ بـأـجـورـهـ^(٣)

وبعد وفاة نور الدين حل راية الجهاد تلميذه الذكي وجنده المخلص صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتقها، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

واجـيـشـ قـدـ رـكـبـ الـعـدـاهـ لـعـرـضـهـ
 أـنـتـ الـذـيـ أـحـيـتـ شـرـعـ مـحـمـدـ
 كـمـ قـدـ أـقـمـتـ مـنـ الشـرـيـعـةـ مـعـلـمـاـ
 كـمـ قـدـ أـمـرـتـ بـجـفـرـ خـنـدقـ مـعـقـيلـ
 كـمـ قـيـصـرـ لـلـرـوـمـ رـمـتـ بـقـسـرـهـ
 أـوـتـيـتـ فـتـحـ حـصـونـهـ وـمـلـكـتـ
 أـزـهـدـتـ في دـارـ الـفـنـاءـ وـأـهـلـهـاـ
 أـوـمـاـ وـعـدـتـ الـقـدـسـ أـنـكـ مـنـجـزـ
 فـمـتـيـ تـجـيـرـ الـقـدـسـ مـنـ دـنـسـ العـدـيـ
 يـاـ حـامـلـيـنـ سـرـيرـهـ مـهـلاـ فـمـنـ
 يـاـ عـابـرـيـنـ بـنـعـشـهـ أـنـشـقـتـ
 نـزـلـتـ مـلـائـكـةـ السـمـاءـ لـدـفـنـهـ
 وـمـنـ الـجـفـاءـ لـهـ مـقـامـيـ بـعـدـهـ
 حـيـاكـ مـعـتـلـ الصـبـاـ بـنـسـيمـهـ
 وـلـبـسـتـ رـضـوـانـ الـمـهـيـمـنـ سـاحـيـاـ
 وـسـكـنـتـ عـلـيـيـنـ فيـ فـرـدـوـسـهـ

(١) التامور : النفس ومهجتها.

(٢) ثبير : من أعظم جبال مكة المكرمة.

(٣) كتاب الروضتين (٢٠/٥٣٧).

الخلاصة

- ١ - تولى حركة المقاومة ضد الصليبيين بعد وفاة عماد الدين ابنه نور الدين زنكي وقد تميزت شخصيته بجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته - بعد توفيق الله - على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها؛ الجدية والذكاء المتقد، الشعور بالمسؤولية، وقدرته على مواجهة المشاكل والأحداث، وزرعه للبناء والإعمار، وقوه الشخصية، ومحبة المسلمين له، والل spiele البدنية العالية، وتجده وزنه الكبير، وشجاعته الفائقة، ومفهومه للتوحيد، وتصرعه دعاؤه، ومحبته للجهاد والشهادة، وعبادته، وإنفاقه وكرمه.
- ٢ - اتخذ نور الدين محمود زنكي من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود الإربيلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته، ولقد آتت معلم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي وأهميته في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمـة في نهوض الأمة وتسليمها القيادة، فلتـجـارـبـ التـارـيـخـية دورـ كـبـيرـ فيـ تـطـوـيرـ الدـوـلـ وـتـجـدـيدـ مـعـانـيـ الإيمـانـ فـيـ الـأـمـةـ.
- ٣ - كانت أهم معلم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود، الحرص على تطبيق الشريعة، ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله، من التمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح المبين والعز والشرف وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.
- ٤ - اهتم نور الدين في بناء دولته بالعقيدة الصحيحة وكان أظهر ما في شخصيته هو إيمانه الإسلامي العميق وحرصه على صيغ دولته بمنهج أهل السنة، ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي، واتخذ خطوات سياسية واكتبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية مهمة، فاهتم بالمدارس السنية ودعمها بالمال والأوقاف واهتم بعلماء أهل السنة وشجعهم على الهجرة لدولته وفتح أبوابها، وكان لخريجي المدارس النظامية مكانة خاصة، فقد كانت لهم قدرة فائقة على الإحياء السني وقمع شبـهـاتـ الـمـبـدـعـةـ منـ الشـيـعـةـ الـرـافـضـةـ وكـشـفـ باـطـلـهـمـ بـأـسـلـوبـ عـلـمـيـ رـصـينـ.
- ٥ - لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي الرافضي والتمكين لذهب السنة، ولذلك كان يعني بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم. ونجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في

جبهة واحدة ووقفه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي.

٦ - دعم نور الدين التصوف السني وبنى لهم خوانق وربطوا واستفاد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء وفي الجهاد وكان يرحب بهم في بلاطه ويتوافق مع شيوخهم، واستطاع نور الدين أن يستفيد من التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية في بلاد الشام ومصر، واستفاد من هذه الطاقات الكامنة في الأمة ولم يعادها.

٧ - اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكان من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت وكان من الطبيعي أن يتهم بهم هذا الموقف المجانب للحق والعدل والصواب إلى الطعن في صحاح السنة، ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وعلومه كانت استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعنى الناس للجهاد وتحسي فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب jihad في سبيل الله.

٨ - من العوامل التي ساعدت نور الدين في نجاح برنامجه الإصلاحي، أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققه من نتائج، وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاته مهمة الدعاة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظميات، واستطاع نور الدين أن يوظف بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره، ويستعين بهم في دعم المذهب السني، وكانت شخصيته وصفاته التي تميز بها من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها.

٩ - كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المذهب الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في مقاومة الغزو الصليبي، ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر والعلم والثقافة والسياسة والقوة.

١٠ - كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني لأن أبرز ما كان يستخدمه الشيعة في الدعاة إلى مذهبهم هو التنديد بسلوك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظلائمهم، وكانت النعمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً؛ يستدرجون بهذا المحرمين والمسحوقين حتى يجدبواهم إلى صفوفهم، ويدخلوهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكته، وحسن سياساته في رعيته ثم بجهوده الفكرية الرائعة.

١١ - كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقتنى اسمه بالعدل وسمى بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصلبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويولد جيلاً مهارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، وقد سجل التاريخ أن نور الدين محمود ساد العدل في دولته وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم. ومن أبرز أعماله التجديدية إقامته للعدل، وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية وتحول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم تكن مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادي الحق والعدل وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة علياً لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر.

١٢ - لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضربة ولا مكسأً ولا عشراً إلا ورفعها جميعها من بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم ومضوا يتاجرون وجاءت الجبابات الشرعية بأضعاف ما كان يجيء من وجوه الحرام. يقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بما لهم في تحصيلها واكتسابها لما يرون أنه ينتهي من غايتها ومصيرها انتهاءها من أيديهم، وإذا ذهبت أموالهم في اكتسابها وتحصيلها، وانقضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبة، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، وتتسدأس أسواق العمran وتنتقض الأحوال ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرفهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنقض الدولة سريعاً.

١٣ - فهم نور الدين محمود أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوطات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع من ذلك بكثير. إنه بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تفتت وتضييع، ولذلك قدم العلماء على غيرهم في دولته وبذل لهم العطاء الجليل، واتصل بالمشهورين من علماء الأمة وأتى بهم إلى بلاده،

وجاهدوا معه ضد الصليبيين وقاموا بسفارات لدولته وتولوا مناصب رفيعة وأسهموا في تعليم وتربيبة الرعية.

١٤ - اهتم الملك العادل نور الدين محمود بالشوري فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة واستقرارها وأمنها، فقد كان له مجلس فقهاء يتالف من مثلي سائر المذاهب السنوية ورجال الإدارة والأمراء، يبحثون في أمور الإدارة والنوازل والميزانية، وكانت له مجالس شوري في القضايا العامة، وأخرى في القضايا المتخصصة، فقد مارس نور الدين زنكي الشوري على أسس صحيحة في دولته.

١٥ - إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طوال حياته دون غيره في المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتامية على عدد كبير من الرجال الأكفاء، فكان يختارهم بعناية فائقة، وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم.

١٦ - حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها ومارستها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية، وإلى شخصية نور الدين. فقد كان نور الدين زنكي تقيراً ورعاً، عده بعض المؤرخين بأنه أفضل من جاء بعد عمر بن عبد العزيز من الحكام، وكان يحافظ على صلاة الجمعة ويكثر من الصلاة من الليل عارفاً بمذهب أبي حنيفة ولكن دون تعصّب على أحد، فالماهاب عنده سواء ولا تعدو كونها مدارس في الفقه، وكان ذا تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش وأصبح بعضهم يقترب من مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين، ومن أمثلة ذلك وزير أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهزوري، ومن الطريف أن هذه القيادات كانت تتخير أسماءهم على نحو يوضح تعلقهم بالدين، في بينما البوذيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضـدـ الدـولـةـ، بـهـاءـ الدـولـةـ، صـمـصـانـ الدـولـةـ، أـمـاـ قـادـةـ هـذـهـ الدـولـةـ وـأـعـوـانـهـمـ وـعـالـمـلـوـنـ مـعـهـمـ فـيـخـتـارـوـنـ عـمـادـ الدـينـ، وـسـيـفـ الدـينـ، وـأـسـدـ الدـينـ وـنـجـمـ الدـينـ، وـصـلـاحـ الدـينـ، وـنـورـ الدـينـ. وـثـمـةـ مـلـاحـظـةـ أـخـرـىـ أـنـ تـعـلـقـ هـذـاـ الجـيـلـ بـالـدـيـنـ جـعـلـهـ يـحـرـصـونـ عـلـىـ الـجـهـادـ وـالـاسـتـشـهـادـ، فـإـذـاـ لمـ يـكـتـبـ لـهـمـ الـاستـشـهـادـ أـوـصـوـاـ بـدـفـنـهـمـ فـيـ مـدـافـنـ الـمـدـنـةـ الـمـنـوـرـةـ، كـمـاـ فـعـلـ الـوزـيرـ جـمـالـ الدـينـ الـمـوـصـلـيـ وـأـسـدـ الدـينـ شـيـرـكـوـهـ وـأـخـوـهـ نـجـمـ الدـينـ أـيـوبـ وـالـدـ صـلـاحـ الدـينـ.

١٧ - توالت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمان والعدل واحترام الحریات العامة، كحرية الرأي والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع، في الوقت الذي انتفت

جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت توارييخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام ومنه إلى يومنا هذا فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجihad يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وإنعام يسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف في بيت واحد.

١٨ - كانت خزائن دولة نور الدين تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرة على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي، وغيرها، فقد كانت مصادر دخل دولة نور الدين متعددة منها؛ نظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية، والغنائم وفاء الأسرى والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، والأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة، وأسهم استباب الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية للدولة، ومساهمة الأثرياء، ودعم الخليفة العباسي، و... إلخ.

١٩ - سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداءً من قضايا المسكن والمأكل وانتهاءً بقضايا الروح ومروراً بال حاجات الفكرية والصحية والعمارية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات والملاجيء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقنطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة، كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز لا أداة قسر واسترزاف.

٢٠ - اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم مكانة التعليم على الإطلاق، وقد كان المسجد - بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم - قاعدة مهمة في التربية والتعليم، ويرى العmad الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت، فأنا في على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً وأصلاح أحوال المسجد الأموي والمساجد في دولته بالتعمير المادي والمعنوي.

٢١ - اهتم نور الدين بمؤسسات المجتمع المدني، كالمدارس، والربط، والكتاتيب وأسهمت

تلك المؤسسات في تحقيق أهداف الدولة الزنكية وساند تلك المؤسسات حركة الأوقاف الواسعة التي استخدمها نور الدين لضمان استمرارية وديعومة تلك المؤسسات.

٤٢- لم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام وال حاجات القائمة. وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إتفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها، فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم جميع المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين، من الكبار والصغار والرجال والنساء. وعملت على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما عمدت الخطة الحكيمية على تعرية المذاهب المدamaة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشوعية، وأبانت عن خطورها وضررها على النفس والمجتمع والأمة وأنه لا خروج من المخنة ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقي الطاهرة في صورتها الأولى التي كان عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيبات فلسفية ومجادلات كلامية لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروجيها.

٤٣- بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتعرف على تعاليم الإسلام الصحيحة لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث تأخذ القسط الأولي من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية ونافسن فيه كبار المخاطذ والمحدثين، وكأن مثلاً رائعاً للأمانة والعدالة وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئات في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات والمحدثات والفقيريات والأديبات وال نحويات إلى غير ذلك من العلامات بالعلوم الأساسية الأخرى.

٤٤- شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصرياً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير من جاء بعدهم حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك وتدرис الطب في كثير من المستشفيات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر.

٤٥- ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي وبخاصة في ميداني

الدراسات التاريخية والجغرافية حيث بُرِزَ في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوّعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، وقد استخدم التاريخ في تقوية الجانب المعنوي لحركة المقاومة ضد الصليبيين، فقد وجد المختصون بهذا الفرع من العلوم في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن وتراث الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، ويعد الحافظ علي بن الحسن المعروف بابن عساكر من أكبر مؤرخي العهد الزنكي وكذلك العماد الأصفهاني وابن الأثير وابن القلansi.

٢٦- بُرِزَتْ شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في مناصرته لحركة المقاومة وتوحيد الجبهة الإسلامية وطلب نور الدين من ابن عساكر أن يجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة بالإسناد تحريراً للمجاهدين على القتال، فسارع ابن عساكر إلى امثال ما طلبها نور الدين وتم تعميم تلك الأحاديث على القادة والجنود، وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئة الأمة فكريأً ودينياً.

٢٧- من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحرب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين أسلّمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلاجوقى، وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، كما كان لعبد القادر الجيلاني جهود معتبرة في الدعوة الشعبية والإصلاح العام، فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين خصوصاً في القطاع الشعبي العريض وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فقد استطاع التأثير في المجتمع بدعوته ومواعظه وتركيته.

٢٨- عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقفي لأمر ٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ والمستجدي بالله ٥٥٥هـ - ٥٦٦هـ، والمستضيء بالله ٥٧٥-٥٦٦هـ وقد اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك جميع البقاع الإسلامية الأخرى، وقد ساعد على تعمق الخلافة العباسية بالتفوّذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين بن هبيرة، وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض. وقد أسلّمت مؤسسة الخلافة في دعم نور الدين محمود وحركة المقاومة للغزو الصليبي دينياً، واقتصادياً، وسياسياً. إلخ متوازياً ذلك الدعم مع الضغط الكبير لمعانٍ الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات جاهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها. وكان من أبرز قيادات

الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض عديدة منها، روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوعي، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله أسهمت في تقوية المقاومة للصليبيين وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة، وتحقيق التوازن العسكري ثم الفوز عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون، والعسكريون والعلماء الربانيون.

-٢٩- كان نور الدين محمود منذ توليه الحكم في الثلاثين من عمره واضح الرؤية والهدف حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعذبين وعلى رأسها بيت المقدس وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرب كل منها يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرر إمارة الراها التي تشكل تدخلاً في الأراضي الإسلامية، فتمكن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخوض الخطوة الثانية، لذلك وضع أساساً سياسة متكاملة تتضمن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً، وكان سببه إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية والنشاط الثقافي العلمي والتربوي الذي يخدم توحيد الصف والمهد.

-٣٠- استطاعت دمشق بدعم من نور الدين وسيف الدين زنكي من صد هجوم الحملة الصليبية الثانية، وقد ترتبت على فشل الحملة الصليبية الثانية مجموعة من النتائج منها: أجحت الغرب الأوروبي تجاه الامبراطورية البيزنطية، وأثرت على طبيعة الوجود الصليبي، وأوضحت عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية عن تغيير الواقع عام ١١٤٤هـ / ٥٣٩ م وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من هذه الساعة فصاعداً الإنماز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة للقدوم للمنطقة.

-٣١- حرص نور الدين على ضم دمشق وكانت خطته للاستيلاء على دمشق سلماً تقتضي العمل على ثلاثة محاور، فالمحور الأول؛ يتمثل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء.. والمحور الثاني: العمل على الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار والقضاة والعلماء وبعض قادة الجندي وقادة التنظيمات الشعبية، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب. والمحور

الثالث: أخذ نور الدين يراسل مجير الدين آبق ويستشيره في أمور المسلمين ويقترب إليه بالهدايا حتى اطمأن إليه ووشق به، ثم أخذ يوقع بينه وبين قادته وأمرائه، ونجحت المحاور الثلاثة وتم في النهاية ضم دمشق لجبهة المقاومة الإسلامية، وشكل هذا العمل نقطة تحول مهمة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود.

٣٢- عمل نور الدين على ضم القوى الإسلامية وعلى إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاء الشمالية، فاستطاع ضم شيزر عام ٥٥٢ هـ بعد الزلزال الذي أصابها، فجدد أسوارها ودخلت شيزر في دولة نور الدين، وضم بعلبك وانتزعها من الأسرة الجندلية الدرزية، وضم حران ومنيحة وفتح قلعة جعبر والموصى وتصالح مع سلاجقة الروم وحقق إلى حد كبير هدفه الاستراتيجي الأول وهو وحدة الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط.

٣٣- دخل نور الدين في صراع مع مملكة بيت المقدس واستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري وبالمفاوضات أحياناً أخرى. وقد أدركت الدولة النورية أن تجيش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والمحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ولتأمين حدود الدولة النورية، وإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلاً إلى ما هو أبعد في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

٣٤- امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي وحافظ على طاقاته وإنجازاته.

٣٥- تلخصت سياسة نور الدين تجاه إماراة الرها في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أمالكه، وظيفي أن ندرك أن دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إماراة أنطاكية مثلاً، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده.

٣٦- كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها

في حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغيير حاسم، وكان الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية ما دامت الامبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريرصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها.

٣٧ - كانت سياسة نور الدين تجاه إماراة طرابلس تمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها، ولم تحدث معارك كبرى في إماراة طرابلس كالتي حدثت في مواجهة أنطاكية، وما تجدر الإشارة إليه، أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري معارك كبيرة مثل يغري، وأتب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والمحصون مثل المنيطرة وانططوس، وغيرها، وكانت المعرك جميعها بربة ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية خاصة إمارتي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا سلاحاً متمدداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية والأمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه باءت بالفشل وأدى ذلك إلى عدم تملك الدولة النورية أية موانئ.

٣٨ - حرص نور الدين محمود على استمرار الصلات التجارية مع الدولة البيزنطية، فقد كانت سوقاً رائجة لمتجهات الشرق وكانت الدولة النورية طرفاً مهماً في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية.

٣٩ - حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحبيدها، وعزها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام وفي الاتجاه الجنوبي صوب الدولة الفاطمية.

٤٠ - تحالفت الدولة البيزنطية مع الصليبيين وببدأت حشودهم تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت خاوف نور الدين محمود، فكتب إلى ولادة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم ويعتهم على الاستعداد التيقظ والتأهب للجهاد والاستعداد للنكأية بين يظفرون منهم، وببدأت رسائل نور الدين تتعدد على معسكر الامبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير مع استعداده في الوقت للحرب وتواصل قدول الأمراء وولادة الأعمال بجنودهم، وكان على أهمية الاستعداد للجهاد.

٤١ - استهدف نور الدين العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس

وأنطاكية ضده وحتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال. واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية واستطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبي وهذا لم يأت بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادلة. فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقديرها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم والسلاجقة ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلة ضد الصليبيين ليست ضد البيزنطيين فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الامبراطور البيزنطي ضد السلاجقة وغيرها من الأمور، فقبل الامبراطور وانسحب الحلف الصليبي فأوقف الحملة وزال الخطر.

٤٢ - من أهم الدروس وال عبر والفوائد من سياسة نور الدين الخارجية، التفكير الاستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أولي الأمر، وشن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج، واعتماد الدين والمرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة، واهتم نور الدين بالاستراتيجية العسكرية وتظهر ملامحها في النقاط التالية، التركيز على النوعية والفاعلية، وإعلان الجهاد والتعبئة العامة للأمة، والتدريج في مواجهة العدو، وإنهاك العدو واستنزاف قواته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف والعمل التعرضي والخشدة، والمناورة، وحدة القيادة، وعنصر المفاجأة، والاستخبارات، والتقارب غير المباشر، والجاهزية القتالية.

٤٣ - ركز نور الدين على الحرب النفسية وأحسن استخدامها فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة، أو بمقاومة التوسيع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأمراء والأثرياء الذين كان همهم جمع الشروارات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحددة، هي: دين واحد وهو الإسلام السنّي، دولة واحدة لمحاربة الفرنجة من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة. وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبث هذه المبادئ بين صفوف الأمة فيتألف من العلماء والعباد والزهاد، فكان يتطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات في مختلف المناسبات. وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملزם قولهً وفعلاً بالمبادئ المذكورة،

وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة.

٤٤ - كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب ٥٤١ هـ، وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغير الموقف العسكري فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوق العسكري الإسلامي على الفرنجة واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين فقد حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثلت بشكل عام من ناحيتين: الأولى: إلحاق هزائم متكررة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة. الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية الحتملة.

٤٥ - كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، وقد استخدم نور الدين الدبلوماسية والاختراق الأمني، والدعوة لمذهب أهل السنة، وتوجت جهوده بإرسال الحملات العسكرية مستفيداً من قانون الفرصة الذي أتيح له.

٤٦ - تولى أسد الدين - ثم بعد وفاته صلاح الدين - منصب الوزارة عند الحاكم الفاطمي، واستطاع من خلال هذا المنصب أن يستميل قلوب الناس إليه، وبذل لهم من الأموال، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة واستطاع القضاء على مراكز القوة في الدولة.

٤٧ - نفذ صلاح الدين تعليمات وتوجيهات نور الدين زنكي بمصر وكانت من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية، وقد استفاد صلاح الدين من القاضي الفاضل في إعداد خطة محكمة ومدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، فعزل قضاة الشيعة، وألغى مجالس الدعوة، وأزال أصول المذهب الإسماعيلي وأبطل الأذان بمحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر، وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة ٥٦٥ هـ بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمراً عثمان وعلي، وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العااضد في الخطبة بكلام يتحمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العااضد لدينك، وولي القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني، فاستتاب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السننية وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العااضد فيلغى مخصصاته ويحرمها من المال والخيل والرقيق وينزع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجوم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطبة

نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يجد من نفوذهم شيئاً ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرق إقطاعاتهم عليهم، وانزوى العاضد في مخدعه فريسة للهم والمرض، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مواتية للقضاء على الدولة الفاطمية المختصرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقادوه وفقهاء السنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة، وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد وفي بداية سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالدرج في الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧ هـ حذف اسم العاضد من الخطبة وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله.

٤٨ - كان نور الدين محمود يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً استراتيجياً للقضاء على الوجود النصراوي، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط الازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فأتم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقاده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمية الرشيدة.

٤٩ - استخدم صلاح الدين أساليب عديدة للقضاء على الوجود الشيعي الرافضي بمصر منها؛ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، وإزالة هيبة قصر الخلافة الفاطمي، قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الباطني به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، حمو الرسوم الفاطمية وعملاتهم، التحفظ على أفراد البيت الفاطمي، إضعاف العاصمة الفاطمية، الاستمرار في ملاحقة بقایا التشیع في الشام واليمن ومصر.

٥٠ - توفي نور الدين يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسعة وستين وخمسة مئة ودفن بدمشق، وكان رحمة الله حريراً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها. وقال الذهبي: قد أدركها على فراشه، وعلى السنة الناس نور الدين الشهيد، وبعد وفاة نور الدين حل راية الجهاد تلميذه الفد صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أرسله وأتقنه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع

- فن الصراع الإسلامي الصليبي - السياسة الخارجية للدولة النورية، د. محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث الطبعة الأولى ١٩٩٨ م مصر.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد الذبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.
- البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- سياسة الخليفة الناصر ل الدين الله الداخلية، أحلام حسن مصطفى النقيب، كلية الآداب جامعة بغداد رسالة الماجستير عام ١٩٨٨ م.
- الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.
- الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية، محمد ضابع حسون الجبوري، كلية الآداب، جامعة بغداد عام ١٩٨٨ م رسالة ماجستير.
- نظام الوزارة في الدولة العباسية (العهدان البويمي والسلجوقي) د. محمد مسفر الزهراني، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- أخبار الدول المنقطعة للشيخ الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، أربيد الأردن.
- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.
- المتنظم لأبي الفرج عبد الرحمن علي بن محمد بن الجوزي دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
- المصباح المضيء في خلافة المستضيء، للإمام العلامة أبي الفرج عبد الرحمن علي الجوزي البكري الصديقي البغدادي، تحقيق د. ناجية عبد الله إبراهيم، شركة المطبوعات، بيروت لبنان.
- دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجية، عبد القادر أحد أبو صيفي، رسالة دكتوراه، معهد التاريخ العربي والترااث العلمي للدراسات العليا.
- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ / ١٩٨٦ م.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٨ م.
- العلاقات بين الشرق والغرب، د. محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الطبعة الأولى ١٩٩٩ / ٢٠٠٠ م.
- سنا البرق الشامي، للفتح البندي وهو اختصار للبرق الشامي، تحقيق فتحية البراوي، القاهرة.

- ١٨ - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، حيدرآباد الدكن ١٩٥١ م.
- ١٩ - زبدة حلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم ابن العديم، تحقيق سامي الدهان.
- ٢٠ - الرحلة لابن جبير، أبو الحسن محمد أحمد الكتاني الأندلسي، دار صادر، بيروت ١٩٦٤ م.
- ٢١ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، طبعة القاهرة ١٩٦٣ م.
- ٢٢ - دول الإسلام للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩ م.
- ٢٣ - تاريخ الزنكين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس، بيروت لبنان.
- ٢٤ - معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر ١٩٧٩ م.
- ٢٥ - عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي تحقيق أحد البيسومي؛ منشورات وزارة الثقافة بسوريا دمشق ١٩٩١ م.
- ٢٦ - تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس.
- ٢٧ - ذيل تاريخ دمشق، أبو يعلى حمزة ابن القلansi، تحقيق أميدروز، طبعة بيروت ١٩٠٨ م.
- ٢٨ - تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، ستيفن، نقله إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العربي.
- ٢٩ - دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، د. آسيا سليمان نقل، مكتبة العبيكان.
- ٣٠ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة.
- ٣١ - رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود.. سيرة مؤمن صادق، د. حسين مؤنس، الدار السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ السعودية.
- ٣٢ - موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، جمال محمد سالم خليفة، الجماهيرية الظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات، طرابلس ٢٠٠٠ م.
- ٣٣ - الدولة العباسية من التخلص عن سياسات الفتح إلى السقوط، نادية محمود مصطفى، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٣٤ - الكواكب الدرية في السيرة النورية، تقي الدين أحمد ابن قاضي شهبة، تحقيق: محمود زايد طبعة بيروت ١٩٧١ م.
- ٣٥ - الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العربي، طبعة القاهرة ١٣١٧ هـ.
- ٣٦ - الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحد أبو زيد، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب.
- ٣٧ - شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، د. محمد على الهرفي، ط ٣ مؤسسة الرسالة.
- ٣٨ - نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحد النويري، تحقيق سعيد عاشور، طبعة القاهرة.
- ٣٩ - البستان الجامع، للعماد الأصفهاني، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية.
- ٤٠ - من أجل فلسطين مواقف وعبر من التاريخ الإسلامي، حسين جرار، مؤسسة الزيتونة،الأردن.
- ٤١ - وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبدالله السمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة.
- ٤٢ - التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مؤنس عوض.

- ٤٣ - صلاح الدين الأيوبي، قدرى قلعي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان.
- ٤٤ - إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطيه، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية.
- ٤٥ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالى، دار الحديث القاهرة.
- ٤٦ - الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لعبد الله بن يوسف الفاسي، تحقيق د. سليمان الرفاعي، المدار الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى.
- ٤٧ - الحروب الصليبية مواقف وتحديات، سهيلة الحسيني، دار التوزيع والنشر الإسلامية.
- ٤٨ - الحروب الصليبية، سهيل زكار.
- ٤٩ - الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية، كلود كاين، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر القاهرة.
- ٥٠ - الحروب الصليبية، د. قاسم عبده.
- ٥١ - حروب الخليج الثانية وأثرها على العالم الإسلامي، عبد القادر أحد أبو صبني، رسالة ماجستير في الدراسات الدفاعية والاستراتيجية، إسلام أباد ١٩٩٢ م.
- ٥٢ - الدولة الفاطمية العبيدية، د. علي محمد الصلايبي، دار البيارق، عمانالأردن الطبعة الأولى.
- ٥٣ - الفرق بين الفرق، تاليف عبد القاهر بن طاهر البغدادي تحقيق: محمد محبي الدين عبد الحميد - طبعة دار المعرفة بيروت.
- ٥٤ - الملل والنحل، تأليف: محمد بن عبد الكريم الشهر ستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني - جمع: مصطفى البابي الحلبي بمصر (١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م).
- ٥٥ - الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى.
- ٥٦ - تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للشيخ الطاهر الزاوي مفتى الديار الليبية.
- ٥٧ - جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، د. إبراهيم التهامي.
- ٥٨ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود، طبع دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ٥٩ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تأليف ابن عذاري المراكشي: تحقيق ليفي بروفسال.
- ٦٠ - كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب.
- ٦١ - مدرسة الحديث بالقیروان، الحسین بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط. ١.
- ٦٢ - رياض النفوس في طبقات علماء القیروان وإفريقيا، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي - تحقيق بشير البکوش - طبع: دار الغرب الإسلامي (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).
- ٦٣ - أبید التاریخ نفسه، محمد العبدہ، المنتدى الإسلامي طبعة ١٤١١ هـ.
- ٦٤ - معالم الإيمان في معرفة أهل القیروان، تأليف عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدیباغ، تحقيق: إبراهيم سبوح - طبع مكتبة الخانجي مصر - الطبعة الثانية.
- ٦٥ - شجرة النور الزکیة في طبقات المالکیة، محمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي بيروت.
- ٦٦ - سنن الترمذی (الجامع الصھیح)، تأليف: محمد بن عیسی بن سورۃ الترمذی، تحقيق الشیخ احمد محمد شاکر - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ.

- ٦٧- كتاب الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، المعروف بـ«الخطط المقريزية»: بيروت دار صادر.
- ٦٨- نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، د. عبد الهادي محبوبة، الدار المصرية اللبنانية.
- ٦٩- طبقات الشافعية الكبرى، تأليف: تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الخلو، طبع مطبعة عيسى البابي وشركاؤه.
- ٧٠- رجال الفكر والدعوة، لأبي الحسن الندوبي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
- ٧١- الغزالى بين مادحيه وناديه، القرضاوى، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٧٢- الجehad من المجرة إلى الدعوة والدولة، د. محمد الرحمنى دار الطليعة - بيروت ط١.
- ٧٣- اتعاط الحنفأ بأخبار الأمة الفاطمية والخلفاء، تأليف تقى الدين أحمد بن علي المقريزى، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، طبع: دار الفكر العربي (١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م).
- ٧٤- الجهاد والتتجدد في عهد نور الدين وصلاح الدين، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر.
- ٧٥- مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية.
- ٧٦- التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، ابن شداد بهاء الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي القاهرة طبعة ١٩٩٤ م.
- ٧٧- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تأليف جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال.
- ٧٨- تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م.
- ٧٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.
- ٨٠- صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحيارى، دار الغرب الإسلامى.
- ٨١- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، د. محسن محمد حسين، مؤسسة الرسالة.
- ٨٢- تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د. محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية طبعة عام ١٩٩٨ م.
- ٨٣- تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان.
- ٨٤- هكذا ظهر جبل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان، دار القلم.
- ٨٥- تاريخ اليمن الإسلامي، د. محمد عبده السروري، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء ط٢.
- ٨٦- جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول، د. فرست مرعي، صنعاء، ٢٠٠٣، الطبعة الثانية المتبدى الجامعي.
- ٨٧- دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، تأليف السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية طبعة سنة ١٩٩٩ م.
- ٨٨- التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، عباس العزاوي، طبع ببغداد، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م.
- ٨٩- السلوك لمعرفة دول الملوك، تقى الدين أحد المقريزى، تحقيق مصطفى زيادة.
- ٩٠- وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، لابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق إحسان

- عباس، دار صادر بيروت.
- ٩١ إمارة حلب، محمد ضامن.
- ٩٢ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكار.
- ٩٣ دخول الترك الغز إلى الشام، مصطفى شاكر.
- ٩٤ بغية الطالب، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم.
- ٩٥ الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦ م.
- ٩٦ نور الدين والصلبيون، حسن جبشي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٨ م.
- ٩٧ الحياة العلمية في العهد الزنكى، د. إبراهيم بن محمد المزني، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.
- ٩٨ تاريخ دولة آل سلجوقي لعماد الدين الأصفهانى.
- ٩٩ العبر في خبر من غير للذهبي أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق صلاح الدين المنجد.
- ١٠٠ الاعتبار لابن منقد.
- ١٠١ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأبي العباس أحمد القلقشندى، القاهرة.
- ١٠٢ تاريخ المالك البحري، على إبراهيم حسن.
- ١٠٣ دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين، رشيد عبد الله الجميلي، بيروت، دار النهضة العربية.
- ١٠٤ أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الأولى.
- ١٠٥ واقع التربية الإسلامية في عهد نور الدين في بلاد الشام، محمود عقلة الرفاعي، رسالة ماجستير جامعة اليرموكالأردن.
- ١٠٦ تاريخ جزيرة ابن عمر منذ تأسيسها حتى الفتح العثماني، د. محمد يوسف غندور، دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان.
- ١٠٧ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، د. جودت الركابي، دار الفكر المعاصر، دمشق.
- ١٠٨ الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والماليك، د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- ١٠٩ محاضرات عن الحروب الصليبية، صالح أحد العلي.
- ١١٠ سلاجمقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين.
- ١١١ شعر الجهاد الصليبي، د. فؤاد حسين أبو الهيجاء، الطبعة الأولى ١٤٢٤ - ٢٠٠٤ م.
- ١١٢ الحروب الصليبية، العربي.
- ١١٣ نور الدين محمود الرجل والتجربة، د. عماد الدين خليل، دار القلم دمشق - بيروت - ط١.
- ١١٤ الحركة السنوسية، د. علي محمد الصلايبي، دار المعرفة - بيروت - لبنان.
- ١١٥ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلايبي، دار المعرفة، لبنان.
- ١١٦ صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد الباقى، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان ط٢.
- ١١٧ من أخلاق النصر في جبل الصحابة، الدكتور السيد محمد نوح، دار ابن حزم، ط١.

- ١١٨ - ديوان ابن منير الطراطليسي، جمعه وقدم له دكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية صيدا - بيروت.
- ١١٩ - مقومات النصر في ضوء القرآن والستة، د. أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ١٢٠ - المستدرک على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله النسابوري بذيله التخلص للذهبي دار الفكر.
- ١٢١ - الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والستة، اللواء الدكتور فيصل بن جعفر بن عبدالله بالي، مكتبة التوبة، الرياض طبعة أولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- ١٢٢ - تاريخ دمشق الكبير، للإمام الحافظ المؤرخ ثقة الدين أبو القاسم علي بن عساكر، دار إحياء التراث لبنان، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.
- ١٢٣ - الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، لأبي حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقى اليلورنو، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ١٢٤ - الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد الدمشقى، نشر وتحقيق جعفر الحسين - مطبعة الترقى ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م.
- ١٢٥ - الموطأ للإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة).
- ١٢٦ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبي نعيم الأصبهاني ت ٤٣٠ هـ، دار الفكر بيروت.
- ١٢٧ - الجامع الصغير للسيوطى.
- ١٢٨ - معوقات الجهاد في العصر الحاضر، د. عبد الله بن قريح العقال، مكتبة الرشد، الرياض.
- ١٢٩ - مختصر صحيح مسلم للمتنذري.
- ١٣٠ - دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس، دار جهينة، الأردن عمان ط ١.
- ١٣١ - عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي، د. عدنان الحارثي، زهراء الشرق.
- ١٣٢ - المقدمة لابن خلدون.
- ١٣٣ - الإسلام والوعي الحضاري، أكرم ضياء العمري، دار المنارة، جدة، السعودية، ط ١.
- ١٣٤ - أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوى، مكتبة وهبة، القاهرة.
- ١٣٥ - الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، مرعي يوسف، دار الفرقان، دار الرسالة.
- ١٣٦ - سورة يوسف دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان -الأردن، الطبعة الأولى.
- ١٣٧ - مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، الدكتور عبد الله بن سعيد الغامدي ١٤١٤ هـ.
- ١٣٨ - جيش مصر أيام صلاح الدين، نظير حسان سعداوي، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.
- ١٣٩ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عاشور، دار النهضة بيروت، لبنان.
- ١٤٠ - القبة الخضراء ومحاولات سرقة الجسد الشريف، محمد علي قطب، الطبعة الأولى، القاهرة.
- ١٤١ - القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره في التخطيط في دولة صلاح الدين

- وفتوحاته، هادية دجاني شكيل.
- ١٤٢ - الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.
 - ١٤٣ - اقتصاديات الحرب في الإسلام، د. غازي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى.
 - ١٤٤ - عمر بن الخطاب للصلابي، دار ابن كثير دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة.
 - ١٤٥ - سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، عبدالله جمعان السعدي، مكتبة المدارس، الدوحة قطر، الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.
 - ١٤٦ - الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان.
 - ١٤٧ - الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي، تحقيق الشوربجي.
 - ١٤٨ - مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق.
 - ١٤٩ - صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد، دار البشير، مصر.
 - ١٥٠ - الدر المختار في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي، نشر يوسف ابن إلیاس سركیس، دمشق، دار الكتاب العربي.
 - ١٥١ - نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل بن حسين الغزى المطبعة المارونية .
 - ١٥٢ - أحياء حلب وأسواقها، خير الدين الأسدی، تحقيق وتقديم عبد الفتاح روأس قلعة جي - دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨٤ م.
 - ١٥٣ - تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، الطبعة الثانية، بيروت، دار الرائد العربي.
 - ١٥٤ - تاريخ التربية الإسلامية، أحمد شلي، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
 - ١٥٥ - القلائد الجوهريه في تاريخ الصلاحية، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدمشقي ابن طولون، تحقيق محمد أحمد دهمان - دمشق، نشر مكتب الدراسات الإسلامية.
 - ١٥٦ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد.
 - ١٥٧ - معید النعم ومیید النعم، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافی، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م.
 - ١٥٨ - تاريخنا المفترى عليه، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق.
 - ١٥٩ - من رواي حضارتنا، د. مصطفى السباعي.
 - ١٦٠ - لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى، د. مجاهد بن محمد الدين بن صلاح الدين، ط١.
 - ١٦١ - مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربع، ابن الحاج أبو عبد الله بن محمد الفاسي المالكي، مطبعة الحلبي.
 - ١٦٢ - التربية والتعليم في الإسلام، محمد أسعد طلس بيروت، دار العلم للملايين.
 - ١٦٣ - تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والتعلم، ابن جماعة، بيروت دار الكتب العلمية.
 - ١٦٤ - الجوواهر المضيّة في طبقات الحنفية، محيى الدين أبو محمد عبد القادر الحنفي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٧٨ م.
 - ١٦٥ - أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، تحقيق مصطفى السقا، بيروت دار الكتب العلمية.

- ١٦٦ - التاريخ والمؤرخون العرب، شاكر مصطفى، الطبعة الثانية، دار العلم للملائين، بيروت.
- ١٦٧ - تاريخ الأدب المغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم لكراتوكوفسكي، القاهرة ١٩٦١ م.
- ١٦٨ - تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، قدربي طوقان، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار القلم.
- ١٦٩ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد مصطفى طاش كبرى زاده، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ١٧٠ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم ابن أبي أصبيعة، شرح وتحقيق: نزار رضا - بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٣٨٥ هـ.
- ١٧١ - المختارات في الطب، أبو الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند ١٩٤٣ م.
- ١٧٢ - موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق، د. طلال بن سعود الدعجاني.
- ١٧٣ - صحيح ابن حبان، محمد بن حبان البستي.
- ١٧٤ - ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، د. أحمد عبد الكرييم حلوانى، دار الفداء، سوريا.
- ١٧٥ - سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الفكر - بيروت ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.
- ١٧٦ - سنن سعيد بن منصور.
- ١٧٧ - الجروحين من المحدثين والضعفاء والمتزوكين، محمد بن حبان البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ.
- ١٧٨ - التاريخ الكبير محمد بن إسماعيل البخاري.
- ١٧٩ - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، علي بن يوسف الشاطئي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- ١٨٠ - فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.
- ١٨١ - مسائل الإمام أحمد لابن هانى، تحقيق الشاويش.
- ١٨٢ - التعريفات للجرجاني، علي بن محمد الشريف، بيروت، مكتبة لبنان.
- ١٨٣ - مدارج السالكين لابن القيم الجوزية.
- ١٨٤ - السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني.
- ١٨٥ - العراق بين احتلالين، عباس العزاوي، بغداد، ١٣٦٩ - ١٩٤٩ م.
- ١٨٦ - روضات الجنان، للخوانساري محمد بن جعفر، تحقيق أسد الله إسماعيليان، طهران ١٣٩٢ هـ.
- ١٨٧ - السنة النبوية في القرن السادس المجري، د. محمود إبراهيم الديك، الطبعة الأولى.
- ١٨٨ - جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف، د. محمد بن عزوز، دار الفكر، الطبعة الأولى جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ غورز (يوليو) ٢٠٠٤ م.
- ١٨٩ - قضاء الشام المسمى «الثغر البسام فيمن ولّ قضاء الشام»، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الأولى، المجمع العلمي العربي دمشق ١٩٥٦ م).
- ١٩٠ - تراجم النساء من تاريخ دمشق، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

فهرس الكتاب

المقدمة

٥	المقدمة
الفصل الأول		
عهد نور الدين زنكي وسياسته الداخلية		
١٧	المبحث الأول: اسمه ونسبه وأسرته وتوليه الحكم
١٨	أولاً: انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل عماد الدين زنكي
٢٠	ثانياً: ترتيب أوضاع البيت الزنكي
٢٦	المبحث الثاني: أهم صفات نور الدين زنكي
٢٦	أولاً: الجدية والذكاء المتفرد
٢٨	ثانياً: الشعور بالمسؤولية
٣٠	ثالثاً: قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث
٣١	رابعاً: نزعته للبناء والإعمار
٣٣	خامساً: قوة الشخصية
٣٤	سادساً: محبة المسلمين له
٣٦	سابعاً: اللياقة البدنية العالية
٣٩	ثامناً: تخرجه وزهرده الكبير
٤٣	تاسعاً: شجاعته
٤٥	عاشرأً: مفهومه للتوحيد وتصرعه ودعاؤه
٤٧	الحادي عشر: محبته للجهاد والشهادة
٤٩	الثاني عشر: عبادته
٥٠	الثالث عشر: إنفاقه وكرمه
٥٧	المبحث الثالث: أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين
٥٨	أولاً: الحرص على تطبيق الشريعة
٦٣	ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة
٦٤	١ - جهود نور الدين في حلب
٦٩	٢ - جهود نور الدين في الإحياء السنّي في دمشق
٧٢	٣ - دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السنّي
٧٥	٤ - عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي
٧٧	ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي

٧٨	١- دار العدل أو المحكمة العليا.....
٨٠	٢- استجابته للقضاء.....
٨١	٣- لا عقوبة على الظنة والتهمة
٨١	٤- من عدله بعد موته.....
٨١	٥- رقبي دقique لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى
٨٢	٦- رجال القضاء في دولة نور الدين.....
٨٤	٧- رفع الضرائب والمكوس
٨٧	٨- ما قيل من الشعر في عدله.....
٩٠	رابعاً: مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود.....
١٠١	خامساً: الشورى في دولة نور الدين محمود.....
١٠٢	١- الشورى في القضايا العامة
١٠٣	٢- مجالس متخصصة
١٠٤	٣- فراسته في معرفة العلماء
١٠٧	المبحث الرابع: النظام الإداري عند نور الدين
١٠٧	أولاً: حسن اختياره للرجال.....
١٠٧	١- أسد الدين شيركوه وبنو أيوب
١٠٩	٢- مجذ الدين ابن الداية وإنخوته
١١٠	٣- العماد الأصفهاني
١١١	٤- خالد بن محمد القيسراني.....
١١٢	٥- محمد العمادي
١١٢	٦- الشيخ الأمير مخلص الدين أبو البركات
١١٢	٧- أبو سالم بن همام الحلبي.....
١٢٢	ثانياً: أهم الإدارات والوظائف في دولة نور الدين
		ثالثاً: صبغ الإدارة الزنكيّة بالصبغة الإسلامية وتكامل القيادات السياسية والفكريّة
١١٦	المبحث الخامس: النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية
١٢١	أولاً: مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية
١٢١	ثانياً: سياسة الإنفاق في الخدمات الاجتماعية.....
١٤١	المبحث السادس: أهمية التربية والتعليم في النهوض الحضاري
١٧٧	

١٨٠	أولاً: فئات المدرسين في الدولة الزنكية
١٨٢	ثانياً: فئات الطالب
١٨٨	ثالثاً: ميادين العلوم في العهد الزنكي
١٨٩	١- العلوم الشرعية
١٩٦	٢- العلوم التاريخية والجغرافية
٢٠٠	٣- علوم الرياضيات والفلك
٢٠٢	٤- علوم الطب والصيدلة
٢٠٤	رابعاً: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين
٢٠٦	١- مساندته الفكرية والعقائدية لنور الدين محمود
٢٠٨	٢- تأليف ابن عساكر فضائل المدن
٢١٠	٣- ابن عساكر يحيى نور الدين على مواصلة الجهاد
٢١٢	٤- وفاة ابن عساكر

الفصل الثاني

سياسة نور الدين الخارجية

٢١٣	المبحث الأول: علاقته مع الخلافة العباسية
٢١٣	أولاً: الخليفة المقتفي لأمر الله
٢١٤	١- سياساته الحكيمية
٢١٥	٢- وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله
٢١٥	ثانياً: الوزير يحيى بن هبيرة
٢١٦	١- سعيه لتنمية مؤسسة الخلافة
٢١٦	٢- خوفه من ظلم العباد
٢١٧	٣- جهوده في خدمة العلم والعلماء
٢١٩	٤- تواصله مع نور الدين زنكي
٢١٩	٥- وفاته وهو ساجد
٢٢٠	ثالثاً: الخليفة المستتجد بالله
٢٢١	رابعاً: الخليفة المستضيء بالله
٢٢٢	خامساً: تعاون نور الدين محمود مع الخلفاء العباسيين
٢٢٣	١- الصعيد السياسي
٢٢٣	٢- الصعيد العسكري

٢٦٦	٣- الصعيد الاقتصادي
٢٢٧	٤- الصعيد الثقافي والمذهبي
٢٢٩	المبحث الثاني: تصدي نور الدين للحملة الصليبية الثانية وسياسة في ضم دمشق
٢٢٩	أولاً: القضاء على تمرد ثورة الراهاين
٢٣٣	ثانياً: الحملة الصليبية الثانية
٢٤١	ثالثاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية
٢٤٣	رابعاً: سياسة نور الدين محمود في ضم دمشق
٢٤٧	خامساً: أهم نتائج ضم دمشق
		المبحث الثالث: العلاقات مع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة
٢٥٠	والأناضول.....
٢٥٠	أولاً: الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية في بلاد الشام
٢٥٠	١- العلاقة مع شيزر
٢٥١	٢- الأسرة الجندلية في بعلبك
٢٥٢	٣- ضم حرّان
٢٥٣	٤- منبج
٢٥٤	٥- فتح قلعة جعبر
٢٥٦	ثانياً: ضم الموصل
٢٥٩	١- رؤيا نور الدين لرسول الله ﷺ في الموصل
٢٥٩	٢- بشري لنور الدين من رسول الله
٢٦٠	٣- رؤيا نور الدين المتعلقة بالقبر الشريف
٢٦١	ثالثاً: سياسة نور الدين مع سلاجقة الروم
		المبحث الرابع: سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية
٢٦٤	أولاً: العلاقات مع مملكة بيت المقدس
٢٦٦	١- المشكلة الخورانية.....
٢٦٧	٢- الحملة الصليبية الثانية
٢٦٧	٣- سقوط عسقلان
٢٦٩	٤- معركة بانياس
٢٧٠	٥- اتفاقيات وهدنة قصيرة
٢٧٣	٦- الرصيد الأخلاقي في قتال نور الدين للأعداء

٢٧٤	ثانياً: العلاقات مع الإمارات الصليبية.....
١	إمارة الرها.....	١- إمارة الرها.....
٢	إمارة أنطاكية	٢- إمارة أنطاكية
٣	إمارة طرابلس	٣- إمارة طرابلس
٢٨٦	ثالثاً: العلاقات النورية - البيزنطية
٢٨٨	١- تجديد التحالف بين مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية
٢٨٨	٢- مانويل يغزو كيلكية.....
٢٨٩	٣- مانويل في أنطاكية.....
٢٩٠	٤- مانويل في بلاد الشام.....
٢٩٢	رابعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد
٣١٤	المبحث الخامس: فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية
٣١٤	أولاً: جذور الشيعة الإمامية والدولة الفاطمية
٣١٤	١- عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول
٣١٥	٢- من جرائم العبيدين في الشمال الإفريقي
٣٢٠	٣- أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية
٣٢٧	٤- المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر.....
٣٢٨	٥- زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا.....
٣٣٠	٦- جهود السلاجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني
٣٣٢	٧- المدارس النظامية ودورها في الإحياء السنفي والتصدي للفكر الشيعي الرافضي
٣٣٥	ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر
٣٣٩	١- دوافع فتح مصر عند نور الدين
٣٤٠	٢- الحملة النورية الأولى ٥٥٩ هـ.....
٣٤٢	٣- حملة عموري الثانية على مصر
٣٤٤	٤- الحملة النورية الثانية ٥٦٢ هـ.....
٣٤٨	٥- الحملة النورية الثالثة على مصر عام ٥٦٤ هـ.....
٣٥١	ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي ألغزها
٣٥١	١- مؤامرة مؤمن الخليفة
٣٥٢	٢- وقعة السودان.....
٣٥٣	٣- القضاء على الأرمي

٣٥٣	٤- اهتمام صلاح الدين بتقوية جيشه
٣٥٤	رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية وحصار دمياط
٣٥٥	١- أسباب فشل الحملة على دمياط
٣٥٧	٢- نتائج الحملة على دمياط
٣٥٨	٣- وصول نجم الدين أيوب إلى مصر
٣٦٠	خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية
٣٦١	١- التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي
٣٦٢	٢- وفاة العاضد
٣٦٢	٣- فرح المسلمين بزوال الدولة الفاطمية
٣٦٣	٤- اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر
٣٦٤	سادساً: القضاء على محاولة انقلابية وإعادة الدولة الفاطمية
٣٦٩	١- عمارة بن علي اليمني الشاعر
٣٧٠	٢- حصار الإسكندرية
٣٧٢	سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب الفاطمي وتراثه
٣٧٧	ثامناً: فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي
٣٨٧	١- جهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين
٣٨١	٢- ضم المغرب الأدنى
٣٨١	٣- ضم اليمن
٣٨٢	٤- فتح بلاد النوبة
٣٨٢	تاسعاً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين
٣٨٧	عاشرأً: وفاة نور الدين محمود
٣٩٠	- الخلاصة
٤٠٣	- أهم المصادر والمراجع
٤١١	- فهرس الكتاب

* * *